تهذيب التفسير وتجريد التأويل
مما ألحق به من الأباطيل ورديء الأقاويل

تأليف

عبد القادر بن شيبة الحمد

عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة سابقاً والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

الجزء الرابع

مكتبة المعارف للنشر والتوزيع
الرياض

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

مكتبة المعارف للنشر والتوزيع
هاتف: ٤١١٤٥٣٥ - ٤١١٣٣٥٠
فاكس ٤١١٢٩٣٢ - برقياً دفتر
ص.ب: ٣٢٨١ الرياض الرمز البريدي ١١٤٧١
سجل تجاري ٦٣١٣ الرياض

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ فِى يَتَامَى النِّسَاءِ الَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً.﴾

قد ذكرت في مطلع تفسير هذه السورة الكريمة أنها سميت سورة النساء لأن الله تعالى شرع فيها قواعد صيانة حقوق النساء، وأخرجهن من رق الجاهلية إلى حرية الإسلام ورفعهن من أعماق المهانة والاستكانة إلى حيث استنشقن عبير العزة والكرامة، وجعل لهن نصيبا من الميراث بعد أن كن نصيبا من الميراث، وفرض الله لهن على الأزواج مهراً جعله حقا خالصا للمرأة تتصرف فيه كيف تشاء، وحرَّم على الرجال عضلهن في أحكام كثيرة تميزت بها المرأة في الإسلام، وقد صدَّر الله تبارك وتعالى هذه السورة الكريمة بأمر جميع المكلفين بتقوى الله عز وجل الذي خلقهم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء وأشار إلى تأكيد حق الأرحام ووجوب الإحسان إليهم، وبعد أن ساق في تقرير حقوق النساء نحو خمس وثلاثين آية من صدر هذه السورة المباركة، ونبه أثناء ذلك إلى وجوب رعاية حقوق اليتامى عامة وحقوق يتامى النساء بخاصة، ثم أمر عز وجل بعبادته وحده لا شريك له وبوجوب الإحسان للوالدين ولذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب الجنب وابن السبيل، وما ملكت يمين الإنسان، ونهى عن الاختيال والفخر والبخل والرياء والكفر بالله واليوم الآخر، وحض على وجوب طاعة رسول الله ﷺ وضرورة الاحتكام إلى شريعته، وأشار إلى منزلته ﷺ عند ربه، وبيَّن ما تفضل الله به على عباده من تيسير التشريع، وندَّد بمن يعادي رسول الله ﷺ من المنافقين واليهود وسائر

الكفرة، وفضح مواقفهم المخزية لهم في الدنيا والآخرة وحرَّض المسلمين على قتال أعداء الله حتى تكون كلمة الله هي العليا، وشرع لهم صلاة السفر وصلاة الخوف ثم شرح لهم خطوات الشيطان التي يضل بها من ينقاد له حتى يحذرها المسلمون وختم ذلك ببيان الدين الحق الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، ولما كان بعض المسلمين من شدة حرصهم على صيانة حقوق النساء واليتامى وخوفهم من الله عز وجل أن يقصروا في هذه الحقوق صاروا يسألون رسول الله ﷺ مزيداً من البيان عن حقوق النساء واليتامى فأنزل الله عز وجل هنا قوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النساءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لهن وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الوِلْدَانِ وأَنْ تَقُومُوا لليتامَى بِالْقِسْطِ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ الله كَانَ به عَلِيماً.﴾ وقد أخرج البخاري في الشركة في باب شركة اليتيم وأهل الميراث ومسلمٌ واللفظ لمسلم من طريق يونس عن ابن شهاب أخبرني عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله: ﴿وإنْ خِفْتُمْ أن لا تُقْسِطُوا في اليتامى فَانْكِحُوا ما طاب لكم من النساء مَثْنَى وثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾ قالت يا ابن أختي هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله فيعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، قال عروة: قالت عائشة ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله عز وجل: ﴿ويَسْتَفْتُونَكَ في النساء قل اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وما يُتْلَى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أن تَنْكِحُوهُنَّ﴾ قالت: والذي ذكر الله تعالى أنه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قال الله فيها: ﴿وإنْ خِفْتُمْ ألا تُقْسِطُوا في

اليتامى فَانْكِحُوا ما طاب لكم من النساء﴾ قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ رغبة أحدكم عن اليتيمة التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن. ثم ساق مسلم من طريق أبي صالح عن ابن شهاب أخبرني عروة أنه سأل عائشة عن قول الله: ﴿وإن خفتم ألاَّ تُقْسِطُوا في اليتامى﴾ قال مسلم: وساق الحديث بمثل حديث يونس عن الزهري وزاد في آخره: من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال، ثم ساق مسلم من طريق أبي أسامة حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة في قوله: ﴿وإن خِفْتُم ألاَّ تُقْسِطُوا في اليتامَى﴾ قالت: أنزلت في الرجل تكون له اليتيمة وهو وليها ووارثها ولها مال، وليس لها أحد يخاصم دونها، فلا ينكحها لما لها فيضُرُّ بها ويسيء صحبتها، فقال: إن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء، يقول: ما أحللت لكم، ودع هذه التي تضرُّ بها. ثم ساق مسلم من طريق عبدة بن سليمان عن هشام عن أبيه عن عائشة في قوله: ﴿وَمَا يُتْلَى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللَّاتي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لهن وتَرْغَبُونَ أن تنكحوهن﴾ قالت: أنزلت في اليتيمة تكون عند الرجل فتشركه في ماله فيرغب عنها أن يتزوجها ويكره أن يزوجها غيره فيشركه في ماله، فيعضلها، فلا يتزوجها ولا يزوجها غيره. حدثنا أبو كريب حدثنا أبو أسامة أخبرنا هشام عن أبيه عن عائشة في قوله: ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن﴾ الآية، قالت: هي اليتيمة التي تكون عند الرجل لعلها أن تكون قد شركته في ماله حتى في العذق، فيرغب عن أن يَنكحها ويكره أن يُنكحها رجلاً فيشركه في ماله فيعضلها اهـ وقد قال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه: باب قوله: ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وما يتلى عليكم في الكتاب في

يَتَامَى النساء﴾ حدثنا عبيد بن إسماعيل حدثنا أبو أسامة حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكُمْ فِيهِنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ قالت: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها فتشركه في ماله حتى في العذق فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوِّجها رجلاً فيشركه في ماله بما شركته فيعضلها، فنزلت هذه الآية اهـ وأصل الاستفتاء في اللغة هو السؤال عن أمر أو عن حكم مسألة وهذا السائل يسمى المستفتي والمسئول الذي يجيب: هو المفتى وقيامه بالجواب هو الإفتاء وما يجيب به يسمى الفتوى بفتح الفاء والفتيا بضم الفاء وفي إسناد الإفتاء في هذه الآية الكريمة إلى الله تبارك وتعالى إشعار بخطورة منصب الإفتاء وجلالته ولذلك قيل في الفتوى إنها توقيع عن الله تبارك وتعالى، والمعلوم عند أهل العلم أنه لا يحل لمسلم أن يُسمى الله تبارك وتعالى باسم أو يصفه بصفة إلا بما سمى الله عز وجل به نفسه أو وصف به ذاته المقدسة من الأسماء والصفات أو أخبر بذلك عنه رسوله ﷺ، فأسماء الله عز وجل وصفاته إنما تطلق إذا ثبتت عن الله عز وجل أو عن رسوله ﷺ، ولله الأسماء الحسنى؛ ومعنى قوله عز وجل: ﴿قل الله يُفْتيكم فيهن﴾ أي قل يامحمد للمستفتين في النساء: الله عز وجل يبيِّن لكم ما تسألون عنه من أحكام النساء، وقوله عز وجل: ﴿وما يُتْلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونَهُنَّ ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الوِلْدَانِ﴾ إحالة إلى الآية الثالثة من هذه السورة الكريمة وهي قوله عز وجل: ﴿وإن خفتُمْ ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثُلَاث ورباع﴾ وما بعدها مما بيَّن الله عز وجل فيه حقوق يتامى الإناث ويتامى الذكور في هذه السورة وفي غيرها مما نزل من القرآن الكريم قبل هذه الآية، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿والمستضعفين من الوِلْدان﴾ تنفير من ظلم

اليتامى وحضّ على الإحسان إليهم بسبب ضعفهم وعجزهم عن مقاومة من يريد ظلمهم، وقد شدد الله تبارك وتعالى النكير على من ظلمهم وتوعد ظالميهم بعذاب النار حيث قال تبارك وتعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ تأكيدٌ لوجوب المحافظة على حقوق اليتامى والعدل في معاملتهم سواء كانوا ذكوراً أو إناثا، كما قال عز وجل: ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خيرٌ وإن تخالطوهم فإخوانكم، والله يعلم المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ﴾ ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿وما تَفْعَلُوا مِن خير فإنَّ الله كان به عليما.﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ومهما يكن منكم أيها المؤمنون من عدل في أموال اليتامى، التي أمركم الله أن تقوموا فيهم بالقسط والانتهاء إلى أمر الله في ذلك وفي غيره وإلى طاعته ﴿فإنَّ الله كان به عليما.﴾ لم يزل عالما بما هو كائنٌ منكم، وهو مُحْصٍ ذلك كله عليكم، حافظٌ له، حتى يجازيكم به جزاءكم يوم القيامة اهـ ولاشك أن تذييل هذه الآية الكريمة بهذا التذييل هو تهييج وحضّ على المسارعة والمبادرة إلى فعل الخيرات والمبرات لليتامى وغيرهم للفوز في الجنان بأعلى الدرجات.

قــال تعالى : ﴿وَإِنِ امْـرَأَةٌ خَافَتْ من بَعْلِهَـا نُشُـوزًا أَوْ إِعْرَاضًـا فَلا جُنَـاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًـا ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ، وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ، وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ الله كان بما تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ المَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ، وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كانَ غَفُورًا رَحِيماً . ﴾

بعد أن أجاب الله تبارك وتعالى المستفتين رسول الله ﷺ في شئون النساء عما سألوا عنه وفوق ما سألوا عنه حيث زادهم وصيةً بحقوق يتامى النساء خاصة واليتامى عـامةً شرع هنـا يبين لهم مزيـدًا من الأحكام التي تُـربِّي في نفوسهم حسن العشرة الـزوجية ، ووجـوب الإمسـاك بالمعـروف أو التسريح بإحسـان حيث يقول عـز وجل : ﴿وإن امرأةٌ خـافت من بَعْلِهَا نشـوزا أو إعراضـا فلا جُنَاح عليهما أن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًـا﴾ الآيات إلى قوله : ﴿وكـان اللهُ وَاسِعًا حكيما . ﴾ وظاهـر هذا السياق الكريـم يشعر أن المرأة في هذا المقام حـريصة على بقاء الحياة الزوجية راغبةٌ في زوجها لكنها تخشى أن يفارقها إما لكبر سنها أو لغير ذلك ، كما حـدث لسودة بنـت زمعة أم المؤمنين رضي الله عنهـا حين تقدم بها السنُّ وخافت أن يفارقهـا رسول الله ﷺ وهي حريصةٌ على أن تموت وهي في عصمة رسول الله ﷺ رجاء أن تبعث في نسـائه يوم القيامة لتكون مع رسول ﷺ في منزله في الجنة وقـد عرفت حبَّ رسول الله ﷺ لعائشة ، فطلبت منه ﷺ أن تتنـازل عن ليلتها لعائشة رضي الله عنهما ، فقـد روى البخاري في الهبة والشهادات من طريق يونس عن الـزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالـت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسـائه ، فأيتهنَّ خرج سهمها خـرج بها معه ، وكان يقسم لكـل امرأة منهن يومهـا وليلتها ، غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة زوج النبي ﷺ تبتغي بذلك رضا

رسول الله ﷺ، وقال البخاري في كتاب الصلح من صحيحه: باب قول الله تعالى: ﴿أَنْ يَصَّالَحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا والصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها: ﴿وإن امرأةٌ خَافَتْ من بعلها نشوزاً أو إعراضا﴾ قالت: هو الرجل يرى من امرأته مالا يعجبه: كبَرًا أو غيره، فيريد فراقها، فتقول: أمسكني واقسم لي ما شئت، قالت: فلا بأس إذا تراضيا. وقال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه: حدثنا محمد بن مقاتل أخبرنا عبد الله أخبرنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها: ﴿وإنِ امرأةٌ خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا﴾ قالت: الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها، يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حلٍّ، فنزلت هذه الآية في ذلك. وقال البخاري في كتاب النكاح من صحيحه: باب ﴿وإن امرأةٌ خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا﴾ حدثني محمد بن سلام أخبرنا أبو معاوية عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها ﴿وإنِ امرأةٌ خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا﴾ قالت: هي المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها، فيريد طلاقها ويتزوج غيرها، تقول له: أمسكني ولا تطلقني، ثم تزوج غيري فأنت في حلٍّ من النفقة علي والقسمة لي، فذلك قوله تعالى: ﴿فلا جُنَاحَ عليهما أن يَصَّالَحَا بينهما صُلْحًا، والصُّلْحُ خير﴾ وقال البخاري في كتاب النكاح أيضاً: باب المرأة تهب يومها من زوجها لضرتها، وكيف يقسم ذلك؟ حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا زهير عن هشام عن أبيه عن عائشة أن سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة، وكان النبي ﷺ يقسم لعائشة بيومها ويوم سودة اهـ وقال مسلم في كتاب الرضاع من صحيحه: حدثنا زهير بن حرب حدثنا جرير عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: ما رأيت امرأة أحب إليَّ أن أكون في مسلاخها من سودة بنت زمعة من امرأة فيها حدةٌ، قالت: فلما

كبرت جعلت يـومها من رسـول الله ﷺ لعائشـة، قالت: يـارسول الله: قـد جعلت يومي منك لعائشة، فكان رسول الله ﷺ يقسم لعائشة يومين، يومها ويـوم سودة، ومعنى قـولـه تعالى: ﴿وإن امـرأةٌ خـافت من بعلها نشـوزاً أو إعراضـا فلا جُنَاحَ عليهما أن يُصْلِحَـا بينهما صُلْحًا﴾ أي وإن تـوقعت زوجة من زوجها ﴿نشـوزا﴾ أي ترفعاً عليها بترك مضـاجعتها أو التقصير في نفقتها لبغضه لها وطمـوح عينه عنهـا ﴿أو إعراضا﴾ بـأن لا يكلمها ولا يأنس بها، وهي حريصـة على البقاء في عصمته فلهـا أن تسقط عنه حقهـا أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها عليه، وله أن يقبل منها ذلك فلا حرج عليهـا في بذلها ذلك له، ولا حرج عليـه في قبوله منها، مـاداما قد تصـالحا على ذلك، وقـد قـرأ عـاصمٌ وحمزة والكسـائي ﴿أن يُصْلِحَـا بينهما صلحـا﴾ وقرأ البـاقـون: ﴿أنْ يَصَّالَحَا بينهما صُلْحًـا﴾ بفتح اليـاء وتشديـد الصاد وفتح الـلام، فعلى القراءة الأولى يكون المعنى: فلا حـرج على الزوجة والزوج أن يوقعـا بين نفسيهما صلحاً، وعلى القراءة الثانيـة يكون المعنى: فلا حـرج على الزوجـة والـزوج أن يتصالحا بينهما صلحـاً حيث تتنـازل المرأة عن حقها أو بعضه ويقبـل الرجل منها ذلك على أن يمسكها في عصمتـه. وقوله تبـارك وتعـالى: ﴿والصُّلْحُ خير﴾ أي والصلح بترك بعض الحق استـدامـة للرابطـة الزوجية وتماسكـا بعقد النكاح خير من الفـرقة والطلاق لأن الـوفاق أحب إلى الله من الفراق. قـال القرطبي: قولـه تعالى: ﴿والصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ لفظ عام مطلق يقتضي أن الصلح الحقيقي الـذي تسكن إليه النفوس، ويـزول به الخلاف خير على الإطلاق، ويدخل في هذا المعنى جميع ما يقع عليه الصلح بين الرجل وامرأته في مـال أو وطءٍ أو غير ذلك ﴿خيرٌ﴾ أي خير من الفرقة، فإن التمادي على الخلاف والشحناء والمبـاغضة هي قـواعد الشر، وقـال عليه السلام في البغضة: إنها الحالقـة يعني حالقة الدين لا حالقة الشعـر اهـ وقد

روى أبو داود والترمذي وقال: هذا حديث صحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة؟ قال: قلنا: بلى. قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة. ومعنى قوله ﷺ: هي الحالقة أي هي الماحية المزيلة للمثوبات والخيرات. هذا ولا ينبغي للزوجة أن تعتبر الزوج معرضاً عنها بمجرد الصدود عنها فإن مطلق الإعراض والصدود قد يحدث للإنسان مع من يحب كما قال الشاعر:

إني لأَمْنَحُكِ الصُّدُودَ وإنني ... قَسَماً إليكِ مع الصدود لأَمْيَلُ

بل المراد: الإدبار عنها بالكلية. ومعنى قوله تعالى: ﴿وأحضرت الأنفسُ الشُّحَّ﴾ أي وقد جبلت أنفس النساء على شدة الحرص على أنصبائهن من أنفس أزواجهنَّ وأموالهم، فشح المرأة بنصيبها من زوجها في المبيت والنفقة ملازمٌ لها كأنه حاضرها لا يغيب عنها ولا تكاد تنساه. قال ابن جرير رحمه الله: والشح: الإفراط في الحرص على الشيء، وهو في هذا الموضع: إفراط حرص المرأة على نصيبها من أيامها من زوجها ونفقته اهـ وفي قوله عز وجل هنا: ﴿وأحضرت الأنفس الشحَّ﴾ تنبيه للزوجين بأن يحذرا من اتباع الهوى، وتحريضٌ لهما على الصلح، فإن من حارب شح نفسه أفلح، كما قال عز وجل: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا.﴾ حضٌّ للزوجين على أن يحسن كل واحد منهما صحبة الآخر ما استطاع إلى ذلك سبيلا وأن يخاف الله عز وجل فيه بعد أن شرع لهما جواز تنازل أحدهما للآخر عن بعض حقه قِبَلَه في مقابلة بقاء عقدة النكاح لما في ذلك من المصالح كرغبة سودة بنت زمعة في أن ترافق رسول الله ﷺ في الجنة وتحشر في نسائه ﷺ ورضى الله عنهن جميعا، وقد يكون للمرأة أولاد من هذا الزوج وترضى بالبقاء في عصمته لتكون

بالقرب منهم لترعاهم وتحسن إليهم، وفي سبيل ذلك تتنازل للزوج عن حقها عليه أو عن بعض حقها. وفي قوله عز وجل: ﴿فإنَّ الله كان بما تعملون خبيرا.﴾ وعد بحسن المثوبة للمحسنين المتقين ووعيد بالعقوبة للمسيئين الذين لا يخافون الله، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُواْ أن تَعْدِلُوا بين النساء ولو حَرَصْتُمْ فلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي ولن تقدروا أيها الأزواج عند تعدد زوجاتكم أن تقيموا العدل على أكمل وجه بين الضرائر مهما حاولتم أن تقيموا العدل بينهن، لأنكم بحكم جبلتكم وطبيعتكم لن تستطيعوا أن تساووا بين الضرائر من جميع الوجوه لتفاوت النفوس في الميول والشهوات والغرائز الجنسية، والله تبارك وتعالى إنما يكلفكم من العمل ما تطيقون، ولا يحملكم مالا تستطيعون، وميل نفس الزوج إلى إحدى زوجاته أكثر من غيرها مما لا يدخل تحت طاقة الإنسان وقدرته، غير أنه لا يجوز للزوج إذا أحب إحدى زوجاته أكثر من الأخرى أن يندفع وراء هذا الحب فيجور على من كان ميله لها أقل ويتركها كأنها معلقة بين السماء والأرض فهي محرومة من الصعود أو الاستقرار والمراد تركها كأنها ليست متزوجة وليست مطلقة، وقد كان بعض أهل الجاهلية إذا كرهوا المرأة أهملوها بالكلية وصارت كالشيء المعلق الذي لا يستفاد منه، ومنه ما جاء في حديث أم زرع: قالت الثالثة: زوجي العشنق، إن أنطق أطلق، وإن أسكت أعلق. والأصل وجوب العدل في المبيت والنفقة وهذا شيء في مقدور الإنسان بخلاف الحب والميل الغريزي، ولذلك روى أحمد وأبو داود واللفظ له والترمذي والنسائي وابن ماجه بسند صحيح من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك. يعني القلب، وقد توعد الإسلام من يجور من الأزواج في هذا القسم المقدور عليه، فقد روى أبو داود والترمذي

والنسائي وابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: إذا كانت عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط. فإذا تصالح الزوج والزوجة على إمساكها مع ترك حقها في القسم وكان الزوج على خوف من الله عز وجل وتقوى فلاحرج عليه كما تقدم ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما﴾.

قال تعالى : ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاً مِنْ سَعَتِه ، وكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيمًا . ولله ما فى السموات وما فِى الأرض ، وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكتابَ من قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لله ما فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وكانَ اللهُ غَنِيًّا حَمِيدًا . ولله ما فِى السموات وما فى الأرض ، وَكَفَى باللهِ وَكِيلاً . إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بآخَرِينَ ، وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَٰلِكَ قَدِيرًا . مَنْ كان يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا والْآخِرَةِ ، وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . ﴾

بعد أن أرشد الله تبارك وتعالى الزوجة إذا أحست من زوجها نشوزا أو إعراضا أنه لا حرج عليها ولا على زوجها إذا تصالحا على أن تتنازل الزوجة لزوجها عن حقها أو بعض حقها قِبَله مقابل بقائها في عصمته مادام الزوج يوافقها على ذلك ، وحضهما تبارك وتعالى على الصلح ، وبيَّن لهما أن الصلح خير، مع تنفير الزوجة والزوج من الشح الذي قد يحول بين الزوجين وبين التصالح الذي قد يثمر بقاء عقدة النكاح وجمع الشمل بين الزوجين . وحذر الزوج أشد التحذير من الجور على الزوجة وإهمالها حتى تصير كالمعلقة التي لا هي أيمٌ ولا هي متزوجة ، أشار عز وجل هنا إلى الحالة التي يبلغ فيها النفور بين الزوجين إلى حدٍّ لا يتمكن فيه الزوجان من إقامة حدود الله التي رسمها لكل واحد منهما ، وأن بقاء عقدة النكاح في هذه الحالة لن تزيدهما إلا نفورا وتقصيرا في حق بعضهما وارتكاب بعض المآثم والمعاصي مما يجعل الطلاق خيرا من بقاء الحياة الزوجية لأن بقاء الحياة الزوجية حينئذ لا يجلب لهما إلا نكد العيش ومرارة الحياة كما قال الشاعر:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدوا له ما من صداقته بد

لذلك طمأن الله تبارك وتعالى الزوجين هنا بأنه لن يضيعهما ، وأنه سيجود

على كل واحد منهما من واسع عطائه بما يغنيه عن صاحبه الذي لم يتمكن معه من إقامة حدود الله التي رسمها للحياة الزوجية السعيدة حيث يقول تبارك وتعالى هنا: ﴿وإن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ الله كلا من سعته، وكان الله واسعا حكيما.﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: فإن أبت المرأة التي قد نشز عليها زوجها — إذ أعرض عنها بالميل منه إلى ضرتها لجمالها أو شبابها، أو غير ذلك مما تميل النفوس له إليها — الصلح بصفحها لزوجها عن يومها وليلتها، وطلبت حقها منه من القسم والنفقة وما أوجب الله لها عليه وأبى الزوج الأخذ عليها بالإحسان الذي ندبه الله إليه بقوله: ﴿وإنْ تُحْسِنُوا وتتقوا فإنَّ الله كان بما تعملون خبيرا.﴾ وإلحاقها في القسم لها والنفقة والعشرة بالتي هو إليها مائلٌ، فتفرقا بطلاق الزوج إياها ﴿يُغْنِ اللهُ كُلا من سَعَتِهِ﴾ يقول: يغن الله الزوج والمرأة المطلقة من سعة فضله، أما هذه، فبزوج هو أصلح لها من المطلق الأول، أو برزق أوسع وعصمة، وأما هذا، فبرزق واسع وزوجة هي أصلح له من المطلقة، أو عفة، ﴿وكان الله واسعا﴾ يعني: وكان الله واسعاً لهما في رزقه إياهما وغيرهما من خلقه ﴿حكيما﴾ فيما قضى بينه وبينها من الفرقة والطلاق، وسائر المعاني التي عرفناها من الحكم بينهما في هذه الآيات وغيرها، وفي غير ذلك من أحكامه وتدبيره وقضاياه في خلقه اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي وجميع ما في السموات وما في الأرض لله تبارك وتعالى ملكاً ومُلكاً، فهو المالك الحاكم في السموات وجميع العالم العلوي وهو المالك الحاكم في الأرض وجميع العالم السفلي، فلا يوجد شيء في السموات أو في الأرض إلا وهو في ملك الله وتحت سلطانه يتصرف فيه كيف يشاء ويحكم فيه بما يريد لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه وفي هذا طمأنة لقلب الزوجين المتفارقين بأن مالك السموات والأرض

وملكهما الـذي يعلم السر والنجـوى لن يضيـع أحـدا من الـزوجين اللـذين تفارقـا خوفا من تضييع حـدود الله التي رسمها للحياة الزوجيـة السعيدة وأن التفارق لم يكن بطراً ولا اتباعـاً للشهوات الجامحة والطيش والتهور، والملاحظ أن الله تبـارك وتعالى ذكـر مالكيتـه للسمٰوات والأرض في هـذا «الثُّمْن» أربع مرات حيث قال: ﴿ولله ما في السمٰوات وما في الأرض، وكان الله بكل شيء محيطـا﴾ في الآية السـادسـة والعشرين بعـد المائة، وقـال هنا: ﴿ولله مـا في السمٰوات وما في الأرض، ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله، وإن تكفـروا فإن لله مـا في السمٰوات ومـا في الأرض، وكان الله غنيـا حميدًا. ولله مـا في السمٰـوات ومـا في الأرض، وكفى بالله وكيـلا.﴾ في الآيتين الواحدة والثـلاثين بعد المائة والثانية والثـلاثين بعد المائة. ولاشك أن ذكـره لمالكيتـه للسمٰوات والأرض في هـذه المواضع يقتضي تقـريـره وتأكيـده لمضمون مـا يقع هذا الذكر في حيـزه، وقد أشار إلى ذلك ابن جـرير رحمه الله حيث قال: يعني بذلك جل ثناؤه: ولله جميع ملك ما حوته السمٰوات السبع والأرضون السبع من الأشيـاء كلها، وإنما ذكـر جل ثناؤه ذلك بعقب قـوله: ﴿وإن يتفرقا يُغْنِ اللهُ كُلا من سَعَتِهِ﴾ تنبيهًا منه خَلْقَهُ على موضع الرغبة عند فراق أحـدهم زوجته، ليفزعـوا إليه عند الجزع من الحاجـة والفاقة والـوحشة بفراق سكنه وزوجته، وتذكيراً منه له أنـه الذي له الأشياء كلها، وأن من كان له ملك جميـع الأشياء، فغير متعذر عليـه أن يغنيه وكل ذي فـاقة وحـاجة، ويؤنس كل ذي وحشة اهـ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَـدْ وَصَّيْنَا الذين أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ أي ولقد أمرنا جميع أهل الكتب السماوية التي نزلـت قبل القرآن العظيم كما أمرناكم في القـرآن الكريم بتقوى الله تبارك وتعالى، وإخلاص العبـادة لله وحده لا شريك له، والخوف منه في السر والعلن، والحذر من معـاصيـه وتعـدى حـدوده، وإسـلام الـوجـه لله

وحده، واتباع رسلـه، وذلك هو الدين الحق الذي بعث الله بـه جميع الرسل وأنزل بـه جميع الكتب، وهو ملة إبـراهيم الحنيفية السمحـة، فإن تطيعوا الله ورسوله محمدا ﷺ تهتدوا وتفلحوا وتفوزوا بسعادة الدارين، وإن تكفروا فلن تضروا إلا أنفسكم ولن تضروا الله شيئـا لأنـه غنـي حميـد، لا تنفعـه طـاعـة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، ولذلـك قال هنا: ﴿وإن تكفروا فإنَّ لله ما في السمٰوات ومـا في الأرض، وكان الله غنيًّا حميدًا.﴾ أي وإن تعـرضوا عن وحي الـرحمن، وتنقادوا إلى وسـوسـة الشيطان، فلن تضروا من لـه ملك السموات والأرض، الذي يـؤتي ملكه من يشاء وينزع الملك ممـن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا راد لقضـائه، ولا معقب لحكمه، لأن الخلق خلقه، هم الفقراء إليـه، وهو الغني عنهم، وهو المحمـود لذاتـه، وصفاته، وأفعـاله، المستحق للحمد في السراء والضراء، وقد أكد الله تبـارك وتعالى هذا المعنى في غير موضع من كتابه الكريـم حيث يقول: ﴿ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغَنِيُّ الحَمِيدُ. إن يَشَأْ يُـذْهِبْكُمْ ويأت بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وما ذٰلك على الله بعزيز﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومَن في الأرض جميعـاً فإنَّ الله لَغَنِيٌّ حميد.﴾ وكما قـال عـز وجل: ﴿ومَنْ يَتَوَلَّ فإنَّ اللهَ هـو الْغَنِيُّ الحَمِيـدُ.﴾ وكما قـال عـز وجل: ﴿ذلك بـأنـه كـانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فكفروا وتَوَلَّوْا، واستغنى اللهُ، والله غَنِيٌّ حَمِيدٌ.﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿له ما في السمٰوات وما في الأرض، وإنَّ الله لهو الغَنِيُّ الحميدُ.﴾ وقوله تبارك وتعـالى: ﴿ولله ما في السمٰوات وما في الأض، وكفى بـالله وكيـلا.﴾ هـذا تأكيـد لمالكيته عـز وجل لجميع مـا حـوت السمـوات والأرض وبيان لحفظه عز وجل لخلقه ولتدبيره إياهم على ما يريد، وأنه القائم على كل نفس بما كسبت، الـرقيب الحفيـظ الشهيـد على كل شيء، وقـولـه

تبارك وتعالى: ﴿إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أيها النـاسُ وَيأت بآخَـرِينَ، وكانَ الله على ذٰلك قديرا.﴾ تقرير وتأكيد لتمام قدرته، وكمال مشيئته، وتهديدٌ لأعدائه بأنه لو أراد استئصالهم لاستأصلهم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيء قديرٌ، ولا يمتنع عليه شيء، ولا يعجزه إذهاب الكافرين وإفناؤهم وتبديلهم بناس صالحين يؤيدون رسله، ويؤمنون بكتبه، كما قال عز وجل: ﴿إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ويأتِ بخلقٍ جديدٍ. وما ذٰلك على الله بِعَزِيز.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإنَّ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكُمْ.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ كان يُرِيدُ ثوابَ الدنيا فَعِنْدَ الله ثوابُ الدنيا والآخرة.﴾ هذا ترغيب للمنحرفين عن الصراط المستقيم بالرجوع إليه، وتوجيههم إلى الإقبال على الله عز وجل، وتأنيب لمن كان لا هم له إلا حطام الحياة الدنيا بأنه لو أراد الخير لنفسه لم يقتصر على ثواب الدنيا الذي لا بقاء له ولا دوام، بل جعل همته متعلقة بنعيم الآخرة الذي لا يفنى ولا يزول، على أن كل نعيم في الدنيا والآخرة إنما هو بيد الله وحده الذي له ملك السموات والأرض، وله الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿مَنْ كان يريد العاجلة عجَّلْنَا له فيها ما نشاء لِمَنْ نُرِيدُ ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مَدْحُوراً. وَمَنْ أراد الآخرة وسَعَى لها سَعْيَهَا وهو مؤمنٌ فأولَئك كان سَعْيُهُمْ مشكورا. كُلا نُمِدُّ هٰؤلاء وهٰؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظورا.﴾ على أن طلاب الدنيا وحدها لا يحصل لهم كُلُّ ما يريدون، بخلاف طلاب الآخرة فإنه يحصل لهم كل ما يريدون، وفوق ما يريدون، كما قال عز وجل: ﴿من كان يريد حرثَ الآخرة نَزِدْ له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب.﴾ وقوله عز وجل: ﴿وكان الله سميعا بصيرا.﴾ تذييل لتوبيخ المرائين، وتنبيههم إلى أن أعمالهم لا تخفى على السميع البصير.

قال تعالى: ﴿يَـاأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِـالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُـوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا. يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَـابِ الَّذِي نَزَّل عَلَى رَسُولِهِ والْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ، وَمَن يَكْفُرْ باللهِ وَمَلائِكَتِـهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا.﴾

لما كان القرآن العظيم إنما أنزل على رسول الله ﷺ لدلالة الخلق على الحق، وإقامـة العدل، كما قال عـز وجل: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ وقـد ساق الله تبارك وتعـالى في هذه السـورة المباركـة صوراً مشرقـة رسم فيها حقـوق النساء واليتامى وبخاصة يتامى النساء والوالدين وذي القربى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصـاحب بالجنب وابن السبيل، والمماليك، وأوجب على جميع المكلفين تقوى الله عـز وجل وضرورة الاحتكام إلى شريعتـه والكفر بالطاغوت، ونبه عبـاده إلى أنه وصى جميع الأمم بتقوى الله عز وجل، الذي له مـا في السموات ومـا في الأرض الغني الحميد، المهيمن على جميـع خلقه، القادر على كل شيء الـذي بيده وحده ثـواب الدنيا والآخرة، وجّـه الخطاب هنا للمؤمنين حيث أمرهم بأن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله، وأن يلتزموا بـذلك في جميع أحـوالهم وأقـوالهم مهما كـانت، وأن الله تبـارك وتعـالى أولى بجميع العبـاد من أنفسهم، وأنـه لا يجوز أن يحول الهوى دون إقـامـة الحق والعدل، وفي ذلك يقول: ﴿يـاأيها الذين آمنُوا كونوا قـوامين بالقِسْطِ شهداءَ لله ولو على أنفسكـم أو الوالديـن والأقربين، إن يكن غنيـا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أن تَعْدِلُوا، وَإِنْ تَلْوُوا أو تُعْرِضُوا فإنَّ الله كان بما تعملون خبيرا.﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين بالقِسْطِ

شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فـلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أن تعـدلوا﴾ أي يـامعشر المستجيبين لله ولـرسولـه ﷺ، المصدقين بالله وملائكته وكتبـه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، احرصوا أشـد الحرص، وابذلوا كل ما في وسعكم لإقامـة العدل وإزالة الجور والظلم، ولا تعدلـوا عن العدل يمينا أو شمالا، ولا تأخـذكم في إقامته لـومة لائم، ولا يصرفكم عنه صارفٌ مهما كان، وأقيموه حتى على أنفسكم أو على الوالدين والأقربين، ولا تنحرفـوا عنه من أجل غِنى غنيٍّ، أو فقر فقير، فالله عز وجل أولى بكل إنسـان من نفسه، إذ هو رب الجميع وسيـدهم ومالكهم ورازقهم والمهيمن عليهم، واجتهدوا غاية الاجتهـاد أن تكون إقامتكم للعدل ابتغـاء وجـه الله ورغبـة فيما عنـده من جميـل المثـوبـة وعظيم الأجـر، وطلبـا لمرضاته، وهو وحده الذي بيده ثواب الدنيا والآخرة، وقولوا الحق ولو كان مرًّا فإنه أحلى عـاقبة ومـآلاً، إذ بالعـدل قامت السمـوات والأرض، والمراد بكون الإنسان قـوامًا بالقسط شهيـدا لله على نفسه أو والـديه والأقربين هـو أن يقر الإنسان بما عليه مـن حق لغيره، أو أن يقر بما على والده أو والدتـه أو أقاربه من حق للغير تحقيقـاً للعدالـة و إقامـة للقسط، ولا نزاع عنـد أهل العلم في جواز شهادة الإنسان على والديه أو أقـاربه بما يعرفه من الحقوق عليهم، ولا تعتبر الشهادة على الوالدين والأقربين من باب قطيعة الرحم بل هو من باب صلـة الرحم بتخليصهم من أسبـاب سخط الله، وعقـوبته لمن أكل الحقـوق وضيعها، فهي إعـانة لهم وليست إعانة عليهم، وهـذا بخلاف الشهادة لهم فإنها لا تقبل من الإنسان لنفسه أو لوالديه أو أقاربه دفعاً للتهمة، وكما يجب ويتحتم على المؤمن أن يكون قواماً بالقسط شاهداً لله عز وجل ولو على نفسه أو والديه أو أقاربه فإنه يجب ويتحتم عليـه أن يكون قواماً بالقسط شاهداً لله عـز وجل ولـو على عـدوه، وأن يلتزم بـالعـدل في الـرضـا والغضب والحب

والبغض وفي ذلك يقـول عـز وجل : ﴿يا أيها الـذين آمنـوا كـونوا قـوَّامين لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، ولا يـجْرِمَنكُمْ شَنَآنُ قومٍ عَلَى أَلَا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ للتقـوى واتقوا اللهَ ، إن الله خبير بما تعملـونَ .﴾ وقـد وعـد الله تبارك وتعـالى القائمين بالقسط بأن يجعل لهم منابر من نور يوم القيامة ، فقد روى مسلم في صحيحـه من حـديث عبـد الله بن عمـرو رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قال : إن المقسطين عنـد الله على منابـر من نور، الـذين يعدلـون في حكمهم وأهليهم وما وُلُّـوا . كما توعد تبـارك وتعالى القاسطين الجائرين بأنهم يكـونون حطب جهنم يوم القيامة حيث يقول تبارك وتعـالى : ﴿وأما القاسطون فكانوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًـا .﴾ وحذر عـز وجل من اتباع الهوى وبيَّن أنـه يضل عن سبيل الله حيث يقـول عـز وجل : ﴿ ولا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّـكَ عن سبيل الله ، إن الـذين يَضِلُّـونَ عن سبيل الله لهم عذابٌ شـديـد بما نَسُـوا يوم الحسـاب .﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿فلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أن تَعْدِلُوا﴾ أي فلا يحملنكم الهوى والعصبية وحب من تحبـون أو بغض من تبغضون على ترك العـدل في أموركم وشئونكم بل الزموا العدل وقوموا بالقسط في جميع أحوالكم وقضاياكم ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِنْ تَلْوُوا أو تُعْرِضُـوا فإنَّ الله كان بما تعملون خبيرًا .﴾ قال ابن كثير رحمه الله : وقولـه : ﴿وإن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا﴾ قـال مجاهد وغير واحدٍ من السلف : تلووا أي تحرِّفوا الشهادة وتغيروهـا ، واللَّيُّ هو التحريف وتعمد الكذب ، قال تعـالى : ﴿وإنَّ منهم لفريقًا يَلْوُون ألسنتَهم بـالكتاب﴾ الآية ، والإعراضُ هـو كتمان الشهادة وتـركها ، قـال تعالى : ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فـإنه آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ وقـال النبي ﷺ : خير الشهداء الـذي يأتي بالشهـادة قبل أن يُسألها ، ولهذا تـوعـدهم الله بقـولـه : ﴿فإنَّ الله كـانَ بما تَعْمَلُـونَ خَبِيرًا .﴾ أي وسيجازيكم بـذلك اهـ وقولـه تبارك وتعالى : ﴿يـاأيها الذين آمَنُوا آمِنُـوا بالله ورسولِهِ والكتـابِ الذي نَزَّل على رسوله والكتـاب الذي أنزل من قبلُ ، وَمَنْ

يَكْفُر بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسِلِهِ واليوم الآخرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا . ﴾ هذا الخطاب الكريم يشمل المؤمنين حقا، وليس المقصود منه تحصيل الحاصل، بل المراد حضُّ المؤمنين على الثبات على الإيمان وأركانه والإعلام بأن من ضيع منها ركنا فقد كفر وضل ضلالا بعيدا، كما يشمل من آمن من المنافقين ثم مرض قلبه ونافق كما أشار إلى ذلك المثل الذي ضربه الله عز وجل للمنافقين في أوائل سورة البقرة حيث قال عز وجل: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ . ﴾ وكما أشار إلى ذلك عز وجل هنا في الآية التي تلي هذه الآية حيث يقول: ﴿إِنَّ الذين آمَنُوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كَفَرُوا ثم ازْدَادُوا كُفْرًا . ﴾ الآية. ثم قال بعدها مباشرة: ﴿بَشِّرِ المنافقينَ بأنَّ لَهُمْ عذابا أَلِيماً . ﴾ والمراد من توجيه الخطاب لهم في هذا المقام هو ترغيبهم في الإيمان الدائم ودعوتهم إلى الثبات على الحق واجتناب التذبذب وتعريفهم بأركان الإيمان، كما يشمل الخطاب الكريم هنا أهل الكتاب الذين يصدقون في الجملة ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض، والمقصود من مخاطبتهم حضهم على الإيمان المطلق وتعريفهم بالإيمان النافع، وإرشادهم إلى أركان الإيمان، وأن من ضيَّع ركنا منها فقد ضل ضلالا بعيدا. والمقصود بالكتاب الذي نزَّل الله على رسوله هو القرآن العظيم المنزَّل على محمد ﷺ، والمقصود بالكتاب الذي أنزل الله من قبل هو جميع الكتب المنزلة على المرسلين قبل نزول القرآن، فالمراد بالكتاب هو جنس الكتاب المنتظم لجميع الكتب السماوية السابقة، فهو وإن كان لفظه مفردًا فالمقصود منه العموم كلفظ الطفل في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الذين لم يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ إذ المقصود بالطفل هنا هم الأطفال وقد ذكرت هذه الآية الكريمة خمسة من أركان الإيمان الستة التي بيَّنها رسول الله ﷺ في حديث جبريل عندما سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان

وعلم الساعة، حيث أجابه عن سؤاله: ما الإيمان؟ فقال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره كما جاء في لفظ مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بيْنا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحدٌ، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يامحمد أخبرني عن الإسلام. قال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان. قال: ثم انطلق، فلبثت مليًّا، ثم قال لي: ياعمر، أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم. ففي هذا الحديث الصحيح ذكر أركان الإيمان الستة بزيادة ركن الإيمان بالقدر خيره وشره عما ذكرته الآية الكريمة، ومن المسَلَّمات أن من وظيفة رسول الله ﷺ أن يبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم كما قال عز وجل: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لِتُبَيِّنَ للناس ما نُزِّلَ إليهم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانْتَهُوا﴾

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمنوا ثم كَفَرُوا ثم آمَنُوا ثـم كَفَرُوا ثـم ازْدَادُوا كُفْرًا لم يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلا. بَشِّرِ المنافقين بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا. الذين يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المؤمنين، أَيَبْتَغُونَ عندهم الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لله جَمِيعًا. وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فى الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكفَرُ بها وَيُسْتَهْزَأُ بها فَلا تَقْعُدُوا معَهُمْ حتى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ، إِنَّ اللهَ جَامِعُ المنافقين وَالكَافِرِينَ فِي جَهَنم جَمِيعًا.﴾

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بالثبات على الإيمان وأركانه وأعلمهم بأن من ضيَّع ركناً من هذه الأركان فقد كفر وضل ضلالا بعيدا، ورغب المنافقين الذين لاحت لهم أنوار الإيمان ثم مرضت قلوبهم وعميت بأن يرجعوا عن ضلالهم ويستمروا على الإيمان الدائم، ودعاهم إلى الثبات على الحق واجتناب التذبذب بين الإيمان والكفر، وعرَّفهم بأركان الإيمان، وحض أهل الكتاب الذين يصدقون في الجملة ببعض الأنبياء وببعض الكتب السماوية ويكفرون ببعض الأنبياء وببعض الكتب السماوية ودعاهم إلى الإيمان المطلق، وعرفهم بالإيمان النافع، وأرشدهم إلى أركان الإيمان، حذر هنا أشد التحذير من التذبذب بين الإيمان والكفر، وتوعد من فعل ذلك واستمر عليه ولم يثبت على الإيمان إلى الموت بأن الله لن يغفر له ولن يهديه سبيلا حيث يقول عز وجل: ﴿إِنَّ الذين آمنُوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ولا لِيَهْدِيَهُمْ سبيلا.﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع عنه، ثم عاد فيه ثم رجع، واستمر على ضلاله، وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجًا ولا مخرجًا، ولا طريقًا إلى الهدى، ولهذا قال: ﴿لم يكن الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلا.﴾ اهـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

وهو سبحانه في آل عمران ذكر المرتدين ثم ذكر التائبين منهم، ثم ذكر من لا تُقبل توبته ومن مات كافرا، فقال: ﴿إِنَّ الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازْدَادُوا كفرًا لن تُقْبَلَ تَوبَتُهُمْ وأولَئك هم الضَّالُّونَ. إنَّ الذين كفروا وماتوا وهم كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ من أحدهم مِلْءُ الأرضِ ذَهَبًا ولو افتدى به، أولَئك لهم عذابٌ أَلِيم وَمَالَهُمْ مِن ناصِرِين.﴾ وهؤلاء الذين لا تُقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالا: قيل لنفاقهم، وقيل لأنهم تابوا مما دون الشرك ولم يتوبوا منه، وقيل لن تقبل توبتهم بعد الموت، وقال الأكثرون كالحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي: لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت، فيكون هذا كقوله: ﴿وليْسَتِ التوبةُ للذين يَعْمَلُونَ السيئاتِ حتى إذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموتُ قال إني تُبْتُ الآنَ وَلا الذين يَمُوتُونَ وهم كُفَّارٌ﴾ وكذلك قوله: ﴿إِنَّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازْدَادُوا كُفْرًا لم يكن اللهُ ليغفر لهم ولا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلا.﴾ قال مجاهد وغيره من المفسرين: ﴿ازْدَادُوا كفرا﴾ ثبتوا عليه حتى ماتوا، قلت: وذلك لأن التائب راجعٌ عن الكفر، ومن لم يتب فإنه مستمر يزداد كفرا بعد كفر، فقوله: ﴿ثم ازْدَادُوا﴾ بمنزلة قول القائل: ثم أصروا على الكفر، واستمروا على الكفر وداموا على الكفر، فهم كفروا بعد إسلامهم، ثم زاد كفرهم ما نقص، فهؤلاء لا تقبل توبتهم، وهي التوبة عند حضور الموت، لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب ورجع عن كفره، فلم يَزْدَدْ بل نقص، بخلاف المصرِّ إلى حين المعاينة، فما بقي له زمانٌ يقع لنقص كفره فضلا عن هدمه، وفي الآية الأخرى قال: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ وذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا، قيل لأن المرتد إذا تاب غفر له كفره، فإذا كفر بعد ذلك ومات كافرا حبط إيمانه، فعوقب بالكفر الأول والثاني، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قيل: يارسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال: من أحسن في الإسلام لم

يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر. فلو قال: إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم، كان هؤلاء الذين ذكرهم في آل عمران فقال: ﴿إِنَّ الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم﴾ بل ذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا بعد ذلك، وهو المرتد التائب، فهذا إذا كفر وازداد كفرا لم يُغفر له كفره السابق أيضا فلو آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا لم يكونوا قد ازدادوا كفرا، فلا يدخلون في الآية اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿بَشِّرِ المنافقين بأنَّ لهم عذابا أَلِيمًا.﴾ هذا وعيد شديد لمن استمر على نفاقه ولم يرتدع بالتحذير والإنذار الذي ذكره الله عز وجل في الآية السابقة تخويفا للمذبذبين بين الإيمان والكفر، ومعنى: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما.﴾ أي وأخبر أيها الرسول العظيم الذين يكتمون الكفر ويظهرون الإسلام خبراً مؤلماً موجعًا يظهر أثره على بشرة وجوههم حتى تنكمش حزنا وألما بما أعد الله عز وجل لهم من العذاب في نار جهنم. وأصل البشارة الخبر بما يسر أو يسوء مما يظهر أثره على البشرة حيث تنطلق الأسارير عند سماع الخبر السار، وتنكمش وتتجعد عند سماع الخبر المحزن المفجع المؤلم، والبشرة هي ظاهر الجلد. وأكثر ما تستعمل البشارة في الخبر السار، فإذا استعملت في الخبر المسيء المحزن قُيدت بما يدل عليه كقوله عز وجل: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بعذابٍ أليم.﴾ وكقوله عز وجل هنا: ﴿بَشِّرِ المنافقين بأنَّ لهم عذابا أليما.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿الذين يتخذون الكافرين أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا.﴾ بيان لصفة من صفات المنافقين الذين أمر رسول الله ﷺ أن يبشرهم بأن لهم عذابا أليما، وإبراز للعلة التي دعت هؤلاء المنافقين إلى أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين حيث ظن هؤلاء المنكوسون المركوسون أن موالاتهم لليهود تجلب العزة والقوة والمنعة لهؤلاء الرعاديد

المنافقين، وهم في هذا كـالغريق يتعلق بالغريق، فـإن الله تبارك وتعالى كتب الذلة والمسكنـة على اليهود وضربها عليهم أينما ثقفوا، والعـزة لله وحده، فهو الذي يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء، وقد أعلن أن العزة والغلبة والمنعة والقوة قد كتبها عز وجل لأنبيائه ورسلـه وعباده المؤمنين كما قال عز وجل: ﴿كَتَبَ الله لَأَغْلِبَنَّ أنا ورسلي، إنَّ الله قَـوِيٌّ عزيـز.﴾ وكما قال تبـارك وتعالى: ﴿هم الـذين يقولـونَ لا تُنْفِقُوا على مَـنْ عند رسـول الله حتى يَنْفَضُّوا، ولله خـزائن السمٰوات والأرض ولٰكنَّ المنـافقين لا يفقهون. يقولون لئن رجعنـا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منهـا الأذَلَّ، ولله العزةُ ولرسولـه وللمؤمنين ولٰكنَّ المنافقين لا يعلمون.﴾ فمن أراد العـزة فليطلبها من الله، وليعتصم بحبله، كما قـال عز وجل: ﴿مَنْ كان يريد العِزَّةَ فلِلَّهِ الْعِـزَّةُ جَمِيعًا.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَدْ نَـزَّل عليكم في الكتـاب أَنْ إذَا سَمِعْتُمْ آيَـاتِ الله يُكْفَرُ بها وَيُسْتَهْـزَأُ بِهَا فَـلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حَـدِيثٍ غَيْرِهِ، إنَّكُمْ إذًا مِثْلُهُمْ، إنَّ الله جَامِعُ المنـافقين والكـافرين في جَهَنَمَ جَمِيعًـا.﴾ تحذيـر للمسلمين من مجالسـة من يظهر الكفر بآيات الله أو من يستهزئ بها، وأنه لا يحل لمسلم أن يقعد معهم إلا إذا كفوا ألسنتهم عن إظهار الكفر بـآيات الله وعن الاستهزاء بها، وأن من جالس هـؤلاء الكافرين والمستهـزئين بآيات الله راضيا بعملهم مقـرًّا لهم فهو كافر مثلهم مشارك لهم في المآثم والمعـاصي مركوس معهم في نار جهنم حيث يجمع الله فيها المنافقين والكافرين جميعا. والذي نَزَّل الله في الكتاب للتحذير من مجالسة الذين يظهرون الكفر بآيات الله أو الاستهزاء بها هو قوله عز وجل في سورة الأنعـام: ﴿وإذا رأَيْتَ الذين يخوضُونَ في آياتنـا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غَيْرِهِ، وإمـا يُنْسِيَنَّكَ الشيطانُ فلا تقعد بعـد الذكرى مع القوم الظـالمين.﴾ والمراد بآيـات الله في هذا المقام هـو القرآن العظيم والـذكر الحكيم، أي وإذا سمعتم الكفر بآيات الله أو سمعتم الاستهزاء بها في مجلس

فلا تجلسوا مع الكافرين بـآيات الله أو المستهزئين بها حتى يتركوا هـذا الكفر وهذا الاستهزاء، وقد أوقع السماع على الآيات والمراد سماع الكفر والاستهزاء، كما تقول: سمعت عبـد الله يلام أي سمعت اللـوم في عبد الله. وهـذه الآية الكـريمـة وإن كانت مسـوقـة للتحـذيـر من مجالسـة من يكفر بـآيـات الله ويستهـزئ بها في مجلسـه فقد حملهـا كثير من الأئمـة على النهي كـذلك عن مجالسة أهل الباطـل الذين يُظهرون باطلهم في مجلسهم ويتبجحـون به. قال القرطبي رحمه الله: قولـه تعالى: ﴿فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُـوا في حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي غير الكفـر ﴿إنكم إذًا مِثْلُهُمْ﴾ فـدل بهذا على وجـوب اجتنـاب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر، لأن من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم، والرضا بالكفـر كفر، قال الله عز وجل: ﴿إنكم إذًا مِثْلُهُمْ﴾ فكل من جلس في مجلس معصيـة ولم ينكـر عليهم يكون معهم في الـوزر سـواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصيـة وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكـون من أهل هذه الآيـة اهـ وقال ابن جـرير رحمه الله: وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع من المبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم، وبنحو ذلك كان جماعة من الأئمة الماضين يقولون تأوُّلا منهـم هذه الآية أنه مرادٌ بها النهي عن مشاهدة كل باطل عند خوض أهلـه فيه، ذكر من قال ذلك: حدثني المثنى قال: حدثنا إسحاق قال: حدثنا يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي عن أبي وائل قال: إن الـرجل ليتكلم بالكلمة في المجلس من الكـذب ليضحك بها جلسـاءه فيسخط الله عليهـم، قـال: فـذكـرت ذلك لإبـراهيم النخعي فقـال: صدق أبـو وائل، أو ليس ذلك في كتـاب الله؟: ﴿أَنْ إذَا سَمِعْتُمْ آيَـاتِ الله يُكْفَـرُ بها وَيُسْتَهْـزَأُ بِهَا فَـلا تَقْعُـدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إنكم إذًا مِثْلُهُمْ﴾ حدثني المثنى قال حدثنا إسحاق

قال: حـدثنا عبـد الله بن إدريس عن العلاء بـن المنهال عن هشام بـن عروة قال: أخـذ عمر بن عبـد العزيـز قومـا على شراب فضربهم، وفيهم صائم، فقالوا: إن هـذا صائم، فتلا: ﴿فلا تقعـدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، إنكم إذًا مثلهم﴾ اهـ.

قال تعالى: ﴿الَّذِين يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لكم فَتْحٌ من الله قالوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ للكافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ونمنعكم مِنَ الْمُؤْمِنِين، فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُم يَوْمَ القيامَةِ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ للكافِرِينَ على المؤمنين سبيلا. إنَّ المنافقين يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلى الصلاة قاموا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُون اللهَ إلا قَلِيلا. مُذَبذَبِينَ بَيْنَ ذلك لا إلى هَؤلاء ولا إلى هَؤلاء، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ له سَبِيلا.﴾

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى رسوله محمدا ﷺ بأن يبشر المنافقين بما أعد الله لهم من العذاب الأليم، وذكر بعض صفاتهم القبيحة، وحذر المسلمين من مجالسة من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها في مجلسه شرع يبيِّن هنا مزيدًا من صفات المنافقين البشعة فقال عز وجل: ﴿الَّذِين يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لكم فَتْحٌ من الله قالوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ للكافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ونمنعكم مِنَ الْمُؤْمِنِين﴾ أي الذين ينتظرون ما يحل بكم من نصر أو هزيمة فإن فتح الله لكم ونصركم على أعدائكم وجعل لكم الظفر والغلبة وغنمتم تظاهروا بأنهم معكم وتوددوا إليكم بألسنتهم، وإن كانت الجولة للكافرين على المؤمنين وأصابتكم هزيمة ابتلاء وامتحانا توددوا للكافرين وازدلفوا إليهم، وادعوا لهم أنهم إنما انتصروا على المسلمين بسببهم حيث أحاطوهم وصاروا كأنهم حصنٌ لهم ولم يمكنوا المسلمين منهم، فهؤلاء المنافقون جبناء رعاديد، لا هَمَّ لهم إلا أن يصانعوا من تكون الجولة له، فهم كالنبات المعروف باسم «عباد الشمس» الذي يوجه وجهه إلى جهة الدفء والشمس، وقد فضح الله عز وجل خبيئتهم، ونبه المسلمين إلى أن يبيِّنوا للمنافقين أن المسلمين على خير عظيم سواء كانت الجولة لهم أو كانت عليهم، فهم على إحدى الحسنيين: إما النصر على أعداء الله و إما الشهادة

في سبيل الله، والعاقبة للمتقين، حيث يقول عز وجل: ﴿قل هل تَرَبَّصُون بنا إلا إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ ونحن نتربَّصُ بكم أن يُصِيبَكُمُ اللهُ بعذابٍ من عِنْدِهِ أو بأيدينا فتَرَبَّصُوا إنا معكم مُتَرَبِّصُونَ.﴾ وقوله عز وجل: ﴿فاللهُ يَحْكُمُ بينكم يومَ القيامة﴾ أي فاللهُ تبارك وتعالى يقضي بين عباده يوم القيامة وهو عز وجل لا تخفى عليه خافيةٌ، فلا تغتروا أيها المنافقون ولا تظنوا أن حقن الإسلام لدمائكم ورفع السيف عنكم في الحياة الدنيا ومعاملتكم معاملة المسلمين ينجيكم من عقاب الله يوم القيامة الذي تبلى فيه السرائر وينكشف ما في الضمائر، وإنما أجرى الإسلام عليكم أحكام المسلمين في الحياة الدنيا ظاهرا لإظهاركم الإسلام. ولله الحكمة البالغة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَنْ يجعل اللهُ للكافرين على المؤمنين سبيلا.﴾ قال ابن جرير رحمه الله: وأما قوله: ﴿فَالله يَحْكُمُ بينكم يوم القيامة، ولن يجعل اللهُ للكافرين على المؤمنين سبيلا.﴾ فلا خلاف بينهم في أن معناه: ولن يجعل الله للكافرين يومئذ على المؤمنين سبيلا، ذكر الخبر عمن قال ذلك: حدثنا ابن وكيع قال: حدثنا جرير عن الأعمش عن ذرٍّ عن يُسَيع الحضرمي قال: كنت عند علي ابن أبي طالب رضوان الله عليه فقال رجل: ياأمير المؤمنين أرأيت قول الله: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون؟ قال له عليٌّ: ادنه ادنه ثم قال: ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ يوم القيامة، حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال: أخبرنا الثوري عن الأعمش عن ذَرٍّ عن يسيع الكندي في قوله: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا.﴾ قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فقال: كيف هذه الآية: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا.﴾؟ فقال علي: ادنه: ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة، ولن يجعل الله﴾ يوم القيامة: ﴿للكافرين على المؤمنين سبيلا.﴾

اهـ وفي هذا ردع للمنافقين وترهيب لهم من موالاة الكافرين ببيان أن ما قد يحدث من جولة للكافرين على المؤمنين في بعض الأحيان فلا دوام له ولا بقاء، لأنه إنما يحدث للابتلاء وتكون العاقبة للمؤمنين، إذ العز الأبدي والنصر السرمدي فإنه للمؤمنين وحدهم يوم القيامة، ولن يكون للكافرين فيه جولة أبداً على المؤمنين، فلا توالوا الكافرين أيها المنافقون لأن دولتهم لا دوام لها، ووالوا المؤمنين أصحاب العز الأبدي والنعيم السرمدي. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ المنافقين يخادعون اللهَ وهو خَادِعُهُمْ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إلاَّ قَلِيلا. مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إلى هٰؤلاء وَلا إلى هٰؤلاء، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ له سبيلا.﴾ هذا بيانٌ لطرف آخر من قبائح أعمال المنافقين وكشفٌ لما هم عليه من الجهل ونقص العقل وقلة العلم، وقد تقدم في تفسير قوله عز وجل في سورة البقرة في وصف المنافقين: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون.﴾ أن هذا بيان جليٌّ لما عليه المنافقون من جهلهم بالله عز وجل وعدم معرفتهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى إذ يظنون بالله ظن السوء ويحسبون أنه تجوز عليه حِيَلهم وأنه تخفى عليه سرائرهم فهم لذلك يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ويظنون أن الله لا يعلم ذلك، وأنهم ينجون من عذابه إذا نطقوا بالشهادتين وإن خالف ذلك سريرتهم وطويتهم وأنهم يحسبون أنه يروج على الله كما قد يروج على بعض المؤمنين، والواقع أن خداعهم إنما يرجع وباله عليهم وحدهم، وأن الله تعالى يدفع عن المؤمنين مكرهم ويدرأُ في نحورهم ولذلك قال عز وجل في سورة النساء: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾ وقد أشار الله عز وجل إلى أن المنافقين يظنون يوم القيامة أنهم يخدعون الله عز وجل بالأيمان الكاذبة الفاجرة كما كانوا يفعلون ذلك مع المؤمنين في الدنيا حيث كانوا يجيئون إلى رسول الله ﷺ ويحلفون أنهم مصدقون بالإسلام وأنهم

يشهـدون أن محمـدا رسـول الله واتخذوا أيمانهم جُنَّـةً وفي ذلك يقـول الله عـز وجل: ﴿يَـوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جميعا فيحلفـون لـه كما يحلفون لكم ويحسبـون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكـاذبـون.﴾ والخِداع أن يـوهم الإنسـان صـاحبـه خـلاف ما يـريـد بـه من المكروه ليـوقعـه فيه مـن حيث لا يشعر، أو يـوهمه المساعدة على ما يريد هو به ليغتر بذلك. اهـ قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿وهو خـادعهم﴾ أي هو الـذي يستدرجهم في طغيـانهم وضلالهم ويخذلهم عن الحق والوصـول إليه في الدنيـا وكذلك يوم القيـامة كما قال تعـالى: ﴿يوم يقول المنـافقون والمنافقـات للذين آمنوا انظـرونا نَقْتَبِسْ من نوركم﴾ إلى قـوله ﴿وبئس المصير.﴾ وقـد ورد في الحديث: من سمَّع سَمَّعَ الله بـه، ومن رايـا رايا الله به. اهـ وقوله عز وجل: ﴿وإذا قـاموا إلى الصلاة قاموا كُسَالَى﴾ بيانٌ لتبـاطؤهم وتثـاقلهم وتكـاسلهم إذا قـاموا إلى أفضـل الأعمال وأشرفها بعـد الشهـادتين وهي الصـلاة، لا ينشطـون لها ولا يفـرحـون بها بـل هي ثقيلـة عليهم، وهذه الصفـة من أخص صفاتهم الظاهرة كما قـال عز وجل: ﴿ولا يأتـون الصلاة إلا وهم كُسَـالَى﴾ وقد روى البخـاري في صحيحه من طـريق الأعمش قال: حدثني أبو صالح عـن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: ليس صلاة أثقل على المنـافقين من الفجر والعشـاء، ولو يعلمون مـا فيهما لأتوهما ولو حبوًا، لقد هممت أن آمر المؤذن فيقيم، ثم آمر رجلا يؤم الناس، ثم آخذ شُعلاً من نـار فأحرق على من لا يخرج إلى الصـلاة بعد. وأخـرجه مسلم من طـريق الأعمش عن أبي صـالح عن أبي هريـرة قـال قال رسـول الله ﷺ: إنَّ أثقل صلاة على المنافقين صـلاة العشاء وصلاة الفجر، ولـو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبـوًا، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقـام، ثم آمر رجلا فيصلي بالنـاس، ثم أنطلق معي برجـال معهم حزم من حطب إلى قـوم لا يشهدون الصـلاة فأحرق عليهم بيـوتهم بـالنار. وقـد أشـار الله تبارك وتعـالى إلى ثقل

الصلاة على غير المنيبين إلى الله حيث يقول: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين.﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعًا لا يذكر الله فيها إلا قليلا. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يُرَاءُونَ النَاسَ ولا يَذكُرُونَ الله إلا قليلا. مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذُلك لا إلى هـٰؤلاء ولا إلى هٰؤلاء﴾ كشفٌ لخبث بواطنهم وفساد سرائرهم وانحراف طوياتهم وكفرهم بالله واليوم الآخر وحيرتهم في سلوكهم، وانغماسهم في الشك والتردد والتذبذب. فهم إن حضروا الصلاة أو عملوا شيئا من المعروف فعلوا ذلك رياءً وسمعة لا رغبة فيما عند الله، ولا يكاد يخطر على بالهم ذكر الله وهم ليسوا مع المؤمنين ظاهرا وباطنا، ولا مع الكفار ظاهرا وباطنا، بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين وهم أشبه شيء بالشاة العائرة بين الغنمين أي المتحيرة المترددة لا تدري أي الغنمين تتبع فهي تكر في هذه مرة وفي هذه مرة لا تستقر على حال كما وصفهم بذلك أفصح الخلق الذي أوتي جوامع الكلم محمد رسول الله ﷺ فقد روى مسلم في صحيحه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة. وفي لفظ: تكر في هذه مرة وفي هذه مرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فلن تجد له سبيلا.﴾ تذييل لبيان أسباب حيرتهم وذبذبتهم إذ حرمهم الله عز وجل من توفيقه، وخذلهم فلم يسددهم، ومن يضلل الله فلا هادي له.

قال تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تَتَّخِذُوا الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ من دُونِ المؤمنين، أَتُرِيدُون أن تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبينًا. إنَّ المنافقين فِي الدَّرْكِ الأسفل من النار وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا. إلا الَّذينَ تَابُوا وأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا باللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ فأولَئِكَ مع المؤمنين وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا. ما يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إنْ شَكَرْتُمْ وآمَنْتُمْ، وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا.﴾

بعد أن أمر الله عز وجل رسوله محمدا ﷺ بأن يبشر المنافقين بأن لهم عذابا أليمًا الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين وأوضح بعض صفات المنافقين التي فضحتهم، وجه الخطاب هنا للمؤمنين وحذرهم أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين فقال عز وجل: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ أي يامعشر من استجاب لله ولرسوله ﷺ وأقر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره: لا تجعلوا أعداء الله ورسلِه بطانتكم وخاصتكم، ولا تصاحبوهم ولا تصادقوهم ولا تسروا إليهم بالمودة، ولا تفشوا إليهم أسرار المؤمنين، لأنهم لا يألونكم خبالا، ودُّوا ما عنتم، وقد أعقب الله تبارك وتعالى نهي المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين بتحذيرين شديدين رادعين أشد الردع عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين الأول منهما قولُه عز وجل: ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا﴾ والثاني منهما قوله عز وجل: ﴿إنَّ المنافقين في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ من النار ولن تجد لهم نصيرا.﴾ وقد أفاد التحذير الأول من هذين التحذيرين أن من ادعى الإيمان وهو موال للكافرين فهو كاذب في دعواه سالك سبيل المنافقين ساع في تعريض نفسه لعقوبة الله وعذابه الذي يسلطه عز وجل على أعدائه من المنافقين والكافرين، وأفاد التحذير الثاني أن عقوبة المنافقين يوم القيامة هي أشد

العقوبات التي لن يستطيع أحد دفعها عنهم، وهم وإن جمعهم الله في جهنم مع الكافرين لكنهم يكونون في الدرك الأسفل من النار، ومعنى: ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا.﴾ أي أتحبون أن تعرضوا أنفسكم لغضب الله وعذابه بإيجابكم الحجة الظاهرة على أنفسكم بأنكم مستحقون لسخط الله وأليم عقابه حيث واليتم أعداءه، وقد علمتم أن من والى أعداء الله فليس من الله في شيء كما قال عز وجل: ﴿لا يَتَّخِذِ المؤمنون الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين ومَنْ يَفْعَلْ ذٰلك فليس من الله في شيءٍ إلا أن تَتَّقُوا منهم تُقَاةً، ويُحَذِّرُكم اللهُ نَفْسَهُ، وإلى الله المصير.﴾ والمراد بالدرك الأسفل من النار هو الطبق الأسفل من أطباق جهنم وقعرها السحيق، قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿إن المنافقين في الدَّرْكِ الأسفل من النار﴾ إن المنافقين في الطَّبَق الأسفل من أطباق جهنم وكل طبقٍ من أطباق جهنم «درك» وفيه لغتان: دَرَك بفتح الراء ودَرْك بتسكينها اهـ وظاهر القرآن الكريم يشعر أن المنافقين وآل فرعون يكونون في قعر جهنم وفي أشد العذاب كما قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ الساعةُ أَدْخِلُوا آلَ فرعونَ أَشَدَّ العذابِ.﴾ وبعد هذا الترهيب من سلوك طريق المنافقين رغب الله عز وجل المنافقين ومن نحا نحوهم وسلك منهجهم في التوبة إلى الله عز وجل والرجوع إليه وإصلاح أعمالهم، والاعتصام بالله عز وجل، وإخلاص الدين لله، وبشرهم بأن من أقلع عن النفاق وتاب إلى الله عز وجل وأصلح أعماله واعتصم بالله وأخلص دينه لله فسيحشره الله عز وجل مع المؤمنين الذين يمنحهم من فضله الأجر الجزيل والثواب الجميل يوم القيامة، ويسعى نورهم على الصراط بين أيديهم وبأيمانهم، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿إلا الذين تابوا وأَصْلَحُوا واعْتَصَمُوا بالله وأخلصوا دينَهُم لله فأولٓئك مع المؤمنين وسوف يُؤْتِ اللهُ المؤمنين أجرا عظيما.﴾ وقد روى البخاري في صحيحه من طريق

الأعمش قال: حدثني إبراهيم عن الأسود قال: كنا في حلقة عبد الله فجاء حذيفة حتى قام علينا، فسلَّم ثم قال: لقد أنزل النفاق على قوم خير منكم، قال الأسود: سبحان الله، إن الله يقول: ﴿إنَّ المنافقين في الدرك الأسفلِ من النار﴾ فتبسم عبد الله، وجلس حذيفة في ناحية المسجد، فقام عبد الله، فتفرَّق أصحابه، فرماني بالحصا، فأتيته، فقال حذيفة: عجبت من ضحكه، وقد عرف ما قلت، لقد أُنزل النفاق على قومٍ، كانوا خيرا منكم ثم تابوا، فتاب الله عليهم والمراد بعبد الله في هذا الحديث: هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وإنما تبسم رضي الله عنه عند سماع كلام حذيفة رضي الله عنه لأنه عرف مراد حذيفة وصدق مقالته وأن مقصوده ألا يغتر الإنسان بما هو عليه من الاستقامة والصلاح لأن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء فلا ينبغي للعبد أن يأمن مكر الله قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح هذا الحديث: قوله «لقد أنزل النفاق على قوم خير منكم» أي ابتلوا به لأنهم كانوا من طبقة الصحابة، فهم خير من طبقة التابعين لكن الله ابتلاهم فارتدوا، ونافقوا فذهبت الخيرية منهم، ومنهم من تاب فعادت له الخيرية، فكأن حذيفة حذر الذين خاطبهم وأشار لهم ألا يغتروا، فإن القلوب تتقلب، فحذرهم من الخروج من الإيمان، لأن الأعمال بالخاتمة، وبيَّن لهم أنهم وإن كانوا في غاية الوثوق بإيمانهم، فلا ينبغي لهم أن يأمنوا مكر الله، فإن الطبقة الذين من قبلهم وهم الصحابة كانوا خيرا منهم، ومع ذلك وجد بينهم من ارتد ونافق، فالطبقة التي هي من بعدهم أمكن من الوقوع في مثل ذلك، وقوله «فتبسم عبد الله» كأنه تبسم تعجبًا من صدق مقالته اهـ والاستثناء في قوله عز وجل: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخْلَصُوا دينَهُم لله فأولَئك مع المؤمنين﴾ الآية يدل على أن من ارتكب ذنبا مهما كان ثم تاب إلى الله عز وجل توبة نصوحا وأصلح واعتصم بالله

وأخلص دينه لله فإن الله عز وجل يتوب عليه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم.﴾ قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولَئك مع المؤمنين وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ المؤمنين أجرا عظيما.﴾ قال أبو جعفر: وهذا استثناءٌ من الله جل ثناؤه، استثنى التائبين من نفاقهم إذا أصلحوا، وأخلصوا الدين لله وحده، وتبرأوا من الآلهة والأنداد، وصدقوا رسوله، أن يكونوا مع المصرِّين على نفاقهم حتى توافيهم مناياهم — في الآخرة، وأن يدخلوا مداخلهم من جهنم، بل وعدهم جل ثناؤه أن يحلهم مع المؤمنين محل الكرامة، ويسكنهم معهم مساكنهم في الجنة، ووعدهم من الجزاء على توبتهم الجزيل من العطاء فقال: ﴿وسوف يؤتِ اللهُ المؤمنين أجرا عظيما.﴾ قال أبو جعفر: فتأويل الآية: ﴿إلا الذين تابوا﴾ أي راجعوا الحق، وآبوا إلى الإقرار بوحدانية الله، وتصديق رسوله وما جاء به من عند ربه من نفاقهم، ﴿وأصلحوا﴾ يعني: وأصلحوا أعمالهم فعملوا بما أمرهم الله به، وأدوا فرائضه، وانتهوا عما نهاهم عنه، وانزجروا عن معاصيه، ﴿واعْتَصَمُوا بالله﴾ يقول: وتمسكوا بعهد الله، وقد دللنا فيما مضى قبل على أن الاعتصام التمسك والتعلق فالاعتصام بالله: التمسك بعهده وميثاقه الذي عهد في كتابه إلى خلقه من طاعته وترك معصيته، ﴿وأَخْلَصُوا دِينَهُم لله﴾ يقول: وأخلصوا طاعتهم وأعمالهم التي يعملونها لله فأرادوه بها، ولم يعملوها رئاء الناس، ولا على شكٍّ منهم في دينهم وامتراءٍ منهم في أن الله محص عليهم ما عملوا، فمجازي المحسن بإحسانه والمسيءِ بإساءته ولكنهم عملوها على يقين منهم في ثواب المحسن على إحسانه، وجزاء المسيء على إساءته، أو يتفضل عليه فيعفو، متقربين بها إلى الله، مريدين بها وجه الله، فذلك معنى

إخلاصهم لله دينهم. ثم قال جل ثناؤه: ﴿فأولَئك مع المؤمنين﴾ يقول: فهؤلاء الذين وصف صفتهم من المنافقين بعد توبتهم، وإصلاحهم، واعتصامهم بالله، وإخلاصهم دينهم، أي: مع المؤمنين في الجنة، لا مع المنافقين الذين ماتوا على نفاقهم، الذين أوعدهم الدرك الأسفل من النار. ثم قال: ﴿وسوف يُؤْتِ اللهُ المؤمنين أجرا عظيما.﴾ يقول: وسوف يعطي الله هؤلاء الذين هذه صفتهم على توبتهم وإصلاحهم واعتصامهم بالله وإخلاصهم دينهم له، وعلى إيمانهم ثوابا عظيما، وذلك درجات في الجنة، كما أعطى الذين ماتوا على النفاق منازل في النار وهي السفلى منها، لأن الله جل ثناؤه وعد عباده المؤمنين أن يؤتيهم على إيمانهم ذلك، كما أوعد المنافقين على نفاقهم ما ذكر في كتابه اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ما يَفْعَلُ اللهُ بعذابكم إنْ شَكَرْتُمْ وآمَنْتُمْ، وكان الله شاكرا عليما.﴾ هذا تقريرٌ لما تقدم في الآية السابقة من إثابته عز وجل التائبين وتأكيد على أنه لا حاجة لله عز وجل في تعذيب من يعذب من العصاة وإثابة من يثيب من الطائعين لأنه عز وجل لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين فهو الغني عن العالمين، وإنما مدار تعذيبهم وجودًا وعدمًا إنما هو كفرهم بالله ورسله وجحودهم لآلاء الله ونعمه فمن شكر وآمن فله الجزاء الجميل ومن كفر وجحد فله العذاب الوبيل، وما في قوله عز وجل: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ استفهامية مفيدة للنفي على أكمل وجه وآكده كأنه قيل: أي شيء يفعل الله سبحانه بتعذيبكم؟ أيتشفى به من الغيظ؟ أم يدرك به الثأر؟ أم يستجلب به نفعا وهو الغني الحميد، أم يستدفع به ضرًّا وهو الفعال لما يريد، إنما يعذبكم بذنوبكم، ويثيبكم بشكركم وإيمانكم، فمن فعل خيرا فليحمد الله ومن فعل شرا فلا يلومن إلا نفسه، والله شاكر للطائعين طاعتهم فيثيبهم على العمل الصالح القليل الأجر الجميل الجزيل، وهو العليم الخبير ولا يظلم ربك أحدا.

قال تعالى : ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ ، وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا . إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا . إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا . أُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا . وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا .﴾

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى أنه لا يعذب الشاكرين المؤمنين الذين أحسنوا سريرتهم بالإيمان وعلانيتهم بالشكران ، وأومأ إلى حبه لهم ولسلوكهم لأنه لا يعذب من يحب ، ولذلك رد على اليهود والنصارى لما قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه فقال لنبيه ﷺ : ﴿قل فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أشار هنا تبارك وتعالى إلى حبه للقسط بين عباده وأنه لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، وأنه يكره من العبد أن يجهر بالسوء من القول لأحد من الناس إلا أن يكون مضطرا إلى ذلك ببيان ظلم من ظلمه حيث لا سبيل إلى دفع ظلمه عنه إلا بذلك فإن له حينئذ أن يخبر عنه من يدفع ظلامته عنه سواء كان قد ظلمه في نفسه أو ماله حيث يقول عز وجل : ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بالسُّوءِ من القول إلا مَنْ ظُلِمَ﴾ وهو عز وجل يشير بذلك إلى أن الظالم مستحق لعذاب الله لأن الله لا يحب الظالمين ، فمن جهر لأحد بالسوء من القول بلا حق كان ظالما يشمله هذا الوعيد ، ويندرج عمله ضمن الأعمال التي يبغضها الله ولا يحبها ، ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أن مطل الغنى ظلم يحل عرضه وعقوبته فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول

الله ﷺ قال: مطل الغنى ظلم، وإذا أتبع أحدكم على مليءٍ فليتبع. وقال البخاري في كتاب الاستقراض من صحيحه: باب لصاحب الحق مقال، ويذكر عن النبي ﷺ: لَيُّ الواجد يحل عرضه وعقوبته. قال سفيان: عرضه: يقول: مطلتني وعقوبته: الحبس اهـ وقال أبو داود: حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي حدثنا عبد الله بن المبارك عن وبر بن أبي دليلة عن محمد بن ميمون عن عمرو بن الشريد عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: لي الواجد يحل عرضه وعقوبته. قال ابن المبارك: يحل عرضه: يغلظ له، وعقوبته: يحبس له. وقال النسائي: أخبرني محمد بن آدم قال: حدثنا ابن المبارك عن وبر بن أبي دليلة عن محمد بن ميمون عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: لي الواجد يحل عرضه وعقوبته. أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال: حدثنا وكيع، قال حدثنا وبر بن أبي دليلة الطائفي عن محمد بن ميمون بن مسيكة وأثنى عليه خيرا، عن عمرو بن الشريد عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: لي الواجد يحل عرضه وعقوبته. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح قول البخاري: ويذكر عن النبي ﷺ: لي الواجد يحل عرضه وعقوبته: والحديث المذكور وصله أحمد وإسحاق في مسنديهما وأبو داود والنسائي من حديث عمرو بن الشريد بن أوس الثقفي عن أبيه بلفظه، وإسناده حسن اهـ ومعنى: لي الواجد أي مطل الغنى. وقال ابن ماجه في الصدقات من سننه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وعلي بن محمد قالا: ثنا وكيع ثنا وبر بن أبي دليلة الطائفي حدثني محمد بن ميمون بن مسيكة «قال وكيع: وأثنى عليه خيرا» عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ: لي الواجد يحل عرضه وعقوبته. والتنصيص على التحذير من الجهر بالسوء أي من رفع الصوت بالطعن في عرض المستور لغير المظلوم هو لبيان الواقع، فالجهر ليس قيدا بل مثله الإسرار كذلك إلا أن الجهر أشد أذى من

الإسرار، وكما يحرم الجهر بالسوء من القول فإنه يحرم الجهر بالسوء من الفعل كذلك، فقيد القول لا مفهوم له كذلك، والتنصيص عليه لأنه الغالب.
ولاشك عند أهل العلم في جواز جرح الشهود والرواة بما يعرفه الجارح فيهم من شر وسوء إقامةً للقسط وحفظا للحق، ولا يحل لمسلم أن يجرح مسلما بما ليس فيه، فقد روى البخاري في صحيحه في كتاب الشهادات في باب الشهداء العدول، وقول الله تعالى: ﴿وأَشهدوا ذَوَىْ عَدْلٍ منكم﴾ و﴿ممن ترضَوْنَ من الشهداء﴾ من طريق حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن عبد الله بن عتبة قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إن أناسا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرا أمنَّاه وقرَّبناه، وليس إلينا من سريرته شيء، والله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه، ولم نصدقه، وإن قال: إن سريرته حسنة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وكان الله سميعا بصيرا.﴾ تذييل متضمن لوعد الوقافين عند حدود الله، ولوعيد المنتهكين لحرمات الله ومقرر لمضمون ما قبله وأن الله عز وجل لا تخفى عليه خافية فهو سبحانه يسمع دبيب النملة ويرى حركاتها في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ولا يغيب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، قال الفخر الرازي رحمه الله في قوله تعالى هنا: ﴿وكان الله سميعا بصيرا.﴾ وهو تحذير من التعدي في الجهر المأذون فيه، يعني: فليتق الله، ولا يقل إلا الحق، ولا يقذف مستورا بسوءٍ، فإنه يصير عاصيا لله بذلك، وهو تعالى سميع لما يقوله، عليم بما يضمره اهـ وقوله تباك وتعالى: ﴿إنْ تُبْدُوا شيئاً أو تُخْفُوهُ أو تَعْفُوا عن سُوءٍ فإنَّ الله كان عَفُوًّا قديرا.﴾ قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية الكريمة: اعلم أن معاقد الخيرات على كثرتها محصورة في أمرين: صدقٍ مع الحق وخُلُقٍ مع الخلق، والذي يتعلق بالخلق محصور

في قسمين: إيصال نفع إليهم ودفع ضرر عنهم، فقوله: ﴿إن تبدوا خيرا أو تخفوه﴾ إشارة إلى إيصال النفع إليهم، وقوله: ﴿أو تَعْفُوا﴾ إشارة إلى دفع الضر عنهم، فدخل في هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر اهـ ومجيء كان في مثل قوله عز وجل: ﴿وكان الله سميعا بصيرا﴾ ومثل قوله عز وجل: ﴿وكان الله عَفُوًّا قديرا.﴾ لتنبيه العباد بأن هذه الصفات ثابتة لله عز وجل وهو متصف بها أزلا ولا يزال متصفا بها، فهي صفات ذات لله تبارك وتعالى، قال الطحاوي رحمه الله في عقيدته المشهورة: مازال بصفاته قديما قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزليا، كذلك لا يزال عليها أبديا، ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم الباري، له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخلق ولا مخلوق، وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم، ذلك بأنه على كل شيء قدير، وكل شيء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شيء، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير اهـ قال ابن أبي العز في شرح قول الطحاوي: مازال بصفاته قديما قبل خلقه إلخ: أي أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال: صفات الذات وصفات الفعل ولا يجوز أن يعتقد أن الله وُصِف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها، لأن صفاته سبحانه صفات كمال، وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بضده، ولا يرد على هذه صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها كالخلق والتصوير، والإماتة والإحياء، والقبض والبسط والطي والاستواء والإتيان والمجيء والنزول والغضب والرضى، ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله، ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا،

ولكن أصل معناه معلوم لنا، كما قال الإمام مالك رضي الله عنه لما سئل عن قوله تعالى ﴿ثم استوى على العرش﴾ وغيرها: كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا. أولئك هم الكافرون حقا، وأعتدنا للكافرين عذابا مُهِينًا. والذين آمنوا بالله ورسله ولم يُفَرِّقُوا بين أحدٍ منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم، وكان الله غفورا رحيما.﴾ بعد أن حذّر الله تبارك وتعالى المؤمنين من سلوك سبيل المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وأن هؤلاء المنافقين إن استمروا على نفاقهم إلى الموت صاروا في الدرك الأسفل من النار، وبيَّن عز وجل عدله مع عباده وفضله عليهم، وأنه يكره أن يجهر أحد بالسوء من القول إلى أحد إلا من كان مظلوما فله أن يجهر ببيان ظلم من ظلمه وحض عباده على بذل الخير سرًّا وعلنا، والعفو عن المسيئين رجاء ما عند الله وترغيبا للمسيئين في الرجوع إلى الله شرع هنا يوضح السبيل المعوج الذي يسلكه أهل الكتاب ويبين عز وجل حكمه فيهم حتى يرتدع المنافقون عن موالاتهم وتقليدهم، ويبين السبيل القويم والصراط المستقيم الذي يسلكه المؤمنون ترغيبا لمن يريد الخير لنفسه في سلوك سبيلهم حيث ذكر عز وجل هنا أن أهل الكتاب يكفرون بالله ورسله ويرغبون في التفريق بين الله ورسله حيث يزعمون أنهم يؤمنون بالله ويكفرون ببعض الأنبياء ككفر اليهود بعيسى ومحمد عليهما السلام وكفر النصارى بسيد المرسلين محمد ﷺ ويزعمون أن هذا السبيل المعوج هو سبيل الله، وجهلوا أن الكفر برسول واحد أو بنبي واحد هو كفر بجميع أركان الإيمان، ولذلك أخبر عز وجل أن هؤلاء هم الكافرون حقا وأنه هيأ لهم عقابا مذلاً لهم في نار جهنم، وأوضح أن العبد لا يكون مؤمنا حتى يؤمن بجميع أركان الإيمان وأن

من سلك سبيل المؤمنين مبشر بعظيم الدرجات وتكفير السيئات . وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في مواضع من كتابه حيث يقول : ﴿قولوا آمنا بالله وما أُنْزِل إلينا وما أُنْزل إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿قل آمنا بالله وما أُنزل علينا وما أنزل على إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا و إليك المصير . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿كذبت قوم نوح المرسلين . ﴾ مع أنه لم يجئهم إلا نوح عليه السلام ولكن الله عز وجل جعل تكذيب نوح تكذيبا لجميع المرسلين ، وكذلك قوله عز وجل : ﴿كذبت عاد المرسلين . ﴾ وقوله : ﴿كذبت ثمود المرسلين . ﴾ وكذلك قوله ﴿كذبت قوم لوط المرسلين . ﴾ وقوله : ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين . ﴾ وكما قال في سورة القمر : ﴿كذبت ثمود بالنذر﴾ وقال : ﴿كذبت قوم لوط بالنذر﴾ .

قال تعالى: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابا مِنَ السَّمَاءِ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ، ثم اتَّخَذُوا العِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَات فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ، وآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا. وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لهم لا تَعْدُوا في السَّبْتِ وأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا. فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ الله وقَتْلِهِم الأَنْبِيَاءَ بغير حق وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ، بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهم فَلا يُؤْمِنُونَ إلا قَلِيلاً. وبِكُفْرِهِمْ وقولهم على مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوه ولَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ، وإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ، مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْم إلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. وإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ويومَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا. فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبيلِ الله كَثِيرًا. وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وأَعْتَدْنَا لِلكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا.﴾

بعد الترهيب من سلوك سبيل أهل الكتاب المعوج والترغيب في سلوك طريق المؤمنين المستقيم شرع عز وجل هنا يذكر فضائح اليهود وتناقضاتهم وتعنتهم مع أنبياء الله ورسله وانتهاكهم لحرمات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق وغير ذلك من المخازي التي يندى لها الجبين مما يُنفِّر من له مسكة من عقل أن يسلك سبيلهم أو أن ينقاد لهم ويواليهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكتاب أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابا من السماء﴾ إلى آخر هذه الآيات، وقد ذكر الله عز وجل في هذا المقام من فضائح اليهود وقواصم

ظهورهم وكبريـات جرائمهم خمس عشرة جـريمة قـاصمة، الأولى: تعنتهم مع شيخ المرسلين وخـاتم النبيين وأفضـل خلق الله أجمعين محمـد ﷺ حيث طلبوا منه ﷺ أن ينـزل عليهم كتابا من السماء يبصرون نزولـه بأعينهم، يكون موجهـاً إليهم بأشخاصهم يخبرهم أن محمـدا هو رسول الله، وتعـامى إخوان القـردة والخنازيـر والجبت والطاغـوت عن الكتاب الكـريم والذكـر الحكيم والقـرآن العظيم الذي أنـزله الله على رسـوله محمـد ﷺ الذي لم تنتـه الجن إذ سمعته حتى قالـوا: ﴿إنَّا سمعنا قرآنـا عَجَبًا. يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فـآمنا به ولن نُشْرِكَ بربنا أحـدا.﴾ وقد شارك اليهود لعنهم الله إخـوانهم أهل الجاهلية من مشركي قريشٍ حيث قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبـوعا. أو تكـون لك جنَّـةٌ من نخيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهارَ خِـلالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السماءَ كما زَعَمْتَ علينا كِسَفًا أو تأتي باللهِ والملائكة قَبِيلاً. أَوْ يكُونَ لَكَ بيتٌ من زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى في السماء ولـن نُؤمِنَ لِرُقِيِّكَ حتى تُنَزِّلَ علينا كتـابا نقرؤُهُ قُلْ سُبْحَـانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إلا بَشَرًا رَسُولاً.﴾ أما القـاصمة الثانية من القـواصم والجرائم التي ارتكبها أهل الكتاب فقـد وجهوها لكليم الله موسى عليه السلام الذي خلصهم الله بـه من العذاب المهين من فرعون، وبعد أن أمره الله فضرب لهم طريقا في البحر يبسًا، وأغرق الله عدوهم فرعون وهم ينظرون، مع ما شاهدوه من المعجزات الأخرى التي أجراها الله عز وجل على يـد مـوسى عليـه السـلام ومع هذه الآيـات الكبرى قـالـوا لموسى عليـه السلام: أرنا الله جهرة، ونسبة السؤال لمعاصري رسول الله ﷺ من اليهود وإن كـان السائلـون هـذا السـؤال القبيح أباءهم الأقـدمين لكن هـؤلاء الموبخين راضون بما فعل آباؤهم ماشـون على منهجهم، وقد وصف الله عز وجل هذه القاصمـة بأنها أكبر من القاصمـة الأولى حيث قال مـواسياً لـرسولـه وحبيبه محمد ﷺ: ﴿فقـد سألُـوا مُوسَى أكبرَ مـن ذٰلك فقالـوا أَرِنَا اللهَ جَهْـرَةً﴾ وقد

تقدم تفسير ذلك في قولـه عز وجل في سورة البقرة: ﴿وإذ قلتم يـاموسى لن نـؤمن لك حتى نـرى الله جهرة فأخـذتكم الصـاعقـة وأنتم تنظرون.﴾ أمـا القاصمـة الثالثة فهي ما ذكـرها الله عز وجل بقـوله: ﴿ثم اتخذوا العِجْلَ من بعد مَا جَاءَتْهم البيناتُ﴾ وقد تقـدم بيان ذلك في تفسير قوله تبارك وتعالى في سورة البقـرة: ﴿وإذْ وَاعَدْنَـا موسى أربعين ليلةً ثم اتخذتُـمُ العجل من بعده وأنتم ظالمون. ثم عفونـا عنكم من بعد ذُلك لعلكم تشكرون.﴾ وفي تفسير قولـه تبارك وتعـالى: ﴿ولقد جاءكـم موسى بالبينـات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتـم ظالمون﴾، ومعنى قـوله عز وجـل هنا: ﴿وآتينـا موسى سلطـانا مُبِينًا.﴾ أي وقد ارتكبـوا هذه الجريمة الشنيعة مع مشاهـدتهم لما أيد الله عز وجل به موسى عليـه السلام من الحجة الظاهرة القاهـرة التي تُعرِّف عباد الله بجـلال الله وعظمته، وأنـه لا إله إلا الله، أمـا القـاصمة الـرابعة فهي عـدم امتثالهم لأمر الله عز وجل لما أمرهم أن يدخلـوا الباب سجدا، وقد تقدم بيان ذلك في تفسير الآية الثامنة والخمسين من سورة البقرة، أما القاصمة الخامسة من قواصم وجرائم اليهود فهي اعتداؤهم في السبت، وقد تقدم بيان ذلك في تفسير قوله عز وجل: ﴿ولقد علمتم الذين اعْتَدَوْا منكم في السبت فقلنا لهم كـونوا قـردة خـاسئين. فجعلناهـا نكـالا لما بين يديها ومـا خَلْفَهَـا وموعظـة للمتقين.﴾ أمـا القاصمـة السـادسة فهي دأبهم على نقض العهـود والمواثيق الغليظة، والقاصمة السابعة: كفرهم بـآيات الله، والقاصمة الثامنة: قتلهم الأنبيـاء بغير حق، وقد تقـدم بيان ذلـك في سورتي البقـرة وآل عمران. أمـا القاصمة التـاسعة فهي قولهم: قلوبنا غلف. وقد تقـدم تفسير ذلك في قوله عز وجل: ﴿وقالوا قُلُوبُنا غُلْفٌ، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون.﴾ وقال عـز وجل هنا: ﴿بل طَبَعَ الله عليها بكفـرهم فلا يؤمنـون إلا قليلا.﴾ والطبع الرين والختم، وقد شابه اليهودَ إخوانهم مشركو العرب كما ذكر الله عز

وجل عنهم حيث يقول: ﴿وقالوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مما تَدْعُونَا إليه وفي آذَانِنَا وَقْرٌ ومن بَيْنِنَا وبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إننا عَامِلُون.﴾ وقد طبع الله عز وجل على قلوب جميع الكافرين كما قال: ﴿خَتَمَ الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غِشَاوَةٌ ولهم عذابٌ عظيم.﴾ أما القاصمة العاشرة فهي قولهم على مريم بهتانا عظيما، حيث نسبوها إلى الزني وهي الطيبة الطاهرة العذراء البتول، وقد جعل الله عز وجل رمي مريم بهذا البهتان كفرا كما توعد من رمى الصديقة بنت الصديق الحصان الرزان أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بأنهم لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم، أما القاصمة الحادية عشرة فهي دعواهم أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم وتباهيهم بذلك وافتخارهم به، ولفظ: ﴿رسول الله﴾ إن اعتبر من تتمة قول اليهود فهو من تهكمهم به على حد قول مشركي قريش في حق محمد ﷺ: ﴿وقالوا ياأيها الذي نُزِّلَ عليه الذكر إنك لمجنون.﴾ وعلى حد قول فرعون في حق موسى عليه السلام: ﴿إنَّ رسولكم الذي أُرْسِلَ إليكم لمجنون.﴾ كأنهم قالوا: قتلنا المسيح عيسى ابن مريم هذا الذي يدعي أنه رسول الله، ويمكن أن يكون منصوبا بأعنى مقدرة، تفظيعا لعظم ما تباهوا به، وقد أكَّدَ الله تبارك وتعالى عدم تمكنهم من قتله وأنهم ما قتلوه وما صلبوه وإنما ألقى الله عز وجل شبهه على أحد الماكرين بعيسى عليه السلام فقتلوا هذا الماكر، وأشار الله عز وجل إلى أنهم في شك من القتيل، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿ومكروا ومَكَرَ اللهُ والله خير الماكرين.﴾ إلى قوله: ﴿واللهُ لا يحب الظالمين.﴾ أن إنجيل متى وإنجيل مرقص يقرران أن الذين أرادوا قتل المسيح وصلبه لم يكونوا يعرفونه، وسقت نص الفقرة السابعة والأربعين والثامنة والأربعين من الفصل (الإصحاح) السادس والعشرين من إنجيل متَّى ونص الفقرة الثالثة والأربعين والرابعة والأربعين من الإصحاح الرابع عشر من إنجيل مرقص ما

يجزم بأنهم في شك واختلاف فيمن قُتل، وذكرت أنه قد جاء في أناجيل النصارى المعتمدة عندهم أن الله أوقع الشك حتى في قلوب الحواريين فصاروا يترددون: هل هذا هو يسوع الذي أخذ ليقتل ويصلب أو غيره.
وقلت هناك: وإن تعجب فعجب أن يصدق النصارى اليهود في أنهم قتلوا المسيح، وصلبوه وبخاصة من انحرف عن الحق وزعم أن عيسى إله أو ابن إله، كيف يخطر على بال من له أدنى مسكة من عقل أن يعتقد أن الإله يصلب أو يقتل. ونقلت هناك ما ذكره «جورج سايل» الإنجليزي في ترجمته للقرآن أن فرقة من أقدم فرق النصارى أنكرت صلب المسيح وصرحوا بأن الذي صلب هو يهوذا الإ سخريوطي الذي كان يشبهه شبهاً تاماً. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإنْ مِنْ أهل الكتاب إلا لَيُؤْمِنَنَّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا.﴾ هذا تأكيد من الله تبارك وتعالى على أن عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب ولم يمت، وفيه إشارة إلى أنه ينزل إلى الأرض آخر الزمان ليقتل المسيح الدجال ويقيم شريعة محمد ﷺ ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويريق الخمر ويضع الجزية ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، وأن جميع اليهود والنصارى يتيقنون يومئذ أن عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب، وقد بين ذلك رسول الله ﷺ فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها، ثم يقول أبو هريرة، واقرأوا إن شئتم: ﴿وإنْ مِنْ أهل الكتاب إلا ليؤمنَنَّ به قبل موته ويَوْمَ القيامة يكون عليهم شهيدا.﴾ والأحاديث الصحيحة الثابتة في نزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة وقتله الدجال قد بلغت حد التواتر، وهو من عقائد أهل

السنة والجماعة، وقد حكى غير واحد من الأئمة كفر من أنكر نزول المسيح قبل يوم القيامة، أما القاصمة الثانية عشرة فهي انغماسهم في الظلم الذي عجل الله بعض عقوبتهم بسببه حيث حرم عليهم بعض الطيبات التي كانت أحلت لهم، والقاصمة الثالثة عشرة هي صدهم عن سبيل الله والمبالغة في صرف الناس عن الدين الحق، والقاصمة الرابعة عشرة هي تعاطيهم الربا مع تحذير أنبياء بني إسرائيل لهم عن تعاطيه، وفي قوله عز وجل: ﴿وقد نُهُوا عنه﴾ رد على واضعي التلمود الذين زعموا لليهود أن الربا غير الفاحش جائز مع اليهودي وأن هذا شرع موسى وصموائيل افتراء على الله ورسوله، وأن الربا الفاحش جائز مع غير بني إسرائيل. أما القاصمة الخامسة عشرة فهي أكلهم أموال الناس بالباطل، وفي قوله عز وجل: ﴿وَأَعْتَدْنَا للكافرين منهم عذابا أَليمًا.﴾ ترهيب لمن استمر على كفره وارتكابه هذه القواصم من اليهود وترغيب في الرجوع إلى الدين الحق والاستجابة إلى إمام المرسلين وشيخ النبيين محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، والْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا. إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كما أَوْحَيْنَا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وسُلَيْمَانَ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً. وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لم نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ، وكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا. رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَكان اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا.﴾

بعد أن ندد الله تبارك وتعالى بالسلوك اليهودي الشائن وذكر خمس عشرة قاصمة من كُبريات جرائم اليهود أوضح عز وجل هنا أن أهل الكتاب ليسوا سواء، وبين أن منهم طائفة راسخة في العلم صاروا في جملة المؤمنين، قد استجابوا للحق الذي بعث الله به رسوله محمدا ﷺ وآمنوا بالقرآن العظيم وبالحق الذي أنزله الله على جميع رسله وأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويؤمنون بالله واليوم الآخر إيمانا صحيحا صادقا، وأن الله عز وجل أعد لهم أجرا عظيما حيث يقول عز وجل هنا: ﴿لَكِنِ الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أُنْزِلَ إليك وما أُنْزِلَ من قَبْلِكَ﴾ الآية. وهذا شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿ضُرِبت عليهم الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إلا بحبلٍ من الله وحبل من الناس وباءُوا بِغَضَبٍ من الله وضُرِبَتْ عليهم المَسْكَنَةُ، ذُلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياءَ بغير حق، ذُلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون. ليسوا سواء، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف ويَنْهَوْنَ عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولَئك من الصالحين. وما يفعلوا من خير فلن

يُكْفَرُوهُ، واللهُ عليمٌ بـالمتقين. ﴾ والراسخـون في العلم منهم أي المتعمقون في العلم من أهل الكتـاب ذوو القدم الثـابتـة على الحق، المستقرون على اتبـاع الهدى، ونصب المقيمين في قـولـه تعالى: ﴿والمقيمين الصـلاة﴾ على المدح، أي وأمدح المقيمين الصلاة، ونظيره قـوله تبارك وتعالى: ﴿والموفـون بعهدهم إذا عاهدوا والصابـرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾ بنصب الصابرين على المدح والتعظيم، ومن عـادة العرب أنهم إذا أرادوا لفت الانتبـاه إلى شيء يمدحونه أو يـذمونه غيروا إعرابه ولم يجعلوه على نسق مـا قبله أو بعده. ومنه قولـه تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والـذين هادوا والصابئون والنصـارى﴾ الآية. ومن ذلك قـول الخِرنق بنت هفـان إحـدى نساء بني سعـد بن ضبيعـة رهط الأعشى في رثاء زوجها بشر بن عمرو بن مـرثد وابنها علقمة بن بشر وأخويها حسان وشرحبيل، ومن قتل معهم من قومها:

لا يبعـــدن قومي الذين هموا   ســم العداة وآفـــة الجـــزر

النـــازلين بكـــل معتـــرك   والطيبـــون معـــاقد الأزر

فقد نصبت النـازلين على المدح مع أن ما قبلـه مرفوع، ومـا بعده مـرفوع، لكنها لما أرادت لفت الانتبـاه إلى شجاعتهم نصبته قبل تمام كلامهـا وفي هذا ردٌّ على من زعـم أن النصب على المدح لا يأتي إلا بعد تمام الخبر، وهو مذهب لا دليل عليه، وقد كثـر النصب على المدح قبل تمام الخبر، كما تقدم وكما قال الشاعر:

إلى الملك القـــرم وابـــن الهمـــام   وليثَ الكتيبـــة في المزدحـــم

وذا الرأي حـين تغـــم الأمـــور   بذات الصليل وذات اللجم

فقـد نصـب «ليث الكتيبـة» و«ذا الـــرأي» على المدح مع أن الاسم قبلهما مخفوض، وكما قال الشاعر:

فليت التي فيها النجوم تواضــعت   على كـل غث منهمـــوا وســـمين

غيوثَ الورى في كل محل وأزمة أسودَ الشرى يحمين كل عرين

فقد نصب غيوث الورى وأسود الشرى على المدح وكما قال الشاعر ابن خياط :

وكل قوم أطاعوا أمر مرشدهم إلا نميرا أطاعت أمر غاويها

الظاعنين ولما يُظعنوا أحداً والقائلون لمن دار نُخليها

وفي قوله عز وجل : ﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ لفت انتباه إلى بطلان دعوى عامة اليهود والنصارى بأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر حيث زعموا أن العزير ابن الله وكما زعمت النصارى أن المسيح ابن الله فمن ادعى أن لله ولداً لم يكن إيمانه بالله إيماناً صحيحاً، وكذلك من زعم أن البعث يوم القيامة بعث أرواح لا بعث أجسام وأن أجسام البشر لا تحيا بعد الموت فإن إيمانه باليوم الآخر إيمان غير صحيح، ولذلك يقول عز وجل : ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أُوتُوا الكتاب حتى يُعْطُوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون . وقالت اليهودُ عزَيرٌ ابنُ الله وقالت النصارى المسيحُ ابنُ اللهِ ذٰلك قولهم بأفواههم يُضَاهِئُونَ قول الذين كفروا من قبلُ، قاتلهم الله أنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم ورُهْبَانَهُم أربابا من دون الله والمسيحَ ابنَ مَرْيَمَ وما أُمروا إلا لِيَعْبُدُوا إلٰها وَاحِدًا لا إلٰه إلا هو، سبحانه عما يُشرِكونَ . ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿أولٰئك سنؤتيهم أجرا عظيما . ﴾ إشارة إلى علو مرتبة الذين استجابوا لله وآمنوا برسوله محمد ﷺ من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام رضي الله عنه وجماعة القسيسين والرهبان الذين بكوا عند سماع القرآن وسارعوا إلى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وسائر أركان الإيمان الذين أشار الله عز وجل إليهم في قوله تعالى : ﴿ذٰلك بأن منهم قسيسين ورُهْبَانًا، وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أُنْزِلَ إلى الرسولِ ترى أعينهم تَفِيضُ من الدمع مما عَرَفُوا من الحق

يقولـون ربنا آمنا فاكتبنـا مع الشاهدين . ومالنـا لا نؤمنُ بالله وما جـاءنا من الحق ونطمع أن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مع القوم الصـالحين . فَأَثَابَهُم اللهُ بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيهـا ، وذٰلك جَزَاءُ المحسنين . ﴾ ففي الإشارة بقـولـه عز وجـل : ﴿أولَئك﴾ المتضمنة لمعنى البعـد إشعـارٌ بعلـو درجتهم وارتفاع منـزلتهم في الفضل ، وقولـه عز وجل : ﴿سنـؤتيهم أجرا عظيما﴾ أي سنعطيهم جـزاءً حسنا كبيرا في جنـات الخلـد حيث يمتعون فيهـا بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطـر على قلب بشر من النعيـم المقيم ، وقـد ثبت بالكتاب والسنة أن من آمن من أهل الكتاب بنبيه ثم آمن بمحمد ﷺ أن الله عز وجل يعطيه أجـره مرتين حيث يقول عز وجل : ﴿الـذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يُتْلى عليهم قالـوا آمنا به إنه الحقُّ من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولَئك يُؤتَـوْنَ أجرهم مرتين بما صبروا﴾ الآيتين . كما روى البخـاري ومسلم من حديث أبي مـوسى الأشعري رضي الله عنـه قال : قـال رسـول الله ﷺ : ثـلاثة لهم أجـران : رجل من أهل الكتـاب آمن بنبيـه وآمن بمحمد ، والعبـد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كـانت عنده أمـة يطؤهـا فأدبها فأحسن تأديبهـا ، وعلمهـا فأحسن تعليمها ، ثم أعتقهـا فتزوجها ، وفي تذييل هذه الآية الكريمـة بقوله تعالى : ﴿أولَئك سنؤتيهم أجرا عظيما . ﴾ مع تذييل الآية السـابقة بقوله عز وجل بعد تعـداد قصائم وجرائم اليهـود : ﴿وأعتـدنـا للكافـرين منهـم عذابـا أليما . ﴾ ضرب في الفصـاحـة والبـلاغـة والإعجـاز القـرآني رفيع ، وتنـاسـب وتنـاسق بلغ الـذروة في بـاب الترهيب والترغيب ، لا جـرم أنه كتـاب أحكمت آيـاته ثم فصلت من لـدن حكيم خبير. وقـولـه تبارك وتعـالى : ﴿إنـا أوحينا إليـك كما أوحينا إلى نـوح والنبيين من بعــده ، وأوحينـا إلى إبـراهيم وإسماعيل وإسحـاق ويعقــوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمانَ ، وآتينا داودَ زَبُورًا . ورسلا

قـد قَصَصْنَاهُمْ عليك من قَبْلُ ورسـلا لم نَقْصُصْهُمْ عليك وكلَّمَ اللهُ مُـوسَى تكْلِيما * رسـلا مُبَشِّرين ومنـذرين لئـلا يكـونَ للنـاس على الله حُجَّـةٌ بعـد الرُّسُلِ، وكان الله عـزيزا حكيما﴾ تقرير وتأكيـد على أنَّ محمدا رسول الله ﷺ ليس بـدعًـا من الـرسـل، ولم يسلك غير درب المرسلين، وأن علماءَ أهل الكتـاب يعلمون ذلك، ويعـرفـونه كما يعـرفـون أبناءهم، لكنَّ أشقيـاءهم يكتمونه والراسخين في العلم منهم طُلَّاب الهدى يؤمنون به ويستجيبون له، وليس على الـرسل إلا البلاغ، ولا يُعْجِـزُ الله شيءٌ. وفي هاتين الآيتين تنـديد وتهديد لليهـود الذين حملهم بُغْضُهُمْ للحق الذي جاء بـه محمد ﷺ على أن يدَّعُوا أنَّ الله تعالى ما أنزل على بشر من شيء كما حكى الله تبارك وتعالى ذلك عنهم حيث يقول: ﴿وما قَدَرُوا الله حقَّ قَدْرِه إذ قالوا ما أنزل الله على بَشَر من شيءٍ قل مَنْ أنزل الكتـابَ الذي جاء بـه موسى نُـورًا وهُدًى للناس تجعَلُـونَهُ قراطيسَ تُبْـدُونَها وتُخْفُونَ كثيرًا وَعُلِّمْتُمْ ما لم تَعْلَمُـوا أنتم ولا آباؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثم ذَرْهُم في خَوْضِهِم يَلْعَبُـون﴾ وقد تَضَمَّنَ قـولُه تعالى: ﴿إنـا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نـوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى إبـراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقـوب والأسبـاط وعيسى وأيوب ويُـونُسَ وهـارون وسليمان، وآتينـا داود زبـورا. ورسـلا قـد قصصنـاهم عليك من قبـلُ ورسـلا لم نَقْصُصْهُمْ عليك﴾. الآيتين، تضمن ممـاثلـة رسـول الله ﷺ لسـائر رسل الله صلى الله عليهم وسلم في الـوحي والرسالـة وإيتاء الكتـاب، وهو شبيـه بقولـه تبارك وتعـالى: ﴿شرع لكم من الدين مـا وَصَّى به نـوحا والـذي أوْحينا إليك ومـا وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ ولا تقتضي هذه المماثلـة أن تكون شرائع الأنبيـاء واحدة، بل لكـل نبي شرعته ومنهـاجه الملائم لأمتـه كما قـال عـز وجل: ﴿لكل جعلنـا منكم شِرْعـةً ومِنْهَـاجًـا﴾ فأصولُ الدين لجميع الأنبياء والمرسلين واحدة، وفروعُ الدين متفاوتةٌ بحسب

الأمم وما يلائمها من الأحكام، وإلى ذلك أشار رسول الله ﷺ فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد. وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وكلم الله موسى تكليما.﴾ رد على من نفى صفة الكلام عن الله عز وجل، فإن التأكيد بالمصدر ينفي المجاز والتأويل، قال النحاس: أجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازا. اهـ ومعنى قوله عز وجل ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل، وكان الله عزيزا حكيما.﴾ أي أرسلت رسلا يبشرون المؤمنين بالجنة وكريم ثوابها وينذرون العاصين بالنار وأليم عقابها حتى لا يحتج الجاحدون الضالون فيقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءهم البشير النذير عليه وعلى إخوانه النبيين من ربهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

قال تعالى: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إليك أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ والملائكة يَشْهَدُونَ، وَكَفَى باللهِ شَهِيدًا. إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قدْ ضَلُّوا ضَلالًا بَعِيدًا. إنَّ الذين كفروا وظلموا لم يكن الله لِيَغْفِرَ لهم ولا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقا. إلا طَرِيقَ جَهنَّمَ خَالِدِينَ فيها أَبَدًا، وكان ذٰلك على الله يَسِيرًا.﴾

بعد التنديد باليهود وسياق صور من جرائمهم مع أنبياء الله ورسله، والثناء على المؤمنين من أهل الكتاب الذين سارعوا إلى تصديق محمد رسول الله ﷺ واستقاموا على شرائع الإسلام، وبيان ما أعد الله لهم من الأجر العظيم والثواب الجليل، وبعد إعلان أن محمدا رسول الله ﷺ ليس بدعا من الرسل وأن صفة الوحي الذي أنزل عليه ﷺ كصفة الوحي الذي أنزله الله على نوح وسائر النبيين، وخص بالذكر منهم من يعلن أهل الكتاب أنهم يؤمنون بهم من النبيين، نبه تبارك وتعالى هنا إلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس في حاجة إلى شهادة اليهود له بأنه رسول الله بل تكفيه شهادة الله له وشهادة الملائكة المكرمين، وكفى بالله شهيدا. وفي هذا مواساة كافية شافية لرسول الله ﷺ مما يلقاه من تعنت اليهود وسفاهتهم وسؤالهم كتابا ينزل عليهم من السماء موجها لأشخاصهم ليعترفوا ويشهدوا بأن محمدا رسول الله ﷺ، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿أنزله بعلمه﴾ أي أنزل عليك القرآن العظيم الذي يعلم السر في السموات والأرض ويعلم من يستحق أن ينال هذا الشرف العظيم ومن هو أهل أن ينزل عليه الكتاب من السماء، والله وحده هو الذي يعلم حيث يجعل رسالته، كما قال عز وجل ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نُؤتَى مِثلَ ما أُوتِيَ رسلُ الله، الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أَمْ يقولون افتراه قل فأتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لكم

فاعلموا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ الله وأَن لا إِلَه إلا هُوَ فهل أنتم مسلمون﴾ ولا شك أن قوله تبارك وتعالى: ﴿أَنْـزَلَهُ بعلمه﴾ يتضمن الثناء العظيم على رسول الله ﷺ وأنه خيرة الله من خلقـه، وصفيه من عبـاده، المتأهل لأن ينزل الله عليـه هذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم، كما يتضمن أن القرآن فيه علم الله الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويبغضه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والحاضر والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته العلي وأسمائه الحسنى التي لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا أن يعلمـه الله عز وجل بها. قال شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله في تفسير قـوله عـز وجل: ﴿شَهِدَ اللهُ أنـه لا إِلَه إلا هُـوَ والملائكة وَأُوْلُـواْ العِلْمِ قـائما بِـالْقِسْطِ، لا إِلَـه إلا هـو العـزيـزُ الحكيمُ. إن الـدين عنـدَ اللهِ الإسلام.﴾ فصلٌ: وكذلك قوله: ﴿لَكِنِ اللهُ يشهد بما أَنْزَلَ إليك أنزله بعلمه والملائكـةُ يشهدون، وكفى بـالله شَهِيـدًا.﴾ فإن شهادتـه بما أنـزله إليـه هي شهادتـه بأن الله أنزله منـه، وأنه أنـزله بعلمه، فما فيـه من الخبر هو خبرٌ عن علم الله ليس خبراً عمن دونه، وهذا كقوله: ﴿فإن لم يَسْتَجِيبُوا لكم فاعلموا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ الله﴾ وليس معنى مجرد كونـه أنزله أنه هـو معلوم له، فإنَّ جميع الأشياء معلومةٌ له، وليس في ذلك مـا يدل على أنها حق، لكن المعنى: أنزله فيه علمـه، كما يقال: فلان يتكلم بعلم، ويقـول بعلم، فهو سبحانه أنـزله بعلمه، كما قال: ﴿قل أنزله الذي يعلم السِّرَّ في السمٰوات والأرض﴾ ولم يقل تكلم بـه بعلمه، لأن ذلك لا يتضمـن نزولـه إلى الأرض، فإذا قـال: «أنزلـه بعلمـه» تضمن أن القـرآن المنزل إلى الأرض فيـه علم الله، كما قـال: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فيه من بَعْد ما جاءك من العلم﴾ وذلك يتضمن أنه كلام الله نفسه، منـه نـزل، ولم ينـزل من عنـد غيره، لأن غير الله لا يعلم مـا في نفس الله من العلم — ونفسـه هي ذاتـه المقـدسة — إلا أن يعلمـه الله بـذلك، كما قـال

المسيح عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ ما في نفسي ولا أَعْلَمُ ما في نَفْسِكَ إنك أنت عَلاَّمُ الْغُيُوبِ.﴾ وقالت الملائكة: ﴿لا عِلْمَ لنا إلا ما عَلَّمْتَنَا﴾ وقال: ﴿ولا يُحيطُونَ بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ وقال: ﴿فلا يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَدًا. إلاَّ مَنِ ارْتَضَى من رسول﴾ فغيبه الذي اختص به لا يظهر عليه أحداً إلا من ارتضى من رسول، والملائكة لا يعلمون غيب الرب الذي اختص به، وأما ما أظهره لعباده فإنه يعلمه من شاء، وما تتحدث به الملائكة فقد تسترق الشياطين بعضه، لكن هذا ليس من غيبه وعلم نفسه الذي يختص به، بل هذا قد أظهر عليه من شاء من خلقه، وهو سبحانه قال: ﴿لَكن اللهُ يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾ فشهد أنه أنزله بعلمه بالآيات والبراهين التي تدل على أنه كلامه وأن الرسول صادق، وكذلك قال في هود: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وادْعُوا مَن استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين.﴾ لما تحداهم بالإتيان بمثله في قوله: ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾ ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، فعجزوا عن ذا وذاك، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا، فإن الخلائق لا يمكنهم أن يأتوا بمثله ولا بسورة مثله، وإذا كان الخلق كلهم عاجزين عن الإتيان بسورة مثله، ومحمد منهم علم أنه منزل من الله، نزَّله بعلمه، لم ينزله بعلم مخلوق، فما فيه من الخبر فهو خبر عن علم الله، وقوله: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السمٰوات والأرض﴾ لأن فيه من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله ما يدل على أن الله أنزله، فذكره ذلك يستدل به تارةً على أنه حق منزل من الله لَكن تضمن من الأخبار عن أسرار السموات والأرض والدنيا والأولين والآخرين وسر الغيب ما لا يعلمه إلا الله، فمن هنا نستدل بصدق أخباره أنه من الله، وإذا ثبت أنه أنزله بعلمه تعالى استدللنا بذلك على أن خبره حق، وإذا كان خبراً بعلم الله فما فيه من الخبر يستدل به عن الأنبياء وأممهم، وتارة عن يوم القيامة وما فيها، والخبر الذي يستدل به

لابد أن نعلم صحته من غير جهته، وذلك كإخباره بالمستقبلات فوقعت كما أخبر، وكإخباره بالأمم الماضية بما يوافق ما عند أهل الكتاب من غير تعلم منهم، وإخباره بأمور هي سرٌّ عند أصحابها، كما قال: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النبيُّ إلى بعض أَزْوَاجِهِ حديثا﴾ إلى قوله: ﴿نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الخَبِيرُ﴾ فقوله: ﴿أنزله الذي يعلم السِّرَّ في السمٰوات والأرض﴾ استدلال بأخباره، ولهذا ذكره تكذيبا لمن قال هو ﴿إِفْكٌ افتراه وَأَعَانَهُ عليه قوم آخَرُون﴾. وقوله: ﴿أَنْزَلَهُ﴾ استدلال على أنه حق وأن الخبر الذي فيه عن الله حق، ولهذا ذكر ذلك بعد ثبوت التحدي وظهور عجز الخلق عن الإتيان بمثله اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الذين كفروا وصَدُّوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا﴾ زيادة تقرير وتأكيد لسلوك اليهود الشنيع حيث يكفرون بالله ويصدون غيرهم عن سبيل الله ووسمهم بأنهم قد جاروا عن قصد الطريق جوراً شديداً، لا يلتفتون إلى داعي الهدى، ولا يستجيبون للنداء الحق، قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ الذين كفروا وصَدُّوا عن سبيل الله قد ضَلُّوا ضلالا بعيدا.﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: إن الذين جحدوا يامحمد نبوتك بعد علمهم بها، من أهل الكتاب الذين اقتصصت عليك قصتهم، وأنكروا أن يكون الله جل ثناؤه أوحى إليك كتابه ﴿وصَدُّوا عن سبيل الله﴾ يعني عن الدين الذي بعثك الله به إلى خلقه، وهو الإسلام، وكان صدهم عنه: قيلهم للناس الذين يسألونهم عن محمد من أهل الشرك: ما نجد صفة محمد في كتابنا وادعاؤهم أنهم عُهِد إليهم أن النبوة لا تكون إلا في ولد هارون ومن ذرية داود، وما أشبه ذلك من الأمور التي كانوا يثبطون الناس بها عن اتباع رسول الله ﷺ والتصديق به وبما جاء به من عند الله، وقوله: ﴿قد ضَلُّوا ضلالا بعيدا﴾ يعني: قد جاروا عن قصد الطريق جوراً شديدا، وزالوا عن المحجة، وإنما يعني جل ثناؤه بِجَوْرِهِمْ عن المحجة وضلالهم عنها

إِخْطَاءَهُمْ دِينَ الله الذي ارتضاه لعباده، وابتعث به رسله، يقول: من جحدَ رسالة محمد ﷺ وصد عما بعث به من الملة من قَبِل منه، فقد ضل فذهب عن الدين الذي هو دين الله الذي ابتعث به أنبياءه. ضلالا بعيدا. اهـ

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا. إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا، وكان ذُلك على الله يَسِيرًا.﴾ هو إخبار منه عز وجل عن حكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله محمد ﷺ الظالمين لأنفسهم بجحودهم دين الله وبصدهم عن سبيل الله وقد أجرموا في حق أنفسهم حيث سلكوا بها طريق الضلال، وأجرموا في حق عباد الله حيث صدوهم عن دين الله حسداً للعرب، وبغياً على رسول الله محمد ﷺ وقد علم الله عز وجل أن هؤلاء مستمرون على كفرهم وظلمهم إلى أن يموتوا، فقضى الله تبارك وتعالى لذلك بأنه لم يكن ليعفو عنهم، بل لابد من عقوبتهم بنار جهنم وفضحهم على رءوس الخلائق يوم القيامة، وأن الله تبارك وتعالى يخذلهم فلا يوفقهم ولا يسددهم ولا يعينهم ولا يؤيدهم بل يكلهم إلى أنفسهم فلا يسلكون إلا الطريق الذي يوصلهم إلى نار جهنم، حيث يكبهم فيها أبدا، لا يتحولون منها، ولا يموتون فيها، بل كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلودا غيرها ليذوقوا العذاب، وذلك سهل على الله يسير.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قد جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ للهِ مَا فى السمٰوات والْأَرْضِ، وَكَانَ اللهُ عليماً حَكِيماً. يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فى دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلا الْحَقَّ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ رسولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ، انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ، إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، لَهُ مَافِي السمٰوات وما فى الْأَرْضِ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلا.﴾

بعد أن نبه الله تبارك وتعالى إلى أن محمدا ﷺ ليس في حاجة إلى شهادة اليهود له بأنه رسول الله بل تكفيه شهادة الله له بذلك وكفى بالله شهيدا، وقد شهدت الملائكة لمحمد ﷺ بأنه رسول الله، وفي إعلان ذلك مواساة لرسول الله ﷺ مما يلقاه من تعنت اليهود وسفاهتهم وسؤالهم كتابا ينزل عليهم من السماء موجهًا لأشخاصهم ليعترفوا ويشهدوا بأن محمدا هو رسول من عند الله، وجه الخطاب هنا إلى جميع المكلفين على طريقة تلوين الخطاب فأمرهم بأن يؤمنوا بأن محمدًا هو رسول من الله وشفع هذا الأمر بتنبيه المكلفين إلى أن إيمانهم بالله وبرسوله محمد ﷺ يجلب لأنفسهم خير الدنيا والآخرة، وأن من كفر فلا يضر إلا نفسه، تنبيها على أن الحجة قد لزمت وأن البرهان قد سطع ولم يبق لأحد بعد ذلك عذرٌ في عدم القبول حيث يقول عز وجل هنا: ﴿ياأيها النَّاسُ قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمِنُوا خيراً لكم، وإن تَكْفُرُوا فإنَّ لله ما في السمٰوات والأرض، وكان الله عليما حكيما.﴾ قال أبو السعود العمادي: وقوله عز وجل: ﴿قد جاءكم الرسولُ بالحق من ربكم﴾ تكريرٌ للشهادة وتقريرٌ لحقية المشهود به وتمهيدٌ لما يعقبه من الأمر بالإيمان، وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتأكيد وجوب طاعته، والمراد بالحق هو القرآن الكريم اهـ ومعنى: ﴿فآمِنُوا خَيْرًا لكم﴾ أي فصدقوا بالله

وبالرسـول الذي قد جاءكم بـالحق من ربكم يكن ذلك خيرا لكم، وفي هذا ترغيب، وقـوله عز وجل: ﴿وإنْ تكْفُرُوا فـان لله ما في السمٰوات والأرض﴾ هو ترهيب من الكفـر بالله وبالرسـول ﷺ، ومعنى: ﴿وإن تكفروا فإنَّ لله ما في السمٰوات والأرض، وكان الله عليما حكيما.﴾ أي وإن تجحـدوا وتكذبـوا محمـدا ﷺ فيما جاءكم بـه من الحق من ربكم فإنكم لن تضروا الله شيئـا ولن تضروا إلا أنفسكم لأن الله غني عنكم فـوبـال معصيتكم وجحـودكم عـائد عليكم، وذلك أن لله ما في السمٰوات والأرض ملكا وخلقـا وتصرفا لا يخرج من ملكوته وقهـره شيء من السمٰوات والأرض ومن كان هذا شأنـه فهو قادرٌ على تعذيبكم بسبب كفركم وجحودكم لا محالـة، وهو عز وجل عالم بأحوال جميع خلقـه، يقضي بالحكمـة في جميع أفعالـه وأقوالـه وشرعه وقـدره، وبعد التنـديـد بقواصـم وكبريات جـرائم اليهـود في حق رسل الله عليهم الصـلاة والسـلام، من التعنت معهم وقتل بعضهـم، وبعـد تـوجيـه النصح لجميع المكلفين وتعريفهـم بأن محمدا ﷺ قـد جاء بالحق مـن ربه، وأن من أطـاعه سعد ومن عصـاه خاب وخسر ولا يضر إلا نفسه، وجه الخطـاب هنا بعنوان أهل الكتـاب الذي يشمـل في الأصل اليهود والنصـارى ونهاهم عن أمـرين خطيرين هما الغلـو في الـدين والقول على الله بغير الحق، حيث قـال تبـارك وتعالى: ﴿ياأهل الكتاب لا تَغْلُوا في دِينِكُمْ، ولا تقولوا على الله إلا الحقَّ، إنما المسيحُ عيسى ابن مَرْيَمَ رسـولُ اللهِ وكَلِمتُهُ أَلْقَاهَـا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ منه فـآمِنُوا بالله ورُسُلِهِ ولا تقـولوا ثلاثةٌ، انْتَهُوا خيرا لكم، إنما الله إلٓه واحـدٌ سبحانه أن يكون لـه ولدٌ، له مـا في السمٰوات وما في الأرض، وكَفَى بـالله وكيلا.﴾ ولا شك أن قولـه عز وجل في هذه الآية الكـريمة بعد النهي عن الغلـو في الدين والنهي عن القـول على الله بغير الحق: ﴿إنما المسيح عيسى ابنُ مَرْيَمَ رسـولُ الله وكلمتُهُ ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منه فآمنوا بالله ورُسُلِهِ ولا تقولوا ثلاثةٌ﴾ يدل

على أن المخاطب بهذا الخطاب أولا وبالذات هم النصارى الذين غلوا في المسيح وجعلوه إلها وابن إله وقالوا: الله ثالث ثلاثة، وإنما جاء الخطاب عاما لليهود والنصارى لأن اليهود لعنهم الله قالوا على الله غير الحق فزعموا أن العزيْر هو ابن الله، سبحانه أن يكون له ولد، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقا أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً، ولهذا قال الله تعالى: ﴿اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الآية، وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم قال: زعم الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله. ثم رواه هو وعلي بن المديني عن سفيان بن عيينة عن الزهري كذلك، ولفظه: إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسولُه. وقال علي بنُ المديني: هذا حديث صحيح مُسْنَد، وهكذا رواه البخاري عن الحميدي عن سفيانَ بن عيينة عن الزهريِّ به، ولَفْظُهُ: فإنما أنا عبد فقولوا: عَبْدُالله ورسولُه اهـ والغلو هو مجاوزة الحد، والإطراء هو الغلو في المدح والكذب فيه، ومن المقرر عند أهل العلم أن سبب كفر بني آدم وخروجهم من الدين الحق هو الغلو في الصالحين، ولذلك حذر رسول الله ﷺ من الغلو فيه صلوات الله وسلامه عليه حماية لجناب التوحيد وسدًّا لذريعة الشرك، كما نهى عن التنطع في الدين، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: هلك المتنطعون. قالها ثلاثا.

كما روى أحمد والترمذي وابن ماجه واللفظ له قال: حدثنا علي بن محمد حدثنا أبو أسامة عن عوف عن زياد بن الحصين عن أبي العالية عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: القط لي حصى. فلقطت له سبع حصيات هن حصى الخَذْف فجعل ينفضهن في كفه ويقول: أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين، والغلو والإطراء هو الطغيان الذي ذكر الله تبارك وتعالى أنه يجلب لمرتكبه غضب الله وقد حذر الله تبارك وتعالى عنه أشد التحذير حيث يقول: ﴿ولا تَطْغَوْا فيه فَيَحِلَّ عليكم غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عليه غَضَبِي فَقَدْ هَوَى.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فَاسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ معك ولا تَطْغَوْا، إنه بما تعملون بَصِيرٌ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنما المسيح عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ رسولُ الله وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مريمَ وَرُوحٌ منه﴾ هذا تعريفٌ بحقيقة المسيح، وبيانٌ للقول الحق فيه، وردعٌ للنصارى الذي غلوا فيه وأفرطوا واتخذوه إلها من دون الله وقالوا: هو ابن الله، وردعٌ لليهود الذين فرَّطوا فيه فجعلوه ولد زنى وقالوا على أمه بهتانًا عظيماً وجحدوا رسالته وكذبوه، وقد قصر الله تبارك وتعالى المسيح على الرسالة فمن جاوز به هذه المنزلة فقد غلا وأفرط وقال على الله غير الحق وافترى إفكا كبيراً. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مريم﴾ أي خلقه الله تعالى بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم فنشأ عن الكلمة التي قال الله له بها كن فكان وقد قلت في تفسير قوله تبارك وتعالى في الآية الخامسة والأربعين من سورة آل عمران: ﴿إذ قالت الملائكة يامريم إنَّ الله يبشرك بِكَلِمة منه﴾ أي بولد عظيم له شأنٌ كبير، وسمي الولد كلمة لأنه وجد بكلمة من الله حيث قال له: كن فكان، وصار يطلق على عيسى عليه السلام كلمة الله على سبيل التغليب أعني صار علما بالغلبة، وإن كان لا يتم شيء إلا إذا قال الله له كن

فيكون اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وروحٌ منه﴾ أي هو روحٌ من الأرواح التي خلقها الله عز وجل وأرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها بإذن الله فكان عيسى عليه السلام، ولهذا كان يسمى كلمة الله وروح الله والإضافة فيهما للإشعار بعلو مرتبة عيسى عليه السلام وطهارته. وقد قال البخاري في صحيحه: قوله: «ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيرا لكم، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض، وكفى بالله وكيلا» قال أبو عبيد: كلمته: كن فكان، وقال غيره: وروح منه: أحياه فجعله روحا، ولا تقولوا ثلاثة، حدثنا صدقة بن الفضل حدثنا الوليد عن الأوزاعي قال حدثني عمير بن هانئ قال حدثني جنادة بن أبي أمية عن عبادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل، قال الوليد: حدثني ابن جابر عن عمير عن جنادة وزاد: من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء اهـ وقال مسلم: حدثنا دواد بن رشيد حدثنا الوليد يعني ابن مسلم، عن ابن جابر قال حدثني عمير بن هانئ قال حدثني جنادة بن أبي أمية حدثنا عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: من قال: أشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق وأن النار حق أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء اهـ ومعنى قوله تعالى: ﴿فآمِنُوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيرا لكم، إنما اللهُ إلٰه واحدٌ سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السمٰوات وما في الأرض، وكفى بالله

وكيلا . ﴾ أي فصدقوا وأيقنوا بأن الله واحد أحد ليس له ولد ولا صاحبة واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله رسوله ، فآمنوا به كإيمانكم بسائر الرسل ولا تجعلوه إلها ولا ابن إله ، ولا تدَّعوا أن عيسى وأمه إلهين مع الله ، واحذروا ذلك أشد الحذر لتسعدوا وتفلحوا ، فإنه لا إله إلا الله تنزه وتقدس أن يكون له ولد أو صاحبة ، لأنه مالك السموات والأرض ، فجميع ما فيهما ملكه وخلقه وعبيده وهم تحت تدبيره ومشيئته وتصريفه ، وهو وكيل على كل شيء فكيف يكون له صاحبةٌ أو ولد ، كما قال عز وجل : ﴿بديع السمٰوات والأرض أنَّى يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبةٌ وخَلَقَ كلَّ شيء وهو بكل شيء عليم . ﴾

قال تعالى : ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يكون عبدًا للهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عن عِبَادَتِهِ ويَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إليه جَمِيعًا. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ من فَضْلِهِ وأَمَّا الذين اسْتَنْكَفُوا واسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ولا يَجِدُونَ لهم من دُونِ الله وَلِيًّا ولا نَصِيرًا. ياأَيُّها الناسُ قد جاءكم بُرْهَانٌ من ربكم وأنزلنا إليكم نورًا مبينا. فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فَسَيُدْخِلُهُمْ فى رحمة منه وفضلٍ ويهديهم إليه صراطا مستقيما.﴾

بعد أن بين الله عز وجل أن عيسى ابن مريم مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى صفة فوقها وأنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه وأنه ليس لأحد أن يرفعه فوق منزلته فيدعي له الألوهية أو أنه ابن الله أو شريكه كما ادعت النصارى عليهم لعائن الله أو أن يجحد رسالته أو يحط من قدره كما فعلت اليهود، لعنهم الله، وساق في ذلك البرهان القاطع والحجة الساطعة الشافية الكافية على أن جميع ما في السموات وما في الأرض مملوكون لله عز وجل وتحت قهره وهيمنته وسلطانه مما ينفي أن يكون له ولد أو شريك أو صاحبة أوضح عز وجل هنا أن عيسى عليه السلام خاضع لله عز وجل يبذل لربه أقصى غاية الذل مع أقصى غاية الحب، وأن الملائكة المقربين خاضعون لله عز وجل يبذلون له أقصى غاية الذل مع أقصى غاية الحب، وأن من استنكف عن عبادة ربه واستكبر فله العذاب الأليم الذي لا يستطيع أحد أن يدفعه عنه وأن عباد الله الذين يبذلون له أقصى غاية الحب مع أقصى غاية الذل المستمسكين بشريعة المرسلين سيجدون عند الله عز وجل الأجر العظيم والثواب الجزيل مع ما يتفضل الله عز وجل عليهم به من النظر إلى وجهه الكريم، حيث يقول عز وجل هنا : ﴿لن يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يكون

عبـدًا لله ولا الملائكـة المقـربــون﴾ الآيتين، وأصل الاستنكـاف هـو الأنفـة والامتنـاع، فمعنى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يكـون عبـدا لله ولا الملائكـةُ المُقَـرَّبُونَ﴾ أي لن يأنف ولن يمتنـع ولن ينقبض المسيح عيسى عليه السـلام ولا الملائكة المقربون من كونهم عبيـداً لله بل بذْلُهم أقصى غاية الحب وأقصى غاية الذل لله وحده هو قرة أعينهم وراحة نفوسهم، ولا يرضون أبداً لأحد أن يشرك بالله شيئاً ولـذلك ذكر الله عز وجل عن عيسى عليه السـلام أنه يقول: ﴿ما قلتُ لهم إلا ما أمَرْتَنِي به أنِ اعْبُدُوا اللهَ ربي وربّكم﴾ وقال عز وجل عن الملائكة: ﴿وَمَنْ عنـده لا يَسْتَكْبِرُونَ عن عبادتـه ولا يَسْتَحْسِرُون. يُسَبِّحُونَ الليلَ والنهار لا يَفْتُرُونَ.﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿وقالوا اتخذ الـرحمن ولدا، سبحانه، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لا يَسْبِقُونَـهُ بالقول وهم بأمره يعملون. يعلم ما بين أيــديهم ومــا خَلْفَهُمْ ولا يَشْفَعُــونَ إلا لمن ارتضى وهم مـن خَشْيَتِــهِ مُشْفِقُـونَ.﴾ وقـولــه عـز وجل: ﴿وَمَنْ يسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَـادِتِـهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيحْشُرُهُمْ إلَيْهِ جَمِيعًا.﴾ وعيد شديد لكل من استنكف واستكبر عن عبادة الله، والاستكبار التعاظم والتعالي، والنسبـة بين الاستنكاف والاستكبار هي العموم والخصوص المطلق والاستكبار أعـم مطلقا، فكل استنكاف استكبار وليس كل استكبــار استنكـافــا، فمن تعـالى عن الشـيء أنفـةً يقــال لـه مستنكف، ومن تعـالى ولو بـدون أنفة يقـال له: مستكبر ومتكبر. وجـواب الشرط محذوف تقديره: فلـه عذاب أليم في نار الجحيم، وقـد حذف جواب الشرط لدلالة ما بعده عليه، وهـو قوله عز وجل: ﴿فَسَيحْشُرُهُمْ إلَيْه جَمِيعًا. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ويَزِيدُهُمْ من فَضْلِهِ وأما الـذين استنكفـوا واستكبروا فَيُعَذِّبُهُمْ عـذابـا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وَلِيًّا ولا نَصِيرًا.﴾ ومعنـى قوله عـز وجل: ﴿فَسَيحْشُرُهم إليـه جَمِيعًا.﴾ أي فسيبعث الله عز وجل الخلائق ويجمعهم ليوم الجمع لا ريب فيه ويجازي كل

عامل بما عمل فمن استنكف واستكبر عن عبادة ربه عـذبه يوم الجزاء عذابا أليما ولا يجد له من دون الله وليـا ولا نصيرا . ومن آمن وعمل الصـالحات وفاه أجره الجميل وأثابه جنات النعيم وتفضل عليه بالنظر إلى وجهه الكريم ، قال أبـو السعـود العمادي في قـولـه عـز وجل : ﴿فسيحشرهم إليـه جميعـا﴾ أي المستنكفين ومقابليهم المدلـول عليهم بذكر عدم استنكـاف المسيح والملائكة عليهم السـلام ، وقد تـرك ذكر أحـد الفريقين في المفصل تعـويلا على إنبـاء التفصيل عنـه وثقة بظهـور اقتضاء حشر أحـدهما لحشر الآخر ضرورة عمـوم الحشر للخلائق كافة كما ترك ذكر أحد الفريقين في التفصيل عند قوله تعالى : ﴿فأمـا الـذين آمنوا بـالله﴾ الآيـة مع عمـوم الخطاب لهما اعتمادًا على ظهـور اقتضاء إثابـة أحدهما لعقاب الآخر ضرورة شمـول الجزاء للكل اهـ وقال ابن جرير: القول في تأويل قوله : ﴿فأمـا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورَهم ويزيدهـم من فضله وأمـا الذين استنكفوا واستكبروا فَيُعَذِّبُهُمْ عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليًّـا ولا نصيرا . ﴾ قال أبو جعفـر: يعني جل ثناؤه بـذلك : فأما المؤمنون المقـرون بوحدانية الله ، الخاضعـون له بالطـاعة ، المتذللون له بالعبوديـة ، والعاملون الصالحات من الأعمال ، وذلك : أن يَرِدوا على ربهم قد آمنـوا به وبـرسله وعملوا بما أتـاهـم به رسلـه من عند ربهم ، من فعل ما أمرهم به ، واجتناب ما أمرهـم باجتنابه ﴿فَيُوَفيهِمْ أُجورَهُمْ﴾ يقول : فيؤتيهم جـزاء أعمالهم الصالحـة وافيا تامـا ، ﴿ويَزِيدُهـم من فضله﴾ يعني جل ثناؤه : ويزيدهم على ما وعدهم من الجزاء على أعمالهم الصالحة والثواب عليها ، من الفضل والـزيادة مالم يعرفهم مبلغـه ، ولم يَحُدَّ لهم منتهاه ، وذلك أن الله وعـد من جـاء من عباده المؤمنين بـالحسنـة الواحـدة عشر أمثـالها من الثواب والجزاء ، فذلك هو أجر كل عامل على عمله الصالح من أهل الإيمان المحـدودُ مبلغـه ، والـزيـادة على ذلك تفضل من الله عليهم ، وإن كـان كل

ذلك من فضله على عباده غير أن الذي وعد عباده المؤمنين أن يوفيهم فلا ينقصهم من الثواب على أعمالهم الصالحة هو ما حد مبلغه من العشر، والزيادة على ذلك غير محدود مبلغها، فيزيد من شاء من خلقه على ذلك قدر ما يشاء، لا حد لقدره يوقف عليه، ثم قال رحمه الله: وقوله: ﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا﴾ فإنه يعني: وأما الذين تعظموا عن الإقرار لله بالعبودة، والإذعان له بالطاعة، واستكبروا عن التذلل لألوهته وعبادته، وتسليم الربوبية والوحدانية له، ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عذابا أليما﴾ يعني: عذابا موجعًا ﴿ولا يجدون لهم من دون الله وليًّا ولا نصيرا﴾ يقول: ولا يجد المستنكفون من عبادته والمستكبرون عنها إذا عذبهم الله الأليم من عذابه سوى الله لأنفسهم ﴿وَلِيًّا﴾ ينجيهم من عذابه وينقذهم منه، ﴿ولا نَصِيرًا﴾ يعني: ولا ناصرًا ينصرهم فيستنقذهم من ربهم، ويدفع عنهم بقوته ما أحل بهم من نقمته، كالذي كانوا يفعلون بهم إذا أرادهم غيرهم من أهل الدنيا في الدنيا بسوء من نصرتهم والمدافعة عنهم اهـ هذا وبعد أن أورد الله تبارك وتعالى الحجة على جميع الفرق من المنافقين والكفار الوثنيين واليهود والنصارى وأجاب عن جميع شبهاتهم، وألزمهم بالبراهين القاطعة التي تخر لها صم الجبال بما يقرر أن محمدا هو رسول رب العالمين عمم الخطاب ووجهه إلى جميع المكلفين فدعا جميع الناس وسائر الفرق والطوائف إلى الاعتراف بالنور والبرهان الذي بعث به إليهم أفضل خلقه وخاتم أنبيائه ورسله محمدًا ﷺ فقال: ﴿ياأيها الناسُ قد جاءكم بُرْهَانٌ من ربكم وأنزلنا إليكم نُورًا مُبينًا. فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فَسَيُدْخِلُهُمْ في رحمة منه وَفَضْلٍ ويهديهم إليه صراطا مستقيما.﴾ والبرهان هو الدليل القاطع والحجة المزيلة للشبهات، والنور المبين هو الضياء الواضح الذي يبين للسالكين المحجة الواضحة، ويكشف لهم سبل السلام حتى ينهجوها، ويحذرهم من مخاطر الطريق التي يحاول الشيطان أن

يوقعهم فيها ، فمن آمن بالله واعتصم به هداه الصراط المستقيم ومن انقاد للشيطان أوصله إلى نار الجحيم ، والعاقل من سلك سبل السلام والمخذول من سلك السبيل المعوج كما قال الشاعر:

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج

وقد وصف الله تبارك وتعالى رسوله محمدا ﷺ والقرآن العظيم الذي أنزله عليه بأنه برهان ونور وسراج منير كما قال هنا : ﴿قد جاءكم برهانٌ من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا . ﴾ وقال في سورة المائدة : ﴿قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين . يَهْدِي به اللهُ من اتَّبَعَ رضوانه سُبُلَ السلام ويُخْرِجُهُم من الظلمات إلى النور بإذنه ويَهْديهم إلى صراط مستقيم . ﴾ وقال في سورة الأنعام : ﴿أَوَ مَنْ كان مَيْتًا فأحييناه وجعلنا له نورا يَمْشي به في الناس كمن مَثَلُهُ في الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زُيِّنَ للكافرين ما كانوا يعملون . ﴾ وقال في سورة الأعراف : ﴿فالذين آمنوا به وعزَّرُوه ونصروه واتَّبَعُوا النُّورَ الذي أُنْزِلَ معه أولئك هم المفلحون . ﴾ وقال في سورة الأحزاب : ﴿ياأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا مُنيرًا . ﴾ وقال في سورة الشورى : ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كُنْتَ تَدْرِي ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكنْ جعلناه نورا نَهْدِي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لَتَهْدِي إلى صراط مستقيم . صراطِ الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، أَلا إلى الله تصير الأمورُ . ﴾ وقال في سورة الجاثية : ﴿هذا بَصَائِرُ للناس وَهُدًى ورحمةٌ لقوم يوقنون . ﴾ وقال في سورة التغابن : ﴿فَآمِنُوا بالله ورسوله والنُّور الذي أنزلنا ، والله بما تعملون خبير. ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿فأما الذينَ آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمةٍ منه وفَضْلٍ ويَهْدِيهِمْ إليه صراطا مستقيما . ﴾ أي فأما الذين صدقوا بالله جل جلاله ورضوا به ربا وأقروا بوعده ووعيده وصدقوا كتبه ورسله واستمسكوا بالعروة

الوثقى مدة حيـاتهم الدنيوية فسيدخلهم ربهم في جنته ويـزيدهم من فضله ويسددهم لسلوك منهج من أنعم عليهم من أهل طاعته، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السـلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات اهـ.

قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ له وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ، وَهُوَ يَرِثُهَا إن لم يكُن لها ولَدٌ، فإن كَانتا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ، وإن كانوا إِخْوَة رجَالا ونِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْل حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ، يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أن تَضِلُّوا، واللهُ بكل شيْءٍ عَلِيمٌ.﴾

هذه الآية الكريمة هي ختام المسك من هذه السورة العظيمة، واختتام السورة بها للفت الانتباه إلى عظمة شأن المواريث ووجوب العناية بها، والوقوف عند حدودها كما نبه إلى ذلك عز وجل بعد ذكر أكثر أحكام المواريث في الآيتين الحادية عشرة والثانية عشرة من هذه السورة عقب ذكر آية الشتاء في الكلالة حيث قال: ﴿تلك حُدُود الله، ومَنْ يطع اللهَ ورسولَه يدخلْه جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها، وذٰلك الْفَوْزُ العظيمُ. ومن يَعْصِ اللهَ ورسوله ويتَعَدَّ حدودَهُ يُدْخلهُ نارًا خالدا فيها وله عذابٌ مُهِينٌ.﴾ وهذه آية الكلالة التي ختم بها سورة النساء تسمى آية الصيف لأن آية الكلالة التي في أوائل السورة نزلت في الشتاء وآية الكلالة هذه نزلت في الصيف. وقد تقدم في تفسير الآية الثانية عشرة من هذه السورة أن الكلالة في أصل اللغة تطلق على معان كثيرة منها الإعياء ومنه قول الأعشى:

فآليت لا أرثي لها من كلالة ... ولا من حفى حتى تلاقي محمدا

وقيل هي من قولهم: تكلله الشيء إذا أحاط به ومنه الإكليل وهو التاج والعصابة المحيطة بالرأس كما قال امرؤ القيس:

أصاح ترى برقا أريك وميضه ... كلمع اليدين في حبي مكلل

وقد ذكر الله تبارك وتعالى الكلالة في موضعين في هذه السورة الكريمة حيث قال عز وجل: ﴿وإن كان رجل يُورَثُ كَلاَلَةً أو امرأةٌ وله أخٌ أو أختٌ فلِكُلِّ واحد منهما السُّدُسُ، فإن كانوا أكثَرَ من ذٰلك فهم شركاءُ في الثلث﴾

وحيث قال هنا : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قل الله يُفْتِيكُمْ في الكَلالَةِ﴾ الآيـة ، وقد أجمع العلماء على أن الإخوة في الموضع الأول هم الإخوة لـلأم ، وأن المراد بالإخوة في هـذا الموضع الذي ذكـرته آيـة الصيف هم الإخـوة الأشقاء أو الإخـوة لأب .

واتضح من الآيتين الكريمتين أن الكلالة هو مـن مات وليس له والد ولا ولد ودلت الآيتان على أن الإخوة كلهـم كلالة . وهذه الآية الكـريمة التي ختمت سورة النسـاء هي آخر آية نزلت مـن القرآن الكريم ، قال البخـاري في كتاب التفسير من صحيحه : باب ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قـل اللهُ يفتيكم في الكَلالَةِ إِنِ امرؤٌ هَلَكَ ليس له ولدٌ وله أخت فلها نِصْفُ ما تَرَكَ وهو يرثها إن لم يكن لها ولدٌ﴾ والكلالة مَنْ لم يرثه أب أو ابن وهو مصدر من تكلله النسب ، حدثنا سليمان ابن حرب حدثنا شعبة عن أبي إسحاق سمعت البراء رضي الله عنه قال : آخر سورة نزلت براءة ، وآخر آية نزلت : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ في الكَلالَة﴾ وقـال في كتـاب الفرائض مـن صحيحه : حـدثنـا عبيـد الله بن مـوسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عـن البراء رضي الله عنه قال : آخـر آية نـزلت خاتمة سـورة النسـاء : ﴿يَسْتَفْتُـونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ في الكَـلالَـةِ﴾ وقـال مسلم في صحيحـه : حـدثنـا علي بن خشرم أخبرنـا وكيع عن ابن أبي خـالـد عن أبي إسحـاق عن البراء قال : آخـر آيـةٍ أنزلت مـن القرآن : ﴿يَسْتَفْتُـونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ في الكَلالَةِ﴾ حـدثنا محمد بن المثنى وابن بشار قالا: حـدثنا محمد بن جعفر حـدثنا شعبـة عن أبي إسحاق قـال : سمعت البراء بن عـازب يقول : آخـر آية أنـزلت آية الكـلالة وآخـر سورة أنـزلت براءة ، حـدثنا إسحـاق بن إبراهيم الحنظلي أخبرنا عيسى (وهو ابن يونس) حدثنا زكرياء عن أبي إسحاق عن البراء أن آخـر سورة أنـزلت تامـة سورة التـوبة ، وأن آخر آيـة أنزلـت آية الكلالة ، وقـد أخرج الشيخان رحمهما الله أن سبب نزول آية الكلالـة هذه هو جـابر بن عبـد الله رضي الله عنهما فقد قـال البخاري في كتـاب الوضـوء من

صحيحه: باب صب النبي ﷺ وضوءه على المغمى عليه، حدثنا أبو الوليد قال حدثنا شعبة عن محمد بن المنكدر قال سمعت جابرا يقول: جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ، وصب عليَّ من وضوئه، فعقلت، فقلت: يارسول الله لمن الميراث، إنما يرثني كلالة، فنزلت آية الفرائض، وقال البخاري في كتاب الطب من صحيحه: باب وضوء العائد للمريض، حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر غُنْدَرٌ حدثنا شعبة عن محمد بن المنكدر قال سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: دخل عليَّ النبي ﷺ وأنا مريض، فتوضأ، فصب عليَّ أو قال: صبوا عليه، فعقلت، فقلت: لا يرثني إلا كلالة، فكيف الميراث؟ فنزلت آية الفرائض.

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا عمرو بن محمد بن بكير الناقد حدثنا سفيان ابن عيينة عن محمد بن المنكدر سمع جابر بن عبد الله قال: مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين، فأغمى عليَّ، فتوضأ ثم صب عليَّ من وضوئه فأفقت، قلت: يارسول الله كيف أقضي في مالي؟ فلم يرد عليَّ شيئا حتى نزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلَالَةِ﴾ وقال أبو داود في سننه: باب في الكلالة، حدثنا أحمد بن حنبل ثنا سفيان سمعت ابن المنكدر أنه سمع جابرا يقول مرضت فأتاني النبي ﷺ يعودني هو وأبو بكر ماشيين، وقد أغمى عليَّ فلم أكلمه، فتوضأ وصبه عليَّ، فأفقت، فقلت: يارسول الله كيف أصنع في مالي ولي أخوات؟ قال: فنزلت آية المواريث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلَالَةِ﴾ باب من كان ليس له ولد وله أخوات، حدثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا كثير بن هشام ثنا هشام — يعني الدستوائي — عن أبي الزبير عن جابر قال: اشتكيت وعندي سبع أخوات فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فنفخ في وجهي، فأفقت، فقلت: يارسول الله ألا أوصي لأخواتي بالثلث؟ قال: أحْسِنْ قلت: الشطر؟ قال: أحسِنْ، ثم خرج

وتركني، فقال: ياجابر، لا أُراك ميتا من وجعك هذا، وإن الله قد أنزل فبين الذي لأخواتك، فجعل لهن الثلثين، قال: فكان جابر يقول: أنزلت هذه الآية فيَّ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلالَةِ﴾ كما روى مسلم في صحيحه من طريق سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة أن عمر بن الخطاب خطب يوم جمعة فذكر نبي الله ﷺ وذكر أبا بكر ثم قال: إني لا أدع بعدي شيئا أهم عندي من الكلالة، ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيه حتى طعن بإصبعه في صدري وقال: ياعمر ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يستفتونك﴾ يعني في الكلالة ولم يذكرها في السؤال اكتفاء بورودها في الجواب في قوله: ﴿قل الله يُفتيكم في الكلالة﴾ والمستفتي هو جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وإنما أورده بصيغة ضمير الجماعة لإفادة تعميم هذا الحكم لجابر وغيره، والسائل قد يكون واحداً لكنه لم يرد بسؤاله حكماً خاصًّا به، ولذلك اعتبر السؤال عاماً منه ومن غيره، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنِ امْرُؤٌ هلك﴾ أي إن مات إنسان، فامرؤ فاعل لفعل محذفٍ يفسره المذكور بعده. وقوله عز وجل: ﴿ليس له ولَدٌ وله أخت فلها نصف ما ترك﴾ أي مات هذا الميت غير ذي ولد وقد ترك أختاً من أبيه وأمه أو من أبيه فقط فلهذه الأخت نصف تركة أخيها هذا، وقوله عز وجل: ﴿ليس له ولد﴾ يعني ولا والدٌ، وإنما ترك ذكر الوالد لأنه معلوم، إذ لو كان الوالد موجودا لم ترث الأخت من أخيها شيئا بالإجماع، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وهو يَرِثُهَا إن لم يَكُنْ لها ولد﴾ أي وإذا كانت الأخت هي الميتة ولم يكن لها ولد ولا والد فإن أخاها سواء كان شقيقا لها أو كان من أبيها فقط فإنه يرث جميع تركة أخته هذه. وهذا كله إذا لم يكن مع هذا الأخ وارث آخر من ذوي الفرض كزوج أو أخ لأم فإن قدر أن معه من له فرض كزوج أو أخ من أم فإن صاحب الفرض

يأخذ فرضه ويصرف الباقي للأخ لما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ كانتا اثْنَتَيْنِ فلهما الثُّلُثَانِ مما ترك﴾ أي وإن كان الميت الموروث كلالة قد ترك أختين فإنهما يستحقان ثلثي التركة بينهما مناصفة، وقوله عز وجل: ﴿اثْنَتَيْنِ﴾ بعد قوله تبارك وتعالى: ﴿كانتا﴾ الدال على اثنتين تنبيه على أن المعتبر في اختلاف الحكم هو العدد دون أي وصف آخر من صغر أو كبر أو صالح أو طالح أو غير ذلك من الصفات. وقد سئل الأخفش: ما فائدة قوله ﴿اثنتين﴾ و﴿كانتا﴾ لا يفسر إلا باثنتين؟ فقال: أفادت العدد العاري عن الصفة لأنه يجوز في ﴿كانتا﴾ صغيرتين أو حرتين أو صالحتين أو طالحتين، فلما قال: ﴿اثنتين﴾ أفاد إطلاق العدد على أي وصف كانتا عليه اهـ وقوله تعالى: ﴿وإن كانوا إخوةً رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ أي وإن كان الورثة كلالة إخوة مختلطة ذكورا وإناثا فللذكر مثل حظ الأنثيين مهما كان العدد، وهذا بخلاف الإخوة من الأم فقط المذكورين في آية الكلالة الشتوية فإن نصيب الذكر منهم كنصيب الأنثى على حد سواء كما تقدم في تفسير الآية الثانية عشرة من هذه السورة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم.﴾ أي يوضح الله عز وجل لكم منهاج السعادة ويعطي كل ذي حق حقه كراهية أن تضلوا أولئلا تضلوا أي تنحرفوا عن قصد السبيل والله وحده هو المحيط بجميع خلقه الخبير بما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون.





تفسير سورة المائدة



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿يَـاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُـودِ، أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إلا ما يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ، إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ.﴾

هذه سورة المائدة، وإنما سميت سورة المائدة لأن الله تبـارك وتعالى قد ذكر قصة المائدة في هـذه السورة في الآيـة الثانيـة عشرة بعد المائة وفي الآيـة الثالثـة عشرة بعد المائة وفي الآية الـرابعة عشرة بعد المائة وفي الآية الخامسـة عشرة بعد المائة حيث قـال تبـارك وتعالى ﴿إذ قـال الحواريـون يـاعيسى ابنَ مـريمَ هل يستطيع ربُّكَ أن يُنَزِّلَ علينا مائدةً مـن السماء قال اتَّقُوا اللهَ إن كنتم مؤمنين. قالوا نـريد أن نأكل منها وتَطْمَئِنَّ قلـوبُنَا ونَعْلَمَ أنْ قَدْ صَدَقْتَنَـا ونكونَ عليها من الشاهدين. قال عيسى ابنُ مَـرْيَمَ اللهم ربَّنَا أَنْزِلْ علينا مائدةً من السماء تكونُ لنـا عِيدًا لأَوَّلِنَا وآخِرِنـا وآيَةً منكَ وارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الـرازقين. قال الله إني مُنَزِّلُهَا عليكَم فمن يكْفُرْ بعـدُ منكم فإني أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَـذِّبُهُ أَحَدًا من العالمين.﴾ ومناسبـة هذه السورة لما قبلها أنه عز وجل لما ذكـر في ختام سورة النساء أنـه يبين الأحكام والشرائع ويضع أكمل المنـاهج لعباده المؤمنين حتى لا يضلوا، شرع في هذه السورة الكريمة يبين لعباده جملة عظيمة من الأحكام الشرعية والقـواعد الدينيـة والمناهج الربـانية قال الإمـام ابن تيمية رحمه الله: سورة المائدة أجمع سورة في القرآن لفروع الشرائع من التحليل والتحريم والأمر والنهي اهـ وقد افتتح الله تبارك وتعالى هذه السـورة الكريمة بقوله عز وجل: ﴿يـاأيها الذين آمنـوا﴾ ولم يفتتح بهذه الافتتاحيـة سوى هـذه السورة وسـورة الحجرات وسورة الممتحنـة، وقد لوحظ أن الله تبارك وتعـالى خاطب المؤمنين

في سورة المائدة هذه بقوله عز وجل: ﴿يـاأيها الـذين آمنوا﴾ في ستة عشر موضعا، ومن المعلوم بالاستقـراء أن الله تبارك وتعالى إذا خاطب المؤمنين بهذا الخطاب أعقبه بأمرهم بخير أو بنهيهم عن شر، ولذلك أُثِـر عن ابن مسعود رضي الله عنه أنـه قال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يـاأيها الذين آمنوا﴾ فـارعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه فقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنـا نعيم بن حماد حـدثنا عبد الله بـن المبارك حدثنـا مسعر حـدثني معن وعوف أو أحدهما أن رجلا أتى عبد الله بـن مسعود فقال: اعهد إليَّ، فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ فـارعها سمعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه، ولاشك أن نداء المؤمنين بهذا الوصف من أعظم أسباب الحض على سرعة الامتثال والانقياد لما يأمرهم الله عـز وجل به أو ينهاهم عنه عقب هذا النـداء. وقوله تبـارك وتعالى: ﴿أَوْفُوا بـالعقود﴾ أي أدوا لكل ذي حق عليكم حقه الـذي تعاهدتم على أدائه والوفـاء به سواء كان حقـا لله عز وجل عليكم مما يقتضيه إيمانكم وانقيادكم لأوامره عز وجل وأوامر رسوله ﷺ أو كان حقا لبعضكم على بعض تعاهدتم على الـوفاء به من الأمانات والبيوع والأنكحة والشركات والأيمان وسـائر المعاهدات مما لا يتنـاقض مع كتاب الله ولا مع سنة رسول الله ﷺ، وسواء كـان إيجابه عليكم من الله عز وجل ابتداءً أو أن تكونوا قـد أوجبتموه على أنفسكم والتزمتم به مـن نذر أو يمين أو نحو ذلك مما حض الشرع على الوفاء به، وهـذه الجملة الموجزة قد وضعت قاعدة كليـة يندرج تحتهـا من الجزئيـات مـا لا يحيط به إلا الله عـز وجل ممـا يجلب للنـاس سعـادة الدنيـا والآخـرة في كل عصر ومصر وجيل وقبيل ولـو لم يكن للناس إلا هذه الجملة لكفتهم، وقد ذكـر الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتـابه الكـريم وصف المؤمنين بأنهم يـوفـون بعهـد الله ولا ينقضون الميثـاق، ووصف الكافرين والمنافقين بأنهم ينقضون العهود والمواثيق حيث يقول تبارك

وتعالى: ﴿وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين. الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، أولَٰئك هم الخاسرون.﴾ وقال عز وجل: ﴿أَفَمَن يعلم أنما أُنْزِلَ إليك من ربك الحقُّ كمن هو أعمى، إنما يتذكر أوْلُواْ الألباب، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق. والذين يَصِلُونَ ما أمر الله به أن يوصل ويَخْشَوْنَ ربهم ويخافون سُوءَ الحساب. والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وَأَنْفَقُوا مما رزقناهم سرًّا وعلانيةً ويَدْرَءُون بالحسنة السَّيِّئَةَ أولَٰئك لهم عقبى الدار. جناتُ عدن يدخلونها ومَنْ صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وَذُرِّيَّاتِهِمْ والملائكةُ يدخلون عليهم من كل باب. سلامٌ عليكم بما صبرتم، فَنِعْمَ عُقْبَى الدارِ. والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر اللهُ به أن يُوصَلَ ويُفْسِدُون في الأرضِ أولَٰئك لهم اللعنة ولهم سُوءُ الدارِ.﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿ومِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللهَ لئن آتانا من فضله لَنَصَّدَّقَنَّ ولنكُونَنَّ من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بَخِلُوا به وتَوَلَّوْا وهم معرضون. فأعقبهم نِفَاقا في قلوبهم إلى يوم يَلْقَوْنَهُ بما أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وبما كانوا يَكْذِبُونَ.﴾ وقال تعالى في المؤمنين: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم رَاعُونَ.﴾ وقال في الكافرين: ﴿لا يَرْقُبُونَ في مؤمنٍ إلا ولا ذمةً وأولَٰئك هم المعتدون.﴾ كما وصف رسول الله ﷺ المنافقين بالغدر ونقض العهد فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان. زاد مسلم في رواية له: وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم. وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدث

كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر. وأنذر رسول الله ﷺ الغادر بأنه سترفع له راية غدره أمام الأولين والآخرين يوم القيامة، فقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواءٌ، فقيل: هذه غدرة فلان ابن فلان. وفي رواية لمسلم: لكل غادر لواءٌ يوم القيامة يعرف به، يقال: هذه غدرة فلان. كما روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه العمل ولم يوفه أجره. وقد جعل الله تبارك وتعالى في قمة أعمال الأبرار الوفاء بالنذر حيث يقول عز وجل: ﴿إِنَّ الْأَبرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كان مِزاجُهَا كَافُورًا. عَيْنًا يَشْرَبُ بها عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا. يُوفُونَ بالنذر ويخافون يوما كان شَرُّهُ مستطيرا. ويُطْعِمُونَ الطعامَ على حُبِّهِ مسكينا ويتيما وأسيرا.﴾ الآيات. وقوله تبارك وتعالى: ﴿أُحِلَّتْ لكم بَهِيمَةُ الأنعام إلا ما يُتْلَى عَلَيكُمْ غَيْرَ محلي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ، إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ.﴾ شروع في تفصيل وبيان ما عهد به إلى أمة محمد ﷺ الذين انقادوا إلى أمر الله الذي أمرهم وطالبهم أن يوفوا به، وتذكير لهم بما تفضل به عليهم حيث أحل لهم أكل ما ذكروا اسم الله عليه من لحوم ذبيحة بهيمة الأنعام وهي الأزواج الثمانية المذكورة في قوله عز وجل: ﴿ومن الأنعام حمولةً وفَرْشًا، كلوا مما رزقكم اللهُ ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشيطان، إنه لكم عَدُوٌّ مُبِينٌ. ثمانيةَ أزواج من الضأن اثْنَيْنِ وَمِنَ المَعْزِ اثْنَيْنِ، قل ءَالذكرين حَرَّمَ أمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشتملت عليه أرحامُ الأنثيين نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إن كنتم صادقين. ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين، قل ءَالذكرينِ حرَّمَ أم الأنثيين أمَّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداءَ إذا وصاكم الله بهٰذا، فمن أظلم ممن افترى على الله كَذِبًا لِيُضِلَّ

الناسَ بغير علم، إنَّ الله لا يهدي القومَ الظالمين.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أنـا خلقنا لهم مما عَمِلَتْ أيـدينا أنعامـا فهم لها مالكون. وَذَلَّلْنَـاهَا لهم فمنها رَكُـوبُهُمْ ومنها يأكلـون. ولهم فيها منـافعُ ومشاربُ أفـلا يَشْكُرُون.﴾ وإضافة البهيمة إلى الأنعام للبيان كثوب الخز، وإفرادها لإرادة الجنس، وقد ألحق الله تبارك وتعالى بقوله عـز وجل: ﴿أُحِلَّتْ لكم بهيمة الأنعام﴾ نوعين من الاستثناء، الأول: قـوله: ﴿إلا مـا يُتْلى عليكم﴾ والثاني: قـوله: ﴿غير مُحِلِّي الصَّيْدِ وأنتم حُرُمٌ﴾ وقد بَيَّن عز وجل بالاستثناء الأول ما حَرَّمه من بهيمة الأنعام تحريما مؤبدا، وبَيَّنَ بالاستثناء الثـاني ما حرمه من بهيمة الأنعام تحريما مـؤقتًا، إذ المراد بقـولـه عـز وجل: ﴿إلا ما يتلى عليكـم﴾ أي إلا ما يقـرأ في كتاب الله تعـالى تحريمه عليكم وهـو ما ذكره في قـوله عـز وجل: ﴿إنما حَرَّمَ عليكم الميتة والدَّمَ ولحم الخِنْزِير ومـا أُهِلَّ به لغير الله فمن اضْطُرَّ غير باغ ولا عـادٍ فلا إِثْمَ عليـه، إنَّ الله غفور رحيم.﴾ وفي قـولـه عز وجل: ﴿حُـرِّمَتْ عليكم المَيْتَـةُ والـدَّمُ ولحمُ الخنزيـرِ ومـا أُهِلَّ لغير الله بـه والمنخنقة والموقـوذةُ والمتردِّيَـةُ والنطيحةُ ومـا أَكَلَ السَّبُعُ إلا مَا ذَكَّيْتُمْ ومـا ذُبِحَ على النُّصُبِ﴾ وفي قوله: ﴿قل لا أَجدُ في ما أُوحِيَ إليَّ محرما على طاعم يَطْعَمُه إلا أن يكون مَيْتَةً أو دما مسفـوحا أو لحم خِنْـزِيرٍ فإنـه رِجسٌ أو فِسْقًا أُهِلَّ لغير الله بـه، فمن اضطر غيرَ بـاغ ولا عادٍ فإنَّ ربك غفـورٌ رحيم.﴾ إلى غير ذلك من الآيات، كما بين عز وجل بـالاستثناء الثاني أن ما كـان من بهيمة الأنعام صيدًا كـالبقر الوحشيـة والتيوس البريـة فإنه يحرم عليهم صيده في حـالة الإحـرام بالحج أو بالعمرة فإذا تحلل المحـرم من إحرامه جاز لـه صيد البر مالم يكن في الحرم كما قـال عز وجل: ﴿لا تقتلـوا الصيد وأنتم حُـرُمٌ﴾ وكما قال: ﴿وحُـرِّم عليكم صَيْـدُ البَرِّ مادمتم حُـرُمًا﴾ وكما قـال: ﴿وإذا حَلَلْتُمْ فاصْطَـادُوا﴾ ومعنى: ﴿وأنتم حُرُمٌ﴾ أي وأنتم محرمون، وواحد الحُرُم حرام يقال: رجل حرام، وقوم

حرم قال المضرَّب بن كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني :

فقلت لهـا فيئـي إليـكِ فإنني حـرام وإني بعـد ذاكِ لبيـب

فمعنى قولـه : حرام أي محرم ومعنى قولـه : لبيب أي ملبٍّ ، وقد استعمل الشاعر هنـا «بعد» بمعنى مع كما في قوله تعـالى : «والملائكة بعد ذٰلك ظهير» وكما في قوله تعالى : ﴿عُتُل بعـد ذٰلك زنيم . ﴾ وكما في قوله تعالى : ﴿والأرضَ بعد ذٰلك دحاهـا﴾ أي مع ذلك وقد ذيل الله تبارك وتعالى هذه الآيـة بقوله : ﴿إن اللهَ يَحْكُمُ ما يُـريدُ . ﴾ للتنبيه على أنه عز وجـل يقضي في خلقه بما يشاء من التحليل والتحـريم ، ولا يُـحِل الحكيم العليم إلا الطيبـات التي تُصلح أبـدان العبـاد وأرواحهم ، ولا يحرم إلا الخبـائث التي تضر أبـدان العبـاد أو أرواحهم وأخلاقهم كما قال عز وجل في وصـف حبيبه محمد ﷺ : ﴿يأمرهم بـالمعـروف وينهـاهم عن المنكـر ويُحِلُّ لهم الطيبـات ويحرم عليهم الخبـائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ ولا الشَّهْرَ الحرامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا، وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا، ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا، وتَعَاوَنوا على الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ولا تَعَاوَنُوا على الْإِثْمِ والعُدْوَانِ، واتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.﴾

بعد أن أمر الله عز وجل المؤمنين أن يوفوا بالعقود وامتن عليهم بما أباح لهم من بهيمة الأنعام ونبههم إلى وجوب اجتناب ما حرمه عليهم من هذه البهائم تحريما مؤبدا وما حرمه عليهم منها تحريما مؤقتا بوقت كونهم محرمين، ولفت انتباههم إلى جليل حكمته وحُكمه فيما يحرم ويحلل، شرع عز وجل يعهد إلى عباده المؤمنين ويوصيهم بالمحافظة على شعائر الله وينهاهم عن التعدي عليها ويحذرهم من انتهاكها ويطلب منهم أن يحترموا الشهر الحرام فلا يقاتلوا فيه وأن يحترموا الهدى والقلائد وقاصدي بيت الله الحرام، وأباح لهم الصيد بعد التحلل من الإحرام وحضهم على أن يعدلوا في معاملة أعدائهم وألا يحملهم صد مشركي قريش لهم عن المسجد الحرام يوم الحديبية أن يعتدوا عليهم، وأمرهم بالبر والتقوى وأن يتعاونوا على ذلك، وحذرهم من التعاون على الإثم والعدوان، وأكد عليهم بملازمة تقوى الله عز وجل والخوف من أليم عقابه حيث يقول عز وجل هنا: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تُحِلُّوا شعائرَ الله ولا الشهرَ الحرامَ ولا الْهَدْيَ ولا القلائدَ ولا آمِّينَ البيتَ الحرامَ﴾ الآية. وشعائر الله تطلق على حرمات الله وحدوده ومراسيم شريعته وأمره ونهيه وفرائضه وسائر معالم دينه كما تطلق على مناسك الحج ومشاعره والهدي والبدن المهداة قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: وأولى التأويلات بقوله: ﴿لا تُحِلُّوا شعائر الله﴾ قول عطاء الذي ذكرناه من

تـوجيهه معنى ذلك إلى : لا تحلـوا حـرمات الله ، ولا تضيعـوا فرائضـه ، لأن الشعـائر جمع «شعيرة» والشعيرة فعيلة من قـول القائل : قـد شعر فـلان بهذا الأمر إذا علم به ، فـالشعائر: المعالم من ذلك ، وإذا كان ذلـك كذلك ، كان معنى الكلام : لا تستحلـوا أيها الذين آمنوا معالم الله ، فيـدخل في ذلك معالم الله كلها في منـاسك الحج : من تحريم ما حـرم الله إصابته فيهـا على المحرم ، وتضييع ما نهى عن تضييعه فيهـا ، وفيما حرم من استحلال حرمـات حرمه ، وغير ذلك من حدوده وفرائضه ، وحلاله وحرامه ، لأن كل ذلك من معالمه ، وشعائره ، التي جعلها أماراتٍ بين الحق والباطـل ، يعلم بها حلاله وحرامه ، وأمره ونهيه ، وإنما قلنا : ذلك القول أولى بتأويل قوله تعالى : ﴿لا تُحِلُّوا شعائر الله﴾ لأن الله نهى عن استحلال شعائره ومعالم حدوده وإحلالها نهيًا عامًّا من غير اختصـاص شيءٍ من ذلك دون شيء ، فلم يجز لأحـدٍ أن يـوجـه معنى ذلك إلى الخصوص إلا بحجة يجب التسليم لها ، ولا حجة بـذلك كذلك اهـ ومعنى قـولـه تبـارك وتعالى : ﴿ولا الشهـر الحرام﴾ أي ولا تستحلـوا الشهـر الحرام فتستبيحوا قتـال أعدائكم من المشركين فيـه ، والمراد بالشهـر الحرام هنا الجنس أي الأشهـر الحرم وهي ذو القعـدة وذو الحجة والمحـرم ورجب مضر الـذي بين جمادى وشعبان ، وقـد نص الله تبـارك وتعـالى على أنـه حرَّم هـذه الأشهر الأربعة منذ خلق السموات والأرض حيث يقول عز وجل : ﴿إنَّ عِدَّةَ الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خَلَقَ السمٰوٰتِ والأرضَ منها أربعةٌ حُرُمٌ ، ذٰلك الدِّين القيم ، فـلا تظلموا فيهن أنفسكم ، وقاتلوا المشركين كافَّـةً كما يقاتلونكم كافـةً ، واعلموا أَنَّ الله مع المتقين . ﴾ وقد نـدد عز وجل بتـلاعب المشركين بهذه الأشهر الحرم حيث كـانـوا إذا أرادوا الغارة فيهـا على أعدائهم غيروا اسم الشهر الحرام وأجلوه إلى الشهـر الذي بعده وأطلقوا اسم الشهر الحرام على الشهر الـذي يليه وهذا العمل الذي كانـوا يعملونه يسمى

النسىء، فبين الله عز وجل أن عملهم هذا زيادةٌ في الكفر حيث يقول: ﴿إنما النسىء زيادةٌ في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ ما حرَّمَ الله فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللهُ، زُيِّنَ لهم سُوءُ أعمالهم، والله لا يَهْدِي القومَ الكافرين.﴾ وقد شدد رسول الله ﷺ التأكيد على حرمة الأشهر الحرم في خطبته يوم النحر في حجة الوداع فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر قال: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، وقال: أي شهرٍ هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى، قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس البلدة؟ قلنا: بلى، قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً، يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع. وقوله عز وجل: ﴿وَلا الْهَدْيَ﴾ أي ولا تتعرضوا للهدي بسوء ولا تحبسوه عن بلوغ محله، وقد كان المشركون من قريش قد صدوا رسول الله ﷺ ومنعوه من الوصول إلى المسجد الحرام عام الحديبية ومنعوا الهدي أن يبلغ محله يعني بيت الله الحرام كما قال عز وجل: ﴿هُمُ الذين كفروا وصَدُّوكم عن المسجد الحرام وَالْهَدْيَ معكوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ والهدي هو ما يهدى إلى بيت

الله الحرام من ناقة أو بقرة أو شاة تقربا إلى الله تبارك وتعالى. وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله عز وجل: ﴿هَـدْيًا بَالِغَ الكعبةِ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿والقلائد﴾ أي ولا تستحلوا القلائد ولا تنتهكوا حرمتها، والقلائد جمع قلادة وهي في الأصل ما يجعل حول العنق للزينة أو لغيرها والمراد بالقلائد هنا ما كان العرب يفعلونه بأنفسهم أو بهداياهم المهداة إلى البيت الحرام ليعلم من يرى ذلك بأن صاحبه مسالم لا يرغب في قتال أحد، وأن بهيمة الأنعام التي وضعت عليها القلادة هي هدى لله عز وجل وقد أقر الإسلام تقليد الهدي، فقد روى البخاري ومسلم من حديث الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: أهدى النبي ﷺ مرة إلى البيت غنماً فقلدها. وفي رواية لهما عنها قالت: فَتَلْتُ قلائدها من عهنٍ كان عندي، ثم بعث بها مع أبي. وفي رواية لهما أيضا من حديثها رضي الله عنها قالت: فتلت قلائد بدن النبي ﷺ بيدَيَّ، ثم قلدها وأشعرها، وأهداها، فما حرم عليه شيء كان أحل له. كما روى مسلم من حديث حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: صلى رسول الله ﷺ الظهر بذي الحليفة، ثم دعا بناقته فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن وسَلَتَ الدم عنها، وقلدها نعلين، ثم ركب راحلته، فلما استوت به على البيداء أهل بالحج. وقد كان من عادة العرب أنهم يتخذون قلائدهم التي يعلنون بها مسالمتهم من لحاء الشجر أي من قشره ويضفرونه ويُحكِمون جدله وفتله ثم يجعلونه قلادة، ويعيبون أشد العيب من اعتدى على أصحاب هذه القلائد كما قال الشاعر حذيفة بن أنس الهذلي:

ألا أبلغا جُـل السواري وجابـرا ... وأبلغ بني ذي السهم عني ويعمَرا
وقولا لهـم عني مقالة شاعر ... ألمَّ بقـول لم يحاول ليفخـرا
لعلكمـوا لما قتلـتم ذُكِرتمـوا ... ولن تتركوا أن تقتلوا من تعمـرا

ألم تقتلوا الحِرجَين إذ أعرضا لكم يمران بالأيدي اللحاء المضفرا

قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط في مادة «حرج»: إنما عني بالحرجين رجلين أبيضين كالودعة، فإما أن يكون البياض لونهما، وإما أن يكون كنى بذلك عن شرفهما، وكان هذان الرجلان قد قشرا لحاء شجر الكعبة ليتخفرا بذلك، والمضفَّر: المفتول كالضفيرة اهـ أما ما ثبت عن رسول الله ﷺ من الأمر بقطع الأوتار والقلائد من أعناق الإبل فإن المراد منه ما كان أهل الجاهلية يفعلونه حيث كانوا يقلدون الإبل أوتار القسي لئلا تصيبها العين بزعمهم فنهى النبي ﷺ عن ذلك كما نهى عن كل تميمة وهي ما يعلق خشية العين فمن تعلق تميمة فلا أتم الله له، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث مالك عن عبد الله بن أبي بكر عن عباد بن تميم أن أبا بشير الأنصاري أخبره أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره قال: فأرسل رسول الله ﷺ رسولا قال عبد الله بن أبي بكر: حسبت أنه قال: والناس في مبيتهم: لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت، قال مالك: أُرى ذلك من العين. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا آمِّينَ البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا﴾ أي ولا تتعرضوا بأذى لقاصدي البيت الحرام وزوار الكعبة المشرفة الذين يعتمرون أو يحجون طلبا لفضل الله ومرضاته، وهذا وإن كان الخطاب فيه للمؤمنين ففيه تنديد بكفار قريش الذين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عام الحديبية فهو على حد قول الشاعر: إياك أعني واسمعي ياجارة، وهو مع ذلك نصيحة للمؤمنين إلى يوم القيامة حتى لا يصد أحد من المسلمين المعروفين بالاستقامة وعدم الإفساد في الأرض عن الحج أو العمرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ أي وإذا حللتم من إحرامكم وكنتم في غير الحرم جاز لكم صيد البر الذي كان محرما عليكم بسبب الإحرام المستفاد من قوله تبارك وتعالى في الآية السابقة:

﴿غير مُحِلِّي الصيد وأنتم حُرُمٌ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ولا يجرمنكم شنآن قومٍ أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم منعوكم من زيارة المسجد الحرام يوم الحديبية أن تظلموهم ، ثم أمر عز وجل المؤمنين بقواعد الخير وأصول التكافل الاجتماعي حيث قال : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ .

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُم الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ به وَالْمُنْخَنِقَةُ والْمَوْقُوذَةُ والْمُتَرَدِّيَةُ والنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إلا ما ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بالأَزْلامِ، ذٰلِكُمْ فِسْقٌ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.﴾

هذا شروع في بيان المحرمات من المطاعم، وتفصيل لما أجمله الله عز وجل من محرمات بهيمة الأنعام في قوله تبارك وتعالى في الآية الأولى: ﴿إلا ما يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾، وقد ذكر الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة من محرمات المطاعم أحد عشر نوعا، تقدم تفسير الأنواع الأربعة الأول منها وهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به في تفسير الآية الثالثة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة، أما النوع الخامس من هذه الأنواع فهو المنخنقة أي الحيوان الذي فارق الحياة بسبب الخنق سواء كان بعصر حلقه والضغط على عنقه حتى يموت كما كان أهل الجاهلية يفعلون حيث كانوا يخنقون البهيمة فإذا ماتت أكلوها، أو كان هذا الخنق لها بغير قصد كأن تتخبل في وثاقها فتموت أو أن تخنق بحبل الصائد أو أن تدخل رأسها بين عودين في شجرة عند الرعي أو غيره فتموت من ذلك فبأي وجه اختنقت فهي حرام لا يحل أكلها، والنوع السادس هو الموقوذة وهي التي تضرب أو ترمى بشيء ثقيل غير محدد كخشب أو حجر أو غيرهما حتى تفارق الحياة، وقد كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصي حتى إذا ماتت أكلوها، فقد روى البخاري ومسلم من طريق الشعبي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن المعراض فقال: إذا أصبت بحده فكل، فإذا أصاب

بعرضه فقتل فإنه وقيذ فـلا تأكل. وفي لفظ للبخاري من حديث عدي رضي الله عنه قال: قلت: وإنـا نرمي بالمعراض؟ قال: كُلْ ما خـزق، وما أصاب بعرضـه فلا تأكل. وفي لفظ مسلم: قلت لـه: فإني أرمي بالمعـراض الصيد فأصيب؟ فقال: إذا رميت بـالمعراض فخزق فكلـه، وإن أصابه بعرضـه فلا تأكلـه. قال ابن التين: المعـراض عصا في طـرفها حديـدة يرمـى الصائد بها الصيد فما أصـاب بحده فهو ذكي فيؤكـل، وما أصاب بغير حده فهـو وقيذ اهـ ومعنى خـزق أي نفذ فيه السهم وجـرحه. والنوع السـابع: المتردية وهي البهيمـة التي تقع من مكان مـرتفع كجبل أو نحـوه أو تسقط في بئر فتمـوت بذلك. والنوع الثامن: النطيحـة وهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها فهي حرام وإن جرحها القرن وخرج منها الـدم ولو من مذبحها لأن القرن ليس آلة تـذكيـة. واعلم أن دخـول الهاء في هـذه الكلمات الأربع، أعني: المنخنقـة والموقوذة والمتردية والنطيحة إنما كان لأنها صفات لموصوف مؤنث وهو البهيمة كأنه قيل: حـرمت عليكم البهيمة المنخنقة والموقوذة والمترديـة والنطيحة قال الفخر الـرازي: فإن قيل: لم أثبت الهاء في النطيحة مع أنها كـانت في الأصل منطـوحة فعـدل بها إلى النطيحـة، وفي مثل هـذا الموضع تكون الهاء محذوفـة كقـولهم: كف خضيب، ولحية دهين، وعين كحيل؟ قلنـا: إنما تحذف الهاء من الفعيلة إذا كانت صفة لموصوف يتقـدمها، فإذا لم يذكر الموصوف وذكرت الصفة وضعْتَها مـوضع الموصوف، تقول: رأيت قتيلة بني فـلان بالهاء لأنك إن لم تدخل الهاء لم يعـرف أرجل هو أو امرأة اهــ والنوع التـاسع من محرمات المطاعم مـا أكل السبع وهي البهيمة التي عـدا عليها أسد أو فهـد أو نمر أو ذئب أو كلب ونحو ذلك من كل حيوان له ناب يفترس به ويعدو على الناس والـدواب، ومعنى قولـه عز وجـل: ﴿وما أكل السَّبُعُ﴾ أي ومـا أكل السبع بعضه وأفضل بعضـه وماتت البهيمة من ذلك، ففي الكلام محذوف تقـديره

وما أكل منه السبع، لأن مـا أكله السبع فقد نفد ولا حكم له لأنـه قد صار معدوما لا وجود له بين أيدي الناس، وقد أجمع علماء المسلمين على تحريم ما أكل السبع منه وماتت البهيمة من ذلك حتى لو كان السبع قد جرحها وسال منها الدم ولـو من مذبحها، وقد كان أهل الجاهليـة يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقـرة أو نحو ذلك فحـرم الله ذلك على المؤمنين. فإن قـال قائل: أليست المنخنقـة والموقوذة والمترديـة والنطيحة ومـا أكل السبع في معنى الميتة وقـد نص على تحريم الميتة في أول هذه الآيـة فلماذا هذا التنصيص على هـذه الخمس؟ فالجواب أن العـرب كانـوا يفرقـون بين الميتة التي مـاتت حتف أنفهـا وبين هذه الخمس ولا يطلقـون على هذه الخمس اسم الميتـة كما يسمون من مات من الناس حتف أنفه ميتـاً ويسمون من فارق الحياة بضربه بـالسيف ونحـوه قتيـلا كما كـانــوايفـرقـون بين الميتـة وبين هـذه الخمس في الاستعمال حيث كـان الكثير من أهل الجاهليــة لا يأكلـون الميتـة ويأكلـون المنخنقة والموقـوذة والمتردية والنطيحـة وما أكل السبع، وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿إلا ما ذكيتم﴾ أي إلا ما أدركتم فيه الروح من هـذه الأشياء فذبحتموها أي فريتم أوداجها وأنهرتـم دمها بمحدد قاطع من حـديد أو قصب أو زجاج أو حجر أو غيره مما يقطع المريء والحلقوم والودجين مع ذكر اسم الله، ولا يجوز الذبح بالسن والظفر فقـد روى البخاري ومسلم من حديث رافع بن خديج قال: قلـت: يارسـول الله إنا لاقوا العـدو غدا وليسـت معنا مـدى؟ فقال: اعجل أو أرن، ما أنهر الـدم وذكر اسم الله عليـه فكل، ليس السن والظفر، وسأحدثك أمـا السن فعظم وأما الظفـر فمدى الحبشـة. الحديث. والعرب يطلقون التذكيـة على الذبح وعلى النحر والنحر هـو الطعن في اللبة والمنحر. والنوع العاشر من محرمات المطاعم ما ذبح على النصب قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: قال مجاهد وابن جريج: كانت النصب حجارة حول الكعبة قال

ابن جريج : وهي ثلثمائة وستون نصبا كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح ، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب ، وكذا ذكره غير واحد ، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع ، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله ، وينبغي أن يحمل هذا على هذا لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله اهـ والنوع الحادي عشر من محرمات المطاعم ما كان يذبحه أهل الجاهلية على طريق القمار والميسر حيث كانوا يضربون بقداح الميسر ويستقسمون بها لهوا ولعبا وكان عقلاؤهم يقصدون بها إطعام المساكين والمعدمين وأصل الاستقسام طلب القسم والنصيب ، والأزلام جمع زلم بفتح الزاي وضمها وهو القِدْح قال في القاموس : القدح بالكسر السهم قبل أن يراش وينصل اهـ وقال في باب الميم فصل الزاي : الزلم محركة وكصرد الظلف أو الذي خلفه ، وقِدْح لا ريش عليه ، وسهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية اهـ وكان للعرب ثلاثة أنواع من الأزلام ، النوع الأول ثلاثة قداح يتخذها كل إنسان منهم لنفسه ، مكتوب على أحدها : افعل وعلى الثاني : لا تفعل ، ويترك الثالث مهملا بدون كتابة ويضع هذه الثلاثة في خريطة وهي وعاء من جلد ، فإذا رغب في عمل شيء أدخل يده في الخريطة وأخرج واحدا منها فإن كان الآمر أقدم على الفعل ، وإن كان الناهي انزجر عنه ، وإن كان المهمل أعاد الضرب . وهذه هي التي استقسم بها سراقة بن مالك حين هم بالنبي ﷺ يوم الهجرة ، والنوع الثاني من أزلام العرب سبعة قداح كانت عند هبل وكانت كذلك عند الكهان وقد كتب فيها ما يدور بين الناس من النوازل كالديات ، ومنكم ، ومن غيركم ، وملصق ، ونحو ذلك ، وكانوا يضربون بها ويحتكمون بحكمها . والنوع الثالث قداح الميسر التي كانوا يضربون بها

مقامرة ولهوا ليلتزم ما يقع عليه السهم بتقـديم الذبائح ، وهذه هي المرادة هنا والعلم عند الله عـز وجل ، ولما كان الاستقسام بالأزلام لا خير فيـه سواء كان لطلب الخيرة في الأمور أو كان للتقامر فقد أرشد الله تبارك وتعالى المسلمين إلى الاستخـارة المبنية على التـوكل على الله وطلب الخيرة من العليم الخبير القديـر فقد روى البخاري في صحيحه من حـديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : كان رسـول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلهـا كما يعلمنا السورة من القرآن يقـول : إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفـريضة ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقـدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلـم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري — أو قال — عاجل أمري وآجله فـاقدره لي ويسره لي ، ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري — أو قال — في عاجل أمري وآجله فـاصرفه عني واصرفني عنـه واقدر لي الخير حيث كـان ثم أرضني به ، قال : ويسمي حاجته . والإشارة في قوله تعالى : ﴿ذٰلكم فسق﴾ للمحرمات من المطـاعم المذكورات في هـذه الآية أي تنـاول هذه المحـرمات خـروج على طاعـة الله وتمرد على شرع الله ، وعدم وفاء بـالعقود التي أخذهـا الله عز وجل على عباده وأمرهم بالوفاء بها في قوله عز وجل : ﴿أَوْفُوا بالعقود﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿اليومَ يَئِسَ الذين كفـروا من دينكم فلا تَخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِ﴾ أي الآن قـد انقطع طمع الكفار في القضـاء على الإسـلام وحصل لهم اليأس من قهركم وتغيير دينكم ، فقد ارتفعت رايتـه وأشرقت أنوار تعاليمه ، فليكن أكبر همكم العض عليـه بالنـواجذ ، وتطبيق تشريعـاته وانـزعوا من قلـوبكم الخوف من أن يقضي المشركـون على دينكم ، وليكن خـوفكم من الله وحـده ، فعليه تـوكلوا ، فقد تمت لكم النعمة ، ولـذلك قال بعدهـا : ﴿اليومَ أكملتُ

لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام دينا﴾ قال ابن كثير رحمه الله : هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن فلا حلال إلا ما أحله ولا حرام إلا ما حرمه ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلْف كما قال تعالى: ﴿وتمت كلمةُ ربك صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ أي صدقا في الإخبار وعدلا في الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ولهذا قال تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام دينا .﴾ أي فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام وأنزل به أشرف كتبه اهـ وقد روى البخاري ومسلم من طريق سفيان عن قيس أن طارق بن شهاب قال : قالت اليهود لعمر: إنكم تقرأون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيدا، فقال عمر: إني لأعلم حيث أنزلت وأي يوم أنزلت وأين رسول الله ﷺ حيث أنزلت، أنزلت بعرفة ورسول الله ﷺ واقف بعرفة . قال سفيان: أشك كان يوم جمعة أم لا يعني ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ قال ابن كثير رحمه الله: وشك سفيان رحمه الله إن كان في الرواية فهو تورع حيث شك هل أخبره شيخه بذلك أم لا؟ وإن كان شكا في كون الوقوف في حجة الوداع كان يوم جمعة فهذا ما إخاله يصدر عن الثوري رحمه الله فإن هذا أمر معلوم مقطوع به لم يختلف فيه أحد من أصحاب المغازي والسير ولا من الفقهاء وقد وردت في ذلك أحاديث متواترة لا يشك في صحتها والله أعلم اهـ وقوله عز وجل: ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾ أي فمن ألجأته الضرورة بسبب المجاعة إلى أكل شيء من هذه المطاعم المحرمة ليسلم من الموت فمادام لم يمل إلى المعصية فإن الله لا يؤاخذه بما أكله من هذه المحرمات حالة كونه مضطرا .

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لكم الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم من الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ واذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ واتَّقُوا اللهَ، إنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ. الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ، وَمَن يكفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وهو فى الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ.﴾

بعد أن فصَّل عز وجل ما حرمه من المطاعم على المؤمنين إلا ما اضطروا إليه شرع عز وجل يُفصِّل لهم ما أحله وأباحه لهم من المطاعم والطيبات من الرزق التي كان أهل الجاهلية يحرمون بعضها على غير بصيرة كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، ويعلمهم عز وجل حكم الزواج من الكتابيات حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قل أُحِلَّ لَكُمُ الطيباتُ﴾ الآيتين. ومعنى قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ أي يستفتونك ويطلبون منك تفصيل وبيان ما أبيح لهم من المطاعم بعد أن عرفوا ما حرم عليهم منها ويقولون لك أيها النبي الكريم: ماذا أحل لنا؟ وقد أجابهم الله عز وجل بأكثر مما سألوا عنه حيث بيَّن لهم أنه أباح لهم الطيبات وكذلك ما صادته لهم الجوارح المعلَّمة التي أرسلوها لتصيد لهم وذكروا اسم الله عليها عند إرسالها، وأنه أحل لهم المستلذات التي لا ضرر فيها ولا خبث، وأنه أباح لهم ذبائح أهل الكتاب، وأذن لهم في إطعام أهل الكتاب من ذبائحهم، كما أباح لهم نكاح الحرائر العفيفات من المؤمنات ونكاح الحرائر العفيفات من الكتابيات، ولا شك عند أهل العلم أن جواب السائل بأكثر مما سأل عنه مما يحتاجه أمر تقتضيه الحكمة وهو داخل تحت أسلوب

الحكيم، ولذلك لما سئل رسول الله ﷺ عن الوضوء بماء البحر أجاب بطهارة ماء البحر وحل ميتته فقد روى أصحاب السنن وصححه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ من ماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: هو الطهور ماؤه الحل ميتته. والمراد بالطيبات في قوله عز وجل: ﴿قل أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيباتُ﴾ المستساغات من الأطعمة والأشربة التي طيبها الله عز وجل، ولا تضر من طعمها، ولم يرد نص عن الله أو عن رسوله ﷺ يقتضي تحريمها والمنع من تناولها، وقد خلت من الخبث. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم من الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تَعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ واذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ واتَّقُوا اللهَ﴾ أي وأحل لكم صيد المعلمة من السباع والكلاب والطير الكواسب التي ترسلونها على الصيد وتؤدبونها بما ألهمكم الله عز وجل فتعرف أداب الصيد فلا تصيد لنفسها بل تصيد لكم ولا تأكل من الصيد بسبب تدريبكم لها على ذلك إلا ما أطعمتموها أنتم منه بعد أن توصله لكم، فكلوا من الصيد الذي أمسكته لكم هذه الجوارح المعلمة، واذكروا اسم الله عند إرسالها للصيد، وخافوا ربكم. والجوارح جمع جارحة، وهي الكواسب من السباع والكلاب والطير التي تقبل التعليم، وأصل الاجتراح: الاكتساب يقال: فلان جارحة أهله أي كاسبهم ومنه قوله تعالى: ﴿اجترحوا السيئات﴾ أي اكتسبوا المعاصي والذنوب ومعنى: ﴿مكلبين﴾ أي مرسلين هذا الجوارح على الصيد لتصيده لكم بعد تعليمها وتدريبها على ذلك قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط: ومُكلِّبٌ: مضرٍّ للكلاب على الصيد، معلِّمٌ لها، وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير، وفي التنزيل العزيز: ﴿وما عَلَّمْتُمْ من الجوارح مُكَلِّبينَ﴾ فقد دخل في هذا الفهد، والبازي،

والصقر، والشاهين، وجميع أنواع الجوارح، والكلاَّب صاحب الكلاب، والمكلِّب الذي يعلم الكلاب أخذ الصيد، وفي حديث الصيد: إن لي كلابًا مكلبة فأفتني في صيدها، المكلبة: المسلطة على الصيد، المعودة بالاصطياد التي قد ضَرِيتَ به، والمكلِّب بالكسر: صاحبها والذي يصطاد بها اهـ والعرب قد يطلقون اسم الكلب على سائر السباع كما تطلق على النابح سواء كان ضارياً أو غير ضار. قال الجوهري في الصحاح: وقد ضرى الكلب بالصيد يضرى ضراوة أي تعود، وكلب ضار وكلبة ضارية، وأضراه صاحبه أي دربه وعوده، وأضراه به أيضاً أي أغراه اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مما عَلَّمَكُمُ الله﴾ أي تدربونهن وترشدونهن إلى طرق الاصطياد التي هداكم الله إليها وعرفكموها وتؤدبونهن حتى لا يأكلن من الصيد لتعلموا أنها صادت لكم لا لأنفسها، وحتى إذا أرسلتموها استرسلت وإذا زجرتموها انزجرت، وإذا دعوتموها استجابت، وإذا أردتموها لم تفر منكم، وصار ذلك معلوما منها، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فكلوا مما أَمْسَكْنَ عليكم واذكروا اسم الله عليه﴾ أي فمتى كان الجارح معلَّماً وخرج إلى الصيد بإرسال صاحبه الذي ذكر اسم الله عليه عند إرساله وأمسك الصيد على صاحبه حل صيده لكم وإن قتله، وقد أجمع على ذلك أهل العلم، وقد روى البخاري من طريق زكرياء عن عامر عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ عن صيد المعراض قال: ما أصاب بحده فكله وما أصاب بعرضه فهو وقيذ، وسألته عن صيد الكلب، فقال: ما أمسك عليك فكل، فإن أخْذ الكلب ذكاة، وإن وجدت مع كلبك أو كلابك كلباً غيره فخشيت أن يكون أخذه معه وقد قتله فلا تأكل، فإنما ذكرت اسم الله على كلبك ولم تذكره على غيره، ثم ساقه من طريق عبد الله بن أبي السفر عن الشعبي، وفيه: فقلت: أرسل كلبي؟ قال: إذا أرسلت كلبك، وسميت فكل، قلت: فإن

أكل؟ قال: فلا تأكل، فإنه لم يمسك عليك، إنما أمسك على نفسه، قلت أرسل كلبي فأجد معه كلبا آخر؟ قال: لا تأكل، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على آخر، ثم ساقه البخاري من طريق همام بن الحارث عن عدي رضي الله عنه قال: قلت: يارسول الله إنا نرسل الكلاب المعلمة؟ قال: كل ما أمسكن عليك، قلت: وإن قتلن؟ قال: وإن قتلن. الحديث. وقد ساقه مسلم من طريق عاصم عن الشعبي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله عليه، فإن أمسك عليك فأدركته حيًّا فاذبحه وإن أدركته قد قتل ولم يأكل منه فكله، وإن وجدت مع كلبك كلباً غيره وقد قتل فلا تأكل فإنك لا تدري أيهما قتله. الحديث. وأخرجه من طريق همام بن الحارث عن عدي بن حاتم قال: قلت: يارسول الله إني أرسل الكلاب المعلمة فيمسكن عليَّ وأذكر اسم الله عليه فقال: إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل. قلت: وإن قتلن؟ قال: وإن قتلن مالم يشركها كلب ليس معها. الحديث، ثم ساقه من طريق بيان عن الشعبي عن عدي بن حاتم قال: سألت رسول الله ﷺ قال: إنا قوم نصيدُ بهذه الكلاب؟ فقال: إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله عليها فكل مما أمسكن عليك وإن قتلن إلا أن يأكل الكلب، فإن أكل فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه، وإن خالطها كلاب من غيرها فلا تأكل. وساقه من طريق عبد الله ابن أبي السفر عن الشعبي عن عدي بن حاتم قال: وسألت رسول الله ﷺ عن الكلب فقال: إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل، فإن أكل منه فلا تأكل فإنه إنما أمسك على نفسه، قلت: فإن وجدت مع كلبي كلبًا آخر فلا أدري أيهما أخذه؟ قال: فلا تأكل فإنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره. وقوله عز وجل: ﴿واتقوا الله، إن الله سريع الحساب﴾ أي وراقبوا الله

عز وجل في جميع شئونكم ولا تعتدوا بتحليل ما حرم أو تحريم ما أحل فإنه عز وجل حافظ لجميع أعمالكم لا يثقله محاسبتكم جميعا في مثل طرفة عين.
وقوله تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لكم الطيباتُ﴾ المراد باليوم الزمن الحاضر بمعنى الآن كما ذكر ذلك الزجاج وابن الأنباري ونظيره قولك: كنت بالأمس شابا واليوم قد صرت شيخا، ولا تريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك ولا باليوم يومك الذي أنت فيه، وتقول: قد كنت في غفلة واليوم استيقظت أي الآن استيقظت، وتقول: كان فلان يزورنا واليوم يجفونا أي والآن ومنه قول الشاعر النمر بن تولب:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساءُ ويوم نُسر

أي فزمان لنا وزمان علينا ولم يقصد يوما لا ينضم إليه غيره. وقد كرر الله تبارك وتعالى تحليل الطيبات تأكيدا على جزيل فضله وواسع عطائه وتنديدا بمن يتجاوز الحلال الطيب إلى الحرام الخبيث. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وطعام الذين أُوتُوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم﴾ أي وذبائح أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى حلال لكم وذبائحكم حلال لهم قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال ابن عباس وأبو أمامة ومجاهد وسعيد ابن جبير وعكرمة وعطاء والحسن ومكحول وإبراهيم النخعي والسدي ومقاتل بن حيان يعني ذبائحهم، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن ذبائحهم حلال للمسلمين اهـ والمقصود من قوله عز وجل: ﴿وطعامكم حِلٌّ لهم﴾ كما قال الزجاج: معناه حلال لكم أن تطعموهم اهـ قال أبو محمد البغوي الملقب بمحيي السنة في تفسيره: فيكون خطاب الحِلِّ مع المسلمين، وقيل لأنه ذكر عقيبه حكم النساء ولم يذكر حل المسلمات لهم فكأنه قال: حلال لكم أن تطعموهم حرام عليكم أن تزوجوهم اهـ وإطلاق الطعام هنا على الذبائح من إطلاق العام الذي أريد به الخصوص لأن ما سوى الذبائح

محللـة قبل أن تكـون لأهل الكتـاب وبعـد أن صـارت لهم، فـلا يحرم من طعـامهم إلا مـا نص الشرع على تحريمـه على المسلمين. وقـولـه عـز وجل: ﴿والمحصَنَاتُ من المؤمنـات والمحصناتُ من الذين أُوتُـوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتمـوهن أجـورهن محصنين غير مسـافحين ولا متخـذي أخـدان﴾ أي وأحل لكم التزوج من الحرائر العفيفـات المؤمنات وأحل لكم كـذلك التزوج من الحرائر العفيفـات من النصرانيات واليهوديـات إذا فرضتم لهن مهـورهن حالـة كونكم أعفَّـاء عن الزنـا جهرا وسرًّا، وقد تقـدم في تفسير الآية الـرابعة والعشرين والخامسة والعشرين من سورة النساء بيان معاني الأجور والإحصان والسفاح والأخدان. ومعنى قوله عـز وجل: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهـو في الآخرة من الخاسرين﴾ تحذيـر من الله عز وجل لمن تشكك في تحريم مـا حرم الله أو تحليل مـا أحل، وتنبيه لمن تـزوج يهودية أو نصرانيـة أن يكون على حذر من أن يعجبه جمالها فيتأثر بدينها، بل عليه أن يبذل الوسائل لنقلها إلى دين الإسلام، فإن تأثـر هو بدينها فقـد حبط عمله وبطل ما فعل من الخير وإن مـات على ذلك كـان في الآخـرة من الخاسرين، كما قـال عـز وجل: ﴿ومن يَرْتَدِدْ منكم عن دينه فَيَمُتْ وهو كافر فأولَئك حَبِطتْ أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولَئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

قال تعـالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُـوا وُجُوهكُمْ وَأَيْـدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُـوا بِـرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ ، وإن كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّـرُوا ، وإن كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفرٍ أَوْ جَاءَ أَحَـدٌ منكم من الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَـاءً فَتيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًـا فَامْسَحُوا بِـوُجُوهِكُمْ وَأَيْـدِيكم مِنْهُ ، مَـا يُرِيـدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ولَكن يـرِيدُ لِيُطَهِّـرَكُمْ ولِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . ﴾

بعد أن بيَّن الله عز وجل ما أحله لعباده من المطاعم والمناكح التي لا غنى لهم عن التزود بها في الحياة الدنيا وقد ذيل الآية السابقة بما يلفت الانتباه إلى أن تحليل مـا أحل الله وتحريم مـا حرم هـو من شرائع الإيمان حيث قـال ﴿ومن يكفر بـالإيمان فقط حبط عمله﴾ الآية . شرع هنا يبين لهم مـا لا غنى لهم عنه من زاد الآخرة وبدأ بأهم ما يجب الوفاء به من العهود بعد الإيمان وهو الصلاة التي هي عماد الديـن والتي قد سماها الله عـز وجل إيمانا حيث قـال : ﴿وما كان الله ليُضيعَ إيمانكم﴾ يعني صلاتكم عنـد البيت ولما كانت الصلاة لابد لها من الوضوء ولا يقبلها الله من أحد إلا إذا كـان متطهرا لها ، لا جرم بدأ عز وجل بذكـر شرائط الوضوء فقـال : ﴿ياأيها الذين آمنـوا إذا قمتم إلى الصلاة فـاغسلـوا وجـوهكم وأيـديكم إلى المرافق وامسحـوا بـرءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾ ومعنى : ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾أي إذا أردتم القيـام إلى الصلاة ، وهذا أسلوب مشهور في اللسان العربي كما تقول : إذا آخيت فآخ الصالحين ، وكـذلك قـال عـز وجل : ﴿فإذا قـرأت القـرآن فاستعـذ بـالله من الشيطـان الرجيم . ﴾ والاستعـاذة إنما تطلب قبل الشروع في قراءة القرآن ولا يخطـر ببال عاقل أن المقصود من قوله تعالى : ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ إلخ أن يتوضئوا أثناء قيامهم إلى الصلاة وعند تلبسهم بفعلها إذ لا يجوز تأدية

أي جزء من الصلاة بـدون الطهارة فقد روى البخاري من حـديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: لا يقبل الله صـلاة أحدكـم إذا أحدث حتى يتوضأ. كما روى مسلم من طريق مصعب بن سعد قال: دخل عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما على ابن عـامر يعوده وهـو مريض فقال: ألا تـدعو الله لي يـا ابن عمر؟ قـال: إني سمعت رسـول الله ﷺ يقول: لا تقبل صـلاة بغير طهـور ولا صـدقـة من غلـول، وكنتَ على البصرة، وفي لفظ لمسلم من طريق همام بن منبـه قال: هذا ما حـدثنا أبو هريرة عـن محمد رسول الله ﷺ فذكر أحاديث منها: وقال رسول الله ﷺ: لا تقبل صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتـوضأ. وقـد وصف رسـول الله ﷺ الـوضـوء بأنـه شطـر الإيمان أي الصـلاة، فقـد روى مسلم في صحيحـه من حـديث أبي مـالك الحارث بن عـاصم الأشعـري رضي الله عنه قـال: قـال رسـول الله ﷺ: الطهور شطـر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحـان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقـة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها. وهذه الآية حرية أن تسمى آية الوضوء، إذ قـد بدأ الله عز وجل الأحكام فيها ببيان أعضاء الوضـوء ما يغسل منها وما يمسح، وهي أربعـة أعضاء، أمر بغسل ثلاثة منها وهي الوجـه واليدان إلى المرفقين والرجلان إلى الكعبين وأمر بمسح الرأس، وهذه هي الطهارة الصغرى التي تفرض على من أراد الصلاة إذا كان محدثا حدثًا أصغر، أما الحدث الأكبر وهو الجنابة الموجبة لغسل جميع الجسم فقـد بينها عـز وجل بقـوله تعـالى: ﴿وإن كنتم جُنُبًا فـاطَّهَّرُوا﴾ والمقصـود الطهارة الكبرى بغسل جميع البـدن، والوجـه في اللغة مأخـوذ من المواجهة، وهو عضو مشتمل على أعضاء، وحـدُّه في الطول من مبتدأ سطح الجبهة إلى أسفل الذقن ومنتهى اللحيين، وحده عرضا ما بين الأذنين. ومعنى قوله عز

وجل : ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾ أي واغسلوا أيـديكم إلى المرافق، فالمرافق هي نهاية مـا يجب غسله في اليـدين، والغايـة هنا داخلـة في المُغَيَّا، والمرافق جمع مرفـق وهو موصـل الذراع بالعضـد، ولما كانت اليـد تطلق عند العـرب من أطـراف الأصابـع إلى الكتف حدد الله عـز وجل مـا يجب غسلـه منها بحـد المرافق، كما أن الرِّجْـل تطلق من أطراف الأصابـع إلى الحد الأعلى من الفخذ ولذلك حدد الله تبـارك وتعالى ما يجب غسله منهـا بحد الكعبين، والكعبان هما العظمان الناشزان عند ملتقى الساق والقدم في جانب القدم، ولكل قدم كعبـان عن يمنتها ويسرتها، وقـد قرأ ابن عـامر والكسـائي ونافع ويعقـوب وحفص عن عاصم بنصب اللام من قـول عز وجل : ﴿وأرجلكم﴾ وقرأ ابن كثير وحمزة وأبوعمرو وأبـوبكر عن عاصم بالجر، وقد بينت السنـة الثابتة عن رسول الله ﷺ أن فرض الرِّجلين في الوضـوء هو الغسل لا المسح فتكون قراءة الجر جاءت للمجاورة، وقد أفرد النحاة للجر على المجـاروة بابا خاصا، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية عن الجر على المجاورة : وهذا سائغ ذائع في لغـة العرب شـائع . وقـال الإمـام الحسين بن مسعود الفـراء محيي السنـة البغوي في تفسير هذه الآية : خفض اللام في الأرجل على مجاورة اللفظ لا على مـوافقة الحكم كما قـال تبـارك وتعالى : ﴿عـذابَ يـوم أليمٍ﴾ فالأليم صفـة العذاب ولكنه أخـذ إعراب اليوم للمجاورة، وكقـولهم : جحرُ ضبٍّ خربٍ فالخرب نعت الجحر وأخذ إعراب الضب للمجـاورة اهـ وقد تواترت الأخبار عن رسـول الله ﷺ أنه كـان يغسل رجليه في الـوضوء ولم يثبت قط أنـه مسح عليهما إلا أن يكـون لابساً للخفين، وتـوعد من تـرك شيئا من القـدمين دون غسل في الوضوء بالويل وعذاب النـار فقد قال البخاري في كتاب العلم من صحيحه : بـاب من رفع صوته بـالعلم، حدثنا أبـو النعمان عارم بن الفضل قال : حـدثنا أبـو عوانة عـن أبي بشر عن يوسف بن ماهـك عن عبد الله بن

عمرو قال: تخلف عنا النبي ﷺ في سفرة سافرناها، فأدركَنا وقد أرهقتنا الصلاة ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: ويل للأعقاب من النار مرتين أو ثلاثا، ثم قال البخاري في كتاب الوضوء من صحيحه: باب غسل الرجلين ولا يمسح على القدمين، حدثنا موسى قال حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن يوسف بن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال: تخلف النبي ﷺ عنا في سفرة سافرناها، فأدركنا وقد أرهقتنا العصر، فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: ويل للأعقاب من النار، مرتين أو ثلاثا. وقد أخرج مسلم في صحيحه من طريق مخرمة بن بكير عن أبيه عن سالم مولى شداد قال: دخلت على عائشة زوج النبي ﷺ يوم توفى سعد بن أبي وقاص فدخل عبد الرحمن بن أبي بكر فتوضأ عندها فقالت: ياعبد الرحمن أسبغ الوضوء فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ويل للأعقاب من النار ثم ساق مسلم من طريق هلال بن يساف عن أبي يحيى عن عبد الله بن عمرو قال: رجعنا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة حتى إذا كنا بماء بالطريق تعجل قوم عند العصر فتوضئوا وهم عِجال، فانتهينا إليهم وأعقابهم تلوح لم يمسها الماء، فقال رسول الله ﷺ: ويل للأعقاب من النار أسبغوا الوضوء. ثم ساق من طريق أبي عوانة عن أبي بشر عن يوسف ابن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال: تخلف عنا النبي ﷺ في سفر سافرناه، فأدركنا وقد حضرت صلاة العصر فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى: ويل للأعقاب من النار. ثم ساق مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلاً لم يغسل عقبيه فقال: ويل للأعقاب من النار كما روى البخاري من طريق محمد بن زياد قال سمعت أبا هريرة وكان يمر بنا والناس يتوضئون من المطهرة قال: أسبغوا الوضوء فإن أبا القاسم ﷺ قال: ويل للأعقاب من النار. وقد أخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه من طريق محمد

ابن زياد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه رأى قوماً يتوضئون من المطهرة فقال: أسبغوا الوضوء فإني سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: ويل للعراقيب من النار، وفي رواية لمسلم من طريق أبي الزبير عن جابر أخبرني عمر بن الخطاب أن رجلا توضأ فترك موضع ظفر على قدمه، فأبصره النبي ﷺ فقال: ارجع فأحسن وضوءك فرجع ثم صلى. وقد فسر رسول الله ﷺ قوله تبارك وتعالى: ﴿يـاأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾ بقوله وفعله ﷺ أوضح تفسير وبين ذلك أعظم تبيين، ونبه إلى وجوب غسل الكفين قبل إدخالهما في المطهرة لمن استيقظ من النوم فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا فإنه لا يدري أين باتت يده. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إذا استيقظ أحدكم من منامه فليستنثر ثلاثا فإن الشيطان يبيت على خيشومه. كما روى البخاري ومسلم عن حمران بن أبان مولى عثمان ابن عفان رضي الله عنه أن عثمان دعا بوضوء فغسل كفيه ثم تمضمض واستنشق واستنثر ثم غسل وجهه ثلاث مرات ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاث مرات ثم اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجله اليمنى إلى الكعبين ثلاث مرات ثم اليسرى مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا. الحديث. كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنهما في صفة وضوء النبي ﷺ قال: ومسح رسول الله ﷺ برأسه فأقبل بيديه وأدبر. كما أخرج أبو داود من حديث المقدام أنه ﷺ لما بلغ مسح رأسه وضع كفيه على مقدم رأسه فأمرّهما حتى بلغ القفا ثم ردهما إلى المكان الذي بدأ منه، كما أخرج أبو داود والنسائي

وصـحـحه ابن خزيمة من حديث عبـد الله بن عمــرو رضـي الله عنهما ــ في صفة الوضــوء ــ قال: ثم مسح برأسه وأدخل إصبعيـه السباحتين في أذنيه، ومسح بإبهاميه ظاهر أذنيه. كما أخـرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله ابن زيد رضي الله عنهما ــ في صــفة الوضــوء: ثم أدخل ﷺ يده فمضمض واستنشق من كف واحـدة. هذا ومع كـون الطهارة شرطـا في صحة الصـلاة ومع حب الله تبـارك وتعـالى للمتطهرين فقـد بشر رسـول الله ﷺ من يحسن وضوءه بدرجات عاليـة فقد روى مسلم من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفـاره. وقوله تبارك وتعـالى: ﴿وإن كنتم جُنُبًا فاطَّهَّرُوا﴾ أي وإن أصابتكم جنابة فـلا تقربوا الصلاة حتى تغتسلوا وتفيضوا الماء على جميع بـدنكم. وقد تقـدم بيـان معنى قـوله عـز وجل: ﴿وإن كنتم مـرضى أو على سفـر أو جاء أحـدٌ منكم من الغـائط أو لامستم النسـاء فلم تجدوا ماء فَتَيَمَّمُوا صعيدا طيبا فامسحـوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ في تفسير الآية الثالثة والأربعين من سورة النساء. والإرادة في قوله عز وجل: ﴿ما يريدُ اللهُ ليجعلَ عليكم من حَرَجٍ ولكن يريد لِيُطَهِّرَكُم وليُتِمَّ نِعْمَتَهُ عليكم لعلكم تشكرون﴾ هي الإرادة الشرعية لا الإرادة الكونية القدرية، أي ما يحب الله عز وجل أن يجعل عليكم فيما يشرعه لكم من الـدين وما ألزمكم به من الـوضوء إذا قمتم إلى الصلاة حرجاً وضيقاً وعنتا ومشقة وإنما يريد الله عز وجل نظافة بـواطنكم وظـواهـركم وطهارة نفـوسكم وأبـدانكم ومغفـرة ذنـوبكم وتكفير سيئـاتكم، وأن يُـذهب الـرجس عنكم وأن يُكْمِلَ لكم أكمـل المنـاهج بما اشتملت عليه من الشمـول والكمال والدوام والصـلاحية لكل زمـان ومكان لكي تشكــروا لله عـز وجل على مــا خصكم بـه من هــذه النعم العــاليـة والتشريعات السامية.

قال تعـالى: ﴿واذكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـاقَهُ الَّـذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَـا وَاتَّقُوا اللهَ، إِنَّ اللهَ عَلِيـمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. يَـاأَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا كُـونُوا قَـوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِـالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنكُمْ شَنَآنُ قَـوْمٍ على أَلَّا تَعْدِلُـوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْـوَى واتَّقُوا اللهَ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ. وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مغْفِرَةٌ وأَجْرٌ عَظِيمٌ. والَّذِيـنَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيم. يَـاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اذكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَـوْمٌ أَن يَبْسُطُـوا إِلَيْكُمْ أَيْـدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْـدِيَهُمْ عَنكُمْ واتَّقُـوا اللهَ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

بعد أن أمر الله عـز وجل في صدر هذه السورة الكريمـة المؤمنين بأن يوفوا بالعقـود وعهد إليهم بما يجب عليهم أن يلتزموا بـه من تحليل ما أحل الله لهم وتحريم مـا حـرم عليهم، وبين لهم أكمـل المنـاهج وأحسنهـا ممـا يجلب لهم سعـادة الدنيـا والآخرة إن استمسكـوا بها وسـاروا على منوالها، وأعلمهم أنـه أكمل لهم الدين وأتم عليهم النعمة، وختم الآيـة السابقة بتأكيد ذلك حيث قال: ﴿وليُتِمَّ نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾ أمر المؤمنين هنا ونبههم إلى أن يجعلوا هذه النعم وتلك العهود والمواثيق التي التزموا بها لله عز وجل بمقتضى عقـد الإيمان نُصْب أعينهم، فـلا ينسوهـا ولا يغفلـوا عنها حيـث يقول عـز وجل: ﴿واذكروا نعمـة الله عليكم وميثاقـه الذي وَاثَقَكُمْ بـه إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقـوا الله﴾ والمراد بالنعمة هنـا جنسها فتشمل سائر نعمـه عز وجل وبخاصة ما لفت انتباههم إليه منهـا ههنا. والمراد بذكرها شكر الله عز وجل عليها والإقرار بأنه تبارك وتعالى هو مسديها والمتفضل بها، والمراد بذكر الميثاق هو الـوقوف عند حـدود الله والائتمار بأمره والانزجـار عما زجر عنه، وطـاعة رسـول الله ﷺ في السر والعلن والمنشط والمكره، والـوفاء ببيعتـه كما قال عـز

وجل: ﴿إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إنما يُبَـايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيديهِمْ، فمن نَكَثَ فإنما يَنْكُثُ على نفسـه ومَنْ أَوْفَى بما عَـاهَدَ عَلَيْـهُ اللهَ فَسَيُـؤْتِيهِ أَجْـرًا عَظِيمًا﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿واتقوا اللهَ، إنَّ الله عليم بذات الصدور﴾ أي وراقبوا الله تبارك وتعـالى في أعمالكم وأيقنوا أنـه لا يخفى عليه شيء ممـا في صدوركم وخفايا نفوسكم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شُهَدَاءَ بالقسط ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْـدِلوا﴾ أي كونوا قوامين لله بالحق، ولا يحملنكم بغض قوم على تركِ العدل فيهم بل استعملوا العدل مع كل أحـد عدواً كـان أو صديقـاً. وقولـه عز وجل: ﴿هُـوَ﴾ ضمير راجع إلى العدل المستفاد من قوله عز وجل: ﴿اعـدلوا﴾ ودلالة اعدلوا على العدل هنا من بـاب دلالة التضمن، وهي دلالـة اللفظ على جزء معناه، إذ الفعـل يدل على الحدث والـزمـان، أما المصـدر فإنـه يـدل على الحدث وحـده، فلفظ: ﴿اعـدلوا﴾ يـدل على الحدث والزمن المستقبل، والعـدل مصدر يـدل على الحدث فقط بغض النظـر عن زمـانـه. وقد استعمـل القرآن الكـريم دلالـة التضمن في مواضع كثيرة كما هـو هنا وكما في قوله تبـارك وتعالى: ﴿وإن قيل لكم ارْجِعُوا فارْجِعُـوا هو أزكى لكم﴾ فقوله عـز وجل: ﴿هو﴾ ضمير يعود على الرجوع المدلول عليه بقوله: ﴿ارْجِعُوا﴾ وكقوله تعالى: ﴿فَمَن تطوَّع خيرا فهو خير له﴾. ومعنى قوله عز وجل: ﴿هو أقرب للتقوى﴾ أي عدلكم مع أوليائكم وأعـدائكم أقرب إلى أن تكونـوا من المتقين، وأن تصانـوا من عذاب النار يوم القيـامة، وقال ابن كثير رحمه الله: وقوله ﴿هـو أقرب للتقوى﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الـذي ليس في الجانب الآخر منه شيء كما في قوله تعـالى: ﴿أصحابُ الجنة يومئذ خير مُسْتَقَـرًّا وأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ اهـ ومعنى قولـه تبارك وتعـالى: ﴿واتقوا الله، إنَّ الله خبير بما تعملـون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: وأما قوله: ﴿واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ فإنه يعني:

واحذروا أيها المؤمنون أن تجوروا في عباده فتجاوزوا فيهم حكمه وقضاءه الذي بين لكم، فيحل بكم عقوبته، وتستوجبوا منه أليم نكاله ﴿إنَّ الله خبير بما تعملون﴾ يقول: إن الله ذو خبرة وعلم بما تعملون أيها المؤمنون فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، من عمل به أو خلاف له، محصٍ ذلكم عليكم كله، حتى يجازيكم: المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، فاتقوا أن تسيئوا، اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لَهُم مغفرةٌ وأجر عظيمٌ * والذين كفروا وكذَّبُوا بآياتنا أولَئك أصحابُ الجحيم﴾ بيان لما اقتضاه قوله عز وجل في تذييل الآية السابقة: ﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ من الوعد والوعيد، حيث وعد هنا المستجيبين لله ولرسوله ﷺ بالمغفرة والأجر العظيم وتوعد الكافرين المكذبين بملازمة الجحيم، وقد ساق الله تبارك وتعالى هذا البيان هنا بأسلوب بلاغي حيث قال: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فذكر الوعد ولم يذكر الموعود مما يجعل النفوس تتطلع إليه وتشرئب لمعرفته فجاء به على سبيل الاستئناف البياني كأن السائل يسأل: ماذا وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ فكان الجواب ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ أي لهم تكفير خطاياهم ومنحهم الثواب الجزيل وإسكانهم جنات النعيم، قال ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية: فإن قال قائل: إن الله جل ثناؤه أخبر في هذه الآية أنه وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولم يخبر بما وعدهم فأين الخبر عن الموعود؟ قيل: بلى، إنه قد أخبر عن الموعود، والموعود هو قوله: ﴿لهم مغفرةٌ وأجر عظيم﴾ وقال الفخر الرازي: فإن قيل: لم أخبر عن هذا الوعد مع أنه لو أخبر بالموعود به كان ذلك أقوى؟ قلنا: بل الإخبار عن كون هذا الوعد وعد الله أقوى، وذلك لأنه أضاف هذا الوعد إلى الله تعالى فقال ﴿وَعَدَ اللهُ﴾ والإله هو الذي يكون قادرًا على جميع المقدورات، عالمًا بجميع المعلومات، غنيًّا عن كل

الحاجات، وهـذا يمتنع الخلف في وعـده، لأن دخول الخلف إنما يكـون إما للجهل حيث ينسى وعده، وإمـا للعجز حيث لا يقدر على الوفـاء بوعده، وإما للبخل حيث يمنعه البخل عن الوفاء بالوعد، وإما للحاجة، فإذا كان الإله هو الذي يكـون منزهاً عن كل هذه الوجوه كـان دخول الخلف في وعده محالا، فكان الإخبار عن هذا الوعد أوكد وأقوى من نفس الإخبار عن الموعود به، وأيضا فلأن هذا الوعـد يصل إليه قبل الموت فيفيده السرور عند سكرات الموت فتسهل بسببه تلك الشـدائد، وبعد الموت يسهل عليه بسببـه البقاءُ في ظلمة القبر وفي عـرصة القيـامة عند مشـاهدة تلك الأهوال اهــ وقولـه تبارك وتعالى: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآيـاتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ بيان لوعيد الكفار المكذبين بعد بيان وعـد المؤمنين الصالحين قال أبو السعود العمادي في تفسير هذه الآية: من السنـة السنية القرآنية شفع الوعد بـالوعيد والجمع بين الترغيب والترهيب إيفـاء لحق الـدعوة بـالتبشير والإنـذار اهــ وقولـه تبـارك وتعالى: ﴿يـاأيها الذين آمنـوا اذكروا نِعْمَتَ الله عليكم إذْ هَمَّ قـومٌ أن يَبْسُطُوا إليكم أَيْـدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عنكم واتَّقُـوا الله، وعلى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُـونَ﴾ حض للمؤمنين على أن يوفوا بعقودهم وأن يشكروا نعمت الله عليهم، حيث أعزهم بالإسلام وأعـز الإسلام بهم، وحماهم من كيد أعدائهم، ومكن لهم في الأرض، وألقى الرعب في قلوب من يريد بهم شرا وصانهم من شرهم وأمرهم عز وجل بتقواه والتوكل عليه، لأنـه وحده القادر على كل شيء، وقد وقعت حوادث كثيرة هم فيهـا بعض الكافرين بقتل رسول الله ﷺ أو قتل أصحـابه رضي الله عنهم وكانت للكـافرين في ذلك قـدرة على تنفيذ مـرادهم الشرير، ولكن الله عز وجل حمى رسـوله ﷺ وحمى أصحابه من شرور أعـدائهم وحال بينهم وبين ما يشتهون صيانة لرسوله ﷺ وإعزازاً لدينه فقد روى البخاري في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد،

فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرق الناس في العضاه، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة، فعلق بها سيفه، قال جابر: فنمنا نومة، ثم إذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: إن هذا اخترط سيفي، وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتا، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فهاهو ذا جالس، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ، ثم قال البخاري: وقال أبان: حدثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلةٍ تركناها للنبي ﷺ، فجاء رجل من المشركين وسيف النبي ﷺ معلق بالشجرة، فاخترطه، فقال: تخافني؟ قال: لا. قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله، فتهدده أصحاب النبي ﷺ. الحديث. وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عفان حدثنا أبان بن يزيد حدثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن جابر قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بذات الرقاع قال: كنا إذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ، قال: فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلق بشجرة، فأخذ سيف نبي الله ﷺ فاخترطه، فقال لرسول الله ﷺ: أتخافني؟ قال: لا. قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله، قال: فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ فأغمد السيف، وعلقه. الحديث. قال البخاري رحمه الله بعد سياقه حديث جابر رضي الله عنه من طريق أبان: وقال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر: اسم الرجل غورث بن الحارث اهـ وقد حاول نحو ثمانين رجلا من مشركي قريش يوم الحديبية أن يميلوا على المسلمين يريدون غرة رسول الله ﷺ وأصحابه فكفهم الله عز وجل عنهم، واستسلموا للمسلمين فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على

رسول الله ﷺ مـن جبل التنعيم متسلحين يريـدون غرة النبي ﷺ وأصحـابه فأخـذهم سِلْما فاستحياهـم فأنزل الله عـز وجل : ﴿وَهُوَ الذي كـفَّ أَيْدِيَهُمْ عنكم وأَيْـدِيَكُمْ عنهم ببطن مكة من بعـد أن أَظْفَرَكُمْ عليهم﴾ وقـوله تبـارك وتعالى : ﴿واتقوا الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنـون﴾ أي واحرصوا أيها المؤمنون على ملازمة تقوى الله وحافظوا على العهود والمواثيق ، واعتمدوا على الله وحده وألقوا أزمة أموركم إليه ، واستسلمـوا لقضائه ، وثقوا بنصره وعونه ، إذ أن هذا هو دأب المؤمنين المقرين بالله ورسلـه ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً .

قـال تعالى : ﴿وَلَقَـدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَـاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَـا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًـا وَقَـالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُـمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّـلاةَ وَآتَيْتُمُ الـزَكَـاةَ وَآمَنتُمْ بِـرُسُلي وَعَـزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَـرْضًـا حَسَنًا لأُكَفِّـرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَـاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَـا الأَنْهَارُ، فَمَن كَفَرَ بَعْـدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَـدْ ضَلَّ سَـوَاءَ السَّبِيلِ. فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُـمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُـوبَهُمْ قَاسِيَـةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَـوَاضِعِهِ وَنَسُـوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّـرُوا بِهِ، وَلا تَـزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَـةٍ مِنْهُمْ إِلا قَلِيلا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُم وَاصْفَحْ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. وَمِنَ الَّـذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَـارَى أَخَذْنَـا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُـوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّـرُوا بِهِ فَـأَغْرَيْنَـا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُم اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ .

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بأن يوفوا بالعقود وأن يشكروا نعمة الله عليهم وأكـد عليهم ذلك بعدة تأكيـدات أشار هنـا إلى أن من أبرز صفـات اليهود والنصارى أن ينقضوا العهـود والمواثيق ولا يوفوا بها، تحذيراً للمسلمين من سلوك سبيل هـؤلاء الخائنين وكأنه يقول لهم : لا تكونـوا أيها المؤمنون مثل أولئك اليهود والنصـارى في هذا الخلق الذميم، لئـلا تصيروا مثلهم فيما نزل بهم من اللعن والذلة وقسوة قلوبهم وجرأتهم في الكذب على الله وعلى رسله، وإغراء العداوة والبغضـاء بينهم إلى يوم القيامة، حيث يقـول عز وجل هنا : ﴿ولقد أخذ اللهُ مِيثَاقَ بني إسرائيل وَبعثْنَـا منهم اثْنَيْ عَشَرَ نقيبا وقال اللهُ إني معكم﴾ الآيـات الثلاث إلى قـوله عـز وجل : ﴿وسـوف ينبئهم اللهُ بما كانـوا يَصْنَعُونَ . ﴾ ومعنى قوله تبـارك وتعالى : ﴿وبعثنا منهم اثنى عشر نَقيبًا﴾ أي ووصينا وأمرنا موسى عليه السلام أن يجعل على أسباط بني إسرائيل اثنى عشر نقيبا بعدد أسبـاطهم، على كل سبط منهم نقيب يرعى مصالحهم، ويشرف على شئونهم، وينقب عن أمورهم، إذ النقيب : كبير القوم، المسئول عنهم،

وهو أكبر مكانة من العريف، واختيار النقباء سياسة شرعية رشيدة، ولذلك لما تمت بيعة العقبة الثانية في العقبة الثالثة الأخيرة وقد بايع رسولَ الله ﷺ فيها ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان وهما نسيبة بنت كعب أم عمارة وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي أم منيع، فلما تمت البيعة اختار رسولَ الله ﷺ منهم اثنى عشر رجلا وسماهم النقباء اقتداء بموسى عليه السلام كما جاء في الخبر الصحيح من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أخرجوا إليَّ منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وكان من النقباء عبادة ابن الصامت والبراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر وأسعد ابن زرارة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وقال الله إني معكم﴾ أي وأخبر الله عز وجل بني إسرائيل بواسطة موسى عليه السلام أنه تبارك وتعالى عليم بكل ما يذرون وما يفعلون، وأنهم تحت قدرته وعلمه لا تخفى عليه من شئونهم خافية، والمقصود تنبيههم إلى العناية بأوامر الله ونواهيه، وحملهم على الجد والاجتهاد في تطبيق شرع الله عز وجل، كأنه يقول لهم: إني معكم أسمع كلامكم، وأرى أعمالكم، وأعلم ما في ضمائركم، وأنا رقيب على سائر تحركاتكم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ هذه صورة العهد والميثاق الذي أخذه الله عز وجل على بني إسرائيل وحدد فيه ما عليهم، وما لهم إن وفوا به، وقد ألزمهم فيه عز وجل بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة والإيمان بجميع رسل الله وتأييدهم وأن يتعاونوا على الخير ويبذلوا المال ابتغاء وجه الله ويتركوا الربا. قال الفخر الرازي رحمه الله: إن الكلام قد تم عند قوله: ﴿وقال اللهُ إني معكم﴾

والمعنى: إني معكم بالعلم والقدرة فأسمع كلامكم، وأرى أفعالكم، وأعلم ضمائركم، وأقـدر على إيصـال الجزاء إليكم، فقـوله ﴿إني معكم﴾ مقـدمـة معتبرة جداً في الترغيب والترهيب، ثم لما وضع الله تعالى هذه المقدمة الكلية، ذكر بعـدها جملة شرطية، والشرط فيهـا مركب من أمور خمسة، وهي قـوله: ﴿لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم بـرسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا﴾ والجزاء هو قوله: ﴿لأُكَفِّـرَنَّ عنكم سيئاتكم﴾ وذلك إشارة إلى إزالة العقاب، وقوله: ﴿ولأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾ وهو إشارة إلى إيصال الثـواب اهـ ومعنى: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُـمْ﴾ أي ونصرتموهم وشددتم أزرهم وقويتمـوهم، وتدور مادة التعـزير في اللغة على التقـوية والتفخيم والتعظيم والمنع والردع والإجبـار على الأمر والضرب الشديـد، فتعزيـر الرسل نصرتهم وتعزيـر المسيء تأديبه وردعه ليقـوى جانب الشرع وتعظم أوامر الـدين. قال الحافظ ابن حجـر في فتح الباري: التعـزيـر: مصدر عـزره وهو مأخـوذ من العزر وهـو الرد والمنع، واستعمل في الـدفع عن الشخص كدفع أعـدائه عنه ومنعهم من إضراره، ومنه: ﴿وآمنتم بـرسلي وعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ وكدفعـه عن إتيان القبيح، ومنه: عـزره القاضي أي أدبه لئـلا يعود إلى القبيح، ويكون بـالقول وبالفعل بحسب مـا يليق به اهـ وقـوله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن كَفَـرَ بعد ذلك منكم فقد ضَلَّ سواء السبيل.﴾ أي فمـن جحد منكم يا معشر بني إسرائيل شيئا ممـا ألزمتـه به وخالف الميثـاق من بعد عقده وتـوكيده، ونقضـه بعد أن أقربه، فقد أخطأ الطريق الـواضح وتاه في بيداء الضلالة وعمى عن الصراط المستقيم، ولاشك عنـد أهـل العلم أن من كفـر قبل ذلك فقـد ضل سـواء السبيل أيضـا، وإنما قيـد هنـا بقـولـه عـز وجل: ﴿فمن كفـر بعـد ذلك﴾ للتشنيع على هؤلاء اليهـود المدعين للعلم، الذين انحـرفوا عن منهج الـرشد بعد العهـد والميثاق، لأن الضلال بعـد ذلك أظهر، ومن انحـرف بعد العلم

كان أفجر وأكفـر، والمراد بسواء السبيل وسط الطريق، وقولـه تبارك وتعالى: ﴿فبما نَقْضِهِمْ ميثـاقَهُم لَعَنَّـاهُمْ وجعلنـا قُلُوبَهُمْ قَـاسِيَـةً يُحَرِّفُـونَ الْكَلِمَ عن مواضعـه ونَسُوا حَظًّـا مما ذُكِّـرُوا به ولا تَـزَالُ تَطَّلِعُ على خائنـة مِنْهُمْ إلا قَلِيلا مِنْهُمْ فَـاعْفُ عَنْهُمْ واصْفَحْ، إنَّ الله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ هـذه صـورة لبعض العقوبـات التي عجلها الله عـز وجل لناقضي العهود مـن اليهود وهي لعنهم وطردهم من رحمة الله، وجعل قلوبهم قاسية لا تتعظ بموعظة ولا تلين لقبول الهدى، ولا تميل لداعي الخير وفسـدت فهومهم وسـاءت تصرفاتهم واجترأوا على الكـذب على الله والافتراء عليه وتبـديل كلامـه وتحريفـه عن مواضعـه، وتركوا العمل بشريعـة الله رغبة عنها، وميلاً إلى باطلهم وما يفترونـه مما يلائم شهواتهم، ويحقق لهم جشعهم وبغيهم، وقد صار الغدر والخيانة من أخص صفـاتهم التي يتوارثهـا منهم أبناؤهـم جيلا بعـد جيل، ومهما حاولـوا كتمان غدرهم و إسرار خيـاناتهم فإن ذوي البصيرة لا يزالون يطلعـون على خياناتهم وغدرهم، وقـد نبه الله عز وجل إلى ذلك حيث يقـول: ﴿ولا تزال تَطَّلِعُ على خائنة منهم﴾ كهمهم بقتل رسول الله ﷺ غدرا بإلقاء حجر عليه في حائطهم وكوضعهم السـم في شاة مصلية لـه لقتله ﷺ، وقـد صانه الله عـز وجل من غدرهم وشرورهم، وقوله تبـارك وتعالى: ﴿إلا قليلا منهم﴾ استثناء لبيان أن بعضهم قد هـدى الله قلبه فلم ينغمس في الغـدر والخيانـة التي انغمس فيها اليهود وانشرح صـدره للإسلام كعبد الله بـن سلام رضي الله عنه وقولـه تبارك وتعالى: ﴿فاعف عنهم واصفح، إن الله يحب المحسنين.﴾ ترغيب في العفو عن المسيء والصفح عنه وأن ذلك إحسان يحبه الله عز وجل ويحب المتصفين بـه، والفرق بين العفـو والصفح أن العفـو هـو ترك المؤاخـذة على الـذنب، والصفح هو الإعـراض عن المسيء وعدم ذكر إساءته، وأصلـه من الإعراض بصفحة الـوجه كأنه أعـرض بوجهه عن ذنبـه. وقوله تبـارك وتعالى: ﴿ومن

الذين قالوا إنَّا نصارى أخذنا ميثاقهم فَنَسُوا حَظًّا مما ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَينهم الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بيان لقبائح النصارى وجناياتهم عقب بيان جرائم اليهود وخياناتهم، وفي قوله عز وجل: ﴿قالوا إنا نصارى﴾ إشارة إلى أن هذا الاسم أطلق عليهم بتسميتهم لأنفسهم لا بتسمية الله تعالى لهم، وقد ذكرت في تفسير الآية الحادية عشرة بعد المائة من سورة البقرة أن النصارى جمع نصراني، والنصرانية في الأصل نسبة إلى نصرانة وهي قرية المسيح عليه السلام من أرض الجليل بفلسطين وتسمى هذه القرية أيضا الناصرة ونصورية، ولا يعرف على التحديد متى أطلقت هذه الكلمة على أهل الإنجيل، ولم توجد هذه الكلمة في كتب النصارى إلا في أوائل القرن الثاني بعد ميلاد المسيح عليه السلام في عهد الإمبراطور «تراجان» الموجود في العام السادس بعد المائة من ميلاد المسيح عليه السلام، وقد يفهم من القرآن الكريم أنهم أحدثوا هذا الاسم إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الذين قالوا إنا نصارى﴾ اهـ والواقع أن هذه التسمية لا تقتضي مدحا ولا ذما في الأصل لأنها نسبة إلى وطن المسيح، والمعلوم أن النسبة إلى البلاد لا تقتضي مدحا ولا قدحا لوجود الصالح والطالح فيها وليست من عمل الإنسان الذي يمدح به أو يذم، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فَنَسُوا حظا مما ذُكِّرُوا به﴾ قال أبو جعفر: يقول عز ذكره: وأخذنا من النصارى الميثاق على طاعتي وأداء فرائضي، واتباع رسلي والتصديق بهم، فسلكوا في ميثاقي الذي أخذته عليهم منهاج الأمة الضالة من اليهود، فبدلوا كذلك دينهم، ونقضوه نقضهم وتركوا حظهم من ميثاقي الذي أخذته عليهم بالوفاء بعهدي، وضيعوا أمري اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ أي فصاروا أحزابا مختلفة متنافرة متناقضة يكفر بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا، وقد أغروا

بهذه العداوة والتصقت في قلوبهم وقوله تبارك وتعالى: ﴿وسوف ينبئهم الله بما كانوا يَصْنَعُون﴾ وعيد شديد لهم على نقضهم الميثاق، وتركهم العمل بما أمرهم الله عز وجل به، وكفرهم بمحمد ﷺ كما قال عز وجل: ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾.

قال تعـالى : ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَـابِ قَدْ جَـاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لكـم كَثِيرًا مما كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَـاب وَيَعْفُواْ عن كَثِيرٍ، قَـدْ جَاءَكُم من الله نُـورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِى به اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْـوَانَهُ سُبُلَ السَّـلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلى صِرَاط مسْتَقِيم. لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ هو الْمَسِيحُ ابنُ مَـرْيَمَ، قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيئًـا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ المَسِيحَ ابنَ مَرْيَمَ وَأُمَّـهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًـا، وَللهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَـا بَيْنَهُمَا، يَخْلُقُ مَـا يَشَاءُ، والله على كل شَيْءٍ قَدِيرٌ. ﴾

بعد أن حض الله تبارك وتعالى المؤمنين على أن يوفـوا بالعقود وحذرهم من مشابهة اليهود والنصارى الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ونبه عباده إلى عقابه الـذي عجله لليهود والنصارى ناقضي الميثـاق مع ما ادخره لهم من أليم العذاب يوم القيامة شرع هنا يدعو أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى الاستجـابـة لـرسول الله ﷺ المبعـوث من الله عـز وجل بـالنـور المخـرج من الظلمات، المرسل إلى الناس كافة ليبين للناس كل مـا يحتاجونه لسعادتهم في المعـاش والمعـاد وليقـص على بني إسرائيل أكثـر الـذي هم فيـه يختلفـون، ويفضح أحبار السوء ورهبان الضلال الذين يكتمون من التوارة والإنجيل ما يتوهمون أن إعلانه يُذهب رئاستهم على غـوغائهم ورعاعهم كصفة محمد ﷺ والبشارة به، ويبين مـا غيروه من الأحكام كرجم الـزاني الذي غيروه إلى الجلد والتحميم وهو جلدهما أربعين جلدة بحبل مطلي بـالقار ثم يسود وجههما ثم يحملان على حمارين ووجوههما مـن قبل دبر الحمار ويطاف بهما. وفي التعبير بقـولـه عز وجل : ﴿يـاأهل الكتـاب﴾ تنـديد بهم إذ لم يسـارعـوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ وقد ذكـرت في تفسير الآية السبعين من سورة آل عمـران أن قوله عـز وجل في مخاطبتهم : ﴿يَـاأَهْلَ الكتاب﴾ ليس مـدحـاً لهم بل هـو غايـة

قصوى في الذم والتوبيخ، إذ المفـروض فيمن كان من أهل الكتاب أن يكون أسرع الناس إلى تصديق رسل الله المؤيدين بالمعجـزات، فإذا لم يذعنوا للآيات التي يؤيد الله بها المرسلين كان وصفهم بأنهم أهل الكتـاب للتوبيخ والتنديد والـذم، كما تقول لمن ينحـرف في سلوكـه وكـان أبوه صـالحا: يا ابن الـرجل الصالح وأنت لا تـريد الثناء على هذا المنحـرف وإنما تريد توبيخـه على عدم سلوكه منهـج أبيه في الصلاح والاستقامة وقـوله تبارك وتعالى: ﴿قـد جَاءَكُمْ رَسُولُنَـا يُبَيِّنُ لكم كثيرا مما كنتم تُخْفُـونَ مِنَ الكتَابِ ويَعْفُـو عَن كثيرٍ﴾ أي قد بعثنا لكم نبينا ورسـولنا محمدا ﷺ المبعوث للنـاس كافة حالـة كونه ﷺ يبيّن لكم ياأهل الكتاب الكثير مما كتمتموه من الأخبار والأحكام كبشائر المرسلين بمحمد ﷺ ووصف أمتـه ووجوب الإيمان به ونصرتـه وكرجم الـزناة، ويترك كثيرا مما كتمتموه فلا يعلنه لعدم الحاجة إلى إعلانه مع كثرته إنذارًا لكم، وفيما أعلنه لكم دليل كاف شاف في إثبات رسالته ﷺ ومعجـزة ظاهرة باهرة قاهرة على أنـه رسول من رب العـالمين، إذ العرب والعجم الـذين كانـوا في جزيـرة العرب وما حـولها لا يشكون في أنه ﷺ كان أميًّـا لا يقرأ ولا يكتب، ولا علم له بكتـابهم قبل أن يوحى إليه، كما أن مـا عفا عنـه مما كتموه معجـزة أخرى حيث يعرفون أن النبي ﷺ عالم بما يخفونه فيكون ذلك داعياً لهم إلى الإيمان به ﷺ، ففي هذا ترغيب وتـرهيب وإقامة للبرهان على أكمل وجه وقـوله تبارك وتعالى: ﴿قد جاءكم من الله نورٌ وكتـابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي به اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رضوانه سُبلَ الســلام ويخرجهم مـن الظلمات إلى النــور بإذنــه ويهديهم إلى صراط مستقيم.﴾ تأكيـد وبيـان لعمـوم رسـالتـه ﷺ وشمـولها لجميع أهل الأرض عربهم وعجمهم من أميين وكتابيين، وأن رسالته ﷺ ليست منحصرة في بيان مـا كان يخفيـه أهل الكتـاب من الحق بل هـو نور منير وسراج وهـاج يضيء السبيل للسالكين، ويـرشد الحائرين، قـد بعثه الله عز وجل بـالكتاب المنير

ليفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، والمراد بالهداية في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَهْدِي به اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رضوانَهُ سُبُلَ السلام﴾ هداية الإرشاد والتوفيق والإعانة والتسديد والتأييد، والضمير في قوله: ﴿به﴾ عائد على الكتاب المبين، وهو القرآن العظيم الذي أنزله الله عز وجل على محمد ﷺ، ومعنى: ﴿من اتَّبَعَ رضوانه﴾ أي التمس رضى الله وقصد بعمله وجه الله عز وجل مع امتثال شريعة محمد ﷺ والعمل بها، والانقياد لها، والمراد بسبل السلام: طرق السلامة والنجاة وسعادة الدنيا والآخرة. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ويُخْرِجُهُمْ من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ أي ويخرج المتبعين لرضاه، الملتمسين هداه، المنقادين لشرعه، الذين يتبعون ولا يبتدعون، فيجعلهم على بصيرة في سلوكهم، ونور من ربهم، يمشون به في الناس، بتوفيق الله وهداه. ويرشدهم ويسددهم إلى صراط الله المستقيم ودينه القويم، وينفي عنهم الضلالة، ويحميهم من أن تتسلط عليهم الشياطين، فهم في سلوكهم ينهجون صراط الذين أنعم عليهم، ويجتنبون صراط المغضوب عليهم والضالين. ولاشك عند أهل السنة والجماعة أن الله تبارك وتعالى يرضى عن أوليائه ويسخط على أعدائه، نعوذ برضاه من سخطه وبعفوه من عقوبته ونعوذ به منه لا نحصي ثناءً عليه، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: و﴿إذنه﴾ في هذا الموضع تحبيبه إياه الإيمان برفع طابع الكفر عن قلبه، وخاتم الشرك عنه، وتوفيقه لإبصار سبل السلام اهـ وقوله عز وجل: ﴿لقد كَفَرَ الذين قالوا إنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ﴾ أي أقسم أن من ادعى أن المسيح عيسى ابن مريم هو الله فقد خلع ربقة الإسلام وجحد الدين الحق وانغمس في الضلال والكفر، وفي تأكيد هذا القول بإن وضمير الفصل ودخول الألف واللام على الخبر برهان على أن من ادعى أن المسيح إله

أو ابن إله أو أن الله ثالث ثلاثة فقد نفى ألوهية الإله الحق الذي لا إله إلا هو ولا رب سواه، ولاشك أن أول من ادعى ألوهية المسيح عليه السلام هو شاول اليهودي الذي سمى نفسه «بولس» وقد ادعت النسطورية من النصارى أن الله حل في المسيح، ويقولون: إن اللاهوت حل في الناسوت وتدرع به كحلول الماء في الإناء، ولذلك أعلنوا أن الله هو المسيح ابن مريم، كما ادعت اليعقوبية من النصارى أن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء واتحدا، ولذلك أعلنوا أن الله هو المسيح ابن مريم، فالنسطورية اعتقدوا حلول الله جل وعلا في المسيح ابن مريم، واليعقوبية اعتقدوا اتحاد الله جل وعلا بالمسيح ابن مريم، وفي قوله عز وجل: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ معجزة لرسول الله ﷺ حيث أعلن كفر من ادعى أن المسيح إله، وبيّن أن الله إله واحد، والمعلوم أنه عند بعثة رسول الله ﷺ كان السائد عند النصارى القول بألوهية المسيح عليه السلام فكما بيّن رسول الله ﷺ لليهود ما كتموه، بيّن للنصارى أساس ضلالهم، وسبب انحرافهم، فمن أين للأمي هذا العلم الذي يجابه به اليهود والنصارى ويوجه العالم إلى الصراط المستقيم؟ لكنه رسول رب العالمين ﷺ، وقد أطلعه الله تبارك وتعالى على علوم من الغيب بما أنزل عليه من الكتاب المبين وبما أوحاه إليه من أخبار الأولين والآخرين، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وَأُمَّهُ ومن في الأرض جميعا،﴾ هذا برهان قاطع وحجة دامغة على فساد من ادعى أن الله هو المسيح ابن مريم، ببيان أن عيسى مشاكل لمن في الأرض من بني آدم في الصورة والخلقة والتركيب معرض لما يتعرض له سائر بني آدم من الأعراض والصغر والكبر والتغيير، والأكل، والشرب، وغير ذلك والواجب على كل عاقل أن يعتقد أن الله هو القادر على كل شيء الذي لا يفنى ولايزول ولا يعجزه شيء ولا

يفوته شيء ولا يلحقه نقص بحال من الأحوال إذ هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وقد أورد الله تبارك وتعالى هذا الدليل في جملة شرطية قدَّم فيها الجزاء على الشرط والتقدير إن أراد الله أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً فمن الذي يقدر على أن يدفعه عن مراده ومقدوره، ثم أكد ذلك ببيان مالكيته لكل ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وأن جميع ذلك تحت قدرته ومشيئته وملكه وتصرفه حيث قال عز وجل: ﴿ولله مُلْكُ السمٰوات والأرض وما بينهما﴾ وعيسى عليه السلام هو وأمه ملك لله عز وجل داخل تحت قهره وسلطانه فهو وحده عز وجل هو الإله الحق الذي لا تصح الألوهية إلا له ولا يستحقها أحد سواه وتخصيص مريم بالذكر هنا مع اندراجها في ضمن من في الأرض لزيادة تأكيد عجز المسيح. قال أبو السعود العمادي: ولعل نظمها في سلك من فرض إرادة إهلاكهم مع تحقق هلاكها قبل ذلك لتأكيد التبكيت وزيادة تقرير مضمون الكلام بجعل حالها أنموذجا لحال بقية من فرض إهلاكه كأنه قيل: قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح وأمه ومن في الأرض وقد أهلك أمه فهل مانعه أحد؟ فكذا حال من عداها من الموجودين اهـ وفي قوله عز وجل: ﴿يَخْلُقُ ما يشاء﴾ زيادة تقرير وتأكيد لربوبية وألوهية الحي القيوم وإزاحة لما قد يعتري النصارى من شبهة كون المسيح عليه السلام ولد من غير أب ببيان أن الله تعالى يخلق ما يشاء فتارة يخلق الإنسان من الذكر والأنثى كما هو معتاد، وتارة يخلق الإنسان من غير أب ولا أم كما خلق آدم عليه السلام وتارة من غير أم كما في حق حواء عليها السلام، وتارة من غير أب كما في حق عيسى عليه السلام. وقد ذيل الآية الكريمة بقوله عز وجل: ﴿والله على كل شيء قدير﴾ لتحقيق ذلك كله.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ، وَللهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ. يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا ما جَاءَنَا من بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ، واللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.﴾

بعد أن بيَّن الله تبارك وتعالى بعض ما ارتكبه اليهود والنصارى من نقض العهود والمواثيق، وما اختصت به كل طائفة منهما على حدة من الكفر، ذكر هنا ما اتفقت عليه الطائفتان من افترائهم على الله ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، حيث قال عز وجل: ﴿وقالت اليهودُ والنَّصارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ وقد جاءت نصوص كثيرة في كتب «العهد القديم» التي يقر بها اليهود والنصارى تدعي أن بني إسرائيل هم أولاد الرب، وهي ولاشك من افتراءات أحبار السوء على الله عز وجل، ففي «الإصحاح» الرابع عشر من سفر التثنية في الفقرة الأولى من هذا «الإصحاح»: «أنتم أولاد للرب إلهكم» وفي «الإصحاح» الثاني من سفر أيوب في الفقرة الأولى من هذا «الإصحاح»: وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضا في وسطهم ليمثل أمام الرب. وفي المزمور الثاني من مزامير داود في الفقرة السابعة منه: إني أخبر من جهة قضاء الرب. قال لي: أنت ابني. أنا اليوم ولدتك ا. هـ والظاهر أن الذين كذبوا على الله وحرفوا الكلم من بعد مواضعه هم الذين وضعوا التلمود لليهود ونصوا فيه على أنهم أبناء الله وأحباؤه فقد جاء في التلمود: إن اليهود أحب إلى الله من الملائكة وأنهم من عنصر الله كالولد من عنصر أبيه. وقد اعتقد هؤلاء الضالون أن الله منحهم الصورة البشرية تكريما لهم أما غيرهم ويسمونهم «الأميين» فهم مخلوقون من طينة شيطانية أو

حيوانيـة نجسة، وأن الله إنما منح «الأميين» الصورة البشريـة ليسهل التعامل معهم، وقـد وصف إخـوان القـردة والخنـازيـر من عـداهم بأنهم كـلاب وخنازير، وقد بيَّن الله عز وجل كذب هؤلاء، ورد افتراءهم بقوله تبارك وتعالى في هذا المقام: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أي لو كنتم أبناء الله وأحباءه ما عـاقبكم على معاصيكم، وأنتم مقـرون بأن الله يعذبكم في نـار جهنم حيث قلتم: ﴿لن تمسنا النار إلا أياما معدودات﴾ والفطر السليمة موقنة بأن الوالد لا يعذب ولـده ولا يلقيه في نار جهنم، ولـذلك روى مسلم في صحيحه من حـديث عمر بن الخطـاب رضي الله عنـه أنه قـال: قدم على رسـول الله ﷺ بسبي، فإذا امـرأة من السبي تبتغـي، إذا وجـدت صبيًّـا في السبي أخـذتـه فألصقته ببطنها وأرضعتـه، فقال لنا رسول الله ﷺ: أترون هـذه المرأة طارحة ولدهـا في النار؟ قلنـا: لا والله وهي تقدر على ألا تطـرحه، فقـال رسول الله ﷺ: الله أرحم بعبـاده من هذه بـولدهـا. وقـد أخرجـه البخاري من روايـة الكشميهني عنه بلفـظ: قُدم على النبي ﷺ بسبي، فإذا امرأة مـن السبي قد تَـحلَّب ثـديُها بسقي، إذا وجدت صبيـا في السبي أخـذته فألصقتـه ببطنها وأرضعته، فقال لنـا النبي ﷺ: أتُرون هذه طارحة ولدهـا في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر على ألا تطرحه، فقال: لله أرحم بعباده من هذه بولدها. ولاشك أن من ادعى أنـه من أبناء لله فـإنه قـد ارتكب جرمـاً عظيماً وأنـه أكبر جرمـاً وأعظم إثماً ممن زعم أن الله قد اتخذ ولـدا، وحصر ذلك في المسيح أو العزير، مع أن الله تبارك وتعالى قد وصف الذين قالوا اتخذ الله ولدا بأنهم جاءوا بشيء منكر فظيع تكـاد السموات تتفطر منـه حيث يقول عز وجل: ﴿وَقَـالُوا اتَّخَذَ الـرحمنُ وَلَدًا * لقَـدْ جِئْتُمْ شَيْئًـا إِدًّا * تكَـادُ السمٰوات يَتَفَطَّـرْنَ مِنْـهُ وتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَـدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إن كُلُّ مَنْ في السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ إلا آتي الـرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ وقد أبطل الله

تبارك وتعالى دعـوى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحبـاؤه بخمسة براهين تدحض شبهتهم، وتفضح مقالتهم، البرهان الأول: هو قوله تبارك وتعالى: ﴿فلم يُعَذِّبُكُمْ بِـذُنُوبِكُمْ﴾ كما تقدم، والبرهـان الثاني: هو قولـه عز وجل: ﴿بَلْ أنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ أي كذبتم فلستم أبنـاء الله لأن الله تبارك وتعالى لم يلـد ولم يولـد ولم يكن لـه كفوا أحـد، ولستم أحبـاءه إن عصيتموه وكـذبتم رسله، وأشركتم بـه مالم ينـزل به سلطانـا، بل أنتم خلق من بني آدم خلقكم كما خلق سـائر البشر لا مـزيـة لكـم عليهم في شيء من التكـوين البشري، فأنتم وسائر بني آدم في البشرية سـواء، والبرهان الثالث هو قـوله عز وجل: ﴿يغفـر لمن يشـاء ويُعَذِّبُ من يَشَـاءُ﴾ أي إن جميع بني آدم تحت مشيئـة الله ورحمته وعدله، فمن أطاعه وصدق رسلـه وآمن بكتبه وملائكته واليوم الآخر وقدره خيره وشره وحلـوه ومره، وأقـام أركان الإسـلام جازاه بمغفـرة ذنوبـه، وتكفير خطاياه وأدخلـه جنات النعيم فضلا منه، ومن عصـاه وكذب رسله وكتبـه ولم يؤمن بـاليـوم الآخر والقـدر خيره وشره وحلـوه ومره ولم يقم أركـان الإسـلام عذبـه بعدلـه ولا يظلم ربك أحـدًا، والأمر في ذلك كلـه راجع إلى مشيئته وعـدله وفضلـه. والبرهان الرابع: هـو قولـه عز وجل: ﴿ولله مُلْكُ السموات وَالْأَرْضِ وما بَيْنَهُمَا﴾ أي إن جميع العوالم العلوية والسفلية وما بينهما وما فيهما من مكلفين وغير مكلفين هي ملك لله عز وجل وحده لا شريك له يتصرف فيهـا كيف يشاء ويحكم فيهـا بما يـريد، لا راد لقضـائه، ولا معقب لحكمه، ولا نسب بينـه وبين أحد من خلقـه، فالكل تحت مشيئتـه وقهره، لأنـه رب كل شيء وسيده ومليكـه، فدعـواكم أيها اليهود والنصـارى بأنكم أبناء الله وأحبـاؤه دعوى كاذبـة، وفرية قبيحـة، وجرأة على فاطـر السموات والأرض، فويل لكم عند قيامكم بين يديـه يوم القيامة، أما البرهان الخامس فهـو قولـه عز وجل: ﴿وإليـه المصير﴾ أي ومرجع جميع الخلائق إلى الله عـز

وجل ليجزي الـذين أساءوا بما عملوا ويجزي الـذين أحسنوا بـالحسنى، فلو أنكم تدبـرتم الأمر، ورجعتم عن هـذه الأكاذيب وتـركتم القول على الله بغير الحق، واستجبتم لرسول الله محمد ﷺ وعزرتموه، وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأقرضتم الله قـرضا حسنـا لفزتم عنـد لقاء الله يوم القيـامة، فعجلـوا المتاب لتسعدوا يـوم الحساب، وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿يَـاأَهْلَ الكتابِ قَـدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ على فَتْرَة مِنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ ولا نَذِيرٍ فَقد جَاءَكُمْ بَشِيرٌ ونذيرٌ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَـدِيرٌ﴾ أي يامعشر اليهود والنصارى قد أتـاكم مبعوثنـا يرشـدكم إلى الهدى، ويوضح لكم معالم الـدين، ومنهج الرشد، على انقطاع من الرسل وبعد مـدة متطاولة من بعثة آخر رسول أرسل إليكم، وبعد فتور من الوحي ومزيد احتياج منكم إلى بيان الشرائع والأحكام التي لا غنى لكم عن معـرفتها وقد بعثـه الله عز وجل إليكم لئـلا تكون لكم حجة وكيلا تقولوا وتعتذروا عن ضلالكم وانحرافكم بأنكم ما جاءكم رسول من ربكم يـرشـدكم إلى الخير ويحذركم من الشر، فقـد أرسلت إليكم أكمل مبشِّر وأعظم منذِر والله عـز وجل قدير على كل شيء، ما شـاء الله كان ومالم يشأ لم يكن. وقد صح الخبر عن رسول الله ﷺ بأن آخـر رسول أرسله الله عز وجل إلى بني إسرائيل هـو عيسى ابن مريم عليـه السلام فقـد روى البخاري من طريق أبي سلمـة أن أبا هريرة رضي الله عنه قـال: سمعت رسول الله ﷺ يقـول: أنا أولى النـاس بابن مـريم، والأنبيـاء أولاد عَلاَّت ليس بيني وبينـه نبي. وأخرجه مسلم من طريق أبي سلمة عن أبي هـريرة قال: قال رسول الله ﷺ: أنا أولى الناس بعيسى، الأنبيـاء أبناء علات، وليس بيني وبين عيسى نبي وأخرجه من طريق همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ، فذكر أحـاديث منها: وقال رسول الله ﷺ: أنـا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخـرة، قالوا: كيف يـارسول الله؟ قال: الأنبيـاء إخوة

من عـلات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحـد، فليس بيننـا نبي. ولاشك أن نفي وجـود نبي بين عيسى ومحمـد صلى الله عليهما وسلم ينفي وجود رسـول بينهما، لأن نفي النبـوة يقتضي نفي الرسـالـة بخلاف نفي الـرسـالة فإنـه لا يقتضي نفي النبوة لأن كل رسول نبي وليـس كل نبي رسولا، ومدة الفترة التي كانت بين رسـول الله ﷺ وبين عيسى عليه السلام نحو ستمائة سنـة فقد قال البخاري في صحيحه: حدثني الحسن بن مـدرك حدثنا يحيى بن حماد أخبرنا أبو عـوانة عن عاصم الأحـول عن أبي عثمان عن سلمان قال: فترةٌ بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ستمائة سنة. والمراد أن الله عز وجل بعث محمدا ﷺ على فترة من الـرسل، وانقطـاع من الـــوحي وطمـوس من السبل وتغير الأديان وشيوع الكفر في العالم فكانت النعمـة به أتم، والحاجة إليه قد بلغت الغايـة، إذ أن الفساد كـان قد عم جميع البـلاد، ونظر الله عـز وجل إلى أهل الأرض فمقتهم عـربهم وعجمهم غير بقـايـا من أهل الكتـاب منقطعين في الصوامع والأديـرة، لم يلبثوا أن انقرضوا أيضا، فقـد روى مسلم في صحيحه من حـديث عياض بن حمار المجـاشعي رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم مـا جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبدا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشيـاطين فاجتـالتهم عن دينهم، وحـرمت عليهم مـا أحللت لهم، وأمـرتهم أن يشركوا بي مـالم أنـزل بـه سلطانـا، وإن الله نظـر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب. الحديث.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فيكم أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وآتاكُمْ مالم يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ التي كَتَبَ اللهُ لكم ولا تَرْتَدُّوا على أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ. قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ. قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ، وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ. قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الفَاسِقِينَ. قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ، فَلَا تَأْسَ على الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ.﴾

بعد أن ذكر الله عز وجل ما اتفقت عليه طوائف أهل الكتاب من الباطل والافتراء على الله عز وجل حيث قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، وأبطل الله مقالتهم بخمسة براهين، وأنَّبهم على عدم إذعانهم لما جاء به البشير النذير محمد ﷺ الذي بعثه الله عز وجل ليرشدهم إلى الهدى ويوضح لهم معالم الدين على فترة من الرسل وانقطاع من الوحي شرع هنا يواسي رسوله محمدا ﷺ على ما يلاقيه من تعنت أهل الكتاب وبخاصة اليهود قبحهم الله ولعنهم، حيث بيَّن أن اليهود قد ورثوا عن آبائهم المتقدمين التمادي في الغي، والبعد عن الحق وشدة المخالفة للأنبياء، مع كثرة نعم الله عليهم، وتتابع أياديه وآلائه لهم، وكأنه يقول لحبيبه محمد ﷺ: لا تأس على ما أصابك منهم، فإن عنادهم للحق من عاداتهم وعادات أسلافهم وأوائلهم، وتَعَزَّ بما لاقاه أخوك موسى كليم الله من عنادهم ونكوصهم عن الحق، واذكر إذ قال لهم رسول الله موسى ﷺ: ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم وآلاءه التي

تفضل عليكم بها، ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة فأبوا أن يدخلوا، وقالوا لموسى عليه السلام: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. فعاقبهم الله عز وجل بأن يتيهوا في الأرض أربعين سنة. وقوله عز وجل: ﴿إذ جعل فيكم أنبياءَ وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين﴾ تفصيل لبعض نعم الله العظيمة التي أنعم بها على بني إسرائيل، ومعنى قوله عز وجل: ﴿إذ جعل فيكم أنبياء﴾ أي خصكم بمزية عظيمة حيث تفضل عليكم بإكثار الأنبياء حتى لا ينقطع التذكير بالله عز وجل عنكم وذلك أن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما مات نبيٌّ بعث الله عز وجل لهم نبيا آخر يسوسهم ويرشدهم إلى مصالح دنياهم وأخراهم وتعيين ملوكهم. فقد روى البخاري ومسلم من طريق أبي حازم قال: قاعدت أبا هريرة خمس سنين فسمعته يحدث عن النبي ﷺ قال: كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فُوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم. ومعنى قوله تعالى: ﴿وجَعلكم مُلُوكًا﴾ أي وصيَّركم أحرارا تملكون أمر أنفسكم بعد ما كنتم في أيدي القبط يستعبدونكم، وأورثكم مشارق الأرض ومغاربها التي بارك الله عز وجل فيها، وتمت كلمته الحسنى عليكم بما صبرتم، وصرتم أعزة يحكمكم ملك منكم مع ما تفضل الله به عليكم من الغنى واتخاذ الخدم بعد أن كنتم بأيدي آل فرعون خدما، وقد روى مسلم في صحيحه من طريق أبي عبد الرحمن الحبلي قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوى إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: فإن لي خادماً؛ قال: فأنت من الملوك. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وآتاكُم مالم

يُؤْتِ أحدا من العالمين﴾ أي وتفضل عليكم فأنزل عليكم المن والسلوى بعد أن فلق لكم البحر وصرتم تمشون بين جدارين من الماء كأنهما جبلان عظيمان، وجعل لكم الطريق بين الماءين يبسا، لا بلل فيه ولا وحل، وظلل عليكم الغمام وفجر لكم من الحجر اثنتى عشرة عينا بعدد أسباطكم، وفضلكم على عالمي زمانكم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ياقومِ ادخلوا الأرض المُقَدَّسَةَ التي كتَبَ الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين * قالوا ياموسى إنَّ فيها قَوْمًا جَبَّارِينَ وإِنَّا لن ندْخُلَهَا حتى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا منها فإنا داخلون﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ صورة جلية على تمادي بني إسرائيل في الغي، وبُعدهم عن الحق وشدة مخالفتهم لأوامر المرسلين، ومواساة لحبيب الله وسيد رسله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ ليصبر على ما يلقاه منهم من تعنت وأذى بعد بيان نعم الله عز وجل عليهم، وأنهم لم يشكروا آلاء الله ونعمته الكبرى ببعث محمد ﷺ إليهم وإرساله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور. والمراد بالأرض المقدسة: بيت المقدس، والمقدسة المطهرة المباركة. ومعنى ﴿التي كتب الله لكم﴾ أي فرض عليكم دخولها لقتال الكفار المستحوذين عليها وتطهيرها من مظاهر كفرهم وشركهم وتخليصها من أيديهم، ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾ أي ولا تنكلوا عن الدخول إليها ولا تجبنوا عن مقاتلة أعداء الله ولا تنقلبوا على أعقابكم مخالفين لأمر الله عاصين لرسوله ﷺ فتبوءوا بالخسران وترجعوا بالخيبة والحسرة والندامة وغضب الله. ومعنى قوله عز وجل: ﴿قالوا ياموسى إنَّ فيها قوما جبارين وإِنَّا لَنْ ندخُلَها حتى يخرجوا منها﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿فاذهب أنت وربك فَقَاتِلا إنا هَٰهُنَا قاعِدُونَ﴾ أي قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام إنه لا طاقة لنا بقتال أهل هذه الأرض التي أمرتنا بدخولها، لأن أهلها أقوياء أشداء عتاة، ولن ندخلها أبدا

ماداموا فيها، فإن خرجوا من تلقـاء أنفسهم دخلناها وسكنا فيها، فإن كنت مصرًّا على قتالهم فاذهب أنت وربك لقتالهم ونحن نجلس هنا حتى تطهرها أنت وربك من هـؤلاء الجبـارين. ولاشـك أن هـذا العمل من بني إسرائيل يعتبر الغاية القصوى في السفـاهة، والبلادة وتضييع الحق والتخلي عن نصرة دين الله، والجبن عن ملاقاة أعداء الله، ولاشك أن هذا الموقف المخزي الذي وقفه بنو إسرائيل من موسى عليه السلام يذكرنا بالموقف المشرف الكريم الذي وقفه أصحاب رسـول الله ﷺ من رسول الله محمد ﷺ يوم بـدر عندما التقت الفئة القليلة المؤمنة بالفئة الكثيرة الطاغيـة الباغية، حيث قال قائلهم لرسول الله ﷺ: والله لن نقـول لك كما قالت بنـو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتـلا إنا ههنـا قاعـدون ولكنا نقـول: اذهب أنت وربك فقاتـلا إنا معكما مقاتلـون؛ والله لو أمـرتنا أن نخـوض هذا البحـر لخضناه معـك، فقد روى البخـاري في صحيحه من حـديث عبـد الله بن مسعـود رضي الله عنه قـال: شهدت من المقـداد بن الأسود مشهداً لأن أكـون صاحبه أحب إلي مما عدل بـه، أتى النبي ﷺ وهـو يدعـو على المشركين فقـال: لا نقـول كما قال قـوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يـديك وخلفك فـرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره، يعنـي قولـه. كما روى مسلم في صحيحـه من حـديث أنس رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ شـاور حين بلغه إقبـال أبي سفيان، قال: فتكلم أبـو بكر فأعـرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يارسول الله؟ والذي نفسي بيده لـو أمرتنـا أن نخيضها البحـر لأخضناهـا، ولو أمـرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا. الحديث. وقـوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ من الذين يَخَافُـونَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عليهم البـاب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا

ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتـلا إنا هـٰـهنَا قاعدون﴾ أي لما نكل بنو إسرائيل عن طاعـة الله عز وجل وعصـوا رسوله مـوسى ﷺ وأبوا أن يـدخلوا القرية التي أمرهم موسى عليـه السلام بدخولها انبرى لهم رجلان من الموقنين بوعـد الله الخائفين من الله الشاكريـن لأنعم الله التي تفضل بها عليهما وأخذا يحرضانهم على طاعة الله عز وجل ويحضانهم على اقتحـام القرية وولوجها من بابها، ويـؤكدان لهم أنهم إن فعلـوا ذلك نصرهم الله عز وجل على الجبـارين وجعل لهم الغلبـة عليهم إن تـوكلـوا على الله واعتمـدوا عليـه والتجأوا إليـه مـاداموا قـد أعلنوا أنهم مـؤمنون بـالله، فإن من شأن من آمن بالله أن يتـوكل عليه، ومن يتوكل على الله فهـو حسبه يؤيده وينصره مهما كـانت قوة عدوه، لأن الله عز وجل لا يعجزه شيء، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.
وقد وصف الله تبـارك وتعالى هذين الرجلين بـوصفين أحدهما الخوف والثاني أن الله أنعم عليهما. ومقتضى السيـاق والمقام يقتضي أنهما إنما يخافـان من الله عـز وجل مما يحملهما على امتثـال أمره والـوقـوف عند حـدوده والمسارعـة إلى مـرضاتـه، كما أن شكر المنعم من أعظم أسبـاب صيانـة النعمة وزيـادتها، فأصـرُّوا على عـدم الامتثال، وقـوله ﴿قـال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فَافْرُقْ بيننا وبين القوم الفاسقين * قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، فـلا تأس على القوم الفـاسقين﴾ أي قال مـوسى عليه السـلام: ياسيدي وخالقي ومالـك أمري ومصلح نفسي أنا لا أقدر على حمل أحد على مـا أحب وأريـد من طاعتك والائتمار بأمـرك والانتهـاء بنهيك إلا على نفسي وعلى أخي، وهذا كقول القائل: ما أملك من الأمر شيئا إلا كذا وكذا بمعنى لا أقدر على شيء غيره. ومعنـى: ﴿فَافْـرُقْ بيننا وبين القـوم الفاسقين﴾ أي فافصل بيننا وبين الخارجين على طاعتك، العاصين لرسلك فإنك تقضي ولا يقضى عليك، وقوله عز وجل: ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنةً يتيهون

في الأرض﴾ أي فأخبر الله عز وجل موسى عليه السلام بأنه قضى على بني إسرائيل بأنهم لا يدخلون هذه الأرض المقدسة ويتيهون دونها مدة أربعين سنة، وقد مات هارون وموسى عليهما السلام قبل دخولها، ولما حضرت الوفاة موسى عليه السلام سأل ربه أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ، فأدناه الله عز وجل منها، ودفن إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر. وقوله تعالى: ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ مواساة لمحمد رسول الله ﷺ بسبب ما يلقاه من أذاهم أي فلا تحزن على ما يصيبك من هؤلاء الخارجين على طاعة الله.

قـال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ولم يتقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قـال لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ من الْمُتَّقِينَ. لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِن أَصْحَابِ النَّارِ، وَذَٰلِكَ جَزَاؤُا الظَّالِمِينَ. فَطَوَّعَتْ لـه نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ، قَالَ يَاوَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

بعـد أن واسى الله تبـارك وتعـالى نبيه محمـدا ﷺ على مـا يلقـاه من تعنت اليهود، وأن هـذا هو شأنهم مع أنبيـاء الله ورسله عليهم السلام وذكـر له أن أخاه مـوسى كليم الله عليه السلام ذكَّرهم بنعم الله عليهم بين يـدي أمره لهم بدخـول الأرض المقدسـة ليطهروهـا من الوثنيين وأنهم لم يطيعـوا أمره، أردف ذلك هنا بقصـة ابني آدم المفيدة أن عـداوة أهل الشر والحسد والبغي وأذاهم لأهل الخير قديمة جدًّا، وكيف قتل أحد ابني آدم أخاه حسدا له عندما قربا قربـانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، وفي هـذا تنديد باليهـود الذين امتلأت قلـوبهم بالشر والحسـد لرسـول الله ﷺ بسبب ما أنعم الله عـز وجل عليه مـن نعمة النبـوة والرسالـة وما آتـاه من العلم والحكمـة والخير، وتسلية ومواسـاة له ﷺ وتذكير بما يؤول إليـه حال الحاسد من الحسرة والنـدامة، وأن العاقبة الحسنى للمتقين، ومعنى قولـه عز وجل: ﴿واتْلُ عليهم نَبَأَ ابْنَيْ آدمَ بالحق﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى مبينـاً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور وهما قابيل وهابيل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتلـه بغياً عليه وحسداً لـه فيما وهبه الله من النعمة وتقبل

القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة وخاب القاتل ورجع بالصفقـة الخاسرة في الدارين فقال تعالى: ﴿واتل عليهم نبـأَ ابْنَيْ آدم بـالحق﴾ أي اقصص على هـؤلاء البغاة الحسـدة إخـوان الخنـازير والقـردة من اليهـود وأمثالهم وأشبـاههـم خبر ابني آدم وهما هـابيل وقابيل فيما ذكره غير واحد من السلـف والخلف، وقوله: ﴿بالحق﴾ أي على الجليـة والأمر الـذي لا لبس فيه ولا كـذب ولا وهم ولا تبديل ولا زيـادة ولا نقصان، كقوله تعـالى: ﴿إنَّ هٰذا لَهُوَ الْقَصَصُ الحقُّ﴾ وقوله: ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾ وقال: ﴿ذلك عيسى ابنُ مريمَ قـولَ الحق﴾ اهـ وقوله عـز وجل: ﴿إِذْ قَـرَّبَـا قُرْبَـانًـا فَتُقُبِّلَ من أَحَـدِهِمَا ولم يُتَقَبَّلْ من الآخـر قـال لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إنما يَتَقَبَّلُ اللهُ من المتقين﴾ يعني قد قدم كل واحد من الأخوين قربـانا إلى الله عز وجل، فتقبل الله عز وجـل قربان أحدهما ولم يتقبل قـربان الآخر بل رده والظاهر أنهم كـانوا يعرفون قبول القربان بعلامـةيظهرها الله عز وجل لهم كأن تأتي نار فتأكل القربان المتقبل، أو يعرِّفهم نبيُّهم ذلك بواسطة الوحي، والعلم عنـد الله عز وجل، وقد أشار الله تبـارك وتعالى إلى أن سبب قبول القربان في هذا الموضع هـو تقوى الله عز وجل حيث قال: ﴿إنما يَتقَبَّلُ الله من المتقين﴾ وظاهر سيـاق القصة يدل على أن الأخ الذي لم يتقبل قـربانه كان مبتلى بداء الحسـد وهو الداء الذي كـانت أول معصية بسببه حيث حمل إبليس عل الغـرور والكبر والامتنـاع عن السجود لآدم، كما حمل هـذا الـداء الوبيل الأخ الـذي لم يتقبل قربانـه على قتل أخيه الذي تقبل قـربانه، وقـوله تبارك وتعـالى: ﴿قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ﴾ استئنـاف بياني نشـأ عن سؤال مقـدر يدل عليه سياق الكلام كأنه قيل؟ فماذا قال مـن لم يتقبل قربانه؟ قيل: قال لأخيه لحقده عليـه وحسده له: والله لأزهقن روحـك، وقوله عـز وجل: ﴿قال إنما يَتَقَبَّلُ اللهُ من المتَّقِينَ﴾ استئناف بيـاني أيضا نشأ عن سـؤال مقدر يـدل عليه

سياق الكلام كأنه قيل: فماذا كان موقف الأخ الصالح الذي تُقبل قربانه من تهديد أخيه له بالقتل؟ قيل: قال لأخيه: إنما أُتيتَ من قبَل نفسك لا من قِبلي، حيث إنك مبتلى بداء الحسد الذي يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، وقد قضى الله عز وجل أنه لا يتقبل إلا من المتقين، وقوله عز وجل: ﴿لئن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إليك لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ.﴾ أي والله لئن مددت إلي يدك لتزهق روحي ما أنا بماد يدي إليك لأزهق روحك ولأمسكن يدي عنك خوفا من الله عز وجل لأن الله عز وجل حرم على الإنسان قتل أخيه بغير حق، ومجرد عزمك على قتلي لا يبيح لي أن أقتلك، وفي هذا تحذير شديد من الأخ الصالح لأخيه الحسود من سوء مغبة قتل النفس وإزهاق روح المسلم بلا حق لعله يرتدع فيمتنع عن الإقدام على قتل أخيه، وقوله عز وجل: ﴿إني أريد أن تَبُوأَ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار، وذٰلك جزاء الظالمين﴾ هذا تحذير آخر من العبد الصالح لأخيه الحسود يخوفه فيه من عقاب الله عز وجل ويوضح له فظاعة وبشاعة قتل المؤمن بغير حق، كأنه يقول له: أنا أكره أن ألقى الله عز وجل بمعصية وإثم لذلك أكف يدي عنك ولا أقتلك فإن قتلتني لقيت ربك بإثم قتلي مع ما ظهر منك من الآثام الأخرى كالحسد وغيره مما حال بينك وبين قبول قربانك، إذ من المعلوم شرعا أن من ظلم أحدا قد يحمل من سيئاته يوم القيامة إذا لم توف حسناته بما عليه إن كانت له حسنات، كما جاء في حديث المفلس، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن سول الله ﷺ قال: أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت

حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطايا هم فطرحت عليه ثم طرح في النار. وليس قوله: ﴿إني أُرِيدُ أن تَبُوأَ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار﴾ من باب تمني الشر للغير قال الفخر الرازي رحمه الله: هذا الكلام إنما دار بينهما عندما غلب على ظن المقتول أنه يريد قتله، وكان ذلك قبل إقدام القاتل على إيقاع القتل به، وكأنه لما وعظه ونصحه قال له: وإن كنت لا تنزجر عن هذه الكبيرة بسبب هذه النصيحة فلابد وأن تترصد قتلي في وقت أكون غافلا عنك وعاجزاً عن دفعك، فحينئذ لا يمكنني أن أدفعك عن قتلي إلا إذا قتلتك ابتداء بمجرد الظن والحسبان، وهذا مني كبيرة ومعصية، وإذا دار الأمر بين أن يكون فاعل هذه المعصية أنا وبين أن يكون أنت، فأنا أحب أن تحصل هذه الكبيرة لك لا لي، ومن المعلوم أن إرادة صدور الذنب من الغير في هذه الحالة وعلى هذا الشرط لا يكون حراما، بل هو عين الطاعة ومحض الإخلاص اهـ وقد صح الخبر عن رسول الله ﷺ أن هذا الأخ الذي قتل أخاه قد حمله الله عز وجل كفلا من إثم كل قتيل يقتل ظلما إلى يوم القيامة فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأولِ كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل، ومعنى كونه سن القتل أي فتح بابه وجعله سيرة للناس وطريقا فهو متبوع في هذا الفعل القبيح وقد سن هذه السنة السيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، وقوله عز وجل: ﴿فَطَوَّعَتْ له نَفْسُهُ قَتْلَ أخيه فَقَتَلَهُ فأصبح من الخاسرين﴾ أي فزينت له نفسه وطاوعته وشجعته على قتل أخيه وسهلت له ذلك فأقدم على ارتكاب هذه الجريمة البشعة مستسهلا لها غير مكترث بعاقبتها، وأزهق روح أخيه ولم تردعه هذه النصائح من أخيه الصالح، فأصبح القاتل من الخاسرين حيث باع آخرته واستجلب لدنياه الحسرة والندم فرجع بالصفقة الخاسرة، وخسر

الدنيا والآخرة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأرض لِيُرِيَهُ كيف يُوَارِي سَوْءَةَ أخيه، قال يَاوَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أكونَ مثل هٰذا الغراب فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أخي فَأَصْبَحَ من النَّادِمِينَ﴾ أي فأثار الله عز وجل غرابا يحفر في الأرض فيثير ترابها ليدفن فيها غرابا آخر ميتا وابن آدم القاتل ينظر إلى الغراب الذي حفر الأرض حتى وارى ودفن جيفة الغراب الميت، فقال ياحسرتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأدفن أخي كما دفن هذا الغراب أخاه، فحفر لأخيه القتيل ودفنه، وظاهر هذا السياق الكريم يشعر بأن الدفن كان غير معروف، وأن هذا القتيل هو أول مدفون في الأرض من بني آدم، وأن القاتل كان يجهل دفن جيفة أخيه حتى أرشده إلى ذلك ما رآه من فعل الغراب بأخيه. وقد ذكر الله تبارك وتعالى في سياق تعداد نعمه على الإنسان جعله بعد موته في قبر حيث يقول عز وجل: ﴿قُتِلَ الإنسانُ ما أَكْفَرَهُ * من أيِّ شيء خَلَقَهُ * من نطفة خلقه فَقَدَّرَهُ * ثم السبيلَ يَسَّرَهُ * ثم أَمَاتَهُ فأَقْبَرَهُ﴾ وفي بعث الغراب لتعليم ابن آدم دفن الميت آية من آيات الله عز وجل وإرشاد إلى ما أودعه الله في الحيوانات والطيور من ألوان الهداية كما قال عز وجل: ﴿قال فمن ربكما ياموسى * قال ربُّنَا الذي أعطى كل شيء خَلْقَهُ ثم هَدَى﴾ وكما أشار الله عز وجل إلى ذلك في سورة النمل عن قصة النملة وقصة الهدهد. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ أي فصار من المتحسرين حيث ارتكب جريمة من أكبر الكبائر دون أن يحصد لنفسه نفعا من ورائها بل جمع بسببها الخسران والحسرة. نسأل الله عز وجل أن يعصمنا من السوء، وأن يحفظنا من كل أسباب الخسران والحسرة والندامة إنه رءوف رحيم.

قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

بعد أن أشار الله عز وجل إلى أن عداوة أهل الشر لأهل الخير قديمة، وندد باليهود الحاسدين رسول الله ﷺ على ما أنعم الله عز وجل عليه به من النعم العظام، وضرب مثلا للحسد الذي حمل صاحبه على قتل أخيه وسفك دمه ظلما وعدوانا، وما ترتب على ذلك من الخسران والحسرة والندامة للذي قتل أخاه بغير حق، بيّن عز وجل هنا أنه عهد إلى عباده بتحريم قتل النفس بغير حق وأنه وصى بذلك تحذيرا من الوقوع فيه، ولما كان بنو إسرائيل هم أشد الناس سفكا للدماء حتى استباحوا دماء أنبيائهم وأزهقوا أرواح الكثير من رسلهم كتب الله عز وجل في وصاياه لأنبياء بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا. قال القاضي أبو بكر ابن العربي في كتابه أحكام القرآن في تفسير هذه الآية: لم يخل زمان آدم ولا زمن من بعده من شرع، وأهم قواعد الشرع حماية الدماء عن الاعتداء، وحياطته بالقصاص كفاً وردعاً للظالمين والجائرين، وهذا من القواعد التي لا تخلو عنها الشرائع، والأصول التي لا تختلف فيها الملل، وإنما خص الله بني إسرائيل بالذكر للكتاب فيه عليهم، لأنه ما كان ينزل قبل ذلك من الملل والشرائع كان قولا مطلقا غير مكتوب، بعث الله إبراهيم فكتب له الصحف، وشرع له دين الإسلام وقسم ولديه بين الحجاز والشام، فوضع الله إسماعيل بالحجاز مقدمة لمحمد ﷺ، وأخلاها عن الجبابرة تمهيدا له، وأقر إسحاق بالشام، وجاء منه يعقوب،

وكثرت الإسرائيلية، فامتلأت الأرض بالباطل في كل فجٍّ، وبغوا، فبعث الله سبحانه موسى وكلمه وأيده بالآيات الباهرة، وخط له التوراة بيده، وأمره بالقتال، ووعده النصر، ووفى له بها وعده، وتفرقت بنو إسرائيل بعقائدها، وكتب الله جل جلاله في التوراة القصاص محددًا مؤكدًا مشروعا في سائر أنواع الحدود، إلى سائر الشرائع من العبادات وأحكام المعاملات، وقد أخبر الله في كتابنا بكثير من ذلك اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كتبنا على بني إسرائيل أنه مَنْ قتل نفسا بغير نَفْسٍ أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومَنْ أَحْيَاها فكأنما أَحْيَا النَاسَ جَمِيعًا﴾ أي لأجل حماية الدماء عن الاعتداء شرعنا وجوب صيانة الأنفس، وأغلظنا على من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض ففرضنا في ذلك القصاص، وجعلناه على بني إسرائيل في كتاب مكتوب محرر حتى لا يغفلوا عن ذلك لما علمناه ممايكون منهم من الجرأة على إزهاق الأنفس ظلما وعدوانا، وأعلمناهم أن من قتل نفسا لا تستحق القتل حيث لم تكن اعتدت على نفس وأزهقتها بغير حق، أو لم تكن النفس المقتولة قد أفسدت في الأرض بما يجعل قتلها مشروعا كالزنا بعد إحصان أو الارتداد عن دين الإسلام، أو محاربة الله ورسوله وإخافة السبيل وقطع الطريق، فمن قتل نفسا واحدةً مصونةً فكأنما قتل الناس جميعا فأما بالنسبة إلى المقتول فكأنما انتهت الحياة كلها على الأرض، وأما بالنسبة للقاتل فالمنتهك لحرمة نفس واحدة كالمنتهك لحرمة كل النفوس وقد ضرب ابن عطية رحمه الله لذلك مثلا برجلين حلفا على شجرتين ألا يطعما من ثمرهما شيئا فطعم أحدهما واحدة من ثمر شجرته وطعم الآخر ثمر شجرته كلها، فقد استويا في الحنث، ولاشك أن سياق التحذير من قتل النفس بهذا الأسلوب البلاغي يدفع من به مسكة عقل أن يرتدع عن إزهاق النفوس المصونة، على أن الله تبارك وتعالى قد جعل جزاء من قتل النفس المؤمنة متعمدا جهنم

خـالدا فيهـا وغضب الله عليه ولعنـه وأعد لـه عذابـا عظيما ، وهذا العـذاب الأليم قد بلغ حدًّا لـو قتل الناس جميعا لكان وفاءً لـه ، كما أن من أحيا نفسا بإنقاذهـا من الهلاك قد أعد الله عـز وجل له من الجزاء الجميل مـا يعادل من أحيا الناس جميعـا ، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن أول ما يقضـى بين الناس يوم القيامة في الـدماء فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم مـن حديث عبد الله بن مسعـود رضي الله عنـه قال : قـال رسـول الله ﷺ : أول مـا يقضى بين الناس يوم القيامة في الـدماء . كما روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : لن يزال المؤمن في فسحة من دينه مـالم يصب دمـا حـراما . كما روى البخـاري من طـريق إسحـاق بن سعيـد سمعت أبي يحدث عن عبد الله بن عمر قـال : إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيهـا سفك الدم الحرام بغير حله . وقولـه تبارك وتعالى : ﴿ولقـد جـاءتهم رُسُلُنَـا بـالبينـات ثم إنَّ كثيرا منهـم بعـد ذٰلك في الأرض لمسرفون﴾ أي ولقد أرسلنا إلى بني إسرائيـل رسلنا بالبراهين والحجج والدلائل الواضحة الناطقة بتقريـر ما كتبنا عليهم ، وتحذيرهم من إزهاق الأنفس التي حـرم الله قتلهـا ، ووجـوب المحافظـة على سـلامـة الأرواح و إحيـاء الأنفس والعمل على استنقاذها من الهلاك ، وأن المرسلين قد بلغوا بني إسرائيل بذلك وأوصلوا إليهم رسالة ربهم ، وبعد ذلك كله وتجديد العهد إليهم مرة بعدة مرة حيث جـاءتهم الـرسل تترى فإنهم مسرفـون في القتل ، و إزهـاق الأرواح بـلا حق ، كما قـال عـز وجل : ﴿و إذ أخـذنا ميثـاقكم لا تسفكـون دمـاءكم ولا تُخْرِجُونَ أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ۞ ثـم أنتم هٰؤلاء تقتلون أنفسكم وتُخْرِجُون فريقا منكم من ديارهـم تَظَاهَرُونَ عليهم بالإثـم والعدوان و إن يأتُوكم أُسَـارَى تُفَادُوهُمْ وهو مُحَرَّمٌ عليكم إخْرَاجُهُم ، أفتـؤمنون ببعض الكتاب وتكفـرون ببعض ، فما جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلك منكم إلا خِـزْيٌ في الحياة

الدنيـا ويوم القيامـة يُرَدُّون إلى أشـد العذاب، وما اللهُ بغـافل عما تعملون * أولَئك الـذين اشْتَرَوُا الحياةَ الـدنيا بالآخـرة فلا يُخَفَّفُ عنهم العـذابُ ولا هم يُنْصَرُون * ولقد آتينا موسى الكتاب وقَفَّيْنَا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القُدُسِ، أفَكُلَّمَا جاءكم رسولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُم اسْتَكْبَرتُمْ فَفَرِيقًـا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًـا تَقْتُلُونَ﴾ قال ابن جريـر رحمه الله: القول في تأويل قولـه عز ذكره: ﴿ولقد جـاءتهم رسُلُنَا بالبينـات ثم إنَّ كثيرا منهم بعد ذُلك في الأرض لمسرفون﴾ قال أبو جعفـر: وهذا قسم من الله جل ثناؤه أقسم بـه: أن رسلــه صلـوات الله عليهم قـد أتت بني إسرائيل الــذين قص الله قصصهم، وذكر نبأهـم في الآيات التي تقدمت، من قـوله: ﴿يـاأيها الذين آمنـوا اذكروا نعمـة الله عليكم إذْ هَمَّ قَوْمٌ أن يَبْسُطُـوا إليكم أَيْدِيَهُمْ﴾ إلى هـذا الموضع «بالبينـات» يعني بالآيات الـواضحة، والحجج البينة على حقيقـة ما أرسلوا بـه إليهم، وصحة مـا دعوهم إليـه من الإيمان بهم، وأداء فرائض الله عليهم، يقــول الله عــز ذكــره: ﴿ثـم إنَّ كثيرا منهم بعــد ذُلك في الأرض لَمُسْرِفُـون﴾ يعني: أن كثيرا من بني إسرائيل، والهاء والميم في قـولـه: ﴿ثم إن كثيرا منهم﴾ من ذكـر بني إسرائيل، وكذلـك في قولـه: ﴿ولقد جـاءتهم﴾. ﴿بعـد ذُلك﴾ يعني: بعد مجيئ رسل الله بـالبينات، ﴿في الأرض لمسرفـون﴾ يعني: أنهم في الأرض لعاملون بمعاصي الله، ومخالفون أمر الله ونهيه، ومحادُّو الله ورسـولـه، باتبـاعهم أهـواءهم، وخـلافهم على أنبيـائهم، وذلك كـان إسرافهم في الأرض اهــ وإذا كان الإسراف قبيحـا في باب الأمـوال فإنه أشـد قبحـا وأعظم إثما في بـاب إزهــاق الأرواح البريئـة وقتل الأنفس بغير حق، وأصل الإسراف في اللغـة هو الإفـراط في الشيء يقـال: أسرف فلان في هـذا الأمر إذا تجاوز مقـداره فأفرط فيـه وفي التنزيل الكـريم: ﴿ومن قُتِلَ مظلـوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يُسْرِفْ في القتل إنه كان منصورا﴾ قال ابن منظور

في لسان العرب : قال الزجاج : اختلف في الإسراف في القتل فقيل : هو أن يقتل غير قاتل صاحبه ، وقيل : هو أن يقتل هو القاتل دون السلطان ، وقيل : هو أن لا يرضى بقتل واحد حتى يقتل جماعة لشرف المقتول وخساسة القاتل ، أو أن يقتل أشرف من القاتل ، قال المفسرون : لا يقتل غير قاتله ، وإذا قتل غير قاتله فقد أسرف ، والسَّرف تجاوز ما حُدَّ لك اهـ وقد أخبر الله عز وجل أنه لا يحب المسرفين حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكُلُوا واشربوا ولا تُسْرِفُوا ، إنه لا يحب المسرفين﴾ .

قال تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ الله وَرَسُولَهُ ويَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ، ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزيٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إلا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رحِيمٌ﴾ .

بعد أن بيَّن الله عز وجل أنه عهد إلى عباده بتحريم قتل النفس بغير حق، وأنه وصى بذلك تحذيرا من الوقوع فيه وأنه كتب من أجل ذلك على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا وأن رسل الله صلى الله عليهم وسلم قد جاءوا بني إسرائيل وأكدوا عليهم بذلك وأقاموا لهم الحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ومع ذلك فإن بني إسرائيل لم يرتدعوا ولم ينزجروا عن سفك الدماء المحرمة المصونة زاد هنا من تأكيد وجوب صيانة الأنفس والأموال والابتعاد عن الفساد في الأرض، وتجنب كل ما يُروِّع أمن الأمة ويثير الذعر والرعب بين أبنائها من قطع الطريق وإخافة السبيل والتعدي على الأعراض أو الخروج على إمام المسلمين وجماعتهم وشق عصا الطاعة وإشهار السلاح، وأعلم عز وجل عباده بما يستحقه المفسد في الأرض من العقوبة والنكال حيث يقول عز وجل: ﴿إنما جَزاءُ الذين يحاربون اللهَ ورسولَهُ ويَسْعَوْنَ في الأرض فسادا أن يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أو تُقَطَّعَ أيدِيهم وأَرْجُلُهُمْ من خلاف أو يُنْفَوْا من الأرض، ذٰلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم * إلا الذين تابوا من قبل أن تَقْدِرُوا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا في قصة العرنيين والعكليين وقد أورد البخاري رحمه الله في التفسير من صحيحه في باب ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن

يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا﴾ إلى قوله: ﴿أو يُنْفَوْا من الأرض﴾ من حديث أنس رضي الله عنه قال: قدم قوم على النبي ﷺ فكلموه فقالوا: قد استوخمنا هذه الأرض، فقال: هذه نَعم لنا تخرج، فاخرجوا فيها، فاشربوا من ألبانها وأبوالها، فخرجوا فيها، فشربوا من أبوالها وألبانها، واستصحوا، ومالوا على الراعي فقتلوه، واطَّردوا النَّعم. الحديث، وأخرج في المغازي في باب قصة عُكْل وعرينة من حديث أنس رضي الله عنه أن ناسا من عكل وعرينة قدموا المدينة على النبي ﷺ، وتكلموا بالإسلام، فقالوا: يانبي الله إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله ﷺ بذود وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه، فيشربوا من ألبانها وأبوالها فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعي النبي ﷺ، واستاقوا الذود، فبلغ النبي ﷺ، فبعث الطلب في آثارهم، فأمر بهم، فسمروا أعينهم، وقطعوا أيديهم، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم، وقد ساقه البخاري أيضا في كتاب المحاربين وقول الله تعالى: ﴿إنما جزاءُ الذين يحاربون الله ورسوله ويَسْعَوْنَ في الأرض فسادا أَن يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أو تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وأرجلُهم من خِلافٍ أو يُنْفَوْا من الأرض﴾ من حديث أنس رضي الله عنه قال: قدم على النبي ﷺ نفر من عكل فأسلموا، فاجتووا المدينة فأمرهم أن يأتوا إبل الصدقة، فيشربوا من أبوالها وألبانها، ففعلوا، فصحوا، فارتدوا، وقتلوا رعاتها واستاقوا الإبل فبعث في آثارهم، فأُتي بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، ثم لم يحسمهم حتى ماتوا. ثم ساقه في باب: لم يُسق المرتدون المحاربون حتى ماتوا، من حديث أنس رضي الله عنه قال: قدم رهط من عكل على النبي ﷺ كانوا في الصفة، فاجتووا المدينة، فقالوا: يارسول الله أبغنا رِسلاً، فقال: ما أجد لكم إلا أن تلحقوا بإبل رسول الله ﷺ، فأتوها، فشربوا من ألبانها وأبوالها حتى صحوا وسمنوا،

فقتلوا الـراعي واستاقوا الـذود، فأتى النبيَّ ﷺ الصريخ، فبعث الطلب في آثـارهم، فما ترجل النهـار حتى أُتي بهم، فأمر بمسـامير فأحميت، فكحلهم وقطع أيديهم وأرجلهم، ومـا حسمهم، ثم ألقوا في الحرة يستسقـون فما سقوا حتى مـاتوا. وسـاقه البخـاري في كتاب الـديات في بـاب القسامـة ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن نفرا من عكل ثمانية قدموا على رسـول الله ﷺ فبـايعـوه على الإسـلام، فـاستـوخموا المدينـة، فسقمت أجسامهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، قـال: أفلا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبـون من ألبانها وأبـوالها؟ قالوا: بلى، فخـرجوا، فشربـوا من ألبانها وأبـوالها، فصحـوا فقتلـوا راعي رسـول الله ﷺ، وأطـردوا النعم، فبلغ ذلك رسـول الله ﷺ، فأرسل في آثارهم، فـأُدركوا فجيء بهم، فأمـر بهم فقطعت أيـديهم وأرجلهم، وسمر أعينهم، ثم نبـذهم في الشمس حتى ماتـوا. وفي لفظ لمسلم من حـديـث أنس رضي الله عنـه قـال: إنما سمل النبي ﷺ أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الـرعاء. وسمل الأعين وسمرها بمعنى واحـد وهو فقؤها و إذهاب نورها بأي شيء كان، وقد تقدم في لفظ للبخاري من حديث أنس رضي الله عنـه قـال: فأمـر بمسـامير فأحميـت فكحلهم، أي أدخل المسامير المحماة في أعينهـم فأعماهم بها جزاء وفـاقا لما صنعـوه بالـرعاء. وفي وصف من يقطع السبيل ويثير الرعب بين النـاس ويعمل على عدم استتباب الأمن والاستقرار بأنه محارب لله ورسـوله وساعٍ في الأرض فسادا تهديـد شديد بأن من فعل ذلك يعرض نفسـه لحرب الله له ولحرب رسوله ﷺ لـه، وكذلك لحرب إمام المسلمين وجماعتـه الملتزمين بشرع الله، ولاشك أن من حـاربه الله محروب، ومن غالبه الله مغلوب، وأن الله عز وجل يمكن رسوله ﷺ ويمكن عباده الصالحين من قطع دابره والقضـاء على إفساده. وهذا شبيه بما هدد الله عز وجل به المستحلين للربا حيث قال: ﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما

بقى من الـربا إن كنتم مـؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنـوا بحرب من الله ورسـوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿أَنْ يُقَتَّلُـوا أو يُصَلَّبُـوا أو تُقطَّعَ أَيْـدِيهِم وأَرْجُلُهُـمْ من خِـلافٍ أَوْ يُنْفَـوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ هذا هو الذي سماه الفقهاء حد الحرابـة أو حد قطاع الطريق . وهو تقتيلهم أو تصليبهم ، أو تقطيع أيـديهم وأرجلهـم من خـلاف أو نفيهم من الأرض إذا قدر عليهم قبل أن يتـوبوا ، وقاطع الطريق لا يخلـو عن حال من أحوال خمس : الأولى : أن يكـون قد قَتل وأخـذ المال فإنه يتحتم قتلـه وصلبه ولا يدخلـه عفو، قال ابن المنذر: أجمع على هـذا كل من نحفظ عنه من أهل العلم . وظـاهر سيـاق الآيـة الكريمـة يـدل على أنه يصلب بعـد أن يقتل ، والمقصـود من صلبه أن يشتهـر أمره ، ويـرتـدع غيره ، أما الحالـة الثانيـة من أحوال قاطع الطريق : أن يَقتل لكنه لم يأخذ مالا فإنه يُقتل لكنه لا يصلب ، وإن رأى الإمام صلبه تعزيرا صلب . أما الحالة الثالثة : أن يأخذ المال لكنه لم يقتل أحـدا ، فإنه تقطع يـده اليمنى ورجلـه اليسرى ، وهذا معنى قـوله عـز وجل : ﴿من خلافٍ﴾ وتقطـع يده ورجله في وقت واحـد ولا ينتظر انـدمال اليد في قطع الرجل بل يقطعان معـا . والحال الرابعة : أن يخيف السبيل لكنه لم يقتل ولم يأخـذ مالا فإنه ينفـى من الأرض . أما الحال الخامسة مـن أحوال قاطع الطريق فهي أن يتوب قبل أن يُقـدر عليه ، فإن تاب قبل أن يقدر عليه سقطت عنه حـدود الله وأُخذ بحقـوق الآدميين من الأنفس والجراح والأموال إلا أن يُعفى لـه عنهـا . قال ابن قـدامـة رحمه الله في المغني : لا نعلم في هـذا خلافـا بين أهل العلم اهـ . ومعنى قـوله تبارك وتعـالى : ﴿ذٰلك لهم خِزْيٌ في الدنيـا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ أي هذا الـذي ذكرته من عقوبـة الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا من قتلهم أو من صلبهم أو من قطع أيديهم وأرجلهـم من خلاف أومن نفيهم من الأرض هـو لهم في عاجل

حياتهم خزي وذل وفضيحة وهَوَانٌ مع ما ادخره الله عز وجل لهم من العذاب العظيم في نار جهنم يوم القيامة قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿ذلك لهم خِزْيٌ في الدنيـا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ذلك﴾ هـذا الجزاء الذي جازيت به الذين حاربوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فسادا في الدنيا من قتل أو صلب أو قطع يـد ورجل من خلاف ﴿لهم﴾ يعني: لهؤلاء المحـاربين ﴿خِـزْيٌ في الدنيـا﴾ يقول: هو لهم شر وعـار، وذلة ونكال وعقوبة في عاجل الـدنيا قبل الآخرة، يقال: أخـزيت فـلانا فخـزى هو خـزياً. وقـوله: ﴿ولهم في الآخـرة عذابٌ عظيم.﴾ يقول عـز ذكره: لهؤلاء الذين حـاربوا الله ورسولـه وسعوا في الأرض فسـادًا، فلم يتـوبـوا من فعلهم ذلك حتى هلكـوا ﴿في الآخـرة﴾ مع الخزي الذي جازيتهم به في الدنيا والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها ﴿عذابٌ عظيمٌ﴾ يعني: عذاب جهنم اهـ ولا معارضة بين جمع الله عـز وجل العقوبة في الدنيا والآخـرة لمن حـاربـوا الله ورسولـه وسعـوا في الأرض فسـادا وبين مـا ثبت في صحيحي البخاري ومسلم من حـديث عبادة بن الصـامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتبايعونني على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا. الحديث. وفيه، فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة لـه، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبـه وإن شاء غفر له» لأنـه ليس من هذه الذنـوب المذكورة في هذا الحديث محاربـة الله ورسولـه والسعي في الأرض بـالفسـاد وهو يـدل على أن المحاربين لله ورسوله الساعين في الأرض بالفساد قد ارتكبوا جرما لا يغفره الله إلا بتوبة صاحبه منه، ولذلك قال بعدها ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أَنَّ الله غفـور رحيم﴾ وهذا يدل على شناعـة المحاربة وعظيم ضررها لأن نعمـة أمن الشعوب واستقـرارها في الـذروة من النعم، وإشـاعة

الخوف و إفساد الأمن قتل لـلأمم و إهلاك للشعوب، ولـذلك امتن الله تبارك وتعالى على عبـاده بنعمة الأمن حيث قـال: ﴿أَوَ لم يَرَوْا أنا جعلنـا حرمـا آمنا ويتخطف الناس من حـولهم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وضرب الله مثلا قـرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقهـا رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ .

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْـوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـونَ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مـافي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَـهُ لِيَفْتَدُوا بِـهِ مِنْ عَـذَابِ يَوْمِ الْقِيَـامَـةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ. يُرِيدُونَ أَن يَخْرجُوا مِنَ النَّارِ وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

بعد أن أشـار الله تبارك وتعالى في قصة ابني آدم إلى أن تقـوى الله عز وجل هي سبب الفـلاح والنجـاح والفوز في الـدنيـا والآخـرة وتقبل الأعمال حيث قال: ﴿إنما يَتَقَبَّـلُ الله من المتقين﴾ وأشار عـز وجل إلى أنه فـرض على عباده صيانـة النفوس وحض على إحيائهـا وأنه كتب ذلك على بني إسرائيل وأرسل إليهم الرسل بالبينات وعرفهم أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل النـاس جميعـا ومن أحياهـا فكأنما أحيـا النـاس جميعا، أكـد على المؤمنين هنـا ملازمـة تقوى الله عـز وجل وحضهم على الالتجـاء إليه وحـده والتوكل عليه وطلب جميع حوائجهم منه جل جلاله، ومجاهدة أعدائه الذين يحاربون الله ورسـوله ويسعـون في الأرض فسادا، حيـث يقول هنـا: ﴿يَاأَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وابْتَغُوا إليه الوسيلة وجَاهِدُوا في سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وقد تضمنت هذه الآيـة الكريمة ثلاثة أوامـر، الأول: أمر المؤمنين بتقوى الله عز وجل، والثاني: أمر المؤمنين بأن يبتغـوا إلى الله وحده الوسيلة، والثالث: أمر المؤمنين بأن يجاهـدوا في سبيل الله، وقد نبـه عز وجل المؤمنين إلى أنهم إذا اتقوا ربهم وطلبـوا الوسيلـة إليه وحـده، وجاهـدوا في سبيله أفلحـوا وفازوا، ومعنى قـوله عـز وجل: ﴿وابْتَغُوا إِلَيْـهِ الْوَسِيلَـةَ﴾ أي واطلبوا إلى الله وحـده حوائجكم ولا تطلبوها من أحـد سواه، ولو كان ملكا مقربـا أو نبيا مرسلا، فإن لله وحـده ما في السموات ومـا في الأرض، ولو اجتمع مـن في السموات ومن في الأرض على أن ينفعوا أحدا بشيء ما نفعـوه إلا بشيء كتبه الله له، ولو

اجتمعوا على أن يضروه بشيء ما ضروه إلا بشيء كتبه الله عليه، وما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن، ولذلك أرشد رسول الله ﷺ المسلمين إذا سألوا أن يسألوا الله وحده وإذا استعانوا أن يستعينوا بالله وحده فقد روى الترمذي من طريق قيس بن الحجاج عن حنش الصنعاني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يوما، فقال: ياغلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح اهـ وأصل الوسيلة في اللغة: الحاجة وتطلق على القربة وما يتوصل به إلى تحصيل المقصود وهي كذلك عَلَم على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، والمراد بالوسيلة في قوله تعالى: ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ هو المعنى الأول والثاني من معاني الوسيلة، أي واطلبوا منه عز وجل وحده حوائجكم ولا تطلبوها من غيره وأديموا التقرب إليه، ومن استعمال الوسيلة بمعنى الحاجة قول عنترة العبسي لامرأته لما لامته في فرس كان يؤثره على سائر خيله ويسقيه من لبن إبله:

لا تذكري مُهري وما أطعمته ... فيكون جلدك مثل جلد الأجرب
إن الغبوق له وأنت مسوءة ... فتأوهي ما شئت ثم تَحَوَّبي
كذب العتيق وماء شن بارد ... إن كنت سائلتي غبوقا فاذهبي
إن الرجال لهم إليك وسيلة ... إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

فهو ينذرها بالطلاق إن هي ألحت عليه بالملامة في فرسه لأنه حصنه ويقول لها: أنت إن وقعت في الأسر أسرعت فتكحلت وتخضبت لمن أسرك،

ويقـول: إن أخـذوك تكحلت وتخضبت لهم، فقد استعمل عنترة الـوسيلـة بمعنى الحاجة، أي إن الـرجال يحتـاجون لمثلك أمـا أنا فإني محتـاج إلى فرسي لأقـاتل عليه أعـدائي. أما اتخاذ الأشخـاص وسائط بين الله عـز وجل وبين عبـاده فإنه من سمات المشركين الـذين عبـدوا غير الله واتخذوا أولياء وسـائط وشفعاء، وقد أخبر الله عز وجل أنه سيحكم بينهم يوم القيامة فيجزيهم على كذبهم على الله وكفرهم حيث يقول تبـارك وتعالى: ﴿أَلا للهِ الدينُ الخالصُ، والذين اتخذوا من دونه أولَيَاء ما نعبدهم إلا لِيُقَرِّبُونَا إلى الله زُلْفَى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيـه يختلفون، إنَّ الله لا يهدي من هـو كاذب كَفَّـارٌ﴾ فلا يحل لمسلم أن يتوسل إلى الله بذوات الأشخاص ولا بمن فـارق الدنيا منهم مطلقا أما سؤال الصالحين من الأحياء أن يسألوا الله عز وجل ويضرعوا إليه لكشف الضر أو جلب الخير فإنـه مشروع ولـذلـك روى البخـاري في صحيحـه من حـديث أنس رضي الله عنه أن عمـر رضي الله عنـه كان إذا قحطـوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب وقال: اللهـم إنا كنا نستسقي إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتـوسل إليك بعم نبينا فـاسقنا، فيسقون. ولـو كان التـوسل بمن فارق الدنيـا جائزا لتوسل عمر بـرسول الله ﷺ ولم يتوسل بالعبـاس رضي الله عنه، ومن التـوسل المشروع أن تقـدم بين يـدي حـاجتك ودعـائك الثنـاء على الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى كما أرشدت إلى ذلك سورة الفاتحة، ومن أنواع الوسيلة الشرعية أن تدعو الله تعالى بعد أن تذكر أرضى عمل تقربت به لله عز وجل وعملته لوجهه الكريم كما في حديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فـانطبقت عليهم الصخرة فتضرع كل واحـد منهم إلى الله تعـالى وذكر عمـلاً صالحا وقال: اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغـاء وجهك فافرُج عنا مـا نحن فيه، فـانفـرجت عنهم الصخـرة، وخرجـوا يمشـون كما روى ذلك البخاري ومسلم من حـديث عبد الله بن عمـر رضي الله عنهما. أما الـوسيلة

التي يطلبها المسلم لـرسول الله ﷺ حيث يقول: اللهم آت محمدا الـوسيلة. فهي دار رسـول الله ﷺ وهي أعلى منزلـة في الجنة، وقد حـض رسول الله ﷺ المسلمين على أن يسألـوا الله الوسيلـة لرسـول الله ﷺ فقد روى البخـاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الـوسيلة والفضيلـة، وابعثه مقـاما محمـودا الذي وعـدته، حلـت له شفـاعتي يـوم القيامـة، كما روى مسلم من حـديث عبـد الله بن عمـرو بن العـاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقـول: إذا سمعتم المؤذن فقولـوا مثل مـا يقـول، ثم صلوا عليَّ، فـإنه من صلى عليَّ صـلاة صلى الله عليـه بها عشرًا ثم سلوا الله لي الـوسيلة فإنها منزلـة في الجنة لا تنبغي إلا لعبـد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنـا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفـاعة. وقد نـدد الله تبارك وتعـالى بالمشركين الـذين كـانوا يعبـدون الجن ويتوسلـون بهم فأسلم الجن وأخلصوا التوحيد لله عز وجل واستمر هؤلاء المشركون في التوسل بـالجن حيث يقول تبـارك وتعـالى: ﴿قل ادْعُـوا الذين زعمتـم من دونه فـلا يملكـون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولَئك الـذين يَـدْعُونَ يبتغـون إلى ربهم الوسيلة أَيُّهُمْ أقربُ ويرجون رحمتـه ويخافون عَذَابَهُ، إن عَذابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ والمراد أن المشركين الـذين يعبـدون غير الله كـالـذين عبـدوا المسيح والعزيـر والملائكة والجن يجهلـون أن عيسى والعزيـر والملائكة والجن الـذين أسلموا لا يطلبون حوائجهم إلا من الله وحده ويتبرأون ممن اتخذهم وسائل أو جعلهم شفعاء ليقربوهم إلى الله زلفى فأيهم أقـرب إلى الله؟ الذين أخلصوا له التوحيـد أم الذين أشركـوا بالله مـالم ينزل به سلطـانا؟ وقـد روى البخاري في صحيحه مـن حديث عبـد الله بن مسعود ﴿إلى ربهم الـوسيلة﴾ قـال: كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم اهـ

وأسعد خلق الله بالله من أرجع أمره كله لله ولم يتعلق بأحد سواه، وما أحسن قول الشاعر:

وقائلــةٍ مــات الكــرام فمــن لنــا إذا عضـنا الدهــر الشديد بنابه

فقلــت لهــا من كــان غايــة همــه سُــؤالاً لمخلــوق فليس بنا به

لئن مات مَن يُرجى فمعطيهم الذي يُرجُّــونه بـاق فلــوذوا ببــابه

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنَّ الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثلَه معـه لِيَفْتَدُوا بـه من عـذابِ يومِ القيـامـة ما تُقُبِّلَ منهم ولهم عـذابٌ أليم. يريـدون أن يخرجوا من النار ومـاهم بخارجين منها ولهم عـذاب مقيم﴾ هذا تأكيـد لوجوب امتثـال المؤمنين للأوامـر الثلاثـة القاضيـة بوجـوب اتقاء الله وابتغـاء الـوسيلة إليـه والجهـاد في سبيلـه، وحض للمؤمنين على المسـارعـة والمسابقة إلى تحصيل أسباب مرضـاة الله عز وجل قبل الارتحال من هذه الدنيا لأنها مزرعة الآخرة، فإن من مات على الكفـر لو توسل إلى الله عز وجل ببذل ملء الأرض ذهبا أو ببـذل جميع ما في الأرض ومثله معه لـو كان يملك ذلك ليدفع الله عنـه العذاب يوم القيامـة ما تقبل الله منه قـربانه، وما أخـرجه من النار، كما قـال عز وجل: ﴿إنَّ الذين كفـروا وماتـوا وهم كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ من أحدهم مِلْءُ الأرض ذهبـا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ، أولَئك لهم عـذاب أليمٌ وَمَالَهُمْ من ناصرين.﴾ وقد روى البخـاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له: ياابن آدم، كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع، فيقـال: هل تفتدي بقراب الأرض ذهبـا؟ قال: فيقـول: نعم يـارب، فيقـول الله تعالى: كـذبت، قـد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل، فيؤمر به إلى النار. وقد أكد الله تبارك وتعالى تيئيس من مات على الكفر من رحمة الله وأنهم مهما صرخوا واستغاثوا ليخرجوا من النار فإن الله عز وجل لا يخرجهم منهـا ولهم فيها عذاب دائم مستمر كما

قال عز وجل : ﴿كلما أرادوا أَن يخْرُجُوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾ وكما قال عز وجل : ﴿تَلْفَحُ وجُـوهَهُمُ النارُ وهم فيها كالحون . ألم تكن آياتي تُتْلَى عليكم فكنتم بها تكَذِّبُونَ . قالوا ربَّنَا غَلَبَتْ علينا شِقْوَتُنَا وكُنَّا قوما ضالين * ربَّنَا أَخْرِجْنَا منها فإن عُدْنا فإنَّا ظالمون * قال اخْسَئُوا فِيهَا ولا تُكَلِّمُونِ﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿إن الذين كفروا بآياتنـا سوف نُصْلِيهِمْ نارًا كلما نَضِجتْ جُلُودُهـم بدلناهم جلـودا غيرها ليـذقوا العـذاب ، إن الله كان عزيزا حكيما﴾ .

قال تعالى: ﴿والسَّـارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَـزَاء بما كَسَبَا نَكَالا مِنَ اللهِ، وَاللهُ عَـزِيزٌ حَكِيمٌ* فَمَن تَـابَ مِن بَعْـدِ ظُلْمِـهِ وَأَصْلَحَ فَإِن اللهَ يتُـوبُ عَلَيْهِ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رحيمٌ. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ، واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

بعد أن بشَّع الله تبـارك وتعالى جريمة الاعتـداء على النفس، وشدد النكير على من يحارب الله ورسـوله ويسعى في الأرض فسـادا وشرع للزجـر عن ذلك حد المحـاربة وقطاع الطـريق بأن يقتلوا أو يصلبـوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خـلاف أو ينفـوا من الأرض، وحض المسلمين على تقـوى الله وابتغـاء الوسيلـة إليه وحـده والجهاد في سبيلـه ليفلحوا ويفـوزوا، مما يقتضي صيـانة الأنفس والأمـوال شرع هنـا يبين حـد السرقة ردعًـا لمن يعتـدي على الأمـوال المحروزة المصونة فيأخذها على طريق الخفية عقب بيان حكم من يعتدي على أموال المسلمين فيأخذهـا على طريق المحاربة وقطع الطـريق، وأصل السرقة في اللغـة هي: الأخذ خفيـة، وشرعا هـي أخذ مـال محروز قيمته ربع دينـار فصاعدا على وجه الخفية وليس للآخِذ حق فيه ولا شبهـة، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح البـاري: ويقال لسارق الإبل الخارب بخـاء معجمة، وللسارق في المكيال مطفف، وللسارق في الميزان مخسر، في أشياء أخرى ذكرها ابن خـالـويـه في كتاب (ليـس) قال المازري ومن تبعـه: صـان الله الأمـوال بإيجاب قطع سـارقهـا، وخص السرقـة لقلة مـا عـداهـا بالنسبـة إليهـا من الانتهاب والغصب، ولسهـولة إقـامة البينـة على ما عـدا السرقة بخـلافها، وشدد العقـوبة فيها ليكون أبلغ في الـزجر، ولم يجعل دية الجنايـة على العضو المقطوع منهـا بقدر مـا يقطع به حمايـة لليد، ثم لما خانت هـانت، وفي ذلك إشارة إلى الشبهة التي نسبت إلى أبي العلاء المعري في قوله:

يـدٌ بخمـس مئينٍ عسـجدٍ وُديـت ... ما بالهـا قطـعت في ربـع دينـار

فأجابه القاضي عبد الوهاب المالكي بقوله:

صيانة العضو أغلاها، وأرخصها ... صـيانة المال فافهـم حكـمة الباري

وشرح ذلك أن الدية لـو كانت ربع دينار لكثرت الجنـايات على الأيدي، ولو كان نصاب القطع خمسمائة دينار لكثرت الجنايات على الأموال، فظهرت الحكمـة في الجانبين، وكان في ذلك صيـانة مـن الطرفين اهـ هذا وفي روايـة أخـرى لبيت القـاضي عبـد الـوهـاب المالكي، وقيل هـو لعلَم الـدين السخاوي:

عز الأمـانة أغـلاها، وأرخصـها ... ذل الخيـانة فافهم حكـمة الباري

ومن قول القـاضي عبد الـوهاب في الـرد على شبهة أبي العـلاء المعري: لما كـانت أمينـة كـانت ثمينة، ولما خـانت هـانت. ومعنى قـولـه عـز وجل: ﴿والسارق والسارقـة فاقطعوا أيديهما﴾ أي والرجل الذي يسرق فـاقطعوا يده والمرأة التي تسرق فـاقطعوا يـدها، والتنصيص على السـارقة مع أن الشريعـة جرت على إدراج النسـاء في الأحكام الـواردة في شأن الرجـال بطريق الـدلالة لمزيد الاعتنـاء بالبيان والمبـالغة في الزجـر، وتقديم الـرجال في الذكـر في باب السرقة لأن السرقة في الغالب تحتاج إلى الجرأة والرجال عليها أقدر، وقدم ذكر النساء في باب الـزنا على ذكر الرجـال حيث قال عز وجل: ﴿الـزانية والزاني فاجلـدوا كلَّ واحد منهما مـائة جلدة﴾ لأن الغـالـب أن المرأة هي الأساس في باب الـزنا ولـو امتنعت ما وقعت الجريمـة غالبا. وجمع الأيـدي في قولـه عز وجل: ﴿فاقطعوا أيـديهما﴾ لأن العرب كانوا إذا ذكروا شيئـا مُوَحدًا من خَلق الإنسان مضافا إلى اثنين فصاعدا جمعوه فيقـولون: قد هشمنا رءوسهما وملأنا ظهورهما وبطـونهما ضربا وكما قـال عز وجل: ﴿فقـد صغت قلـوبكما﴾ وقد بينت السنة اليد التي تقطع كما بينت محل القطع، وقد أطبق علماء أهل السنة

والجماعة على أن يد السارق التي تقطع هي اليمنى وأن موضع القطع يكون من مفصل الكف من الساعد أي من الرسغ، كما بينت السنة النبوية النصاب الذي تقطع اليد بسرقته، فقد أخرج البخاري من طريق ابن شهاب عن عمرة عن عائشة قالت: قال النبي ﷺ: تقطع اليد في ربع دينار فصاعدا. ثم رواه من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير وعمرة عن عائشة عن النبي ﷺ قال: تقطع يد السارق في ربع دينار. ثم أخرجه من طريق محمد بن عبد الرحمن الأنصاري عن عمرة بنت عبد الرحمن حدثته أن عائشة رضي الله عنها حدثتهم عن النبي ﷺ قال: يُقطع في ربع دينار، أما مسلم رحمه الله فقد أورده من طريق ابن شهاب عن عروة وعمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعدا. وساقه كذلك من طريق الزهري عن عمرة عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع السارق في ربع دينار فصاعدا. وساقه من طريق سليمان بن يسار عن عمرة أنها سمعت عائشة تحدث أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تقطع اليد إلا في ربع دينار فما فوقه. وساقه من طريق أبي بكر بن محمد عن عمرة عن عائشة أنها سمعت النبي ﷺ يقول: لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعدا. ولا معارضة بين حديث عائشة هذا وبين ما رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قطع في مِجَنٍّ ثمنه ثلاثة دراهم. لأن ربع الدينار صرفه ثلاثة دراهم على أساس أن الدينار اثنا عشر درهما، هذا وإذا سقط القطع عمن سرق أقل من ربع دينار فإنه لا يسقط عنه التعزير الرادع له عن المعاودة. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿جزاءً بما كَسَبَا نكَالا من الله والله عزيز حكيم.﴾ أي مجازاةً على صنيعهما السيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك وهو اليد التي سرقت تنكيلا من الله

عز وجل بهما على ارتكاب جريمتهما والله غالب قاهر قادر على الانتقام ممن يخالف أمره ويعتدي على أموال الآخرين كما أنه جل جلاله حكيم في أمره ونهيه وشرعه وقدره فله الحمد وله الشكر. وفي تذييل الآية بقوله عز وجل ﴿والله عزيز حكيم﴾ إشارة إلى كمال تشريعه الذي يصون العباد والبلاد ويحفظ النفوس والأموال، وأن من اعتدى على شرع الله لن يفلت من العزيز الحكيم. ومن الأسرار البلاغية التي اشتمل عليها هذا التذييل ما حكى الأصمعي، قال: قرأت هذه الآية، وإلى جنبي أعرابي، فقلت والله غفور رحيم سهوا، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ قلت: كلام الله، قال: أعد، فأعدت: والله غفور رحيم، فقال: ليس هذا كلام الله، فتنبهت، فقلت: ﴿والله عزيز حكيم﴾ فقال: أصبت، هذا كلام الله، فقلت له: أتقرأ القرآن؟ قال: لا. قلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟ فقال: ياهذا، عز، فحكم، فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن تَابَ من بعد ظُلْمِهِ وأصْلَحَ فَإِنَّ الله يتوبُ عليه، إنَّ الله غفور رحيم﴾ أي فمن ندم من السُّرَّاق من بعد ما سرق وعزم على ألا يعود، واستقام على المحافظة على حدود الله وحقوق عباده فإن الله عز وجل يقبل توبته لأنه عز وجل غفور رحيم، أما حد السرقة فإنه لا يسقط عن السارق إذا تاب مادام قد رفع إلى السلطان. قال ابن تيمية رحمه الله: فلا يجوز تعطيل الحد لا بعفو ولا بشفاعة ولا بهبة ولا غير ذلك، ولهذا اتفق العلماء ــ فيما أعلم ــ على أن قاطع الطريق واللص ونحوهما إذا رُفعوا إلى ولي الأمر ثم تابوا بعد ذلك لم يسقط الحد عنهم، بل تجب إقامته، فإن كانوا صادقين في التوبة كان الحد كفارة لهم، وكان تمكينهم من ذلك من تمام التوبة بمنزلة رد الحقوق إلى أهلها اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ألم تَعْلَمْ أنَّ الله له مُلْكُ السمٰوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء، والله على كل شيء قدير﴾ الاستفهام فيه للتقرير

والمخاطب به النبي ﷺ وكل من يصلح له الخطاب، والمعنى: قد علمت أن الله لـه ملك السموات والأرض وهـو الذي يقضي بين خلقـه بحكمـه وهـو العليم القـديـر وفيـه ردع لليهـود والنصارى الـذين قـالـوا: نحن أبنـاء الله وأحباؤه، وتـأكيد لفت انتباه النـاس إلى كمال تشريع الله عز وجـل لهم، وأنه تبارك وتعـالى أعلم من خلقه بمصالحهم، وأنـه يضع لهم من الأنظمة ويبين لهم من التشريعات مـا يحمي به أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وعقـولهم، وأنه يفعل ما يشـاء ويحكم بما يريد عـدلا ورحمة، ومن ذلك تفريقـه عز وجل في الحكم بين من يحاربون الله ورسولـه ويسعون في الأرض فسادا وبين من يسرق أمـوال الناس، كما أنـه لعلمه بصـالحي عباده وطـالحيهم يتقبل من المتقين، ويبطل أعمال الكافـرين الجاحدين، وقال ابن جريـر رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبـو جعفر: يقول جل ثناؤه لنبيـه محمد ﷺ: ألم يعلم هؤلاء يعني القـائلين: ﴿لن تمسنـا النـار إلا أيـامـا معـدودةً﴾ الـزاعمين أنهم أبنـاء الله وأحبـاؤه، أن الله مدبـر ما في السمـوات وما في الأرض ومُصرِّفـه وخالقـه، لا يمتنع شيء مما في واحدة منهما مما أراده، لأن كل ذلك ملكه، وإليه أمره، ولا نسب بينه وبين شيء ممـا فيهما ولا مما في واحدة منهما، فيحابيه بسبـب قرابته منه، فينجيه من عـذابه وهُوَ بِهِ كـافر، ولأمره ونهيه مخالف، أو يـدخله النار وهو له مطيع لبعد قرابته منه، ولكنه يعذب من يشاء من خلقه في الدنيا على معصيته بـالقتل والخسف والمسخ وغير ذلك من صنوف عذابـه، ويغفر لمن يشـاء منهم في الدنيـا بالتـوبة عليـه من كفره ومعصيتـه، فينقذه من الهلكـة وينجيه من العقـوبة ﴿والله على كل شيء قـدير﴾ يقـول: والله جل وعز على تعذيب من أراد تعذيبَه من خلقه على معصيتـه، وغفران ما أراد غفرانه منهم باستنقاذه من الهلكة بالتوبة عليه وغير ذلك من الأمور كلها قادر، لأن الخلق خلقه، والملك ملكه، والعباد عباده اهـ.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ومِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يأتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وإن لم تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا، وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزي ولهم فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْت، فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ.﴾

بعد البيانات الكثيرة المتقدمة المتضمنة مواساة رسول الله ﷺ فيما يلقاه من تعنت اليهود، وأشباههم من أعداء المرسلين، وبعد تقرير الأحكام الرادعة لمن يحارب الله ورسوله ويسعى في الأض فسادا، أو يسرق الأموال المصونة المحروزة، وبعد الترغيب في التوبة إلى الله عز وجل الذي له ملك السموات والأرض القادر على كل شيء الفعال لما يريد، نهى هنا رسوله وسيد خلقه محمدا ﷺ عن التأثر والاكتئاب والحزن والمبالاة بسبب ما يلقاه من أعداء الله المسارعين في الكفر وبخاصة المنافقين واليهود حيث يقول عز وجل هنا: ﴿يـاأيها الرسول لا يَحْزُنكَ الذين يُسَارِعُونَ في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا﴾ وفي خطاب الله عز وجل رسوله محمدا ﷺ بعنوان الرسالة تشريف عظيم له ﷺ ومواساة شافية وإشعار بما يوجب عدم الحزن، وتقريع للمنافقين واليهود وغيرهم من المسارعين في الكفر الذين يكذبون رسول الله ﷺ، ولم يخاطب الله عز وجل رسوله محمدا ﷺ بوصف الرسالة في القرآن العظيم إلا في موضعين اثنين فقط أحدهما هنا والثاني في قوله تبارك وتعالى في نفس هذه السورة: ﴿ياأيها الرسولُ

بَلِّغْ مَا أُنْـزِلَ إليك من رَبِّكَ﴾ ومعنى : ﴿لا يَحْزُنْكَ الـذيـن يُسَـارِعُـونَ في الكُفْـرِ﴾ أي لا تهتم ولا تبـال بتهـافتهم في الكفـر وسرعـة انغماسهم في الضـلال، قال أبـو السعـود العمادي في تفسير هـذه الآية : وهـذا وإن كـان بحسب الظاهر نهيـا للكفرة عن أن يحزنوه عليه الصـلاة والسلام بمسارعتهم في الكفر لكنـه في الحقيقة نهي له عليـه الصلاة والسلام عـن التأثر من ذلك والمبـالاة بهم على أبلغ وجـه وآكده، فإن النهـي عن أسباب الشيء ومبـاديـه المؤدية إليه نهي عنه بالطريق البرهـاني وقلع له من أصله، وقد يوجه النهي إلى المسبب ويـراد به النهي عـن السبب كما في قولـه : لاأرينك ههنـا يريـد نهي مخاطبه عن الحضور بين يديه اهـ. وأصل المسارعة في الشيء الوقوع فيه بسرعة ورغبـة، والتعبير بفي في قولـه عـز وجل : ﴿يسـارعون في الكفـر﴾ ولم يقل : يسارعـون إلى الكفر لـلإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفـر منغمسون فيـه وإنما يتقلبون في أبوابه، ويتحولون من ضـلال إلى ضلال، وقوله عز وجل : ﴿من الـذين قـالـوا آمنـا بأفـواههم ولم تـؤمن قُلُـوبهُم ومن الـذين هـادوا﴾ بيـان للمسارعين في الكفـر. والمراد بالذين قالـوا آمنا بأفواههم ولم تـؤمن قلوبهم : المنافقون، والمراد بالذين هادوا : اليهود. وقوله عز وجل : ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سماعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لم يَأْتُوكَ﴾ زيـادة في تقرير مواساة رسول الله ﷺ وتثبيت فؤاده، بزيادة بيان صفات أعدائه التي تدل على أنهم منحطو التفكير، سيئو السلوك، مما يدعو إلى عدم المبالاة بهم، فبعد أن بيَّن عز وجل أنهم يسارعون في الكفر وأنهم إما ضعـاف الشخصية منافقون، وإما يهود واليهـود معروفون بـالانغماس في تكـذيب الأنبيـاء، والجرأة في الافتراء على الله وعلى رسلـه، وصفهم كذلك بأنهم مفتونون قـد صرفت قلوبهم عن سماع الحق والاستجابة لـه، وأنهم يبالغـون في الاستجابـة والانقياد للبـاطل وقبول الكـذب، وأنهم خاضعون منقادون لقوم بعيدين لا يَجْرُءُونَ على مواجهتك، متأثرون بما يدسه

لهم هؤلاء البعداء من أحبار السوء، وبما يزودونهم به من الأباطيل والشبهات والشهوات مما يظنون أنه يحزن رسول الله ﷺ ويرهقه ويحمله ما لا يطيقه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِه﴾ بيان لصفة أخرى قبيحة من صفات القوم الآخرين الجبناء عن مقارعة الحجة المكتفين بالدس وتحريف كلام الله الذي وضعه الله عز وجل مواضعه وأثبت ما أحله وما حرمه وما وضعه وبينه من الحدود والحقوق فاجترأ هؤلاء على الله عز وجل وحرفوا كلامه بتغيير حروف منه لا توافق شهواتهم، أو بتأويل كلام الله على غير المراد منه إمعانا في التضليل، وانغماسا في الشهوات، وإثارة للشبهات، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَقُولُونَ إنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوه وإن لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا.﴾ هذه صورة من صور دس البعداء من أحبار السوء لرعاعهم وبيان لقبيحة من قبائح تحريفهم للكلم من بعد مواضعه، حيث كانوا قد غيروا حكم رجم الزانيين وبدلوه واصطلحوا فيما بينهم على جلد كل واحد منهما مائة جلدة والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين فظن أحبار السوء هؤلاء أنهم ربما يتمكنون من الحصول على فتوى من محمد ﷺ بتقرير ما حرفوه من شريعة الله وما غيروه من حدود الله، آملين أنهم إن تمكنوا من ذلك أصابوا هدفين برمية واحدة حيث روجوا باطلهم وأشاعوا السوء على رسول الله ﷺ، وجهلوا أن الله تبارك وتعالى قد عصمه من الناس، وحفظه من شر كل دساس، وقد حدث أن زنى رجل يهودي بامرأة يهودية فدس أحبار السوء إلى أتباعهم أن يحكِّموا محمدا ﷺ في شأن الزانيين، وقالوا لهم: إن حكم بالجلد والتحميم فاقبلوا حكمه، وإن حكم بالرجم فلا تقبلوا حكمه لأنه يكون مناقضا لحكم الله فاحذروا منه ولا تستمعوا له بعد ذلك، فكشف الله سترهم وأخزاهم وفضحهم فقد قال البخاري في المناقب من صحيحه: باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كما يَعْرِفُونَ أبناءهم وإنَّ فريقا منهم ليَكْتُمُونَ الحَقَّ وهم

يعلمون . ﴾ حـدثنا عبـد الله بن يوسف أخبرنـا مالك بن أنس عن نـافع عن عبد الله بن عمـر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فـذكروا له أن رجلا منهم وامـرأة زنيا ، فقـال لهم رسول الله ﷺ : مـا تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا : نفضحهم ويجلدون ، فقال عبد الله بن سلام : كذبتم ، إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة ، فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقـال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك ، فرفع يده ، فإذا فيها آية الرجم ، فقالوا ، صدق يامحمد ، فيها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فـرجما ، قال عبـد الله : فرأيت الـرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجـارة .

وأخرجـه مسلم من طريق نـافع أن عبد الله بن عمـر أخبره أن رسول الله ﷺ أُتي بيهودي ويهودية قد زنيا ، فـانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال : ما تجدون في التوراة على من زنى؟ قالوا : نسود وجوههما ونحمِّلهما ونخالف بين وجوههما ، ويطـاف بهما ، قال : فأتوا بـالتوراة إن كنتم صـادقين ، فجاءوا بها فقرأوها حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها ومـا وراءها ، فقال له عبد الله بن سـلام وهو مع رسول الله ﷺ : مره فليرفع يده ، فرفعها ، فإذا تحتها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما ، قـال عبـد الله بن عمـر : كنت فيمن رجمهما ، فلقد رأيتـه يقيهـا من الحجـارة بنفسه . كما روى مسلم من حـديث البراء بن عازب قـال : مُرَّ على النبي ﷺ بيهـودي محمماً مجلـوداً ، فـدعـاهم ﷺ فقـال : هكـذا تجدون حـد الـزاني في كتابكم؟ قـالوا : نعم ، فدعا رجـلا من علمائهم ، فقال : أنشدك بـالله الذي أنزل التوراة على مـوسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتـابكم؟ قال؟ لا ، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك ، نجـده الرجم ، ولكنه كثر في أشرافنـا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تـركناه ، و إذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، قلنـا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والضعيف ، فجعلنا التحميم والجلد

مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه، فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها الرسولُ لا يَحْزُنْكَ الذين يسارعون في الكفر﴾ إلى قوله: ﴿إنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ يقول: ائتوا محمدا ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الكافرون﴾ ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الظالمون﴾ ﴿ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الفاسقون﴾ في الكفار كلها. وقد بيّن الله تبارك وتعالى أن سبب مسارعتهم في الكفر وانغماسهم في الكذب وانقيادهم لأحبار السوء، وموقف أحبار السوء من رسول الله ﷺ هو أنهم مفتونون مخذولون نجسو القلوب حيث يقول عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدِ الله فتنته فلن تَمْلِكَ له من الله شيئا، أولَئك الذين لم يُرِدِ اللهُ أن يُطَهِّر قلوبَهم﴾ والمقصود من الإرداة هنا الإرادة الكونية القدرية، وقوله عز وجل: ﴿لهم في الدنيا خِزيٌ ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ أي لهؤلاء المنافقين واليهود فضيحة وذل وهوان في الدنيا عقوبة عاجلة، وقد أعد لهم في القيامة عذاب جهنم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿سَمَّاعُونَ للكذب أكَّالُونَ لِلسُّحْتِ، فإن جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بينهم أو أَعْرِضْ عنهم وإن تُعْرِضْ عنهم فَلَن يَضُرُّوكَ شيئا وإن حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بالقِسْطِ، إن اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ زيادة تأكيد لقبح ما عليه المنافقون واليهود من الاستجابة للكذب والانقياد له مع ردهم للحق الذي جاء به رسول الله ﷺ ومع ذلك فهم أكالون للسحت وهو الربا والرشوة وكل حرام خبيث يسحت آكله ويجلب له العار والخزي في الدنيا والآخرة، فقد جمع هؤلاء بين الغذاء الخبيث للقلب وهو الكذب والانقياد له وبين الغذاء الخبيث للجسم وهو استغراقهم في أكل السحت والمبالغة في تحصيله. وفي قوله عز وجل: ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ تخيير لرسول الله ﷺ إذا

ترافعوا إليه، فإن شاء حكم بينهم وإن شاء أعرض عنهم ثم طمأنه عز وجل بأنه إن أعرض عنهم فلن يتمكنوا من إلحاق أي ضرر به ﷺ، ولا معارضة بين هذا التخيير وبين قوله عز وجل: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ لأنه ﷺ إذا اختار أن يحكم فلن يحكم بينهم إلا بما أنزل الله ولذلك قال هنا: ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط، إن الله يحب المقسطين﴾ وقد أخبر الله عز وجل هنا أنه يحب المقسطين كما بشر رسول الله ﷺ المقسطين بأنهم على منابر من نور فقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إن المقسطين عند الله على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وماوُلُّوا.

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُم يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ، وَمَا أُولَئكَ بِالْمُؤْمِنِينَ. إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاة فيها هُدًى ونُورٌ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِين هَادُوا والرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بما اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكانوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ، فلا تَخْشَوُا النَّاسَ واخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِأَيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا، وَمن لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هم الْكَافِرُونَ. وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ والْعَيْنَ بالْعَيْنِ والأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ والسِّنَّ بالسن وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ، فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ له، وَمَن لم يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُم الظَّالِمُونَ﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل جملة من قبائح أفعال اليهود وأقوالهم، وأخزاهم وفضحهم، عَجَّبَ هنا حبيبه ورسوله وسيد خلقه محمدا ﷺ من تناقضاتهم وسوء مكرهم حيث دس أحبار السوء إلى رعاعهم أن يحكموا رسول الله محمدا ﷺ في شأن الزاني والزانية من اليهود لعلهم يتمكنون من الحصول على فتوى منه ﷺ بتقرير ما حرفوه من شريعة الله وما غيروه من حدود الله، ففضحهم الله عز وجل وأخزاهم وكشف سترهم وصاروا كعنز السوء التي بحثت بظلفها عن حتفها، وبيّن الله عز وجل أن حكم الله عز وجل في الزناة من رجمهم موجود في التوراة التي بأيديهم، حيث يقول عز وجل: ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ فقد شاعت فضيحتهم وانكشف تناقضهم، وأعز الله رسوله ﷺ، وأظهره عليهم، وقامت الحجة على المنافقين واليهود بأن محمدا ﷺ على صراط مستقيم. وقوله عز وجل: ﴿وعندهم التوراةُ فيها حُكْمُ الله﴾ أي وبأيديهم التوراة المشتملة على حكم الله في القضية التي حكموك فيها وهي أن حد الزاني الرجم، وهذا يقرر أنهم لم يتمكنوا من تحريف التوراة تحريفا كليا، وإنما وقع التحريف في بعض ألفاظها، وأن

بعض الأحكام التي شرعها الله عز وجل لبني إسرائيل في التوراة لم تتبدل كرجم الزناة والقصاص، وإن كان أحبار السوء قد انحرفوا عن العمل بها فبدلوا الرجم بتسويد وجه الزاني وتشهيره وجلده، كما أن بعض صفات رسول الله ﷺ قد بقيت في التوراة وإن حاول اليهود كتمان كل صفة تدل عليه ﷺ، وقوله عز وجل: ﴿ثم يَتَوَلَّوْنَ من بعد ذٰلك، وما أولٓئك بالمؤمنين﴾ تقريع لهؤلاء اليهود الذين علموا أن رسول الله ﷺ إنما يحكم بحكم الله، ومع ذلك لا يسارعون إلى الإيمان به والاستجابة له وإنما يزدادون إعراضا عن الحق، وبعداً عن الإيمان، ولذلك قال: ﴿وما أولٓئك بالمؤمنين﴾ قال ابن جرير رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وما أولٓئك بالمؤمنين﴾ يقول: ليس من فعل هذا الفعل أي من تولى عن حكم الله الذي حكم به في كتابه الذي أنزله على نبيه في خلقه بالذي صدق الله ورسوله فأقر بتوحيده ونبوة نبيه ﷺ لأن ذلك ليس من فعل أهل الإيمان اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التوراة فيها هُدًى ونورٌ﴾ ثناء من الله عز وجل على التوراة التي أنزلها على موسى عليه السلام وأنها نزلت مشتملة على الهدى والنور، فهي تدل على الطريق المستقيم وتهدي إلى الرشد وتنير للسالكين منهج سعادتهم في الدنيا والآخرة، وفي هذا تنديد باليهود الذين انحرفوا عنها وحرفوا كلمها من بعد مواضعه، وسلكوا طرقا معوجة دعاهم إليها أحبار السوء وأصحاب التلمود. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يحكم بها النَّبِيُّونَ الذين أسلموا للذين هَادُوا﴾ أي يقضي بها أنبياء الله ورسله المنقادون لأمر الله الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وينفذون أحكامها في بني إسرائيل الذين تهودوا، لا يفرقون في ذلك بين شريف وضعيف. وقوله عز وجل: ﴿والربانيون والأحبار بما اسْتُحْفِظُوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾ أي ويقضي بالتوراة أيضا فقهاء بني إسرائيل العارفون بالله وعلماؤهم بسبب انقيادهم لأمر الله الذي عهد إليهم أن

يحفظوا كتابه من التحريف والتبديل ولا يبدلوه ولا يضيعوه، وكانوا عليه رقباء يحمونه من التغيير والتبديل ويشهدون أنه حق، وقوله عز وجل: ﴿فلا تَخْشَوُاْ الناسَ واخشونِ ولا تَشْتَرُوا بآياتي ثمنا قليلا﴾ تثبيت لأفئدة المسلمين وتحذير لهم من تضييع كتاب الله وحدوده لسبب من رهبة أو رغبة وتنديدٌ بأحبار السوء من اليهود الذين ضيعوا حدود الله وحرفوا الكلم من بعد مواضعه قال الفخر الرازي رحمه الله: واعلم أنه تعالى لما قرر أن النبيين والربانيين والأحبار كانوا قائمين بإمضاء أحكام التوراة من غير مبالاة خاطب اليهود الذين كانوا في عصر رسول الله ﷺ ومنعهم من التحريف والتغيير، واعلم أن إقدام القوم على التحريف لابد وأن يكون لخوف ورهبة، أو لطمع ورغبة، ولما كان الخوف أقوى تأثيرا من الطمع قدم تعالى ذكره فقال: ﴿فلا تخشوُا الناسَ واخْشوَنِ﴾ والمعنى: إياكم وأن تحرفوا كتابي للخوف من الناس والملوك والأشراف فتسقطوا عنهم الحدود الواجبة عليهم وتستخرجوا الحيل في سقوط تكاليف الله تعالى عنهم، فلا تكونوا خائفين من الناس، بل كونوا خائفين مني ومن عقابي. ولما ذكر أمر الرهبة أتبعه بأمر الرغبة فقال: ﴿ولا تَشْتَرُوا بآياتي ثمنا قليلا﴾ أي كما نهيتكم عن تغيير أحكامي لأجل الخوف والرهبة فكذلك أنهاكم عن التغيير والتبديل لأجل الطمع في المال والجاه وأخذ الرشوة، فإن كل متاع الدنيا قليل، والرشوة التي تأخذونها منهم في غاية القلة. والرشوة لكونها سحتا تكون قليلة البركة والبقاء والمنفعة، فكذلك المال الذي تكتسبونه قليل من قليل، ثم أنتم تضيعون بسببه الدين والثواب المؤبد والسعادات التي لا نهاية لها اهـ ومن المقرر عند أهل العلم أن خوف السر من غير الله شرك أكبر ومعنى خوف السر: أن يخاف العبد من غير الله تعالى أن يصيبه مكروه بمشيئته وقدرته وإن لم يباشره، لأنه اعتقاد للنفع والضر في غير الله تعالى ولذلك حذر تبارك وتعالى من ذلك في غير موضع من

القرآن العظيم كما قال تعالى: ﴿فَإِيَّايَ فارهبونِ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بضُرٍّ فلا كَاشِفَ له إلا هو وإن يردك بخير فلا رادَّ لفضله، يصيب به من يشاء من عباده، وهو الغفور الرحيم.﴾ وقال هنا: ﴿فلا تَخْشَوُا الناسَ واخْشَوْنِ﴾. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الكافرون﴾ أي ومن لم يرض بحكم الله وشرعه وحَكَم بغير ما أنزل الله معتقدا أن حكم غير الله أحسن من حكم الله فهو الكافر المارق من دين الله، وقد وصف الله عز وجل في هذا المقام من حكَم بغير ما أنزل بأنه كافر كما ذكر في هذه الآية، ووصفه بأنه الظالم كما ذكر في تذييل الآية التي تليها حيث قال عز وجل: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الظالمون﴾ ووصفه بأنه الفاسق حيث يقول عز وجل: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الفاسقون﴾ وفي هذا وعيد عظيم لمن عدل عن حكم الله عز وجل وحكم بالطاغوت، وسياق الآيات وإن كان في اليهود والنصارى فإن عموم اللفظ ووجوب تحكيم شرع الله والرضا به يقتضي شمول هذا الوعيد لكل من لم يحكم بما أنزل الله سواء كان من الأمم السابقة أو من أمة محمد ﷺ، وهو شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يُحْمَى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هٰذا ما كَنَزْتُم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ فإن السياق وإن كان في الأحبار والرهبان لكنه ورد بلفظ العموم الذي يشمل كل من فعل ذلك. وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به﴾ أن التعبير بقوله: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾ إشعار بأن مجرد الرغبة في التحاكم إلى الطاغوت كفر، فما بالك بمن حكم به أو تحاكم إليه فعلا؟ فذلك لا شك أقبح وأبشع وأعظم جرما وأشد كفرا. كما قلت في تفسير قوله

عز وجل: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ هذا قسَم من الله عز وجل بأجل مقسم به وهو نفسه المقدسة وبوصف وعنوان ربوبيته لأفضل خلقه محمد ﷺ على أنه لا يثبت لأحد ــ مهما كان ــ إيمان بالله ورسوله إلا إذا كان احتكامه في جميع ما يحتكم فيه من نزاع مهما كان إلى شريعة رسول الله ﷺ، ولابد كذلك أن ينشرح صدره لأحكام شريعة الإسلام بحيث لا يجد في نفسه حرجا من أي حكم من أحكامها، بل يكون تلقيه له بالقبول والرضى وانشراح الصدر وأن يسلم بذلك تسليما وينقاد انقيادا، وأن يعلم أن في تطبيق شريعة الإسلام في كل ما يحدث بين الناس من نزاع وشجار فلاحا وسعادة وعدلا و إنصافا وحقا. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ إلى آخر الآية أي وفرضنا على بني إسرائيل في التوراة أن من قتل نفسا عدوانا وظلما قتل بها ومن فقأ عينا بغير حق تفقأ عينه وأن الأنف يجدع بالأنف وأن الأذن تقطع بالأذن وأن السن تقلع بالسن وكذلك كل ما يمكن فيه التماثل إذا حصل ذلك عدوانا وظلما. ومعنى ﴿والجروحَ قصاص﴾ أي وسائر الجراحات التي يمكن القصاص فيها والمماثلة ففيها القصاص كالشفتين واللسان والأنثيين والقدمين واليدين وغيرهما، فأما ما لا يمكن القصاص فيه من رض في لحم أو كسر في عظم أو جراحة في بطن يخاف منه التلف إن اقتص منه ففيه أرش وحكومة، وفي قوله عز وجل ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ الآية توبيخ آخر شديد لليهود، فبعد أن وبخهم على تركهم ما كتبه عليهم من رجم الزاني، حيث بدلوه بالجلد والتحميم والتشهير وبخهم في هذه الآية أيضا بتعديهم على ما كتبه الله عليهم في التوراة من قصاص النفس بالنفس حيث لم يرض بنو النضير بذلك ظلما وعدوانا وجعلوا النفس من بني النضير بنفسين من بني قريظة ولا

يقتلون النضري إذا قتل القرظي، ومعنى قوله عز وجل: ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ أي فمن عفا عن القصاص ممن تعدى عليه وتجاوز له عن القود أو الأرش فإن الله تبارك وتعالى يكفر ذنوب هذا الذي عفا، لأنه عز وجل يحب العفو، ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ . وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ أي ومن أعرض عن التحاكم إلى شريعة الله ولم يرض بقضاء الله فأولئك هم المبالغون في الظلم المتعدون لحدود الله الواضعون للشيء في غير موضعه .

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا على آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ من التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَموعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ. وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بما أَنزَلَ اللهُ فِيهِ، وَمَن لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ولَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

بعد أن وبخ الله عز وجل اليهود على انحرافهم عن كتاب الله واستغراقهم في الكذب مع المنافقين، وتحريفهم لكلام الله من بعد مواضعه، وتغييرهم لما شرعه الله عز وجل وكتبه عليهم في التوراة من رجم الزاني والقصاص في القتلى والجروح، وبيَّن أنهم لم يهتدوا بهدَى التوراة ولم يستنيروا بنورها وحكم عليهم بأنهم كافرون ظالمون شرع هنا في الحديث عن عيسى ابن مريم الذي جاء عقب أنبياء إسرائيل الذين حكموا بالتوراة وأن عيسى عليه السلام جاء مصدقا للتوراة وأن الله عز وجل أعطاه الإنجيل المشتمل على الهدى والنور وأن الإنجيل موافق لما في التوراة من أصول قواعد الدين وحفظ الكليات الخمس وهي الدين والنفس والعقل والعرض والمال وما يصونها من الحدود، وإن اقتضت حكمة الله عز وجل أن يبيح لعيسى عليه السلام وأمته بعض ما كان محرماً على بني إسرائيل حيث يقول عز وجل هنا: ﴿وقَفَّيْنَا على آثارهم بعيسى ابنِ مريمَ مُصَدِّقًا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيلَ فيه هُدًى ونُورٌ﴾ الآيتين. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وقَفَّينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور﴾ أي وبعثنا

عيسى ابن مريم وأرسلناه إلى بني إسرائيل عقيب أنبيائهم ورسلهم الذين حكموا بالتوراة، وجاء عيسى عليه السلام مصدقا لكتابنا الذي أنزلناه من قبله على موسى عليه السلام مؤمنا بأنه كلام الله وأنه حق وأنه هدى ونور، وأعطينا عيسى عليه السلام الإنجيل المشتمل على الهدى والنور فهو هدًى يهدي إلى الحق وهو نور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات ويخرج من اتبعه من ظلمات الجهالة إلى نور العلم والمعرفة وكمال البصيرة، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَمُصَدِّقًا لما بين يديه من التوراة وهُدًى وموعظةً للمتقين﴾ أي وآتينا عيسى الإنجيل المشتمل على الهدى والنور حالة كون هذا الإنجيل مصدقا وموافقا لما في التوراة من أصول قواعد الدين وحفظ الكليات الخمس التي لا سعادة للبشرية في دينها ودنياها إلا بصيانتها وحالة كون هذا الإنجيل هدى وكونه زاجرًا عن المعاصي لمن يخافون الله عز وجل إذ هم الذين يستفيدون من شريعة الله ويستضيئون بأنوارها ومعارفها، وقد وصف الله تبارك وتعالى الإنجيل في هذا المقام بهذه الصفات الخمس وهي كونه مشتملا على الهدى ومشتملا على النور وكونه مصدقا لما بين يديه من التوراة وكونه في نفسه هدى وكونه موعظةً أي مشتملا على النصائح والمواعظ والزواجر البليغة المتأكدة. وقوله عز وجل: ﴿ولْيَحْكُمْ أهلُ الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الفاسقون﴾ أي وأمرنا أتباع الإنجيل بأن يلتزموا بأحكامه وأن يقفوا عند حدوده، وأن يحلوا حلاله وأن يحرموا حرامه، وأن يؤمنوا بكل ما أوجب عليهم الإيمان به، مما يحتم عليهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ الذي لم يكتف مَنْ أنزل الله عليه الإنجيل أن يشير إليه إشارة بل حدد لهم اسمه بأفصح عبارة ولم يخبرهم بذلك سرًّا بل خطب بذلك في بني إسرائيل علانية وجهرا فقال: ﴿يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ فمن استجاب

لمحمد ﷺ من معاصريـه وممن جاء بعدهم إلى يوم القيامـة من النصارى فقد ارتضى حكم الإنجيل ومن كفر بمحمـد ﷺ فقد كفـر بالإنجيل وفسق عن أمر الله . وقـوله تبارك وتعـالى : ﴿وأنزلنـا إليك الكتاب بالحق مصـدقا لما بين يديـه من الكتاب ومهيمنا عليـه فاحكم بينهم بما أنـزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جـاءك من الحق، لكلٍّ جعلنـا منكـم شرعـةً ومنهـاجـا ، ولـو شـاء الله لجعلكم أمةً واحدةً ولَكن ليبلوكم فيما آتاكم فَاسْتَبِقُوا الخيرات﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره : لما ذكـر تعـالى التـوراة التي أنـزلها على مـوسى كليمـه ، ومـدحها وأثنى عليهـا وأمر بـاتباعهـا حيث كـانت سائغـة الاتباع ، وذكـر الإنجيل ومدحه وأمـر أهله بإقامته واتبـاع ما فيه كما تقدم بيـانه شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم فقال تعالى ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيـه أنه من عند الله ﴿مُصَدِّقا لما بين يديـه من الكتاب﴾ أي من الكتب المتقدمـة المتضمنة ذكره ومدحـه وأنه سينزل من عند الله على عبـده ورسوله محمد ﷺ فكان نزولـه كما أخبرت به مما زادها صدقا عند حامليهـا من ذوي البصائر، الذين انقادوا لأمر الله ، واتبعوا شرائع الله ، وصدقوا رسل الله كما قال تعـالى : ﴿إنَّ الذين أُوتُوا الْعِلْمَ من قبله إذَا يُتْلَى عليهم يَخِرُّون للأذقانِ سُجَّـدًا و يقولون سبحان ربنا إنْ كـان وعدُ رَبِّنَا لمفعولا﴾ أي إن كـان ما وعـدنا الله على ألسنة رسلـه المتقدمـة من مجيئ محمد عليه السلام لمفعولا أي لكائنا لا محالـة ولابد اهـ ويلاحظ أن الله تبارك وتعالى سمى في هذا المقـام كتابه الـذي أنزله على مـوسى باسم التوارة وسمى كتـابه الذي أنزله على عيسى باسم الإنجيل وأطلق على كتـابه الذي أنزله على محمد عليـه السلام اسـم الكتاب إشـارة إلى أن القـرآن العظيم هو الفـرد الكـامل الحقيق بأن يسمى كتاباً على الإطلاق لتفوقه على سائر الكتب السماوية ، فهو أفضل الكتب وقـد أنـزلـه الله عـز وجل على أفضل الـرسل عليهم الصـلاة

والسلام، وقد خصه الله عز وجل بمزايا لا توجد في غيره، من العموم والشمول والدوام والبقاء والصلاح لكل عصر ومصر وجيل وقبيل فلا ينسخ حتى ينسخ الليل والنهار والشمس والقمر وإذا نزل عيسى عليه السلام في آخر الزمان حكم به ولا يحكم بكتاب سواه. ومعنى قوله: ﴿ومُهَيْمِنًا عليه﴾ أي ورقيبا على سائر النصوص السماوية المحفوظة عن التغيير حيث يشهد لها بالصحة ويقرر أنها حق من عند الله، وهو أمين عليها باقٍ في الإشادة بها لأنه محفوظ عن التغيير والتبديل والتحريف كما قال عز وجل: ﴿إنا نحن نزَّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب يقال إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده: قد هيمن فلان عليه. ومعنى قوله عز وجل: ﴿فَاحْكُمْ بينهم بما أنزل اللهُ ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُم عما جَاءَكَ من الحقِّ﴾ قال ابن جرير رحمه الله: وهذا أمر من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ أن يحكم بين المحتكمين إليه من أهل الكتاب وسائر أهل الملل بكتابه الذي أنزله إليه وهو القرآن الذي خصه بشريعته، يقول تعالى ذكره: احكم يامحمد بين أهل الكتاب والمشركين بما أنزل إليك من كتابي وأحكامي في كل ما احتكموا فيه إليك من الحدود والجروح، والقود والنفوس، فارجم الزاني المحصن واقتل النفس القاتلة بالنفس المقتولة ظلما، وافقأ العين بالعين، واجدع الأنف بالأنف، فإني أنزلت إليك القرآن مصدقًا في ذلك ما بين يديه من الكتاب، ومهمينا عليه، رقيبا يقضي على ما قبله من سائر الكتب قبله، ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود ـ الذين يقولون: إن أوتيتم الجلد في الزاني المحصن دون الرجم، وقتل الوضيع بالشريف إذا قتله، وترك قتل الشريف بالوضيع إذا قتله فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا ــ عن الذي جاءك من عند الله من الحق وهو كتاب الله الذي أنزله إليك، يقول له: اعمل بكتابي الذي أنزلته إليك إذا احتكموا إليك فاختر الحكم عليهم، ولا تتركن العمل بذلك اتباعاً منك

أهواءهم، وإيثارا لها على الحق الذي أنزلته إليك اهـ وقوله عز وجل: ﴿لِكُلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجا﴾ أي اقتضت حكمتنا أن نبعث لكل أمة رسولا منهم وخصصناه بشريعة ومنهاج ونظام ملائم لهم، يتناسب مع جيلهم وقبيلهم وحالهم، ولا معارضة بين قوله عز وجل هنا: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ وبين قوله عز وجل: ﴿شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تَتَفَرَّقُوا فيه﴾ وقوله تبارك وتعالى بعد ذكر جماعة من المرسلين: ﴿أولٓئك الذين هَدَى اللهُفبهداهم اقْتَدِه﴾ إذ أن جميع الأنبياء متفقون في أصول الدين وقواعد السلوك وتحريم الفواحش والمحافظة على النفس والدين والعقل والعرض والمال، أما في الفروع فقد اقتضت حكمة العليم الحكيم أن يبعث كل رسول بشريعة تلائم قومه، ولما كان محمد ﷺ خاتم النبيين جعل الله عز وجل شريعته وافية بجميع حاجات البشر في سائر الأعصار والأمصار صالحة لكل زمان ومكان وجيل وقبيل، لا تنسخ حتى ينسخ الليل والنهار والشمس والقمر وتفنى الدنيا، وتنتهي الحياة على الأرض، والشريعة والشرعة هي الطريقة الظاهرة الواضحة التي يتوصل بها إلى النجاة. وأصل الشرعة والشريعة في كلام العرب: مشرعة الماء وهي مورد الشاربة التي يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون، والعرب لا تسميها شريعة حتى يكون الماء عِدًّا لا انقطاع له ويكون ظاهرا مَعينا لا يسقى بالرِّشاء، والمنهاج هو الطريق الواضح البيِّن المستقيم. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدةً ولٓكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات﴾ الآية. أي ولو أراد الله تبارك وتعالى جعلكم أمة واحدة على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ منها شيء لفعل ذلك ولجعلكم أمة واحدة ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حدة ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده حتى

نسخ الجميع بشريعة عبده ورسوله وأكمل خلقه محمد ﷺ الذي بعثه إلى أهل الأرض قاطبة وختم به النبيين، وقد شرع عز وجل الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم ويثيبهم على طاعته ويعذبهم على معصيته، وقد اقتضت حكمته ذلك حيث شرع لكل أمة ما يلائمهم، فسارعوا إلى الخيرات وبادروا إلى اكتساب المبرات بطاعة الله عز وجل وطاعة رسوله محمد ﷺ فإن مردكم ومصيركم إلى الله عز وجل وسيحاسبكم على ما قدمتم وما أخرتم.

قال تعالى: ﴿وأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ واحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنـزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَـاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُـوبِهِمْ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَـاسِقُونَ. أَفَحكْمَ الْجَاهِلِيَّـةِ يَبْغُونَ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

بعد أن أثنى الله عـز وجل على كتابه الكـريم المنزل على نبيـه العظيم سيد الخلق وأفضل الـرسل ووصَف هــذا الكتـاب العظيم بأنـه مصـدق للكتب السماوية ومهيمن عليهـا حيث اشتمل على ما فيها من الحق الثـابت وبيَّن ما ألحقـه أحبار السـوء بها من التحـريف والتغيير والتأويل الفـاسد، واحتـوى القرآن على جميع ما يحتاجه الناس لمعـاشهم ومعادهم إلى يوم القيامة، وأشار إلى علوم الـدنيا والآخـرة التي لم تذكـر في كتاب سماوي سـواه كما أقر بـذلك المنصفون مـن غير أتباعه، وقـد نقلت الصحف السعـودية الصـادرة في يوم الجمعة الموافـق للثامن من شهـر صفر سنة عشر وأربعمائة وألف مـن الهجرة عن رئيس ألمانيا الغربيـة أنه ذكر أن القرآن الكريم هو الكتـاب الوحيد الذي فسر علم الأجنـة حيث قالت هـذه الصحف: اعترف رئيس جمهوريـة ألمانيا الغربيـة «ريتشارد فـايتسكر» أن القرآن الكـريم هو الكتـاب السماوي الذي استطاع أن يفسر علم الأجنـة، وقال الـرئيس الألماني الذي كـان يتحدث في ندوة عقدهـا مع طلبة وطالبات الجامعات الألمانيـة: إن هذا العلم عجز عن تفسيره العلماء حيث لم يشر إليه غير الكتاب الكريم وهو كتاب الله عز وجل اهـ وبعد ثناء الله عز وجل على هذا القرآن العظيم وأمر نبيه ﷺ أن يحكم بين المحتكمين إليـه من أهـل الكتـاب وسـائر أهل الملـل بهذا الكتـاب العظيم وتحذيره ﷺ من اتباع أهوائهم المنحرفة عن الهدى والعدل المائلة إلى الشهوات والشبهات بعـد ذلك كله أعـاد التأكيد على رسـوله سيـد البشر محمد ﷺ أن

يلتزم بأحكام هـذا القرآن وأن يحذر من اتباع أهواء أعـداء الله الذين يحرصون على فتنته ﷺ ولـو عن بعض ما أنزل الله، حيث يقول عـز وجل هنا: ﴿وأَنِ احكُمْ بينهم بما أنزل اللهُ ولا تَتَّبِعْ أهواءَهُمْ واحْـذَرْهُمْ أن يَفْتِنُوكَ عن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ أي وأن اقض بينهم بـالقرآن الذي أنزلـه الله عز وجل عليك واتبع تعـاليمـه، ولا تنقـد لآراء وشهـوات الـذين لم ينقـادوا للحق من أهل الكتاب وغيرهم، وكـن على حذر منهم فإنهم يحرصـون على أن يصرفوك عن أحكـام الله وحدوده التي أنـزلت إليك أو عن بعضها إن عجـزوا عن صرفك عن جميعها، وأن في قـوله عـز وجل: ﴿وأن احكم بينهم﴾ مفسرة بمعنى أي كقوله عز وجل: ﴿فأوحينـا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ ومجيء أن في هـذا المقام لتأكيـد وجـوب الحكم بما أنـزل الله حيث اشتمل قـوله تبـارك وتعالى: ﴿وأن احكم بينهم بما أنـزل الله﴾ بعد قولـه تعالى في الآية السـابقة: ﴿فَاحْكُمْ بينهم بما أنـزل الله﴾ على مزيد من تأكيد الحكم بما أنـزل الله، وهو يلفت الانتباه إلى أنه يتحتـم على كل من يريد العدل والإحسـان ألا يحيد قيد أنملة عـن الحكم بكتاب الله، وأن الذيـن في قلوبهم مرض لا يحبـون الحكم بشريعة الله ويحملهم انقيادهم لأهوائهم على محاولة صرف قضاة الشريعة عن التحاكم إليها، والاحتكام بها، وأنهم إن عجزوا عن صرف الناس عن جميعها فسيحـاولـون صرفهم عن بعضهـا، ولـذلك لفت الله عـز وجل الانتبـاه إلى وجـوب مـلازمـة الحكم بما أنـزل الله حيث أورد ذلك بأمـر ونهي وتحذيـر متتـابعـات حيث قـال عـز وجـل: ﴿وأن احكم بينهم بما أنـزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعـض ما أنزل الله إليك﴾ مع ما اشتملت عليه الآية السابقة من لفت الانتبـاه إلى ذلك. وقد نبه الله تبارك وتعالى عباده إلى أن الحكم بغير ما أنزل الله يجلب لمن فعل ذلك أو انقاد له مصائب عاجلة وبلايا ورزايا تنزل بساحتهم حيث يقول عز وجل هنا: ﴿فإن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا

يريدُ اللهُ أن يُصِيبَهُم ببعض ذنوبهم﴾ أي فإن أعرضوا عن الحكم بشريعة الله المنزلة على أفضل خلقه محمد ﷺ فأيقن أن الله عز وجل سيصيبهم بمصائب عقوبـة لهم على بعض ذنوبهم مع ما يـدخره لهم من عـذاب جهنم في الآخرة وفيه إشارة إلى أن بعض الذنوب يعجل الله عقـوبة أهلها مع ما يدخره لهم في الآخرة كالحكم بغير ما أنزل الله، لأن ذلك يشتمل على البغي على شريعة الله وهـو أفحش البغي، وقـد روى أبـو داود والترمـذي وقـال: حـديث حسن صحيح من حـديث أبي بكـرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال: مـا من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الـرحم. وقد أشار الله تبارك وتعـالى إلى ذلك حيث يقول: ﴿ياأيها النـاس إنما بَغْيُكُمْ على أنفسكم متـاعَ الحياة الدنيـا ثم إلينا مـرجعكم فَنننَبِّئُكُمْ بما كنتم تعملون. ﴾ وقد أشار الله عـز وجل في غير موضع من كتابه إلى أن الحكم بغير ما أنزل الله يجلب على أهله مصائب وبـلايا عاجلة إشعارا بفداحـة جرم تحكيم أهـواء الناس وشهـواتهم والإعراض عن تحكيـم شريعته حيث يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذين يزعمـون أنهم آمنوا بما أُنزِلَ إليك وما أُنزِلَ من قبلك يـريدون أن يتحـاكَمُوا إلى الطـاغـوت وقد أُمِـرُوا أن يكفروا بـه ويريـد الشيطانُ أن يضلهم ضلالا بعيدا * وإذا قيل لهم تَعَـالَوْا إلى ما أنزل الله وإلى الرسـول رأيتَ المنافقين يَصُدُّونَ عنك صدودا * فكيف إذا أصـابتهم مُصِيبَةٌ بما قَدَّمَتْ أَيدِيهِمْ ثم جَاءُوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا * أولَئك الذين يَعْلَمُ اللهُ ما في قلوبهم فأعْرِضْ عنهم وَعِظْهُم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا * وَمَا أرسلنا من رسـول إلا ليطاع بإذن الله، ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جَـاءُوكَ فاسْتَغْفَـرُوا اللهَ واستغفر لهم الـرسولُ لَـوَجَدُوا اللهَ تـوابا رحيما * فـلا وربك لا يؤمنون حتى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجًا ممـا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُـوا تَسْلِيماً﴾ والإرادة في قـولـه عـز وجل: ﴿يـريـدُ اللهُ أن

يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ هي الإرادة الكونيـة القدرية، وفي ذلك لفت انتباه إلى عدله وأنه لا يظلم أحدا، والتعبير بـالبعض في قوله: ﴿ببعض ذنوبهم﴾ إشعار بفـداحة جـرم من يعرض عن تحكيم شريعـة الله، والإشارة إلى أن لهم ذنـوبا كثيرة ولـو يؤاخـذهم الله بجميع ذنوبهم مـا ترك على ظهـرها من دابـة منهم، وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿وإنَّ كثيرا من النـاس لَفَاسِقُـونَ﴾ هذه جملـة اعتراضية تذييلية لتقرير مضمون مـا قبلها مشتملة على مواساة رسول الله ﷺ مما يـلاقيه من عنت اليهـود وغيرهم، أي وإن كثيرا من النـاس لمتمـردون في الكفر مصرون عليه، خارجـون عن الحدود التي شرعها الله عز وجل لعباده، منحـرفـون عن الحق إلى الضـلال، وعـن النـور إلى الظلمات، نـاكبـون عن الهدى، كما قال عـز وجل: ﴿وما أَكْثَرُ النـاسِ وَلَوْ حَـرَصْتَ بمؤمنين﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿وإن تُطِعْ أَكْثَـرَ مَن في الأرض يضلـوك عن سبيل الله، إن يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ وإنْ هُمْ إلا يَخْرُصُونَ﴾ والكيِّس من الناس من اتبع الحق ولو كان مع رجل واحد، واجتنب الباطل ولـو كان عليه الكثير من الناس، وكما أشار إلى ذلك العليم الحكيم حيث قال: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ وكما قال دواد عليه السلام فيما حكى الله عز وجـل عنه: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصـالحات وقليل مـا هم﴾. ومعنى قـولـه عـز وجل: ﴿أَفَحُكْمَ الجاهليـة يبغون﴾ أي أيريدون التحاكم بأحكام أهل الجاهلية الذين لا يؤمنون بكتاب ولا ينقادون لـرسول، وإنما يبنـون أحكامهم على الهوى والجهـل، والمداهنة، والاستفهام للإنكار عليهم والتعجيب من حالهم، والتوبيخ لهم، فإن التولي عن حكم رسـول الله ﷺ منكـر فظيع عجيب، وطلب حكم الجاهليـة أقبح وأعجب وأغـرب وأعظم كفـرا وأشـد فسقـا وظلما. قـال ابن كثير رحمه الله: وقـولـه تعالى: ﴿أفحكم الجاهليـة يبغـون، ومَنْ أَحْسَنُ من الله حُكْمًا لقـوم يُـوقِنُونَ﴾ ينكـر تعالى على من خـرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل

خير، النـــاهي عن كل شر، وعَـــدَل إلى مـــا ســـواه من الآراء والأهـــواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهليـة يحكمـون بـه من الضـلالات والجهـالات مما يضعـونها بـآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم بـه التتار من السيـاسات الملكيـة المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذي وضع لهم (الياسق) وهـو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانيـة والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكـام أخذها من مجرد نظـره وهواه ، فصارت في بنيـه شرعاً متبعاً ، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، فمن فعل ذلك فهو كـافر يجب قتـاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسـوله ، فـلا يُحكِّم سواه في قليل ولا كثير، قال تعالى : ﴿أفحكم الجاهلية يَبْغُونَ﴾ أي يبتغون ويريدون ، وعن حكم الله يعدلـون ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ من الله حُكْمًا لقوم يـوقِنُونَ﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعـه وآمن به ، وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين ، وأرحم بخلقه من الـوالدة بـولدها ، فإنـه تعالى هـو العالم بكل شيء ، القـادر على كل شيء ، العـــادل في كل شيء اهـــ ولاشك أن الجاهلية لا يـرضى عاقل أن ينقاد لأحكـامها سواء كـانت جاهلية عـربية أو كانت جـاهلية أعجميـة ، وسواء كـانت جاهليـة قديمـة أو كانت جـاهلية حديثة ، إذ كلها تدور في فلك الهوى والجهل مبتعدة عن المنهج الذي وضعه الحكيم العليم الخبير بطبـائع خلقـه ، ومصـالح عبـاده ، ومن الـمُجرَّبات المسلَّمات أن جميع القوانين الوضعية لا بقاء لها ولا دوام ولا شمول ولا تربي في نفوس الناس مـا تربيه شريعة الله في نفـوسهم من النفور من الجرائم في السر والعلن ، والغيب والشهـادة ، ولـذلك عـد رسـول الله ﷺ فيمن هم أبغض النـاس إلى الله من ابتغى في الإسـلام سنـة الجاهلية ، فقـد روى البخـاري في صحيحـه من حـديث ابـن عبـاس رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قـال :

أبغض النـــاس إلى الله ثـلاثـة : ملحــد في الحرم، ومبتغ في الإســلام سنـة الجاهلية، ومُطَّلِبُ دم امرئ بغير حق ليهريق دمه .

قـال تعالى: ﴿يـاأَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِـذُوا الْيَهُـودَ والنَّصارَى أَوْلِيَـاءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَمَن يَتَـوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّـهُ مِنْهُمْ، إنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* فتَرَى الَّـذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مـرَضٌ يُسَارِعُـونَ فِيهِمْ يَقُولُـونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَـا دَائِرَةٌ، فَعَسَى اللهُ أن يَأْتِيَ بِـالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنـدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَـا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ* وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ، حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

بعـد أن أوضح الله عــز وجل انحـراف اليهـود عن التــوراة، وانحـراف النصارى عن الإنجيل، وحذر رسولـه ﷺ عن اتباع أهوائهم، وشدد النكير على من حكم بغير مـا أنزل الله، ووصف من ينحرف عـن الحكم بما أنزل الله على رســولــه محمــد ﷺ بأنــه راغب في حكـم أهل الجور والضــلال من الجاهليين، معرض عن حكم الله الـذي هو أحسن الأحكام وأتقنهـا وأعدلها وأرحمها وأشملها وأدقها وأبقاها وأنقاها وأوفاها بمصالح العباد والبلاد مما يقر به أهل اليقين والبصيرة، وجـه الخطاب هنا للمؤمنين كـافة ونهاهم عن اتخاذ اليهـود والنصارى أوليـاء، ونـدد بالمنـافقين الـذين يـزعمون أنهم آمنـوا وهم يتخذون اليهود والنصارى أولياء حيث يقـول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصـارى أولياء﴾ أي يامعشر من آمن بالله ورسـوله محمد ﷺ وانقاد لأحكـام الله وشريعة الإسـلام لا تتخذوا اليهـود والنصارى بطـانة لكم وأحبـابـا وأنصـارا وحلفـاء على أهل الإيمان، لأنهم لا يألـونكم خبـالا ويتمنـون عنتكم ومشقتكم، ويحرصـون على إلحاق الأذى بكم وقولـه تبـارك وتعــالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ﴾ مســوق لتعليل النهي وتأكيــد إيجاب الاجتناب عن المنهى عنه، والمراد أن اليهـود مطبقون على عداوتكم لا تجدون يهوديا واحدا يواليكم وأن النصـارى مطبقون على عداوتكم لا تجدون نصرانيا

واحـدا يـواليكم، ومع أن النصـارى يعـادون اليهـود كما أن اليهـود يعـادون النصارى لكنهم قد اتفقت كلمتهم على عداوتكم ومضـارتكم يبذلون كل ما يطيقـون في إلحاق الأذى والعنت والغـوائل بكم فكيـف يليق بمن آمن بـالله ورسـولـه محمـد ﷺ أن يـوالي مـن يعـادي الله ورسـولـه ﷺ، وليس المراد أن اليهـــود أولياء للنصارى ولا أن النصـارى أولياء لليهـود، وإنما سيق الكلام على سبيل الإجمال تعويـلا على ظهور المراد لـوضوح انتفـاء الموالاة بين اليهود والنصارى وأن ذلك من البـدهيات المسلمات، وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَـإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ تحذير شـديد من موالاة اليهود والنصـارى، وزجر أكيد للمـؤمنين عن إظهار صـورة الموالاة لهم وإن لم تكن مـوالاة في الحقيقة، فإن من والاهم صار حـريا أن يعـد منهم، وقد أشار الله تبـارك وتعالى إلى أن من خالطت قلبـه بشاشة الإيمان لا يتـأتى منه أن يوالي أعـداء الله مهما كان، حيث يقول عز وجل: ﴿لا تَجِدُ قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَـهُ ولو كانـوا آباءَهُمْ أو أبناءَهم أو إخـوانَهم أو عَشِيرَتَهُمْ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لا يَتَّخِـذِ الْمُؤْمِنُونَ الكافـرين أولياءَ من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً، ويُحَذِّرُكُمْ اللهُ نَفْسَهُ، وإلى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي إن الله عـز وجل اقتضت حكمتـه وعـدلـه ألا يعين القـوم المعتـدين على الخير وألا يسـددهم وألا يوفقهم إلى الـرشد، والمراد بـالهدايـة هنا هي هـداية التـوفيق والتسديد والإعانة قال أبـو السعود العمادي: وقوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ لا يهدي القوم الظالمين﴾ تعليل لكـون من يتولاهم منهم، أي لا يهديهم إلى الإيمان بل يخليهم وشأنهم فيقعـون في الكفـر والضـلالـة، وإنما وضع المظهـر مـوضع ضميرهم تنبيهـا على أن تـوليهم ظلـم، لما أنـه تعـريض لأنفسهم للعـذاب الخالد، ووضع للشيء في غير موضعه اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فتَرَى الذين

في قلوبهم مَـرَضٌ يُسَارِعُون فيهم يقولـون نَخْشَى أن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ، فَعَسى اللهُ أن يَأْتِيَ بِـالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِن عِندِهِ فَيُصْبِحُوا على مـا أَسَرُّوا في أنفُسِهِمْ نادِمِينَ﴾ مـزيـد تشنيع على من يتـولى أعــداء الله وينحـرف عن رسـول الله ﷺ وعن المؤمنين، وبيـان لذبـذبة هـؤلاء الـذين لا يميلون للحق ولا يتبعـون الهدى، وإنما يـوالون اليهـود والنصارى وينـدفعـون في الالتصاق بهم تـوهما منهم أن الدولة ستكون لهم، وأن المال والغنى بأيديهم، وقد خابوا وخسروا، فنصر الله عـز وجل رسولـه والمؤمنين، وأذل اليهود والنصـارى والمنافقين، والمخـاطب بقوله عز وجل: ﴿فَتَرَى الذين في قلـوبهم مرض يسارعون فيهم﴾ هو رسول الله ﷺ وكل من يتأتى منه أن يخاطب بهذا الخطاب، والذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، فالمراد بالمرض النفـاق الذي يصيب القلب فيكون أخطر عليه من جميع الأمراض الحسية التي تصيـب القلب اللحمي الصنوبري الشكل، ومعنى: ﴿يسارعون فيهم﴾ أي يندفعون في موالاتهم والالتصاق بهم والتودد إليهم وإظهار محبتهم، وقوله عـز وجل: ﴿يقولون نَخْشَى أن تُصِيبَنَا دائرةٌ﴾ أي يقول هـؤلاء المنافقون في تعليل انـدفاعهم في موالاة اليهـود، والنصارى: إننـا نتولاهم ونتـودد إليهم مخافة أن تـدور علينـا الدوائر وأن يصيبنـا الدهـر بمكروه وأن يجور علينا الزمان لأنه إذا أصابنا شيء من ذلك كانت لنا يد عند اليهود والنصارى فيدفعون الشر عنا ويمدون يـد العون والمساعدة لنا، وهذا ولا شك بسبب مرض قلـوب هؤلاء المنافقين وعدم يقينهم بنصرة الله لـرسوله ﷺ وللمـؤمنين، ولـذلك عجل الله مسـاءة هـؤلاء المنـافقين ببيـان أن الفتح قريب وأن الغلبـة والعزة لله ولـرسولـه وللمؤمنين، وأن المنافقين لـن يفروا من عقوبة الله حيث يقـول تبارك وتعالى: ﴿فَعَسَى اللهُ أن يَأْتِيَ بـالفتح أو أمرٍ من عنـده فَيُصْبِحُـوا على مـــا أَسَرُّوا في أنفسهم نـادمين﴾ أي فلعل الله أن يجيء لرسـوله ﷺ وللمؤمنين بـالنصر من عنده أو عقوبـة تنزل باليهـود والنصارى

وتخزي المنافقين حتى يصيروا مفعمين حسرة وندما بعد زوال ما تعلقوا به، وتُنَبِّهُ الغافلين إلى أن حزب الله هم الغالبون، وأن وعد الله حق حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿إنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولقد سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لعبادنا المرسلين * إنهم لَهُمُ المنصورون * وإن جُنْدَنا لَهُمُ الغالبون﴾ وقد صدق الله وعده، ونصر رسوله وجاء بالفتح لعباده المؤمنين، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وارتفعت راية الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، في وقت قصير من ظهور الإسلام، حتى قال هارون الرشيد وقد رأى سحابة تمر من فوق رأسه: سيرى أينما شئت، وامطري أينما شئت فسيأتيني خراجك، ولا يزال اسم الإسلام عزيزا ولله الحمد والمنة، وسيستمر عزيزا كما أخبر بذلك الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى حبيب الله ورسوله وسيد خلقه وأفضل رسله محمد ﷺ فيما رواه البخاري في صحيحه من حديث معاوية رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله. وفي لفظ للبخاري من حديث معاوية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ولا تزال هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون. وفي لفظ للبخاري من حديث معاوية رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول: لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك. وفي لفظ للبخاري من حديث المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قال: لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون. كما روى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك. وفي لفظ لمسلم من حديث المغيرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لن يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم

أمر الله وهم ظاهـرون . وفي لفـظ لمسـلم من حديث معاويـة رضـي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لاتزال طـائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خـالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهـرون على الناس ، وقولـه تبارك وتعالى : ﴿وَيَقُـولُ الذين آمنوا أَهـٰؤُلاءِ الذين أَقْسَمُوا بـالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ، حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَـاسِرِينَ﴾ استئناف لبيان ما صار إليـه المؤمنون من العزة والثبات على الحق ، ومـا صار إليه المنـافقون من الحسرة والنـدامـة والخسران ، وتعجب المؤمنين من جـرأة المنـافقين في الحلف بالله كذبـا بأنهم مؤمنون وأنهم مع المسلمين وتأكيد أيمانهم الفـاجرة بألوان من التأكيد إمعانا في إخفاء نفاقهم ، ففضحهم الله ، وأخبر عز وجل أن المنافقين قد خسروا صفقتي الدنيا والآخرة إذ أبطل الله عـز وجل ما بذلوه من صلاة أو زكـاة أو أعمال برٍّ، لأنها لم تكن لله عـز وجل وإنما كـانت رياء ونفـاقا ، وقـد قضى الله عز وجل أنـه لا يقبل من أحد عملا إلا إذا كـان خالصا لـوجه الله وصـوابا على منهـج رسول الله ﷺ . والمشـار إليـه في قولـه : ﴿أهـٰؤلاء﴾ هم المنافقون ، ومعنـى : ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي غاية اجتهادهم فيهـا حيث حلفوا بأغلظ الأيمان وأكدوها بأنواع التأكيد ، قـال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تبـارك وتعـالى : ﴿حَبِطَتْ أعمالُهم فأصبحـوا خـاسرين﴾ : يقـول الله تعـالى ذكـره ، مخبرًا عن حالهم عنـده بنفـاقهم وخبث أعمالهم : ﴿حَبِطَتْ أعمالهم﴾ يقـول : ذهبت أعمالهم التي عملوهـا في الدنيـا باطـلا لا ثواب لها ولا أجـر ، لأنهم عملـوهـا على غير يقين منهم بأنها عليهم لله فـرض واجبٌ ، ولا على صحـة إيمان بـالله ورسولـه ، وإنما كـانـوا يعملونها ليـدفعـوا المؤمنين بها عن أنفسهم وأمـوالهم وذراريهم ، فأحبط الله أجرهـا ، إذ لم تكن له ، ﴿فـأَصْبَحُوا خاسرين﴾ يقـول : فأصبح هؤلاء المنـافقون عند مجيء أمـر الله بإدالة المؤمنين على أهل الكفـر ، قد وكسوا في شرائهـم الدنيا بـالآخرة ، وخـابت صفقتهم ، وهلكوا . اهـ .

قال تعـالى : ﴿ياأيها الـذين آمَنُوا مَن يَرْتَـدَّ مِنكُمْ عن دِينِه فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ على الْمُؤْمِنِينَ أَعِـزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فى سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِم ، ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ والَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُـونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَـن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ والَّذِيـنَ آمَنُوا فَإِنَّ حِـزْبَ اللهِ هم الْغَـالِبُونَ . يَاأَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّـذِينَ اتَّخَذُوا دِينكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا من الـذين أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ والْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ، وَاتَّقُـوا اللهَ إن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ . و إذا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ .

بعد أن نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى وحذرهم أشد التحذيـر من ذلك ، ونَدَّد بالمنـافقين الذين يوالون أعـداء الله وينحرفون عن رسول الله ﷺ وعن المؤمنين وينـدفعون في الالتصـاق باليهـود والنصارى تـوهماً منهم أن الدولـة ستكون لأعـداء الله ورسـوله ، وقطع عـز وجل أطماع أعدائه ووعد رسوله ﷺ والمؤمنين بـالفتح والنصر، وأشار إلى أن موالاة أعداء الله سبب من أسباب الارتـداد عن الإسلام ، شرع في بيان حـال المرتدين على الإطلاق ، تنبيها منـه عز وجل لعباده بأن من يرتـد عن دين الإسلام لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا ، وتـربيةً لملَكَة الطمأنينة في نفـوس المؤمنين عندما يواجهـون ردة فرديـة أو جماعية فيستيقنـون أن هذه الـردة كسحابـة صيف لا تلبث أن تزول ، وذلك لما سبق في علم الله عز وجل أنه سيرتد فئام من الناس بعد وفاة رسـول الله ﷺ ، فقال عز وجل : ﴿ياأيها الذين آمنـوا من يَرْتَدَّ منكم عن دينـه فسـوف يأتي الله بقـوم يحبهم ويحبـونـه أذلـة على المؤمنين أعـزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لَوْمَةَ لائِم .﴾ وهذا شبيه بقوله عز وجل : ﴿وإن تَتَوَلَّـوْا يَسْتَبْدِلْ قومـا غيركم ثم لا يكونوا أمثـالكم .﴾ قال ابن

جـرير رحمه الله في تفسير هـذه الآية : وكـان هـذا الوعيـد من الله لمن سبق في علمه أنه سيرتد بعد وفاة نبيـه محمد ﷺ، وكذلك وعده من وعد من المؤمنين ما وعـده في هذه الآية لمن سبق في علمـه أنه لا يبدل ولا يغير دينه ولا يـرتد، فلما قبض الله نبيه ﷺ ارتد أقوام من أهل الوبر وبعض أهل المدر، فأبدل الله المؤمنين بخير منهم كما قال تعالى ذكره، ووفى للمـؤمنين بوعده، وأنفذ فيمن ارتد منهم وعيده اهـ وقد أشار الله تبـارك وتعالى إلى أن مصادقة أهل الكتاب قد تؤدي إلى الردة عن دين الإسلام حيث يقول عز وجل : ﴿ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقـا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كـافرين﴾ قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم : وفي هذه الآيـة الإشارة إلى التحـذير عن مصـادقة أهـل الكتاب إذ لا يُـؤْمَنُون أن يفتنـوا من صادقهم عن دينـه اهـــ والردة الخروج من الإسـلام، والكفرُ بعـد الإيمان بارتكـاب ما ينقض الإسـلام كالشرك بـالله أو السجود لـلأصنام، أو الذبح لغير الله، أو كمن جحد الربوبيـة أو الألوهية أو اعتقد أن لله صاحبة أو ولدا، أو أن الله حل في أحد من خلقـه أو اتحد به، أو ادعى أن العبد رب أو أن الرب عبدٌ كأهل وحدة الوجود أو كذب بكتب الله أو ملائكته أو رسله أو اليوم الآخـر أو القدر خيره وشره أو ادعى النبوة أو صدق من ادعـاها، أو استهزأ بـالله أو رسوله أو كتـابه، أو كـان مبغضاً لرسـول الله ﷺ أو أنكر أن يكون أبو بكر صـاحبا لرسول الله ﷺ أو رمى الصديقة بنت الصـديق عائشة أم المؤمنين وقد برأهـا الله عز وجل في كتابه، أو أنكر شيئـاً يُعلم بالضرورة أنه من دين الإسلام أو اعتقد أن الأحكام الوضعية أحسن من الأحكام الشرعية، وقوله تبـارك وتعالى : ﴿فَسَوْفَ يأتي الله بقوم يُحِبُّهُمْ ويحبـونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبل الله ولا يخافون لَوْمَةَ لائم﴾ تقرير وتأكيد لبيان أن من ارتد عن الإسلام لا يضر الإسلام شيئا ولايضر إلا نفسه بحرمانها

من السعادة وسيظهر الله عز وجل للإسلام من يجاهد في سبيل إعلائه ويقيم الله عز وجل من يؤمن بما جاء به رسول الله ﷺ وينصر دينه، وأن هذا الأمر سيستمر إلى قيام الساعة كما قال عز وجل: ﴿فإن يَكْفُرْ بها هٰؤلاء فقد وكَّلْنَا بها قوما ليسوا بها بكافرين.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إلا تنفروا يُعَذِّبْكُمْ عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا،﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين﴾ أي أرقاء رحماء متواضعين بينهم أشداء على الكفار لا يذلون لهم ولا يستكينون أمامهم، كما قال عز وجل: ﴿محمد رسول الله، والذين معه أَشِدَّاءُ على الكفار رُحَمَاءُ بينهم﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ أي يبذلون جهدهم لإعلاء كلمة الله ونصرة دين الإسلام ويقولون الحق ولو كان مُرًّا، ولا يمنعهم من طاعة الله وإقامة حدوده عَذْلُ عاذلٍ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقومون بالقسط استجابة لأمر الله عز وجل حيث يقول: ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قَوَّامينَ بالقسط شهداءَ لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين.﴾ وكما قال عز جل: ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أَلا تَعْدِلُوا،﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ الله يؤتيه مَنْ يشاء، والله واسع عليم﴾ قال ابن جرير رحمه الله: وأما قوله: ﴿ذٰلك فَضْلُ الله﴾ فإنه يعني هذا النعت الذي نعتهم به تعالى ذكره، من أنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون في الله لومة لائم، فضل الله الذي تفضل به عليهم، والله يؤتي فضله من يشاء من خلقه منة عليه وتطولا، ﴿والله واسع﴾ يقول: والله جواد بفضله على من جاد به عليه، لا يخاف نفاد خزائنه فتتلف في عطائه، ﴿عَلِيمٌ﴾ بموضع جوده وعطائه، فلا يبذله إلا لمن استحقه، ولا يبذل لمن استحقه إلا على قدر المصلحة، لعلمه بموضع صلاحه له من

موضع ضره اهـ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ تأكيد آخر في تنبيه المؤمنين وتعريفهم بمن يتولونه، وتحذير لهم من ولاية أعداء الله، قال أبو السعود العمادي في تفسير هذه الآية: لما نهاهم الله عز وجل عن موالاة الكفرة، وعلله بأن بعضهم أولياء بعض لا يتصور ولايتهم للمؤمنين، وبيَّن أن من يتولاهم يكون من جملتهم، بيَّن ههنا من هو وليهم بطريق قصر الولاية عليه، كأنه قيل: لا تتخذوهم أولياء لأن بعضهم أولياء بعض، وليسوا بأوليائكم، إنما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون فاختصوهم بالموالاة، ولا تتخطوهم إلى غيرهم، وإنما أفرد الولي مع تعدده للإيذان بأن الولاية أصالة لله تعالى، وولايته عليه السلام وكذا ولاية المؤمنين بطريق التبعية لولايته عز وجل، ﴿الذين يقيمون الصلاة ويُؤْتُونَ الزكاةَ﴾ صفة للذين آمنوا، لجريانه مجرى الاسم أو بدل منه أو نصب على المدح أو رفع عليه، ﴿وهم راكعون.﴾ حال من فاعل الفعلين، أي يعملون ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون ومتواضعون لله تعالى اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: وقوله تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ أي ليس اليهود بأوليائكم بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين وقوله: ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الصفات، من إقامة الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين، وأما قوله: ﴿وهم راكعون﴾ فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله: ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى

اهـ وما ذكره بعض المفسرين من أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ مر به سائل وهو راكع فتصدق عليه فنزلت هذه الآية فهو غير سديد، إذ لم يثبت ذلك بخبر صحيح، والعلم عند الله عز وجل، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ زيادة حض على ولاية الله ورسوله والمؤمنين بتأكيد أن من تولى الله ورسوله والذين آمنوا كان من حزب الله، وقد قضى الله عز وجل أن يكون حزبه هو الغالب، وفي ذلك تحذير عظيم من موالاة أعداء الله، قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿ومن يتولَّ اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ قال أبو جعفر: وهذا إعلام من الله تعالى ذكره عباده جميعا: الذين تبرأوا من حلف اليهود وخلعوهم رِضًى بولاية الله ورسوله والمؤمنين، والذين تمسكوا بحلفهم وخافوا دوائر السوء تدور عليهم، فسارعوا إلى موالاتهم: أن من وثق بالله وتولى الله ورسوله والمؤمنين ومن كان على مثل حاله من أولياء الله من المؤمنين لهم الغلبة والدوائر والدولة على من عاداهم وحادهم، لأنهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون دون حزب الشيطان اهـ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يتولَّ اللهَ ورسوله والذين آمنوا فإنَّ حزب الله هم الغالبون﴾ ألوان من البيان وأساليب الفصاحة والبلاغة والبرهان العقلي ما تتطامن أمامه رءوس الفصحاء ويعترف بالعجز عن مجاراته أئمة البلغاء، وشيوخ العقلاء، وأرباب البراهين، فمقتضى السياق أن يقال: ومن يتولهم لأنه تقدم ذكرهم في الآية السابقة، لكن مقتضى الحال اقتضى وضع الظاهر موضع الضمير للإشارة إلى أن ولاية الله هي الأصل وولاية رسول الله ﷺ وولاية المؤمنين هي تبع لولاية الله عز وجل، ولذلك جعل الله رسوله والمؤمنين حزبا، وأضافه إليه تبارك وتعالى حيث قال: ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾ وكان مقتضى السياق أيضا أن يقال: فإنهم الغالبون

لكن مقتضى الحال اقتضى المجيء بــالاسم الظــاهـــر مــوضع الضمير للتنصيص على أنهم حزب الله تعظيما لهم، وإثباتاً لغلبتهــم بالطريق البرهاني كأنــه قيل: ومن يتول هــؤلاء فهو معهم وهم جميعــا حزب الله، فلهم الغلبــة والنصر على أعدائهــم لأن حزب الله هم الغــالبون. فقد اشتمــل الكلام على دليل برهــاني حذف من مقــدماته مــا دل عليه المقام. وقـوله تبــارك وتعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هــزوا ولعبا من الذين أوتُوا الكتاب من قبلكم والكفــار أولياءَ﴾ الآيتين. تنفير من موالاة أعــداء الإسلام سواء كــانوا كتابيين أو مشركين غير كتــابيين الذين يستهــزئون بشرائع الإسلام عموما وبــالصلاة والأذان خصوصا ويعدون هــذه الشرائع لعباً لأن بصائرهم منطمسة، وعقــولهم فاسدة ولذلك ذيل الله تبــارك وتعالى هذا المقام بقــوله: ﴿ذٰلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ. قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ، مَن لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ، أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ. وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ. وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

بعد أن حكى الله عز وجل عن أهل الكتاب أنهم اتخذوا دين الإسلام هُزوًا ولعباً مما ينفر من ولايتهم أشد التنفير. أمر نبيه محمدا ﷺ أن يوجه الخطاب إلى أهل الكتاب يسألهم: ماذا تعيبون من دين الإسلام؟ وما الذي يحملكم على اتخاذه هزوا ولعبا؟ ولماذا تحقدون علينا؟ هل في سلوكنا ما يدعوكم إلى أن تكرهونا وتسخطوا علينا؟ نحن لا نعلم شيئا حملكم على بغضنا إلا أننا آمنا بالله وكتبه ورسله وأن أكثركم قد فسق عن الإيمان بالله وكتبه ورسله، فأي الفريقين يستحق أن يبغض ويكره؟ الفريق المؤمن بالله وكتبه ورسله المنقاد لشرعه، أم الفريق الفاسق عن أمر الله، المكذب لرسل الله وكتب الله، الذين لعنهم الله وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وقد عبدوا الطاغوت الذي أمروا أن يكفروا به؟ هذه صورتنا، وهذه صورتكم فأي الفريقين يستحق أن ينقم منه وأن يكره ويحقد عليه؟ وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿قُلْ ياأَهلَ الكتاب هل تَنقِمُونَ منا إلا أَنْ آمنا بالله وما أُنزِلَ إلينا وما أُنزل من قَبْلُ وَأَنْ أكثركم فَاسِقُونَ﴾ أي قل يا محمد للمنتسبين للتوراة وللمنتسبين للإنجيل المصرين على الفسق والكفر والعداوة لرسول الله ﷺ وللمسلمين: هل تعيبون علينا شيئا سوى استمساكنا بالإيمان بالله وكتابه المنزل على محمد ﷺ

وسـائر الكتب السماويـة السـابقـة ، وأننـا لم نتبعكم على فسقكم ولم نسلك سبيلكم المنحـرف المعـوج حيث تـؤمنـون ببعض وتكفـرون ببعض ، وإيـراد السـؤال على هـذا الأسلوب هـو من بـاب تأكيـد المدح بما يشبه الـذم وهـو أسلوب من أساليب البديع كقولـه عز وجل : ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . ﴾ ومن أمثلة تأكيد المدح بما يشبه الذم قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غـير أن سـيوفهم ... بهن فلـول من قراع الكتائب

وكقول الشاعر:

ولا عيب فيـه غير أني قصـدته ... فأنسـتني الأيام أهـلا وموطنا

وكقول الشاعر:

فتى كمـلت أوصـافه غير أنـه ... جـواد فما يبقى من المـال باقيا

وكقول الشاعر:

ولا عيب فيكم غـير أن ضـيوفكم ... تعـاب بنسيان الأحبة والوطن

وكقول الشاعر:

ولا عيـب في معـروفهم غيـر أنـه ... يبين عجـز الشاكرين عن الشكر

وكقول الشاعر:

ليـس به عيـب سـوى أنـه ... لا تقـع العيـن على شـبهه

وقولـه تبارك وتعالى : ﴿قل هل أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ من ذَٰلِكَ مَثُوبـةً عند الله ، من لَعَنَهُ اللهُ وغَضِبَ عَلَيْه وجَعَل مِنْهُم الْقِرَدَةَ والْخَنَـازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ، أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السبيل﴾ شرح لبيان ألوان فسقهم ، وما استوجبوه من لعنة الله لهم ، وغضبه عليهم وقد مسخ بعضهم قـردة وخنازير ، وخذلهم حتى عبـدوا الطـاغوت ، فهل في النـاس من هـو شر من هـؤلاء؟ وهل يليق بعاقل أن يتولاهم وأن يتودد إليهم وأن يرضـى بأن يعد منهم؟ ومعنى قوله عز وجل : ﴿قل هل أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِن ذَٰلِكَ مَثُوبَـةً عِندَ اللهِ ، من لَعَنَهُ الله وَغَضِبَ

عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوتَ، أولَئك شَرٌّ مَكَانًا وأَضَلُّ عن سَوَاءِ السبيل﴾ أي قل يامحمد معلنا لأوليائك الذين لا يوالون إلا الله ورسوله والمؤمنين ولأعدائك الذين ينحرفون بولايتهم عن الله ورسوله والمؤمنين: هل أخبركم بشر الناس جزاء عند الله يوم القيامة؟ وكأن سائلا سأل: من هم شر الناس جزاء عند الله يوم القيامة؟ فكان الجواب هم من أبعدهم الله عن رحمته، وسخط عليهم، وعاقبهم عقوبة عاجلة لم يعاقب أحدا ممن سبق من الناس بمثلها حيث مسخهم قردة وخنازير، وخذلهم فعبدوا الطاغوت وقد علموا أنه يجب الكفر بالطاغوت، فهؤلاء هم شر خلق الله من بني آدم وهم أبعد خلق الله عن الصراط المستقيم، وهذه هي صفات اليهود المعلومة بالضرورة، فهي كناية عنهم، ولم يصرح بذكر اليهود لكبتهم عن تهييج لجاجهم، وقد أشار الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتابه الكريم إلى أنه مسخ بعض اليهود قردة وخنازير أي جعل بعضهم قردة وبعضهم خنازير حيث قال عز وجل في سورة البقرة: ﴿ولقد عَلِمْتُمُ الذين اعْتَدَوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قِردَةً خاسئين * فجعلناها نكَالا لما بين يَدَيْهَا وما خَلْفَهَا ومَوْعِظَةً للمتقين﴾ وقال عز وجل في سورة الأعراف: ﴿فلما عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عنه قُلْنَا لهم كونوا قِرَدَةً خاسئين﴾وذكر عز وجل في هذا المقام من سورة المائدة أنه جعل منهم القردة والخنازير، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل يارسول الله: القردة والخنازير هي مما مسخ؟ فقال النبي ﷺ: إن الله عز وجل لم يهلك قوما أو يعذب قوما فيجعل لهم نسلا، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك. وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن الله تبارك وتعالى سيمسخ قوما قردة وخنازير قبل يوم القيامة عقوبة عاجلة لهم في الدنيا لاستحلالهم كبائر الفواحش فقد روى البخاري في صحيحه من طريق عبد الرحمن بن

غنم الأشعري قال: حدثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري والله ما كذبني: سمع النبي ﷺ يقول: ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف ولينزلن أقوام إلى جنب علَم، يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم يعني الفقير لحاجة فيقولون: ارجع إلينا غدًا، فيبيتهم الله، ويضع العلَم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا جَاءُوكُمْ قالوا آمَنَّا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به، واللهُ أَعْلَمُ بما كانوا يكتمون﴾ بيان لقبيحة أخرى من قبائحهم، وتقرير لذبذبتهم وترددهم وعدم ثباتهم على ما قد يتلفظون به في مجلس رسول الله ﷺ أو في مجالس المسلمين من دعواهم أنهم مؤمنون قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به، واللهُ أعلم بما كانوا يكتمون﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإذا جاءكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون من اليهود قالوا لكم: ﴿آمَنَّا﴾ أي صدقنا بما جاء به نبيكم محمد ﷺ واتبعناه على دينه، وهم مقيمون على كفرهم وضلالتهم، قد دخلوا عليكم بكفرهم الذي يعتقدونه بقلوبهم، ويضمرونه في صدورهم، وهم يُبدُون كذبا التصديق لكم بألسنتهم: ﴿وهم قد خرجوا به﴾ يقول: وقد خرجوا بالكفر من عندكم كما دخلوا به عليكم، لم يرجعوا بمجيئهم إليكم عن كفرهم وضلالتهم، يظنون أن ذلك من فعلهم يخفى على الله، جهلا منهم بالله، ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ يقول: والله أعلم بما كانوا - عند قولهم لكم بألسنتهم -: آمنا بالله وبمحمد وصدقنا بما جاء به، يكتمون منهم بما يضمرونه من الكفر، من أنفسهم اهـ يعني رحمه الله: والله أعلم منهم بأنفسهم فلا يخفى عليه ما يضمرونه من كفرهم. وقال ابن كثير رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾ وهذه صفة المنافقين منهم، أنهم يصانعون المؤمنين في الظاهر، وقلوبهم

منطوية على الكفر، ولهذا قال: ﴿وقد دخلوا﴾ أي عندك يامحمد ﴿بالكفر﴾ أي مستصحبين الكفر في قلوبهم، ثـم خرجوا وهو كامـن فيها، لم ينتفعوا بما قـد سمعـوا منك من العلم، ولا نجعـت فيهم المواعظ ولا الـزواجـر، ولهذا قال: ﴿وهم قـد خرجوا بـه﴾ فخصهم به دون غيرهم، وقولـه تعالى: ﴿واللهُ أعلمُ بما كانـوا يكتمون﴾ أي عالم بسرائرهم وما تنطـوي عليه ضمائرهم، وإن أظهروا لخلقـه خلاف ذلك وتزينوا بما ليس فيهم، فإن عـالم الغيب والشهدة أعلم بهم منهم، وسيجـزيهم على ذلك أتم الجزاء اهـ وقـولـه تبارك وتعـالى: ﴿وَتَرَى كثيرا منهم يُسَـارِعُونَ في الإثم والْعُـدْوَانِ وأَكْلِهِمُ السُّحْتَ، لَبِئْسَ ما كانـوا يَعْمَلُونَ﴾ بيـان لقبائح أخـرى من قبائح اليهـود لتقريـر اندفـاعهم في المعاصي، واستغـراقهم في الآثام، وأكل السحت من الـربا والـرشوة وغيرهما من الأمـوال المحـرمـة، والخطـاب لـرسـول الله ﷺ أو لكل من يتأتى لـه أن يخاطب بهذا الخطاب، والتعبير بقـوله: ﴿وترى﴾ للإشـارة إلى ظهور حالهم وانكشـاف سوء سلـوكهم حتى يستطيع المخـاطب أن يعـاين منهم بسهولـة اندفـاعهم في المعاصي واستغـراقهم في الآثام، وحـرصهم على أكل السحت الذي تأكل النار الأجساد التي نبتت منـه، ولاشك أن من كانت هذه حاله، وتلك خصاله فإنه بعيد عن قبول الخير، قريب من كل شر، ولذلك أقسم الله عز وجل على سـوء عملهم حيث ذيل هذه الآيـة الكريمـة بقولـه عز وجل: ﴿لبئس ما كـانوا يعملـون﴾ قال ابن جريـر رحمه الله: يقول الله تعـالى ذكره: ﴿لبئس ما كـانوا يعملون﴾ يقـول: أقسم لبئس العمل ما كان هـؤلاء اليهود يعملـون في مسارعتهم في الإثم والعـدوان، وأكلهم السحت اهـ وقد أشـار رسـول الله ﷺ إلى أن اليهـود كـانـوا يحتـالـون للحصـول على الحرام بكل مـا يستطيعون من الوسائل وطرق الاحتيال، فإنهم لما حرمت عليهم شحوم البقر والغنم عمدوا إلى إذابتها وبيعها وأكل ثمنها، فقد روى البخاري ومسلم من

حـديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قـال : قاتل الله اليهـود، حرمت عليهم الشحـوم، فجملوها، فبـاعوهـا . وفي لفظ للبخاري ومسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال : قاتل الله يهود، حرمت عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا ثمنها .

قال تعالى: ﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ، لَبِئْسَ مَاكَانُوا يَصْنَعُونَ. وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ، وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا، واللهُ لا يُحِبُّ المفسدين﴾.

بعد أن أوضح عز وجل الفرق بين سلوك المؤمنين المستجيبين لرسول الله ﷺ وسلوك أهل الكتاب وبخاصة اليهود منهم وبيَّن انحرافهم عن الصراط المستقيم وأن أكثرهم فاسقون، وأن الله لعنهم وغضب عليهم وجعل منهم قردة وخنازير وأنهم عبدوا الطاغوت وأنهم قد شاع فيهم الانغماس في الإثم والعدوان وأكل السحت وجه هنا عتابا لفقهائهم وعلمائهم على تقصيرهم في نهيهم عن قولهم الإثم وأكلهم السحت مشيرا إلى أن هؤلاء اليهود قد مَرَدُوا على قول الإثم وأكل السحت، وأن هذا صار صناعة لهم ثم أضاف إلى ذلك أنهم قد قالوا على الله عز وجل قولا قد بلغ في الدلالة على سوء سلوكهم وخبث نفوسهم وسفاهة عقولهم مبلغا لم يعرف في أهل الجاهلية نظيره حيث قالوا: يد الله مغلولة، وقد قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، ثم أشار إلى أنهم يعملون على إشعال نار الحروب والسعي في الأرض بالفساد وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت، لبئس ما كانوا يصنعون﴾ إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿والله لا يُحِبُّ المفسدين﴾ وقد صدَّر الله تبارك وتعالى هذا المقام بحض الفقهاء والعلماء على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه إشارة إلى تحمل الفقهاء والعلماء مسئولية توجيه أممهم وشعوبهم إلى الخير عندما يرون منهم انحرافًا عن

الصراط المستقيم، وأن عليهم أن يحذروهم من الوقوع في المعاصي التي تجلب عليهم سخط الله وعقوبته، وفي قوله عـز وجل: ﴿لَبِئْسَ ما كانوا يَصْنَعُونَ﴾ إشارة إلى أن هـؤلاء اليهود قبحهم الله قد مـردوا على قول الإثم وأكل السحت حتى صار صناعة لهم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ولُعِنُوا بِمَا قَالُوا، بَلْ يَـدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ شروع في بيان قبـائح أخرى من قبائح اليهـود البشعة التي لم يشـاركهم فيها حتى أهل الجاهلية إذ قال هؤلاء اليهود لعنهم الله: ﴿يَدُ الله مَغْلُولَةٌ﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعـالى عن اليهود عليهم لعـائن الله المتتـابعة إلى يـوم القيامـة بأنهم وصفوه ـ تعـالى عن قولهم علوًا كبيرا ـ بأنـه بخيل، كما وصـفوه بأنه فقير وهم أغنياء، وعبروا عـن البخل بأن قالـوا: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُـولَةٌ﴾ اهـ وقـد استعمل القرآن العظيم التعبير باليد المغلولة كناية عن البخل والشح كما استعمل اليد المبسوطة في الكناية عن البذل والإنفاق، والجود والعطاء، فإذا كان المنفق قد بلغ حد الإسراف والتبذير قيل: بسط يـده كل البسط، وفي ذلك يقول تبارك وتعـالى: ﴿وَلاَ تَجْعَل يَدَكَ مَغْلُـولَـةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُـدَ مَلُومًا مَحْسُوراً﴾ وقد رد الله تبارك وتعالى على هؤلاء المجرمين مقالتهم، وقابلهم فيما اختلقـوه وتفوهـوا بـه فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْـدِيهِمْ وَلُعِنُـوا بما قـالوا، بل يَـدَاه مَبْسوطتـان يُنفِق كَيْفَ يشاء﴾ قـال ابن كثير رحمه الله: وقد رد الله عـز وجل عليهم مـا قالـوه، وقـابلهم فيما اختلقـوه وافتروه وائتفكوه، فقـال: ﴿غُلَّتَ أَيْـدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قـالُوا﴾ وهكـذا وقع لهم، فإن عندهم من البخل والحسـد والجبن والـذلة أمراً عظيماً كما قـال تعالى: ﴿أم لهم نصيب من الملـك فَإِذًا لا يُؤْتُونَ النـاسَ نَقِيراً * أم يحسدون الناس على ما آتـاهم الله من فضله﴾ الآية، وقـال تعـالى: ﴿ضُرِبَتْ عليهم الـذِّلَّةُ﴾ الآيـة، ثم قـال تعـالى: ﴿بل يـداه مَبْسُوطَتَـانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي بل هو الـواسع الفضل، الجزيل العطاء،

الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه، وهو الذي ما يخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه، في ليلنا ونهارنا، وحضرنا وسفرنا، وفي جميع أحوالنا، كما قال: ﴿وآتاكُمْ مِن كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ، وإن تَعُدُّوا نِعْمَتَ الله لا تُحْصُوهَا، إنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ والآيات فيها كثيرة، وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن يمين الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحَّاءُ الليلَ والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض مافي يمينه، قال: وعرشه على الماء، وفي يده الأخرى الفيض يرفع ويخفض، وقال: يقول الله تعالى: أَنفِق أُنْفِقْ عليك. أخرجاه في الصحيحين: البخاري في التوحيد عن علي بن المديني، ومسلم فيه عن محمد بن رافع كلاهما عن عبد الرزاق به اهـ والذي في البخاري في التوحيد من طريق علي بن المديني بدل قوله: «فإنه لم يغِضْ ما في يمينه» فإنه لم يَنْقُصْ مافي يمينه. وقد أورده البخاري أيضا في التوحيد عن أبي اليمان أخبرنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة: وفيه: فإنه لم يغض ما في يده، وقال: عرشه على الماء، وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع. وأما زيادة: يقول الله تعالى: أنفق أنفق عليك. فليست عند البخاري في التوحيد وإنما أوردها في تفسير سورة هود من طريق أبي اليمان. ورواية مسلم من طريق محمد بن رافع إنما أوردها مسلم في كتاب الزكاة بلفظ: وقال رسول الله ﷺ: إن الله قال لي: أنفق أنفق عليك، وقال رسول الله ﷺ: يمين الله ملأى، لا يغيضها، سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق مذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يغض مافي يمينه، قال: وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الفيض يرفع ويخفض. وفي بعض نسخ مسلم: وبيده الأخرى القبض، كما أن في رواية البخاري عن علي بن المديني: وبيده الأخرى

الفيض أو القبض. والمراد بالفيض: الإحسان والإعطاء الواسع والمراد بالقبض التقدير، كما قال عز وجل: ﴿يَبْسُطُ الرزقَ لمن يشاء ويَقْدِرُ﴾ . وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ دليل قطعي يستدل به أهل السنة والجماعة على إثبات اليدين لله عز وجل من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل ولا تأويل. فإنه عز وجل ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ قال الإمام محيي السنة الحسين بن مسعود الفراء أبو محمد البغوي في تفسير قوله عز وجل: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾: ويد الله صفة من صفات ذاته كالسمع والبصر والوجه. وقال جل ذكره: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وقال النبي ﷺ: كلتا يديه يمين. والله أعلم بصفاته، فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كثيرًا منهم مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن ربِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ بيان لقبيحة أخرى من قبائحهم لعنهم الله، وبرهان على انتكاس فطرتهم، وانقلاب الموازين عندهم، فبدل أن يسارعوا إلى الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ وأن يستضيئوا بنوره ويهتدوا بهداه صاروا كلما أنزلت آية كفروا بها فازدادوا بذلك كفرا وطغيانا قال ابن كثير رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كثيرا مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ من ربك طغيانا وكُفْرًا﴾ أي يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة نقمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم، فكما يزداد به المؤمنون تصديقا، وعملا صالحا، وعلماً نافعاً، يزداد به الكافرون الحاسدون لك ولأمتك طغياناً وهو المبالغة والمجاوزة للحد في الأشياء، وكفراً أي تكذيبا، كما قال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هُدًى وَشِفَاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِم عَمًى، أولَئك ينادون من مكان بعيد﴾ وقال تعالى: ﴿ونُنَزِّلُ من القرآن مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ للمؤمنين وَلا يَزيدُ الظالِمينَ إلا خَسَارًا. ﴾ اهـ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى سبب انتكاس القلوب حتى تكره الإيمان وتحب الكفر وبيَّن أن سبب ذلك هو التكبر في

الأرض بغير الحق حيث يقول عز وجل : ﴿سَأَصْرِفُ عن آيَاتِيَ الذين يَتَكَبَّرُون في الأرض بغير الحق و إن يَرَوْا كُلَّ آيَـةٍ لا يُؤْمِنُـوا بِهَا و إن يروْا سَبِيلا الـرُّشْدِ لا يتخذوه سبيلا ، و إن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، ذُلك بأنهم كَذَّبوا بآياتنا وكانوا عنا غافلين﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿وأَلْقَيْنَا بينهم العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بيان آخر لقبيحـة أخرى من قبائحهم وتأكيد على فساد قلوبهم وأنها مليئـة بالحقـد والحسد والضغينـة ليس ذلك على المسلمين وحـدهم بل إنهم يبغض بعضهم بعضا ويحسد بعضهـم بعضا ويحقد بعضهم على بعض كما ذكـر ذلك تبارك وتعـالى في حق النصـارى حيث قـال : ﴿فأغرينـا بينهم العداوة والبغضـاء إلى يوم القيـامة﴾ وقـال هنا في حق اليهـود ﴿وألقينا بينهم العـداوة والبغضاء إلى يـوم القيـامـة﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿بـأْسُهُمْ بينهم شدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جميعا وقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا للحرب أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ هذا بيان آخر لقبيحة أخرى من قبائحهم حيث إنهم لا ينفكـون عن محاولة إشعـال الحروب و إثـارة الفتن بين الأمم والشعوب ، ولـو تمكنوا من تنفيذ مخططاتهم الإجـرامية لأهلكوا الحرث والنسل ولكن الله تبارك وتعـالى يحبط كيدهم ، ويحول بينهم وبين مـا يشتهـون وقولـه تبارك وتعـالى : ﴿وَيَسْعَوْنَ في الأرض فَسَادًا﴾ بيانٌ آخر لقبيحة أخرى من قبائحهم وتأكيد لما انطوت عليه نفوسهم الشريرة من حـرصهم الشديد وسعيهم الحثيث للفساد في الأرض ، وحرمان أهلها من أسباب الأمن والاستقرار، ولذلك نجد أصابع الـدول في عصرنا تشير إليهم في أمـريكا الجنـوبيـة وهم يدربـون العصابـات لتجار المخدرات ، كما تشير إليهم في جنوب أفريقيـا وسائر أنحاء العالم وهم يمدون المنحرفين البغاة بأسبـاب استشراء شرورهم ، ولذلك استحقوا غضب الله عليهم وبغضه لهم ، لأنه عز وجل يكـره المفسدين في الأرض ولذلك ذيل هذا المقام بقوله الكريم : ﴿والله لا يحب المفسدين﴾ .

قـال تعـالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَـابِ آمَنُـوا واتَّقَـوْا لَكَفَّرْنَـا عَنْهُمْ سَيِّئَـاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيـمِ . ولو أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ والإِنجِيلَ وَمَـا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِن رَبِّهِمْ لأَكَلُـوا مِن فَـوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، مِنْهُمْ أُمَّـةٌ مُقْتَصِـدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ . يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بلَّغْتَ رِسَـالَتَـهُ ، وَاللهُ يَعْصِمُـكَ مِنَ النَّـاسِ ، إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَـوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ .

بعد أن وصف الله تبارك وتعالى اليهود بقبائح الصفات التي يتصفون بها ، ممـا يقتضي أنهم يستحقـون كل أنـواع الذم ، ومـا بيَّنـه عـز وجل من تهجين طريقتهم الداعيـة إلى تنفير كل ذي عقل من ولايتهم ، بيَّن في هذا المقام أنهم لو تابوا إلى الله لتاب الله عليهم ، لأنه عز وجل جواد كريم واسع المغفرة ، وأن الإيمان يـجُبُّ مـا كان قبلـه ، فلو آمن أهـل الكتاب وخافـوا ربهم لجمع لهم سعادتي الدنيا والآخرة ، فكفر عنهم سيئـاتهم التي اقترفوا ولو كانت مثل زبد البحر وأسكنهم جنـات النعيم ، كما أنه عـز وجل يفيض عليهم من بـركات السماء والأرض حتى يأكلـوا من فـوقهـم ومن تحت أرجلهم ، وفي هـذا لفت انتباه للـدعاة إلى الله عز وجل ألا تحملهـم معاصي الناس وعظـائم جرائمهم على ترك دعـوتهم ، وأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافـرون ، وقد سلك الله عز وجل في دعـوتهم إليه طريق الترهيب والترغيب ليتأسى بذلك الـدعاة إلى الله . وقوله تبـارك وتعالى : ﴿ولو أَنَّ أهل الكتاب آمنوا واتَّقَـوْا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلنـاهم جنات النعيم * ولـو أنهم أقاموا التـوراة والإنجيل وما أنــزل إليهم مـن ربهم لأكلــوا من فــوقهم ومـن تحت أرجلهم﴾ لِحَثِّ أهل الكتـاب على الإيمان والتقوى و إقـامـة شرع الله بـوعدهم بسعـادة الـدارين وزجرهم عن الإخلال بذلك لأن الإخلال بذلك يفضي إلى حرمانهم من نعيم

العاجلة والآجلة، وفي ذلك تنبيه على أن ما يصيبهم من الضنك والضيق إنما هو من شؤم جناياتهم ومعاصيهم لا لقصور في فيض الكريم الجواد الذي لا تنفد خزائنه، إذ يداه مبسوطتان سحَّاء الليل والنهار، ينفق كيف يشاء، والمراد بالكتاب في هذا المقام: هو الجنس المنتظم للتوراة والإنجيل، قال أبو السعود العمادي: وإنما ذُكِروا بذلك العنوان تأكيداً للتشنيع، فإن أهلية الكتاب توجب إيمانهم به، وإقامتهم له لا محالة، فكفرهم به، وعدم إقامتهم له، وهم أهله، أقبح من كل قبيح، وأشنع من كل شنيع اهـ والترغيب في الإيمان والتقوى بالوعد على ذلك بسعادة الدارين هو منهج رشيد في الدعوة إلى الله عز وجل، وهو الوعد الحق، الملائم لسنن الفطرة، الصالح لجميع أهل الأعصار وسائر الأمصار، لا يشذ عن ذلك إلا شاذ مختل الفكر والفطرة. وقد ذكر الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتابه الكريم أن الإيمان والتقوى والاستقامة على الطريقة الشرعية يجلب رغد العيش والأمن والاستقرار في الدنيا ويئول بصاحبه إلى جنات الفردوس في الدار الآخرة، حيث يقول عز وجل هنا: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمَنُوا واتَّقَوْا لكَفَّرْنَا عنهم سيئاتِهم ولأدخلناهم جنات النعيم * ولو أنهم أَقَامُوا التوراة والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليهم من ربهم لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم.﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عليهم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا على الطريقة لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ وقوله عز وجل: ﴿لأَكَلُوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ هو كناية عن كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض والذي يأتيهم من كل مكان حتى يصير عيشهم رغدًا، وحياتهم هنيئة طيبة كما قال عز وجل: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاة طَيِّبَةً ولنجزينهم أجرهم بأَحْسَنِ ما كانوا يعملون﴾ وقال عز وجل: ﴿وَضَرَبَ اللهُ

مثلا قريةً كـانت آمِنَةً مُطْمَئِنَّة يأتيها رزقُهَا رَغَدًا من كـل مكان فَكَفَرَتْ بِأَنعُم الله فأذاقهـا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ والْخَوْفِ بما كـانوا يَصْنَعُونَ﴾ وقـوله عـز وجل: ﴿منهم أُمَّـة مقتصـدة وكثير منهم ساء مـا يعملـون﴾ أي من أهل الكتـاب جماعة مقتصدة أي سـالكة سواء السبيل، ملتزمة بالحق، مـؤمنة بما أنزل الله من كتاب مبتعدة عن منهج الغلو والإفراط كما أنها مبتعدة عن منهج التفريط والتقصير، فـلا تقـول على الله إلا الحق ولا تفـرق بين الله ورسلـه ولا تـؤمن ببعض كتب الله وتكفـر ببعضهـا، وعلى رأس هؤلاء الصـالحين عبـد الله بن سلام رضي الله عنـه، وقوله عـز وجل: ﴿وكثير منهم ساء مـا يعملون﴾ أي وكثير من أهل الكتاب سيئـة أعمالهم قبيح سلوكهم فهم إما غالـون مُفْرِطون كمن يـدَّعي أن العـزيـر ابـن الله، ومن يـدعي أن المسيح ابـن الله، وإمـا مقصرون مُفرِّطون كمن يدعي أن المسيح لغير رِشْدَةٍ، ويقول على مريم بهتانا عظيما. وقوله عـز وجل: ﴿ياأيها الرسولُ بَلِّغْ مـا أُنزِلَ إلَيْك من ربك وإن لم تفعل فما بَلَّغْت رِسَالَتَهُ، والله يَعْصِمُكَ من النَّـاسِ﴾ هذا تثبيت لفؤاد رسول الله ﷺ، وأن أعـداءه مهما كثروا، ومهما أعلـن من معايبهم وسـوء سلـوكهم الذي أمره الله عز وجل بإعلانـه فإنهم لن يتمكنوا منه ﷺ، لأن الله عز وجل يعصمه منهم ويكفيه شرهم، ويرد كيدهم إلى نحورهم، قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿ياأيها الرسولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إلَيْكَ من ربك وإن لم تفعل فما بلَّغْتَ رسـالتـه، والله يعصمك من النـاس، إنَّ الله لا يهدي القـوم الكافرين﴾ قال أبو جعفر: وهذا أمر من الله تعالى ذكره نبيَّه محمدا ﷺ بإبلاغ هؤلاء اليهود والنصارى من أهل الكتابين الذين قص تعالى ذكره قصصهم في هذه السـورة، وذكر فيها معـايبهم، وخبث أديانهم، واجترائهم على ربهم، وتوثبهم على أنبيـائهم، وتبديلهم كتابه، وتحريفهم إيـاه، ورداءة مطاعمهم ومآكلهم، وسـائر المشركين غيرهم ما أنزل عليـه فيهم من معايبهم، والإزراء

عليهم، والتقصير بهم، والتهجين لهم، وما أمرهم به، ونهاهم عنه، وألا يشعر نفسه حذرًا منهم أن يصيبوه في نفسه بمكروه ما قام فيهم بأمر الله، ولا جزعاً من كثرة عددهم وقلة عدد من معه، وألا يتقي أحدًا في ذات الله، فإن الله تعالى ذكره كافيه كل أحد من خلقه، ودافع عنه مكروه كل من يبغى مكروهه، وأعلمه تعالى ذكره أنه إن قصَّر عن إبلاغ شيء مما أنزل إليه إليهم فهو في تركه تبليغ ذلك ـ وإن قلَّ ما لم يبلِّغ منه ـ فهو في عظيم ما ركب بذلك من الذنب بمنزلته لو لم يبلِّغ من تنزيله شيئاً. اهـ ولاشك أن صيانة الله تبارك وتعالى نبيه محمدا ﷺ من أعدائه ودفع شرورهم عنه معجزة ظاهرة وآية باهرة قاهرة، فقد كانوا يتعاهدون ويتعاقدون في مكة على قتله ﷺ فإذا مرَّ بهم طأطأوا رءوسهم كأن عليها الطير، فقد قال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال: قلت له: ما أكثرُ ما رأيت قريشا أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يُظهرون من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما في الحِجْر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرْنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سفَّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرَّق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ـ أو كما قالوا ـ فبينا هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفا بالبيت فلما مر بهم غمزوه ببعض القول، قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ. قال: ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف ثم قال: أتسمعون يامعشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذَّبح، قال: فأخذت القومَ كلمتُه حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاةً قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول،

حتى إنه ليقول: انصرف ياأبا القاسم، فوالله ما كنتَ جهولا. قال: فانصرف رسول الله ﷺ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحِجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله ﷺ: نعم، أنا الذي أقول ذلك، قال: فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه، قال: فقام أبوبكر رضي الله عنه دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشدُّ ما رأيت قريشا نالوا منه قط اهـ وقوله عز وجل: ﴿إنَّ الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي إن الله عز وجل لا يسدد ولا يؤيد ولا يوفق إلى الرشد من حاد عن طريق الحق، وجار عن قصد السبيل وجحد ما أنزل الله من كتاب أو ما أرسل من رسول. وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ دليل ظاهر على مروق من ادعى أن محمدا ﷺ كتم شيئا من القرآن، وأن من ادعى ذلك فقد افترى الكذب على رسول الله ﷺ، وقد روى البخاري في التفسير من طريق مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: من حدثك أن محمدا ﷺ كتم شيئا مما أنزل عليه فقد كذب، والله يقول: ﴿ياأيها الرسول بَلّغْ ما أُنزِلَ إليك من ربك﴾ الآية. وأخرجه في كتاب التوحيد من صحيحه عن مسروق عن عائشة قالت: من حدثك أن النبي ﷺ كتم شيئا من الوحي فلا تصدقه، إن الله تعالى يقول: ﴿ياأيها الرسولُ بَلِّغْ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بَلَّغْت رسالتَهُ﴾ وأورده مسلم في كتاب الإيمان من صحيحه من طريق مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿ياأيها

الرسولُ بلغ مـا أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بَلَّغْتَ رسالَتَـهُ﴾ اهـ وقد شهدت له أمته بـإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة في أعظم المحـافل عند خطبته في حجة الـوداع عندمـا قال: أيها الناس إنكم مسئـولون عني فما أنتم قـائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوراةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُمْ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُم مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا والصَّابِئُونَ والنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وفَرِيقًا يَقْتُلُونَ. وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

بعد أن حث الله تبارك وتعالى أهل الكتاب على الإيمان والتقوى ووعدهم إن استجابوا لذلك بتكفير سيئاتهم مهما عظمت، وإدخالهم جنات النعيم مع ما يعجله لهم من طيبات الحياة الدنيا، وأثنى عز وجل على الذين سارعوا إلى الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ من أهل الكتاب، وأمر رسوله محمدا ﷺ أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه لأهل الكتاب وغيرهم وألا يخشى في الله لومة لائم، وطمأنه بأنه عز وجل يعصمه من الناس ويكلؤه برعايته، ويصونه من كيد أعدائه، وفي هذا من تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ أمام أعدائه من كل لون وجنس ومذهب ما ينطبق عليه قول الشاعر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

بعد ذلك كله أمر نبيه ﷺ أن يوجه الخطاب إلى أهل الكتاب معلناً لهم أنهم لن يكونوا على خير أبدا حتى يدينوا بكل كتاب أنزله الله عز وجل، ولن ينفعهم أبدا دعواهم أنهم يؤمنون ببعض كتب الله ماداموا قد كفروا ببعضها، علما بأنها جميعا تدعو إلى كلمة سواء وهي إخلاص العبادة لله وحده والبراءة من الشرك، وألا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، وأن يؤمنوا بما أنزل

الله من كتاب وبما أرسل من رسـول، وفي ذلك يقول عـز وجل: ﴿قل ياأهل الكتـاب لستم على شيء حتى تقيمـوا التوراة والإنجيل ومـا أُنـزِلَ إليكم من ربكم﴾، ولاشك أن هذا القول لأهل الكتـاب يشق عليهم جدا لكن رسول الله ﷺ لن يتوانى في إبلاغهم ما أمـره الله عز وجل أن يبلغهم إياه، وقد نفى الله عز وجل عن أهل الكتاب في هذا الخطاب كل شيء يمكن لأحد أن يعتد به من الدين، والعرب تقول: هذا ليس بشيء إذا أرادت تحقيره وتصغير شأنه وعـدم الاعتـداد بـه حتى صـار لا يليق بأن يسمى شيئـا لظهـور بطـلانـه، ووضوح فساده، ففي هذا التعبير من التحقير والتصغير ما قد بلغ الغاية من ذلك. وقـوله عز وجل هنـا: ﴿وليَزِيـدَنَّ كثيراً منهم ما أُنـزِلَ إليك من ربك طغيانا وكفرا﴾ تأكيد لما تقدم قبل هذه الآية بثلاث آيات، وقد كرره عز وجل بلفظـه لبيان شـدة غلوهم في العنـاد والمكابـرة، وللفت الانتباه إلى انتكـاس فطرتهم، وانقلاب الموازين عنـدهـم مما يؤكد لمن عنـده أدنى مسكة من عقل أنهم ليسوا على شيء وقولـه تبارك وتعالى: ﴿فلا تَأْسَ على القـوم الكافرين﴾ أي فلا تحزن يامحمد ولا تتأسف بسبـب استمرار هؤلاء المتنكسين على كفرهم وجحـودهم، فإن غـائلة كفـرهم إنما تعـود عليهم، وليس عليك إلا البـلاغ المبين، وقـد بلغت الرسـالـة وأديت الأمـانة ونصحت الأمـة. وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿إنَّ الـذين آمَنُوا والذين هَـادُوا والصابئون والنصـارى من آمن بالله واليـوم الآخر وعمل صـالحا فـلا خوفٌ عليهـم ولاهُمْ يحزنون﴾ هـو لتحقيق وتأكيـد أن أهل الكتـاب ليســوا على شيء حتى يـؤمنــوا بجميع كتب الله ورسله، وأن سائر أهل الملل والنحل ليسوا على شيء حتى يؤمنوا بجميع كتب الله ورسلـه وعلى رأسهم شيخ المرسلين محمـد ﷺ الــذي أتم الله بـه الـدين وأكمل بـه النعمة والـرسالـة. وقد تقـدم شبيهـه في قولـه عز وجل في سـورة البقرة: ﴿إنَّ الـذين آمنوا والـذين هادوا والنصـارى والصابئين من آمـن بالله

واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾ وقد ذكرت في تفسيرها أن هذه قاعدة قضى الله عز وجل بها وهي تشمل جميع أجناس المكلفين في جميع الأعصار والأمصار وهي أنه لا يستحق أجر الله وحسن مثوبته والنعيم المقيم في جنات النعيم إلا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات، فآمن بجميع النبيين وصدق جميع المرسلين وعلى رأسهم شيخهم وإمامهم وسيدهم محمد بن عبد الله ﷺ الذي قضي الله بأنه بعد بعثته لن يدخل الجنة أحد إلا من طريقه واتباع منهجه وسنته والعمل بشريعته، وذكرت أن قوله عز وجل: ﴿إن الذين آمنوا﴾ يعني المسلمين من أمة محمد ﷺ وأن معنى ﴿الذين هادوا﴾ أي صاروا يهودا وأن النصارى هم المدعون أنهم على دين المسيح منسوبون إلى نصرانة قرية المسيح عليه السلام فإنها يقال لها الناصرة ويقال لها: نصرانة، والصابئون هم عبدة النجوم والكواكب والملائكة، وقد كان العرب يطلقون اسم الصابئ على المائل عن دين إلى دين آخر، حتى كانوا يلقبون أفضل الخلق بعد الأنبياء أصحاب محمد ﷺ بالصباة، ويسمون خاتم المرسلين: الصابئ لأنه ﷺ خالف دينهم. وقوله تبارك وتعالى في هذه الآية: ﴿والصابئون﴾ بالرفع وقد كان نسق الكلام أن يقال: والصابئين بالنصب عطفا على اسم إن، لأن عادة العرب إذا أرادوا لفت الانتباه إلى شيء غيروا إعرابه ولم يجعلوه على نسق ما قبله أو بعده، ونظير ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَّٰكِنِ الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، والمقيمين الصلاة، والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ الآية وقد سقت الأدلة الواضحة من كلام العرب على ذلك في تفسير الآية الثانية والستين بعد المائة من سورة النساء، وكما أشرت إلى ذلك في تفسير الآية

السابعة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رسول بما لا تَهْوَى أَنْفُسُهُم فَرِيقًا كَذَّبُوا وفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ تشنيع على بني إسرائيل ببيان أن القاعدة عندهم مع أنبياء الله ورسله ليست اتباع الحق من حيث إنه حق، بل مدار قبولهم للحق أو رده هو شهوات أنفسهم وأهواؤها، فإذا أتاهم الرسول بخلاف ما يهوون كذبوه، وربما قتلوه، ولا يقبلون من الحق الذي يجيء به الأنبياء والمرسلون سوى ما يشتهونه وتميل إليه أنفسهم التي جبلت على حب العلو في الأرض بغير الحق واتباع الشهوات، وهذا أقصى ما توصف به النفس الإنسانية من الذم وأقبح أخلاق بني آدم، وفيه تسلية ومواساة لرسول الله ﷺ، وقد تقدم مزيد بيان لذلك في تفسير قوله عز وجل في سورة البقرة: ﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ وقَفَّيْنَا من بَعْدِهِ بالرسل وآتينا عيسى ابنَ مَرْيَمَ البيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاه بِرُوحِ القُدس، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُم فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وفي قوله عز وجل هنا: ﴿لقد أَخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا﴾ الآية مزيد بيان لما ندد الله عز وجل به في هذه السورة من نقض بني إسرائيل للعهود والمواثيق، وفي ذلك تحذير شديد للمؤمنين من نقض العهود والموثيق التي افتتح الله عز وجل هذه السورة الكريمة بأمر المؤمنين بالوفاء بها حيث قال في مطلع هذه السورة: ﴿ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسير هذه الآية: اعلم أن المقصود بيان عتو بني إسرائيل وشدة تمردهم عن الوفاء بعهد الله، وهو متعلق بما افتتح الله به هذه السورة، وهو قوله: ﴿أَوْفُوا بالعقود﴾ فقال: ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وحَسِبُوا أَلا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثم تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثم عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ، واللهُ بصير بما يعملون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يقول

تعالى: وظن هؤلاء الإسرائيليون ـ الذين وصف الله تعالى ذكره صفتهم: أنه أخذ ميثاقهم، وأنه أرسل إليهم رسلا، وأنهم كانوا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقا، وقتلوا فريقا ـ أن لا يكون من الله لهم ابتلاء واختبار بالشدائد من العقوبات بما كانوا يفعلون ﴿فعَمُوا وصَمُّوا﴾ يقول: فعموا عن الحق والوفاء بالميثاق الذي أخذته عليهم، من إخلاص عبادتي، والانتهاء إلى أمري ونهيي، والعمل بطاعتي، بحسبانهم ذلك وظنهم، ﴿وصَمُّوا﴾ عنه ــ ثم تبت عليهم، يقول: ثم هديتهم بلطف مني لهم حتى أنابوا ورجعوا عما كانوا عليه من معاصي وخلاف أمري، والعمل بما أكرهه منهم، إلى العمل بما أحبه، والانتهاء إلى طاعتي وأمري ونهيي، ﴿ثم عَمُوا وَصَمُّوا كثير منهم﴾ يقول: ثم عموا أيضا عن الحق والوفاء بميثاقي الذي أخذته عليهم: من العمل بطاعتي، والانتهاء إلى أمري، واجتناب معاصيَّ ﴿وَصَمُّوا كثير منهم﴾ يقول: عمى كثير من هؤلاء الذين كنت أخذت ميثاقهم من بني إسرائيل باتباع رسلي والعمل بما أنزلت إليهم من كتبي ـ عن الحق وصموا بعد توبتي عليهم، واستنقاذي إياهم من الهلكة ــ ﴿والله بصير بما يعملون﴾ يقول: ﴿بصير﴾ فيرى أعمالهم خيرها وشرها، فيجازيهم يوم القيامة بجميعها، إن خيرا فخيرا، وإن شرًّا فشرًّا. اهـ وقد قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو ﴿وحَسِبُوا ألا تكونُ فتنةٌ﴾ برفع نون تكون، وقرأ الباقون بنصب نون تكون، وفي هاتين القراءتين لفت انتباه إلى فقه الكلمات العربية وأسرارها حيث إن قراءة الرفع موجهة إلى أنَّ أنْ مخففة من الثقيلة والتقدير: أنه لا تكون فتنة، وقراءة النصب موجهة على أنها أن الناصبة للفعل، قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في تفسيره: قال أبو علي: الأفعال ثلاثة: فعل يدل على ثبات الشيء واستقراره نحو العلم والتيقن، وفعل يدل على خلاف الثبات والاستقرار، وفعل يجذب إلى هذا مرة وإلى هذا أخرى، فما كان معناه

العلم وقعت بعده أنَّ الثقيلة، لأن معناها ثبوت الشيء واستقراره كقوله: ﴿ويعلمون أن الله هو الحقُّ المبين﴾ ﴿ألم يَعْلَمْ بأن الله يَرى﴾ وما كان على غير وجه الثبات والاستقرار نحو: أطمع وأخاف وأرجو وقعت بعده أن الخفيفة كقوله: ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله﴾، ﴿تخافون أن يَتَخَطَّفَكُمُ الناسُ﴾ ﴿فَخشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُما﴾ ﴿أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي﴾ وما كان مترددًا بين الحالين مثل: حسبت وظننت، فإنه يجعل تارة بمنزلة العلم، وتارة بمنزلة أرجو وأطمع، وكلتا القراءتين في ﴿وحَسِبُوا ألا تكون فتنةٌ﴾ قد جاء بها التنزيل، فمثل مذهب من نصب ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نَجْعَلَهُمْ﴾ ﴿أم حَسِبَ الذين يعملون السيئاتِ أن يَسْبِقُونا﴾ ﴿أم حَسِبَ الناسُ أن يُتْرَكُوا﴾ ومثل مذهب من رفع ﴿أيحسبون أنما نُمِدُّهم﴾ ﴿أم يحسبون أنَّا لا نسمعُ سِرَّهُمْ﴾ اهـ والله أعلم بأسرار كتابه.

قال تعـالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الـذينَ قَالـوا إِنَّ اللهَ هُوَ الـمسِيحُ ابنُ مَـرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِى إِسْرَائِيلَ اعْبُـدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ من يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَـدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّـارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ. لَقَدْ كَفَرَ الَّـذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ، وَمَامِنَ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَإِن لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِين كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ ويَسْتَغْفِرُونَهُ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. مَا الْمَسِيحُ ابْـنُ مَرْيَمَ إِلا رَسُولٌ قَـدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الـرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِـدِّيقَةٌ كَـانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ، انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ.﴾

بعد ما ذكره الله تبارك وتعالى من تـرهيب أهل الكتاب وترغيبهم، وما أمر به نبيه ﷺ من إبلاغ ما أنزل إليـه من ربه، وألا يخاف في الله لومة لائم مؤكدا له أنه يعصمـه من الناس ويحفظه من كيدهم وشرورهـم، وأمره بعد ذلك أن يعلن لأهل الكتاب وغيرهم أنهم ليسوا على شيء حتى يؤمنوا بجميع كتب الله ورسله، وبيَّن أن بني إسرائيل إنما ينقادون لهوى أنفسهم وشهـواتها، وقد كان لليهـود النصيب الأكبر في هـذه القبائح، شرع هنـا في تفصيل بعض قبـائح النصارى وإبطال أقوالهم الفاسدة وغلوهم في المسيح ابن مريم عليه السلام، وقد افتتح عز وجل هذا المقام هنـا بأن أقسم تبارك وتعالى على كفر من قال: إن الله هو المسيح ابن مريم مبينا أن المسيـح عليه السلام إنما أمر بني إسرائيل أن يعبدوا الله ربه وربهم، وأنذرهم بأن من أشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة حيث يقول عز وجل هنا: ﴿لقد كفر الذين قالوا إنَّ الله هو المسيحُ ابنُ مريم وقال المسيحُ يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرَّم اللهُ عليه الجنةَ ومأواه النـارُ وما للظالمين من أنصار﴾ وقـد قلت في تفسير قوله تبارك وتعـالى: ﴿لقد كفر الذين قـالوا إن الله هو المسيح ابنُ مـريمَ﴾ في الآية السابعـة عشرة من هذه السـورة الكريمـة: أي أقسم أن من ادعى أن المسيح

عيسى ابن مريم هو الله فقد خلع ربقة الإسلام، وجحد الدين الحق وانغمس في الضلال والكفر، وقد كرر الله تبارك وتعالى في هذه الآية وهي الثانية والسبعون من سورة المائدة نفس هذا القسم بحروفه تبشيعاً لجريمة من يدعي أن الله هو المسيح ابن مريم، وتنفيراً من الوقوع فيه، وتحذيراً من ولاية مدعيه، وقد أوضحت في تفسير الآية السابعة عشرة من هذه السورة أن أول من ادعى ألوهية المسيح عليه السلام هو شاول اليهودي الذي سمى نفسه «بولس» وقد ادعت النسطورية من النصارى أن الله حل في المسيح، ويقولون: إن اللاهوت حل في الناسوت وتدرع به كحلول الماء في الإناء ولذلك أعلنوا أن الله هو المسيح ابن مريم، كما ادعت اليعقوبية من النصارى أن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء واتحدا، ولذلك أعلنوا أن الله هو المسيح ابن مريم. ولاشك أن إعلان كفر من ادعى أن المسيح إله معجزة لرسول الله ﷺ لأن المعلوم أنه عند بعثة رسول الله ﷺ كان السائد عند النصارى القول بألوهية المسيح عليه السلام فمن أين للأمي هذا العلم الذي يُجابهُ به هذه المقالة الذائعة الشائعة ويشرح به للنصارى أساس ضلالهم وسبب انحرافهم، وأحبارهم لا يزالون يقرأون في كتب العهد القديم والجديد ما يؤيد أن رسل الله صلى الله عليهم وسلم قد جاءوا بوجوب توحيد الله عز وجل، و إخلاص العبادة له وحده لا شريك له، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا اللهَ رَبِّي وربَّكُمْ إنه مَن يشرك بالله فقد حرَّمَ الله عليه الجنة ومأواه النار وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أنصار﴾ هذه جملة حالية من فاعل قالوا بتقدير قد، وهذه الجملة الحالية قد سيقت لتأكيد فساد قول من ادعى أن الله هو المسيح ابن مريم بالتنبيه على ما هو الحجة القاطعة على فساد قولهم حيث ذكر لهم المسيح أنه عبد مربوب لله سيده وسيدهم ومالكه ومالكهم ومدبر أمره ومدبر أمورهم المتفرد بالألوهية والربوبية والأسماء

الحسنى والصفات العلى، وأن من أشرك بالله فالجنة عليه حرام، وسيصلى نارا تلظى، تكون مأواه ومرجعه ومصيره ومسكنه الدائم الذي لا يخرج منه ولا يتحول عنه مادام قد مات على شركه وكفره، ولن يجد يوم القيامة شفيعا يشفع له ولا نصيرا ينصره. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾ أي أقسم أن من ادعى أن الله ثالث ثلاثة فهو كافر قد خلع ربقة الدين الحق وانغمس في الضلال والكفر وألقى نفسه في الهاوية وهو قَمِنٌ بأن يوصف بأنه ليس على شيء. والمراد من قولهم: ﴿ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ أي إن الله وعيسى ومريم آلهة ثلاثة، وهذه مقالة طائفة من النصارى حيث جعلوا عيسى وأمه إلهين وأن الله عز وجل إله ثالث أي أحد ثلاثة ألهة، أو واحد من ثلاثة ألهة، كما وبخهم عز وجل على ذلك بقوله تبارك وتعالى: ﴿و إذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قُلْتَ للناس اتخذوني وأُمِّيَ إلَهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقولَ ما ليس لي بحق، إن كنتُ قلتُه فقد عَلِمْتَهُ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت عَلامُ الغُيُوب﴾ وقد قال بعض النصارى إن الله جوهر واحد مكون من ثلاثة أقانيم قال الفخر الرزاي: واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل، فإن الثلاثة لا تكون واحدا، والواحد لا يكون ثلاثة، ولا يرى في الدنيا مقالة أشد فسادا وأظهر بطلانا من مقالة النصارى اهـ والعرب إذا قالوا لشيء: هو ثالث ثلاثة وأرادوا أنه واحد منهم وأنه بعض الثلاثة فلا يجعلونه إلا مضافا ويقولون: ثالث ثلاثة بدون تنوين لفظ ثالث، أما إذا أرادوا أنه ليس واحدًا منهم فإنهم حينئذ يقولون: هذا ثالث اثنين بالإضافة ويقولون: هذا ثالثٌ اثنين بالتنوين بمعنى: هذا ثلَّث اثنين أي صيرهما ثلاثة بنفسه، أو يقولون: هذا ثالثٌ ثلاثة بالتنوين ونصب ثلاثة، ولا تجوز حينئذ الإضافة لأنهم لم يريدوا أنه بعض الثلاثة، ولاشك أنه ما من شيئين في الوجود إلا والله عز وجل ثالثهما

بعلمه كما قال عز وجل: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم﴾ وعلى هذا المعنى يحمل قول رسول الله ﷺ: قال الله تعالى أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فقد قال أبو داود في باب الشركة من سننه: حدثنا محمد بن سليمان المصيصي ثنا محمد بن الزبرقان عن أبي حيان التيمي عن أبيه عن أبي هريرة رفعه قال: إن الله يقول: أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خانه خرجت من بينهما. اهـ ورجال هذا السند كلهم ثقات، ومحمد بن الزبرقان من رجال البخاري ومسلم وأبو حيان التيمي هو يحيى بن سعيد بن حيان التيمي الكوفي من رجال الشيخين كذلك وأبوه سعيد بن حيان وثقه العجلي وذكره ابن حبان في الثقات. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما من إلَهٍ إلا إلَهٌ واحد﴾ هو تحقيق لحقيقة الألوهية بإثباتها لله وحده لا شريك له ونفيها عن جميع ما سواه بأدق عبارة وأكمل بيان على طريق النفي والإثبات بأسلوب هو نص في الاستغراق حيث نفى الإلهية عما سوى الله عز وجل وساقه بنكرة منفية مسبوقة بمِن وقد أطبق علماء أصول الفقه على أن النكرة إذا جاءت منفية مسبوقة بمن فهي نص في استغراق جميع أفرادها ثم أثبت الألوهية لله وحده لا شريك له، وقوله عز وجل: ﴿وإن لم يَنْتَهُوا عَمَّا يقولون لَيَمَسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ ترهيب لمن قالوا إن الله ثالث ثلاثة بتأكيد أن من استمر على هذه المقالة يعرض نفسه لعقاب أليم موجع، يعذبه به جبار السموات والأرض، وكان مقتضى السياق أن يقال: ليمسنهم عذاب أليم لكن مقتضى الحال اقتضى وضع الاسم الظاهر موضع الضمير لتأكيد التنصيص على كفرهم وأن الله لم يظلمهم شيئا ولكنهم هم الظالمون المستحقون للعذاب الشديد بسبب كفرهم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أفَلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه، والله غفور رحيم﴾ ترغيب لأصحاب هذه المقالة المدعين أن الله ثالث ثلاثة بالرجوع إلى

الحق، والإيمان بالواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وتحريض لهم على التوبة إلى الله عز وجل وحض لهم على أن يستغفروا الله من هذه المقالة الفاجرة، وإشارة إلى أن من تاب إلى الله تاب الله عليه مهما كانت معصيته ومهما عظمت جريمته، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إنَّ الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ما المسيحُ ابنُ مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل وأُمُّـهُ صِدِّيقةٌ كانا يأكلان الطعام﴾ شرح لحقيقة المسيح ابن مريم عليه السلام وبيان لمنزلة أمه، ونفيٌ لألوهية المسيح وأمه بالدليل المحسوس الملموس وأن عيسى عليه السلام إنما هو رسول من رسل الله عليهم السلام، وهو بشر مثلهم، قد أجرى الله تبارك وتعالى على يده ما شاء الله أن يجريه من الآيات حيث كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ويصور من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرا بإذن الله، كما أجرى الله عز وجل على أيدي من سبقه من المرسلين ما شاء الله أن يجريه على أيديهم من الآيات كما جعل عصا موسى حية تسعى، وفلق له البحر لما ضربه بعصاه وغير ذلك من الآيات وكناقة صالح التي أخرجها له من الصخر في آيات كثيرة مشابهة لما أجراه على يد عيسى عليه السلام، ووالدة عيسى لم تكن سوى صديقة أي تسارع إلى تصديق الله فيما يجيئها من الخبر عنه بطريق كتبه ورسله كما قال عز وجل في حق مريم: ﴿وَصَدَّقَتْ بكلمات ربها وكتبه﴾ ووجه الاستدلال على بطلان ألوهية عيسى وأمه بقوله: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ أي إنهما كانا محتاجين إلى الطعام، والإله الحق هو الذي يكون غنيا عن جميع الأشياء، فكيف يعقل أن يكون إلها، كما أن قوله عز وجل: ﴿ وأمه صديقة ﴾ برهان على أنه ليس بإله، لأن من كان له أم، فقد حدث بعد أن لم يكن، وقد تضمنت سورة

الإخلاص بيان صفة الإله الحق حيث يقـول عز وجل : ﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أَحَدٌ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظـر أنى يؤفكون﴾ تعجيب من حال من لم ينـزجر عن ادعاء الألوهية لهما بعد هذا البيان الشافي الكافي .

قــال تعالى : ﴿قُلْ أَتَعْبُـدُونَ مِن دُونِ الله مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًـا ، وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . قُلْ يَـاأَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ولا تَتَّبِعُوا أَهْـوَاءَ قَوْمٍ قَـد ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّـوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَـوَاءِ السَّبِيلِ . لُعِنَ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاودُ وَعِيسَى ابْـنِ مَرْيَمَ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُـوا يَعْتَدُونَ . كانوا لا يَتنَـاهَوْنَ عَن مُنكرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَـا كَانُوا يَفْعَلُون . تَرَى كثيرا منهم يَتَـوَلَّوْنَ الذين كفروا ، لَبِئْسَ مـا قَدَّمَتْ لهم أَنفُسُهُمْ أن سَخِطَ اللهُ عليهم وفِي الْعَذَابِ هم خالدون . ولو كـانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء وَلَٰكِنَّ كثيرا منهم فاسقون﴾ .

بعد أن أقام عز وجل الدليل القاطع والبرهان الساطع على أن عيسى عليه السلام رسول من رسل الله كسائر المرسلين عليهم الصلاة والسلام وقد أقسم عز وجل على كفر من قال إن الله هو المسيح ابن مريم وعلى كفر من قال : إن الله ثالث ثـلاثة ، وبيَّن المذهب الحق في المسيح عليـه السلام وأمه الصـديقة مـريم العـذراء البتـول رضي الله عنهـا شرع هنـا في تـوبيخ وتبكيت من اتخذ معبودا غير الله الحي القيـوم وأنكر على من فعل ذلك أشـد الإنكار مشيرًا إلى أن من عبد غير الله فقد عبد من لا يملك لعـابديه ضرًّا ولا نفعا وأعرض عن عبادة النـافع الضار الحي القيوم السميع العليـم ، وأعلن عز وجل أن سبب ضلال الكثير من الناس هو الغلو في الدين ، واتباع أهواء الضالين وفي ذلك يقـول : ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَـالا يَمْلِكُ لكم ضَرًّا ولا نفعا ، والله هـو السميع العليم﴾ قـال ابن جـريـر رحمه الله : قـال أبو جعفـر : وهـذا أيضـا احتجـاج من الله تعالى ذكـره لنبيـه ﷺ على النصـارى القائلين في المسيح مـا وصف من قيلهم فيـه قبل ، يقـول تعالى ذكـره لمحمـد ﷺ : ﴿قل﴾ يامحمـد لهؤلاء الكفرة من النصارى ، الزاعمين أن المسيح ربهم ، والقائلين إن الله ثالث

ثلاثة = أتعبدون سوى الله الذي يملك ضركم ونفعكم، وهو الذي خلقكم ورزقكم، وهو يحييكم ويميتكم= شيئا لا يملك لكم ضرا ولا نفعا؟ يخبرهم تعالى ذكره أن المسيح الذي زعم من زعم من النصارى أنه إله، والذي زعم من زعم منهم أنه لله ابن، لا يملك لهم ضرا يدفعه عنهم إن أحله الله بهم، ولا نفعا يجلبه إليهم إن لم يقضه الله لهم، يقول تعالى ذكره: فكيف يكون ربا وإلها من كانت هذه صفته؟ بل الرب المعبود الذي بيده كل شيء، والقادر على كل شيء، فإياه فاعبدوا، وأخلصوا له العبادة، دون غيره من العجزة الذين لا ينفعونكم ولا يضرون، وأما قوله: ﴿والله هو السميع العليم﴾ فإنه يعني تعالى ذكره بذلك: ﴿والله هو السميع﴾ لاستغفارهم لو استغفروه من قيلهم ما أخبر عنهم أنهم يقولونه في المسيح، ولغير ذلك من منطقهم ومنطق خلقه ـــ ﴿العليم﴾ بتوبتهم لو تابوا منه، وبغير ذلك من أمورهم اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: يقول تعالى منكرًا على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ومبينًا له أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية، فقال تعالى: ﴿قل﴾ أي يامحمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم، ودخل في ذلك النصارى وغيرهم: ﴿أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرًا ولا نَفْعًا﴾ أي لا يقدر على دفع ضر عنكم ولا إيصال نفع إليكم، ﴿واللهُ هو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده، العليم بكل شيءٍ، فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد، لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئا ولا يملك ضرا ولا نفعا لغيره ولا لنفسه اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا في دينكم غَيْرَ الحق ولا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْم قَدْ ضَلُّوا مِن قبلُ وَأَضَلُّوا كثيرا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ بيان لسبب ضلال الكثير من الناس وهو الغلو في الدين واتباع أهواء الضالين، والغلو هو مجاوزة الحد والإطراء وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الكتاب لا تَغْلُوا في

دينكم﴾ في الآية الـواحدة والسبعين بعد المائة من سورة النسـاء أن المخاطب بهذا الخطاب أولا وبـالذات هم النصارى الذين غلـوا في المسيح وجعلوه إلها وابن إله وقالوا: الله ثالث ثلاثـة، وإنما جاء الخطاب عاما لليهود والنصارى لأن اليهود لعنهـم الله قالـوا على الله غير الحق فزعموا أن العـزير هـو ابن الله سبحانـه أن يكون لـه ولد، وقـد روى البخاري في صحيحه من حـديث ابن عباس سمع عمر رضي الله عنه يقول على المنبر: سمعت النبي ﷺ يقول: لا تطـروني كما أطـرت النصـارى ابن مـريم، فإنما أنـا عبده. فقـولـوا عبـد الله ورسـوله. قـال الفخـر الرازي رحمه الله في تفسير قـولـه تعالى: ﴿قل يـاأهل الكتـاب لا تَغْلُـوا في دينكم غَيْرَ الحق﴾ اعلم أنـه تعـالى لما تكلم أولاً على أباطيل اليهـود ثم تكلم ثانياً على أبـاطيل النصارى وأقام الدليل القـاهر على بطلانها وفسادهـا، فعند ذلك خاطب مجموع الفـريقين بهذا الخطاب فقال: ﴿يـاأهل الكتـاب لا تَغْلُـوا في دينكم غَيْرَ الحق﴾ والغلـو نقيض التقصير، ومعناه الخروج عن الحد، وذلك لأن الحق بين طرفي الإفراط والتفريط، ودين الله بين الغلو والتقصير، وقـوله: ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ صفة المصـدر أي لا تغلوا في دينكم غلوا غير الحق، أي غلوًّا باطلا، لأن الغلو في الدين نوعان: غلو حق وهو أن يبالغ في تقريره وتأكيده، وغلـو باطل وهو أن يتكلف في تقرير الشبه وإخفاء الـدلائل اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير قولـه عز وجل: ﴿قل ياأهل الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم غيرَ الحق﴾ الآية أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمـه فتبالغوا فيه حتى تخرجـوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية كما صنعتم في المسيح وهـو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلها من دون الله، ومـا ذاك إلا لاقتـدائكم بشيـوخكم شيـوخ الضـلال، الـذين هم سلفكم ممن ضل قديما ﴿وَأَضَلُّوا كثيرا وَضَلُّوا عن سواء السبيل﴾ أي وخرجوا عن طريق الاستقامـة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال اهـــ وفي قوله عز

وجل: ﴿لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأَضَلُّوا كثيرا وضَلُّوا عن سواء السبيل.﴾ تحذير من الغلو في الدين ومن اتباع أهواء الضالين المضلين، وقد أكد الله تبارك وتعالى ضلال شيوخ هؤلاء المنحرفين حيث وصف مذاهبهم بأنها أهواء وأنهم قد انغمسوا في الضلال قديما، وبأنهم أضلوا كثيرا من الناس وأبعدوهم عن مناهج المرسلين، وبأنهم قد انحرفوا عن طريق الرشاد ومنهج السعادة والاستقامة والسداد. والأهواء جمع هوى وقد ذكر غير واحد من أهل العلم أن الشرع لم يذكر الهوى إلا مقرونا بالذم كقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تتبع الهوى فَيُضِلَّكَ عن سبيل الله﴾ وكقوله عز وجل: ﴿إنَّ الساعة آتيةٌ أَكَادُ أُخْفيهَا لِتُجْزَى كلُّ نَفْسٍ بما تَسْعَى. فلا يَصُدَّنَّكَ عنها من لا يؤمن بها واتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ وكقوله تعالى: ﴿أرأيتَ من اتخذ إلَهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا﴾ وكقوله: ﴿أفرأيت من اتخذ إلَهه هواه وَأَضَلَّهُ الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غِشَاوَةً فمن يَهْدِيهِ من بعد الله، أفلا تَذَكَّرُونَ﴾ وكقوله عز وجل: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ وكقوله عز وجل: ﴿وأما من خاف مَقَامَ ربه ونَهَى النفس عن الهَوَى * فإنَّ الجنة هي المأوى﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذٰلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون * كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عن منكر فعلوه، لَبِئْسَ ماكانوا يَفْعَلُون * تَرَى كثيرًا منهم يَتَوَلَّوْنَ الذين كفروا، لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لهم أَنفُسُهُمْ أن سَخِطَ الله عليهم وفي العذاب هم خالدون * ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي ومَا أُنزِلَ إليه ما اتخذوهم أولياءَ ولٰكنَّ كثيرا منهم فاسقون﴾ تقريع للمنافقين الذين يوالون أعداء الله وأعداء المرسلين بزيادة تأكيد سوء سلوك الكثير من بني إسرائيل حتى استحقوا أن يلعنوا على لسان رسولين كريمين من رسل بني إسرائيل وهما داود وعيسى عليهما السلام، وبيان للسبب الذي لعنوا من أجله، وهو

أنهم عصاة معتدون لا يتناهون عن منكر وقع بينهم، ولا يغارون إذا انتهكت حرمات الله، ومن كان هذا سلوكه فبئس هذا السلوك، ومع بشاعة هذه الجرائم الصادرة عنهم المسببة للعنهم فإنهم يتولون أولياء الشيطان وعباد الأوثان من المشركين، ويعادون أولياء الرحمن وأهل القرآن، فهل يحتاج من عنده أدنى مسكة من عقل إلى دليل على اعوجاجهم وانحرافهم أوضح من هذا الدليل؟ وقد استحقوا بسلوكهم هذا غضب الله وسخطه ومقته، وجلبوا لأنفسهم الخلود في نار الجحيم، ومن كان صادقا في دعوى الإيمان بالله ورسوله وكتابه لن يتخذ المشركين الوثنيين الذين لا ينتمون لكتاب ولا يؤمنون برسول أولياء فكيف يليق بعاقل أن يتولى من يوالي الوثنيين ويعادي الموحدين؟ وقد لفت الله تبارك وتعالى انتباه عباده في هذا المقام الكريم من كتابه العظيم إلى أمور منها: أن الإنسان بعمله لا بنسبه حيث إن بني إسرائيل وهم من سلالة الأنبياء العظام إبراهيم وإسحاق ويعقوب قد كفر منهم من كفر، وقد أكد الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة في غير موضع من كتابه الكريم حيث يقول في حق خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون﴾ ومنها: أنه إذا فشت المعاصي في قوم ولم يتناهوا عن المنكر حلت عليهم لعنة الله، ومنها: سوء سلوك الكثير من بني إسرائيل في ماضيهم وحاضرهم ففي الماضي لعنهم داود ثم عيسى عليهما السلام، وفي الحاضر يبصر من له بصر سوء سلوكهم حيث يتولون الوثنيين أولياء الشيطان ويعادون المسلمين عباد الرحمن حيث يقول عز وجل في هذا المقام: ﴿ترى كثيرا منهم يَتَوَلَّوْنَ الذين كفروا، لبئس ما قَدَّمَتْ لهم أنفُسُهم أن سَخِطَ اللهُ عليهم وفي العذاب هم خالدون. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أُنزِلَ إليه

ما اتَّخَذُوهُمْ أوليـاءَ ولكِنَّ كثيرا منهم فاسِقُـونَ . ﴾ نسأل الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفـاته العلى أن يسلك بنا صراطـه المستقيم، وأن يختم لنـا بخاتمة السعـادة إنه جـواد كـريم رءوف رحيم . وبهذا تم تفسير الجزء السـادس من القرآن الكريم . والحمد لله رب العالمين .

قال تعالى: ﴿لَتجدنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارى، ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا ما أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فاكْتُبْنَا مَعَ الشاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ ونَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ. فَأَثَابَهُم اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خالِدِينَ فِيهَا، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

بعد أن وبخ الله تبارك وتعالى من اتخذ معبودا غير الله الحي القيوم وأنكر على من فعل ذلك أشد الإنكار وأشار إلى أن من عبد غير الله فقد عبد من لا يملك لعابديه ضرا ولا نفعا وأعرض عن عبادة النافع الضار الحي القيوم السميع العليم وأعلن عز وجل أن سبب ضلال الكثير من الناس هو الغلو في الدين واتباع أهواء الضالين شرع هنا في تأكيد ما انطوت عليه نفوس اليهود والمشركين والنصارى نحو المسلمين وأن أشد الناس على الإطلاق عداوة للمؤمنين هم اليهود وأن الوثنيين الذين لم يتبعوا كتابا ولم ينقادوا لرسول من رسل الله صلى الله عليهم وسلم يشاركون اليهود في نفس هذه الدرجة من العداوة للذين آمنوا، وأن النصارى هم أقرب الطوائف الثلاث ليناً وأملاً في قبول الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ وأقل تعنتاً، والمقصود من ذلك رسم الطريق للدعاة إلى الله عز وجل بتعريفهم بنفوس المدعوين حتى يكونوا على بصيرة فيما يستقبلونه في دعوة هؤلاء الطوائف، ولاشك أن معرفة الداعية بنفوس المدعوين له أثر كبير في أسباب نجاح الدعاة في دعوتهم إلى الله عز وجل، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿لَتجدنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ

آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ أي إن قصدت أن تعرف مَن أشد الناس عداوة للمؤمنين، وتتبعت أحوال الطوائف طُرًّا، وأحطت بما لديهم خبراً، واجتهدت في تعرف أحوالهم الظاهرة والباطنة، وسعيت في تطلب ما عندهم من الأمور البارزة والكامنة لتجدن أشد الناس عدواة للمؤمنين اليهود والذين أشركوا ولتجدن النصارى أقرب من اليهود والمشركين قبولاً للحق، ولاشك أن الذين استجابوا للإسلام من النصارى كانوا أكثر من اليهود والمشركين بكثير. وليس هذا مدحا للذين قالوا إنا نصارى من حيث كونهم نصارى وهم يقولون: إن الله هو المسيح ابن مريم وماداموا يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، والمعلوم أن المدح في الجملة لا يقتضي كون كل واحد من أفراد هذه الجملة ممدوحا، بل إنما ينصرف المدح لمن يستحقه منهم، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك حيث يقول في بيان سبب كون النصارى أقرب مودة للذين آمنوا: ﴿ذٰلك بأنَّ منهم قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانا وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أُنْزِلَ إلى الرسول ترى أعينهم تَفِيضُ من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين. ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مع القوم الصالحين﴾ وقوله عز وجل: ﴿ذلك بأنَّ منهم قِسِّيسِينَ ورهبانا﴾ ليس ثناء على كل قسيس أو راهب، وليس مدحا لهذين الوصفين، إنما الثناء على من كان قسيسا أو راهبا ثم عرف أن دين محمد ﷺ هو الدين الحق وأنه دين الإسلام وأن من يبتغي غير الإسلام دينا فلن يقبل منه فسارع إلى الدخول في الإسلام واستمسك بشرائعه، ولذلك لا يوصف أحد من هؤلاء بعد الدخول في الإسلام بأنه قسيس أو راهب، كما لا يوصف اليهودي أو النصراني إذا دخل في الإسلام بأنه يهودي أو نصراني، والقسيس والقُسُّ والقَسُّ والقِسُّ هو رئيس النصارى في العلم والدين، وأصله في اللغة تتبع

الشيء وطلبه، قال رؤبة بن العجاج يصف نساء عفيفات لا يتتبعن النمائم:

يصبحن عن قس الأذى غوافلا

ويقال: تقسست أصواتهم بالليل أي تسمعتها. والرهبان جمع راهب وهو من كان من النصارى يتعبد في الصوامع ولا يخالط الناس من الرهبانية والترهب وهو التعبد في الصوامع مع اعتزال النساء، وقد ابتدع النصارى الترهب، وشددوا على أنفسهم فيه كما قال عز وجل: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿إلا ابتغاء رضوان الله﴾ استثناء منقطع أي لم نفرضها عليهم لكنهم ابتدعوها من قبل أنفسهم اجتهادا منهم في طلب مرضاة الله، فصاروا كمن أجهد نفسه في السير وانبت، فلا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى، ولذلك كان رسول الله ﷺ ينهى عن التشدد والتنطع في الدين، ويأمر بالرفق وبالتيسير. وقد ثبت أن النجاشي لما سمع القرآن من جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بكى وفاضت عينه من الدمع حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم فقد قال ابن إسحاق في السيرة النبوية: حدثني محمد بن مسلم الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة بنت أبي أمية ابن المغيرة زوج رسول الله ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه. ثم سلاه

أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم، قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوافي دينك، وجاءوا بدين، ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو ابن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي، قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم، قالت: فغضب النجاشي ثم قال: لا ها الله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني. قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنا في ذلك ما هو كائن، فلما جاءوا — وقد دعا

النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ــ سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الـذي قد فـارقتم فيه قـومكم ولم تدخلـوا في ديني ولا في دين أحد من هـذه الملل؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقـه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصـدق الحديث، وأداء الأمانـة وصلة الـرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والـدماء، ونهانـا عن الفواحش وقـول الزور وأكل مـال اليتيم وقذف المحصنـات، وأمرنـا أن نعبد الله وحـده لا نشرك به شيئـا، وأمرنـا بالصـلاة والزكاة والصيـام ــ قالـت: فعدد عليه أمور الإسـلام ــ فصدقنـاه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنـا الله وحده فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينـا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينـا قومنا فعذبونـا، وفتنونا عن دينـا، ليردونـا إلى عبـادة الأوثـان من عبـادة الله تعـالى، وأن نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جـوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك، قالت: فقـال له النجاشي: هل معك مما جـاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال لـه جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقـرأه عليَّ، قالت: فقرأ عليه صـدراً من: ﴿كهيعص﴾ قالت: فبكى والله النجـاشي حتى اخضلت لحيتـه، وبكت أسـاقفته حتى أخضلـوا مصـاحفهم، حين سمعـوا ما تـلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جـاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحـدة، انطلقـا فـلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكـادون. إلخ الحديث.

وبكاء النجاشي وأساقفتـه لما سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﷺ ممـا تُفسَّر به هذه

الآيات وإن كانت هذه الآيات مدنية وقصة النجاشي وأساقفته كانت قبل الهجرة إذ لا مانع يمنع من صدقها عليهم ووصفها لحالهم وحال أمثالهم ممن أشار الله عز وجل إليهم في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿إِنَّ الذين أُوتُوا العلمَ من قبله إذا يُتْلَى عليهم يَخِرُّون للأذقان سُجَّدًا. ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا. ويخرون للأذقان يبكُونَ ويزيدُهُم خشوعا﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ أي وأي شيء يحول بيننا وبين الإقرار بوحدانية الله وبما أنزل على رسوله محمد ﷺ من القرآن ونرجو أن يحشرنا ربنا يوم القيامة مع الصالحين ويلحق منازلنا بمنازلهم في الفردوس الأعلى، ومعنى: ﴿فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولَئك أصحاب الجحيم﴾ أي فجزاهم الله بإحسانهم في أقوالهم وأفعالهم جنات تجري من تحتها الأنهار لا يخرجون منها ولا يتحولون عنها لأن هذا هو جزاء المحسنين. أما من كفروا بالله وكذبوا بآياته فهم أصحاب النار المخلدون فيها الملازمون لها، جزاء كفرهم وتكذيبهم، وما ربك بظلام للعبيد.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. وَكُلُوا مما رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا، واتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ. لا يُؤَاخِذُكُم اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُم وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّام، ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ، واحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

بعد أن ذكر عز وجل أن من النصارى قسيسين ورهبانا استجابوا لله ولرسوله محمد ﷺ وأنهم بكوا وفاضت أعينهم من الدمع عند سماع القرآن مما عرفوا من الحق وأنهم ضرعوا إلى الله عز وجل أن يكتبهم في الصالحين وأن يحشرهم في زمرة أمة محمد ﷺ وأن الله تبارك وتعالى استجاب دعاءهم، ووعدهم جنات النعيم، وتوعد الكافرين بملازمة عذاب الجحيم، نبّه المؤمنين في هذا المقام وحذرهم من التنطع في الدين والتشبه بالقسيسين والرهبان الذين حرموا على أنفسهم الطيبات التي أحلها الله عز وجل لهم من المطاعم والمشارب وسائر الملذات المباحة، فانحرفوا عن فطرة الله التي فطر عليها الناس، وانقطعوا وعجزوا، حيث يقول عز وجل هنا: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ياأيها الذين صدقوا الله ورسوله، وأقروا بما جاءهم به نبيهم ﷺ أنه حق من عند الله ﴿لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُم﴾ يعني بـ «الطيبات» اللذيذات التي تشتهيها النفوس، وتميل إليها القلوب، فتمنعوها إياها، كالذي فعله القسيسون والرهبان، فحرموا على أنفسهم النساء، والمطاعم الطيبة، والمشارب اللذيذة، وحبس في الصوامع بعضهم أنفسَهم، وساح في

الأرض بعضهم، يقول تعالى ذكره: فـلا تفعلوا أيها المؤمنون كما فعل أولئك، ولا تعتدوا حـد الله الذي حد لكم فيما أحل لكم وفيما حـرم عليكم فتجاوزوا حده الذي حده، فتخالفوا بـذلك طاعته، فإن الله لا يحب من اعتدى حده الذي حـده لخلقه، فيما أحل لهم وحرم عليهم اهـ وقـد أراد بعض أصحاب رسول الله ﷺ أن يعتزلوا النسـاء وأكل اللحم وأن يتركوا الطيب فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك فقد روى البخاري في صحيحه من طريق حميد بن أبي حميد الطويـل أنه سمع أنس بن مـالك رضي الله عنه يقـول: جاء ثلاثـة رهط إلى بيـوت أزواج النبي ﷺ يسألـون عـن عبـادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقـالوا: وأين نحن من النبي ﷺ، قد غفر له مـا تقدم من ذنبه وما تأخر، فقـال أحدهم: أمـا أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقـال آخر: أنـا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقـال: أنتم الـذين قلتـم كـذا وكـذا؟ أمـا والله إني لأخشـاكم لله وأتقاكم لـه، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتـزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني. وقد أخـرجه مسلم من طريق ثـابت عن أنس أن نفراً من أصحـاب النبي ﷺ سألـوا أزواج النبي ﷺ عن عملـه في السر فقـال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقـال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فـراش، فحمد الله وأثنى عليـه، فقال: مـا بال أقـوام قالـوا كذا وكـذا؟ لكني أصلي وأنام، وأصـوم وأفطـر، وأتزوج النسـاء، فمن رغب عن سنتي فليس مني. وقـد قـال ابن كثير رحمه الله في تفسير هـذه الآيـة: وفي الصحيحين عن عائشـة رضي الله عنها أن نـاسا من أصحـاب رسول الله ﷺ سألـوا أزواج النبي ﷺ عن عملـه في السر، فقـال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهـم: لا أتزوج النساء، وقـال بعضهم: لا أنام على فـراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقـال: ما بال أقـوام يقول أحـدهم كذا وكـذا؟ لكني أصوم

وأفطـر، وأنام وأقـوم، وآكل اللحم، وأتزوج النسـاء، فمن رغب عن سنتي فليس مني، ثم سـاق ابن كثير رحمه الله بعض الآثـار المرسلـة ثم قـال: ولها شاهـد في الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين كما تقـدم ذلك ولله الحمد والمنة اهـ والظاهر أن نسبة حـديث الصحيحين هنا إلى عائشة رضي الله عنها وَهْمٌ لأنـه من روايـة أنس رضي الله عنـه فيهما لا من روايـة عـائشـة رضي الله عنها، والعلم عند الله عز وجل، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تعتدوا إنَّ الله لا يحب المعتدين﴾ تنفير من التشبه بالذين كفروا من بني إسرائيل الذين لعنوا على لسـان داود وعيسى ابن مريم الـذين وصف الله عـز وجل سوء أفعـالهم بقـوله تبـارك وتعـالى: ﴿لُعِنَ الذين كفـروا من بني إسرائيل على لسـان داود وعيسى ابن مـريم ذٰلك بما عَصَـوْا وكانـوا يعتـدون﴾ وبيان أن من حـرم على نفسه ما أحلـه الله له، أو حلل ما حرم الله عليـه معتد أثيم مستحق لغضب الله ومقته وسخطه. وقوله تبارك وتعـالى: ﴿وَكُلُوا مما رزقكم الله حلالا طيبا، واتقوا الله الـذي أنتم به مؤمنون﴾ زيـادة تأكيد لتجنب الرهبـانية، وتحريض على التمتع بما ساقه الله عـز وجل للمسلم من الرزق الحلال الطيب، وتحذير من تنـاول الحرام الخبيث، وتذييل الآيـة بقولـه عز وجل: ﴿واتقـوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ تأكيد للوقوف عند حدود الله وتحذير من الاعتداء عليها فإن الإيمان بالله عز وجل يوجب المبالغة في التقوى والانتهاء عما نهى الله عز وجل عنه. هذا ولما كـان المسلم قد يسبق منه أن يحرم على نفسه شيئـا مما أحله الله عز وجل له لعارض من العوارض التي قـد تعتريه فيحلف أنه لن يتناول هذا الشيء الـذي حـرمـه على نفسه ولا يقصـد من ذلك تعنتـا وتنطعـا وتشـددا واعتداءعلى حدود الله كما فعل الذين كفروا من بني إسرائيل ولعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم، أعقب الله تبـارك وتعالى نهيـه عن تحريم ما أحل الله ببيان أنه عز وجل قد فرض للمسلمين تحلة أيمانهم ورفع عنهم الحرج والإصر

والأغلال التي كانت على الأمم السابقة، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿كل الطعام كان حِلا لبني إسرائيل إلا ما حرَّمَ إسرائيلُ على نفسه من قبل أن تُنَزَّلَ التوراةُ﴾ أنه في الشرائع السماوية السابقة كان إذا حلف الإنسان ألا يأكل طعاما معيناً صار هذا الطعام محرما عليه طول عمره ولا كفارة له، وقد تفضل الله تبارك وتعالى فخفف على أمة محمد ﷺ حيث شرع لهم الكفارة وفرض لهم تحلة أيمانهم كما قال عز وجل: ﴿ياأيها النبي لم تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ الله لك تبتغي مَرْضَاتَ أزواجك، والله غفور رحيم * قد فَرَضَ الله لكم تَحِلَّةَ أيمانكم، واللهُ مولاكم وهو العليم الحكيم﴾ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وما كان مباحا قبل اليمين إذا حلف الرجل عليه لم يصر حراما، بل له أن يفعله ويكفر عن يمينه، وما لم يكن واجبا فعله إذا حلف عليه لم يصر واجبا عليه، بل له أن يكفر يمينه ولا يفعله، ولو غلظ في اليمين بأي شيء غلظها، فأيمان الحالفين لا تغير شرائع الدين وليس لأحد أن يحرم بيمينه ما أحله الله، ولا يوجب بيمينه مالم يوجبه الله، هذا هو شرع محمد ﷺ، وأما شرع من قبله فكان في شرع بني إسرائيل إذا حرم الرجل شيئا حرم عليه، وإذا حلف ليفعلن شيئا وجب عليه، ولم يكن في شرعهم كفارة، قال تعالى: ﴿كلُّ الطعام كان حِلا لبني إسرائيلَ إلا ما حرَّمَ إسرائيلُ على نفسه من قَبْلِ أن تُنَزَّلَ التوراةُ﴾ فإسرائيل حرم على نفسه شيئا فحرم عليه، وقال الله تعالى لنبينا: ﴿ياأيها النبي لم تُحَرِّمُ ما أحل الله لك تبتغي مَرْضَاتَ أزواجك والله غفور رحيم * قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ وهذا الفرض هو المذكور في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحَرِّمُوا طيباتِ ما أحل الله لكم ولا تعتدوا، إن الله لا يُحِبُّ المعتدين * وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون * لا يؤاخذُكُمُ الله بِاللَّغْوِ في أيمانكم ولَكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمانَ فكفارته إطعامُ عَشَرَةِ مساكينَ من أوسط ما تطعمون

أهليكم أو كِسْوَتُهُم أو تحريـر رقبة فمن لم يجد فَصِيَامُ ثلاثةِ أيـام، ذُلك كفارةُ أيمانكم إذا حَلَفْتُمْ، واحفظـوا أيمانكم، كـذٰلـك يبين اللهُ لكم آيـاتـه لعلكم تشكـرون﴾ ولهذا لما لم يكن في شرع من قبلنا كفـارة بل كانت اليمين تـوجب عليهم فعل المحلوف عليـه أمر الله أيوب أن يأخذ بيـده ضغثًا فيضرب به ولا يحنث، لأنه لم يكن في شرعه كفارة يمين، ولـو كان في شرعه كفارة يمين كان ذلك أيسر عليه من ضرب امرأته ولو بضغث. اهــ وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولٰكن يؤاخذكم بما كسبت قلـوبكم، والله غفـور حليم﴾ أن الأيمان بـالنسبـة للمحلـوف بـه تنقسم إلى قسمين: قسم لا يجوز بحال من الأحـوال فهو محظور أبـدا وهو الحلف بغير الله وذكرت أدلـة تحريمه وأنه شرك وكفـر، أما القسم الثـاني من أقسام اليمين بالنسبة للمحلـوف به فهو الحلف بالله عـز وجل بذاته المقدسـة أو باسم من أسمائه الحسنى أو بصفـة من صفاتـه العلى، وهو ينقسم إلى ثـلاثة أقسـام: الأول: يمين اللغـو والثـاني اليمين المنعقـدة والثـالث: اليمين الغمـوس، وعرفت هنـاك كل قسم من هذه الأقسام وبينت حكمـه، وذكرت أن اليمين الغموس قد تسمى اليمين الصبر، واليمين الفـاجرة واليمين الكاذبة واليمين الزور، وقـد أوضح الله تبـارك وتعالى هنا كفـارة اليمين المنعقدة حيـث قال: ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحريـر رقبة فمن لم يجد فصيـام ثلاثـة أيام، ذُلك كفـارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ فمن حلف على يمين فـرأى أن يـرجع عنهـا وأن يكفـر عن يمينـه فليفعل، وكفارتـه أن يطعم عشرة مساكين من أوسط طعام أهلـه أو يكسوهم أو يعتق رقبة فأي واحدة من هذه الثلاث فعل أجزأه ذلك وصار مكفرا عن يمينه فإن عجز الذي لزمته الكفارة عن ذلك وجب عليه أن يصوم ثلاثة أيام، وقوله عز وجل: ﴿واحفظـوا أيمانكم﴾ أي لا تضيعوا أيمانكم، بل صـونـوها وأدوا مـا

يجب عليكم فيها ولا تتهاونوا بها، وقوله عز وجل: ﴿كذٰلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾ أي مثل ذلك البيان البديع المحكم يبين الله لكم أعلام شريعته وأحكام دينه لتشكروا الله عز وجل على ما تفضل به عليكم حيث منحكم دينا قويما غير ذي عوج، وجعلكم على ملة سمحة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِن عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُنتَهُونَ. وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا، فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ. لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.﴾

بعد أن نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين عن تحريم ما أحل الله، وحذرهم من التنطع في الدين، ونهى عن مشابهة الرهبان والقسيسين الذين حرموا على أنفسهم طيبات ما أحل الله لهم، وأشعرهم أن تحريم الطيبات اعتداء على حق الله تعالى وحده الذي له أن يحلل ويحرم، وأشار إلى أنه عز وجل قد وسع على أمة محمد ﷺ إذ فرض لمن حرم على نفسه شيئا من الطيبات وحلف على ألا يقربها أن يكفر عن يمينه بخلاف ما كان على الأمم السابقة الذين كانوا إذا حرم أحدهم شيئا وحلف على ذلك صار هذا الشيء محرماً عليه طول عمره ولم يشرع لهم الكفارة ليعرف المؤمنون بمحمد ﷺ فضل الله عليهم ويشكروه على ما يسره لهم من الشريعة السمحة الكاملة الصالحة لأهل كل عصر ومصر إلى يوم القيامة، شرع هنا ينهى المؤمنين عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ويوضح لهم الآثار السيئة المترتبة على اقتراف هذه المحرمات حيث يقول عز وجل: ﴿ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصابُ والأزلام رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ وقد ذكرت في تفسير قوله عز

وجل: ﴿يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإِثْمُهُمَا أكبر من نفعهما﴾ أنه لما كان العرب في جاهليتهم قد استغرقوا في شرب الخمر وغلبتهم حتى صار بعضهم لا يكاد يصحو منها وكان تحريمها دفعة واحدة قد يؤدي إلى نفرتهم عن الإسلام كما ذكر عن الأعشى أنه لما توجه إلى المدينة ليسلم وعلم بذلك مشركو قريش خافوا أن يكون لشعره أثر في نشر دعوة الإسلام فلقيه بعضهم في الطريق فقالوا له: أين تذهب؟ فأخبرهم أنه يريد محمدا ﷺ، فقالوا: لا تصل إليه، فإنه يأمرك بالصلاة، فقال: إن خدمة الرب واجبة، فقالوا: إنه يأمرك بإعطاء المال للفقراء، فقال: إن اصطناع المعروف واجب، فقالوا له: إنه ينهى عن الزنى، فقال: هو فحش وقبيح في العقل، وقد صرت شيخا فلا أحتاج إليه، فقيل له: إنه ينهى عن شرب الخمر، فقال: أما هذا فإني لا أصبر عليه، فرجع وقال: أشرب الخمر سنة ثم أرجع إليه، فلما رجع من الطريق سقط عن البعير فانكسرت عنقه، فمات فلم يصل إلى منزله، فكان من حكمة العليم الخبير التدرج في تشريع تحريم الخمر على أربعة أطوار، حيث أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ قبل الهجرة وهو يعدد آلاءه ونعمه على خلقه، ويذكرهم بآياته وآثار قدرته، فقال في سورة النحل: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حَسَنًا﴾ ففي هذا إيماءة إلى التنديد باتخاذ المسكر من ثمر النخيل والعنب بجعله خمرا، حيث عطف عليه الرزق الحسن كأنه قال لهم: تجعلونه رزقا رديئا ورزقا حسنا، ولا شك أن هذا الأسلوب في لفت انتباه النفس إلى التوقف عن شرب الخمر في الدرجة العليا من أساليب التربية والتعليم والتحذير، قال في القاموس المحيط: والسكر محركة الخمر اهـ أما الطور الثاني فكان في هذا المقام الكريم من سورة البقرة حيث يقول: ﴿يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾

وبعد أن بيَّنت معنى الخمر والميسر ذكرت أن الطـور الثالث من أطوار تشريع تحريم الخمر هـو النهي عن شرب الخمر عند قـربان الصلاة حيث يقـول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنـوا لا تَقْرَبُوا الصلاة وأنتم سُكَـارَى حتى تعلموا ما تقولون﴾ ثم كان الطور الـرابع والأخير هو الجزم والتصريح بتحريمها مطلقا حيث يقـول عز وجـل: ﴿ياأيها الـذين آمنـوا إنما الخمر والميسر والأنصـاب والأزلام رِجْسٌ من عمل الشيطـان فـاجتنبـوه لعلكم تفلحـون * إنما يـريـد الشيطانُ أن يُـوقِعَ بينكم العداوةَ والبغضـاء في الخمر والميسر ويَصُـدَّكم عن ذكر الله وعن الصـلاة فهل أنتم مُنتَهُونَ﴾ فقد روى أحمد وأبـو داود والترمذي والنسائي من طريق أبي ميسرة عمـرو بن شرحبيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال عمر: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شفاءً فنزلت الآيـة التي في البقرة ﴿يسئلونـك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾ الآية، قـال: فدعي عمـر فقرئت عليـه، قال: اللهم بيِّن لنـا في الخمر بيـاناً شفاءً، فنـزلت الآية التي في النسـاء: ﴿ياأيها الذين آمنـوا لا تَقْرَبُـوا الصلاة وأنتم سُكَارَى﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصلاة ينادي: ألا لا يَقْـرَبَّن الصلاة سكـران، فدعي عمـر فقرئت عليـه فقال: اللهم بيِّن لنـا في الخمـر بيانـاً شفـاءً، فنزلت هـذه الآيـة: ﴿فهل أنتم مُنتَهُـونَ﴾ قال عمـر: انتهينـا، وقد صحح هـذا الحديث علي بن المديني والترمـذي. وقد قـرن الله تبـارك وتعالى في هـذا المقـام من سـورة المائدة بين الخمر والميسر والأنصـاب والأزلام وحكم عليها جميعا بأنها رجس من عمل الشيطان للتنفير الشديد من الخمر والميسر وتفظيع تعاطيهما حيث ربطهما مع عبادة الأوثان التي هي أكبر الكبائر وأفحش الجرائم بربـاط واحد وقد أكد الله تبـارك وتعالى تحريم الخمر والميسر في هذه الآية بألوان من فنـون التأكيد حيث صدرت بنداء أهل الإيمان المقتضي لـلانزجـار عنهما وقرنـا بـالأنصاب والأزلام وسماهما رجسـا من عمل

الشيطان الذي لا يعمل إلا الشر ولا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر وأمر باجتنابهما المقتضي للابتعاد عنهما، وأشار إلى أن تعاطيهما يورث الخيبة والخسران وأن الابتعاد عنهما من أعظم أسباب الفلاح، وقد حصر الخمر والميسر في النجاسة وفي كونهما من عمل الشيطان مؤكدا ذلك بإنما مما يجعلهما شرا بحتا لا خير فيهما بوجه من الوجوه، ثم أضاف إلى ذلك بيان بعض مفاسدهما الدينية والدنيوية حيث قال: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاءَ في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ فقد أكد العليم الحكيم الخبير أن الخمر والميسر يورث كل واحد منهما لمن يتعاطونه العداوة والبغضاء ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة. وهذا أمر مشاهد ملموس محسوس، فإن الخمر أم الخبائث تجعل صاحبها يلعن نفسه ويلعن أباه وأمه وقد يُلقِي بأحب الناس إليه في التنور، وكم حدث بسببها من شجار، وكم أوصلت من يتعاطاها إلى الخزي والحسرة والندامة والعار والشنار. وأما الميسر وهو القمار فكم خرب من دار، وكم أجلس صاحبه محزونا مسلوب الأهل والمال ممتلئا بالحقد والبغض لرفقاء السوء من مقامريه الأشرار، فلله الحمد والشكر على نعمة الإسلام الذي أرشد الله به العباد إلى سبل السلام. وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ تأكيد للنهي عن قربان الخمر والميسر، وإيراده بصيغة الاستفهام مرتباً على ما تقدم من أصناف الصوارف عنهما بالفاء إيذانا بأن الأمر في الزجر والتحذير وكشف ما فيهما من المفاسد والشرور والقبائح قد بلغ الغاية القصوى وأن الأعذار قد انقطعت بالكلية وأصبح من له أدنى مسكة من عقل يعرف أنهما شر بحت ونجس صرف، وتخصيص الصلاة بعطفها على ذكر الله مع أنها من جملة أفراد الذكر للتنبيه على عظيم فضلها وهي ولا شك عماد الدين. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا،

فإن تـوليتم فاعلمـوا أنما على رسولنا البـلاغ المبين﴾تأكيد وحـض على امتثال أوامر الله عز وجل وأوامـر رسوله ﷺ والانقياد لجميع تعـاليم الإسلام وتحذير شديد من مخالفة تعاليم الله وتعاليم رسـوله ﷺ فإن تعاليم الله وتعاليم رسوله ﷺ لا تأمـر إلا بخير ولا تنهى إلا عن شر، وتهديـد عظيم لمن أعـرض عن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بأنه يعرض نفسه لعقاب الله لأن الحجة قد قامت عليه، وانتهـى عذره، وانقطعت علتـه، لأن رسول الله ﷺ قـد بلغ الرسـالة وأدى الأمانة وأقام الحجة وليس على الـرسول إلا البلاغ المبين، وليست قلوب العباد بيده ولا سيطرة له عليها. وقد صح الخبر أن ناسا لما سمعوا ما ذكر الله عز وجل هنـا عن الخمر والميسر خافوا على من كـان يشرب الخمر ويأكل من الميسر ومات أو استشهـد قبل التحريم فـأنزل الله: ﴿ليس على الذيـن آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا مـا اتَّقَوْا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتَّقَوْا وآمنوا ثم اتقَوْا وأَحْسَنُوا، والله يحب المحسنين﴾ لتأكيد رفع الحرج عنهم لأنهم لم يطعموا شيئا من ذلك بعد التحريم، وقد كانوا وقافين عند حدود الله مؤتمريـن بأمر الله وأمـر رسوله ﷺ أي لا جنـاح ولا حرج ولا إثم على مـؤمن يعمل الصـالحات إذا طعم شيئاً مـن الخمر أو الميسر أو غيرهما قبل أن ينـزل تحريمه مـادام لم يطعمه بعد التحـريم وكان مجتنبا للمحظـورات مستمرا على الإيمان وعمل الصالحات ثم خاف الله عز وجـل في اجتنابه محارمه فثبت على اتقـاء الله في ذلك والإيمان بـه ولم يغير ولم يبـدل، ثم اتقى وأحسن، أي ثم خاف الله وراقبه كأنه يراه فكـان بذلك محسنا، إذ الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. والله يحب المحسنين.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ، فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ. يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ، وَمَن قَتَلَهُ مِنكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ، عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ، وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ، وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ.﴾

قد نبه الله تبارك وتعالى المؤمنين في أول آية من هذه السورة المباركة إلى تحريم الصيد على المحرمين بحج أو عمرة، حيث قال عز وجل: ﴿غير محلي الصيد وأنتم حُرُمٌ﴾، وأذن لهم في الآية الثانية منها أن يصيدوا بعد التحلل من الإحرام حيث يقول عز وجل: ﴿وإذا حَلَلْتُمْ فاصطادوا﴾ وبعد أن حذر عز وجل أشد التحذير من الخمر والميسر، وبيَّن أضرارهما الدينية والدنيوية، وأعلن أنه لا جناح على من قارفهما قبل نزول تحريمهما لأنه لم يجترئ على حرمات الله، وأثنى على المؤمنين الوقافين عند حدود الله عز وجل، الذين يراقبون الله تبارك وتعالى في أفعالهم، ووصفهم بالإحسان، وبشرهم بأنه عز وجل يحبهم، شرع هنا في تنبيه المؤمنين وتحذيرهم من قتل الصيد وهم محرمون بحج أو عمرة أو حالة كونهم داخل حدود الحرم وأعلمهم أنه سيختبرهم بشيء من الصيد وهم محرمون يقترب منهم حتى يستطيع المحرم أن يأخذه بيده أو يصيبه برمحه فمن خاف الله عز وجل لن يتعرض لهذا الصيد بأذى مادام محرما، وهذا الامتحان والاختبار شبيه بما اختبر الله عز جل به بني إسرائيل الذي قصه الله عز وجل عن أصحاب القرية التي كانت حاضرة البحر إذ ابتلاهم وامتحنهم، فكانت الحيتان ترفع رءوسها فوق الماء مقبلة على الساحل يوم السبت ويسهل على من يريد صيدها أن يصيدها ـ والصيد

محرم عليهم يوم السبت ـ فإذا ذهب يوم السبت اختفت من الماء القريب منهم فلا يرونها إلى السبت الآخر، فاحتالوا على صيدها بوسائل، كأن يحفروا حياضا كبيرة تتصل بالبحر فتدخلها الحيتان يوم السبت ولا تستطيع الرجوع إلى البحر، فيصيدونها يوم الأحد والأيام الأخرى غير السبت ثم تجاهروا بالمعصية وصاروا يصيدون يوم السبت، فجعلهم الله قردة خاسئين، أما أصحاب رسول الله ﷺ فقد نجحوا في الامتحان وفازوا فيه حيث خرجوا عام الحديبية يريدون البيت الحرام وهم محرمون فجعل الصيد يسقط عليهم تناله أيديهم ورماحهم، فخافوا الله عز جل وعصمهم تبارك وتعالى من تناوله، وحماهم من معصيته ومخالفة أمره، ولاشك أن هذه التربية العملية والنجاح فيها أبرز برهان على خوف أصحاب رسول الله ﷺ من ربهم، وأنهم أهل لأن يشرفهم الله بصحبة أفضل خلقه محمد ﷺ وأن يكونوا أفضل أتباع الأنبياء على الإطلاق، كما أنه لا شك أن من احترس من اقتراف المحرم تحريما مؤقتا كان أبعد خلق الله عن اقتراف المحرمات على التأبيد ولاسيما الخمر والميسر، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب، فمن اعتدى بعد ذلك فَلَهُ عَذَابٌ أليم﴾ أي يا معشر من استجاب لله ولرسوله محمد ﷺ ليختبرنكم الله تبارك وتعالى بشيء من الصيد أي ببعض الصيد المحرم عليكم اصطياده وأنتم محرمون يسقط عليكم ويغشاكم هذا الصيد البري في رحالكم حيث تصيرون متمكنين من صيده بواسطة أيديكم أو بواسطة رماحكم ليتميز المطيع من العاصي وليبرز في عالم الوجود ما كان معلوما لله عز وجل قبل الخلق والتكوين من طاعة المطيع ومعصية العاصي ويظهر من يخاف الله عز وجل ويراقبه في الغيب والشهادة ويتسم بالإحسان الذي يحبه الله عز وجل، وأما من اعتدى على حرمات الله بعد هذا الإعلام والبيان والإنذار فإنه

يستحق العقاب الموجع المؤلم. ثم شرع تبارك وتعالى في تأكيد تحريم قتل الصيد على من كان محرما، وبيان الجزاء المرتب على المحرم إذا قتل الصيد، والتحذير الشديد من معاودة ارتكاب هذا المحظور حيث يقول عز وجل: ﴿يـاأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حُرُمٌ، ومن قتله منكم مُتَعَمِّدًا فجزاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ من النَّعَم يحكم به ذَوَا عَدْلٍ منكم هَدْيًا بَالِغَ الكعبة أو كفارةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أو عَدْلُ ذلك صياما لِيَذُوقَ وَبَالَ أمره، عفا اللهُ عما سَلَفَ، وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ، واللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ ومعنى: ﴿لا تقتلوا الصيد وأنتم حُرُمٌ﴾ أي لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحج أو عمرة وكذلك وأنتم داخلون في الحرم. وقوله عز وجل: ﴿ومن قتله منكم متعمدا فجزاءٌ مثلُ ما قَتَلَ من النَّعَم﴾ الآية. أي ومن قتل منكم وهو محرم أو في الحرم صيدا وقد قتله متعمدا قتله قاصدا إزهاق روحه، فعليه جزاءٌ فإذا كان لهذا الصيد نظيرٌ من بهيمة الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم ألزم بتقديم قربان مثله من بهيمة الأنعام يذبح في مكة ويفرق لحمه على مساكين الحرم، وقد قضى أصحاب رسول الله ﷺ وحكموا في النعامة ببدنة أي ناقة، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغزال بعنز، وفي الضبع بكبش وقد روى أبو داود وابن ماجه والدارمي من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سألت رسول الله ﷺ عن الضبع قال: هو صيد ويجعل فيه كبش إذا صاده المحرم اهـ أما إذا كان الصيد الذي قتله المحرم لا مثيل له من بهيمة الأنعام فعلى من أصابه أن يتصدق بقيمته وسواء في ذلك من قتل الصيد وهو محرم عمدا أو ناسيا لإحرامه، وقد فسروا قوله تعالى: ﴿فمن قتله منكم متعمدا﴾ أي قاصدا قتله يعني ولو كان ناسيا لإحرامه. قال الإمام محيي السنة البغوي في تفسيره المسمى «معالم التنزيل» في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿يحكم به ذَوَا عدل منكم﴾ أي يحكم بالجزاء رجلان عدلان، وينبغي أن يكونا فقيهين ينظران إلى

أشبـه الأشيـاء بـه من النعم، فيحكمان بــه، وممن ذهب إلى إيجاب المثل من النعم عمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وابن عمر وابن عباس وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم حكموا في بلدان مختلفة، وأزمان شتى بالمثل من النعم، فحكم حـاكمهم في النعامـة ببدنـة وهي لا تساوي بـدنة، وفي حمار الـوحش ببقـرة وهي لا تسـاوي بقــرة، وفي الضبع بكبش وهي لا تسـاوي كبشا، فدل أنهم نظروا إلى ما يقرب من الصيد شبهاً من حيث الخلقة، وتجب في الحمام شـاة، وهي كل مــا عَبَّ وهـدر من الطير كـالفــاختـة والقُمـريِّ والدُّبْسيِّ، وروى عن عمر وعثمان وابـن عباس رضي الله عنهم أنهم قضوا في حمام مكـة بشاة، أخبرنـا أبـو الحسن السرخسي أخبرنـا زاهر بـن أحمد نا أبـو إسحاق الهاشمي نا أبـو مصعب عن مالك عن أبي الزبير عن جـابر بن عبد الله أن عمـر بن الخطاب رضي الله عنـه قضى في الضبع بكبش، وفي الغـزال بعنز، وفي الأرنب بعناق، وفي اليربوع بجفرة. اهــ وقوله تبارك وتعالى: ﴿أو كفارة طعامُ مساكين أو عدل ذٰلك صياما﴾ بيانٌ للواجب على من قتل صيدا وهو محرم ولم يجد مثيلا لهذا الصيد فإنه يخير قاتله بين أن يشتري بقيمته طعاما فيطعمـه للمسـاكين لكل مسكين نصف صـاع أو أن يصـوم عن كل نصف صاع يـوما ليكـون عدل الطعـام، ولابد أن يكـون الحكمان اللذان يحكمان في جـزاء الصيـد من أهل الخبرة والدرايـة مع وجـوب عـدالتهما. وقولـه تبـارك وتعـالى: ﴿ليـذوق وبـال أمـره﴾ أي قضى الله تبـارك وتعـالى بهذا الجزاء أو الكفارة على من قتل الصيد وهو محرم ليحس بفداحـة جريرته وليرتدع عن أن يعود لارتكاب هذا المحظور. قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿ليذوق وَبَـالَ أمره﴾ قـال أبو جعفـر: يقول جل ثناؤه: أوجبـت على قاتل الصيد محرمًـا ما أوجبت من الجزاء والكفـارة الذي ذكرت في هـذه الآية، كي يذوق وبال أمره وعذابه، يعني بأمـره: ذنبه وفعله الذي فعله من قتله ما نهاه

الله عز وجل عن قتلـه في حال إحرامـه، يقول: فألـزمته الكفارة التي ألـزمته إياها لأذيقه عقـوبة ذنبه بإلزامه الغرامة والعمل ببدنـه مما يتعبه ويشق عليه، وأصل الوبال: الشدة في المكروه، ومنـه قول الله عز وجل: ﴿فعصى فرعونُ الـرسول فأخـذناه أخـذًا وَبِيـلاً.﴾ اهـ وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿عفـا الله عما سلف، ومن عاد فينتقم الله منه، والله عزيـز ذو انتقام.﴾ إخبار من الله عز وجل بعفوه وتجاوزه عمن قتل صيدا وهو محرم قبل نزول هذا التحريم لدفع ما قد يحوك في نفوس هؤلاء الذين فعلوا ذلك من الوسواس، كما طمأن المسلمين لما خافوا على مـن مات وهو يشرب الخمر قبل نزول تحريمهـا على نفي الجناح عليهم في قوله عـز وجل: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملـوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا مـا اتقوا وآمنـوا﴾ الآية. ثم حذر عـز وجل أشد التحـذير من ارتكاب جـريمة قتل الصيد في حالـة الإحرام وهدد من استمـر على ارتكاب هذه الجريمة بعد النهي عنها بأنه يعرض نفسه لعقوبة الله العزيز ذي الانتقام ولفظ «عاد» قد يأتي بمعنى: استمر ومنه قـوله عز وجل: ﴿قل للذين كفروا إن يَنتَهُوا يُغْفَـرْ لهم ما قد سلف وإن يَعُـودُوا فقد مضت سُنَّتُ الأولين﴾ أي وإن يستمروا على كفـرهم فقد عرفوا مـا أوقع الله تبارك وتعالى بـالأمم الماضية المكـذبـة الكـافرة. فـالعـود يستعمل في الـرجـوع إلى الشيء كما يستعمل في الاستمرار على الشيء والمضي فيه.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البَحْرِ وطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وللسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَادُمْتُمْ حُرُمًا، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الحرامَ قِيَامًا للناسِ والشَّهْرَ الحرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ، ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مافى السمٰوات وما فى الأرضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. مَا عَلَى الرَّسُولِ إلا الْبَلاغُ، والله يعلم ما تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ.﴾

بعد أن نهى الله عز وجل وتعالى عن قتل الصيد لمن كان محرما وأوجب على من قتل الصيد وهو محرم جزاء المثل يحكم به اثنان ذوا عدل من أهل الخبرة من المسلمين أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره، بيَّن هنا أن الذي يحرم قتله على المحرم هو صيد البر وأن صيد البحر حلال للمحرمين وأكد تحريم صيد البر حيث يقول عز وجل: ﴿أُحلَّ لكم صيدُ البحر وطعامه متاعًا لكم وللسيارة وَحُرِّمَ عليكم صيد البر مادمتم حُرُمًا﴾ أي وأبيح لكم أن تصيدوا ما شئتم من الحيوانات البحرية وأن تأكلوا من لحومها وتتزودوا منها سواء كنتم محرمين أو محلين بلاغا ومنفعة وتوسعة من الله عزوجل عليكم مقيمين ومسافرين طريًّا وقديدا. والمراد بصيد البحر: ما لا يعيش إلا في الماء ويفرخ ويبيض فيه من السمك وسائر أنواع الحيتان، والمراد بالبحر: الماء مطلقا سواء كان عذبا فراتا أو ملحا أجاجا، وسواءكان الماء جاريا أو راكدا، والمراد بالسيارة: القافلة المسافرون، فالسيارة جمع سيار وهو الكثير السير في السفر، وهذا امتنان من الله تبارك وتعالى بما يسَّره على عباده المؤمنين حيث أباح لهم صيد البحر فلهم أن يصيدوه ولهم أن يقتلوه وأن يأكلوه بلا حرج عليهم ولا عقوبة تلحقهم، بخلاف صيد البر فإنه لا يحل لهم أن يقتلوه وأوجب على من قتله جزاء أو كفار ةوتوعد بالعقاب والانتقام

ممن يتعدى على صيد البر وهـو محرم كما تقدم في الآية السابقـة، ولذلك أكد هنا تحريم صيد البر قتلا أو أكلا حيث يقول عز وجل: ﴿وَحُرِّمَ عليكم صيد البر مـادمتم حـرمـا﴾ بخلاف صيـد البحـر فقـد أحل لهم أن يصيـدوه وأن يأكلوه، وقـد أذن رسول الله ﷺ للمحرم أن يأكل من صيـد البر إذا لم يصده هو ولم يكن قد أعان عليه من صاده أو دله عليه أو أشار إليه أو قد صِيد من أجلـه، فقـد روى البخاري ومسلم مـن حديث أبي قتـادة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ خـرج حاجا، فخرجـوا معه، فصرف طائفـة منهم، فيهم أبو قتادة، فقال: خذوا ساحل البحـر حتى نلتقي، فأخذوا ساحل البحر، فلما انصرفـوا أحــرمـواكلهم إلا أبـا قتـادة لم يحرم، فبينما هم يسيرون إذ رأوا حمر وحش، فحمل أبـو قتادة على الحمـر، فعقر منهـا أتـانا، فنـزلوا فأكلـوا من لحمهـا، وقالـوا: أنأكل لحم صيد ونحن محرمـون؟ فحملنا مـا بقى من لحم الأتان، فلما أتوا رسول الله ﷺ، قـالوا: يارسول الله إنا كنا أحـرمنا، وقد كان أبـو قتادة لم يحرم، فـرأينا حمر وحش، فحمل عليهـا أبو قتـادة، فعقر منهـا أتانًـا، فنزلنـا فأكلنا من لحمهـا، ثم قلنا: أنأكل لحم صيـد ونحن محرمون؟ فحملنا ما بقى من لحمها، قال: أمنكـم أحد أمره أن يحمل عليها؟ أو أشار إليها؟ قالـوا: لا. قال: فكلوا ما بقى من لحمها. اهـ وقـوله في هذا الحديث (خرج حاجا) أراد الحج اللغوي وهو قصد البيت والإحرام على سبيل التوسع في اللفظ لأنه لاشك أن هـذه القصة كـانت عام الحديبيـة كما جاء في بعض ألفاظ الصحيحين وكان النبي ﷺ قد خرج معتمرا فإطلاق الحج على العمرة جاء على سبيل التوسع وهو صحيح في اللغـة. وقوله عز وجل: ﴿واتقوا الله الذي إليه تُحْشَرُون.﴾ ترغيب في طاعة الله وترهيب من معصيته بتذكير عباده وتنبيههم بأن مردهم إلى الله وأنهم مجموعون بين يديه يوم القيامة ليجزي الذين أساءوا بما عملـوا ويجزي الذين أحسنـوا بالحسنـى قال ابن جـرير رحمه الله:

القول في تأويل قوله: ﴿واتقوا الله الـذي إليه تحشرون﴾ قال أبو جعفر: وهذا تقدُّم من الله تعالى ذكره إلى خلقه بالحذر من عقابه على معاصيه، يقول تعالى ذكره: واخشـووا الله أيها الناس واحذروه بطاعتـه فيما أمركم به من فـرائضه، وفيما نهاكم عنه في هذه الآيات التي أنزلها على نبيكم ﷺ من النهي عن الخمر والميسر والأنصـاب والأزلام وعـن إصـابـة صيـد البر وقتلـه في حـال إحـرامكم، وفي غيرها، فإن لله مصيركم ومـرجعكم، فيعـاقبكم بمعصيتكم إياه، ويجازيكم فيثيبكم على طاعتكم له اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿جَعَلَ اللهُ الكعبـةَ البيتَ الحرامَ قيـاما للنـاس والشهـرَ الحرامَ والهدي والقـلائد، ذٰلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾ قال الفخر الـرازي: اعلم أن اتصال هذه الآية بما قبلها هـو أن الله تعالى حرم في الآيـة المتقـدمة الاصطيـاد على المحـرم، فبيَّن أن الحرم كما أنـه سبب لأمن الـوحش والطير، فكذلك هـو سبب لأمن الناس عن الآفـات والمخافـات، وسبب لحصول الخيرات والسعـادات في الدنيا والآخرة اهـ وقد بين الله تبارك وتعالى في سورة النسـاء أنه جعل الأموال قياما للنـاس حيث يقول عز وجل: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعـل الله لكم قياما﴾ كما بين عز وجل هنا أنه جعل الكعبة البيت الحرام قيامـا للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد، للإشـارة إلى أن قيام النـاس وصلاح معاشهم ومعـادهم لابد فيـه من أمرين ضروريين وهما الـدين الـذي يقـوِّم أرواحهم، والمال الـذي يقـوِّم أبـدانهم، ولاشك أن تعظيم البيت الحرام والشهـر الحرام والهدي والقـلائد من أعظم أسباب الطمأنينة والأمن لأم القرى ولقـاصدي البيت الحرام من جميع جهات الأرض، وقد أكد الله تبارك وتعالى على وجـوب تعظيم شعائره وحرماته، وأن ذلك يجلب الخير والسعـادة لمن يعظم هـذه الشعائر والحرمـات حيث يقـول تبارك وتعالى: ﴿ذٰلك ومن يُعَظِّمْ حرماتِ الله فهو خير له عند ربه﴾ ويقول:

﴿ذٰلك ومن يُعَظِّمْ شعائرَ اللهِ فإنها من تقـوى القلوب﴾ وقد صـدر الله سورة المائدة بتنبيـه المؤمنين إلى تحريم شعـائر الله وتعظيمهـا ممـا يأمن بـه الـوحش والطير والإنسـان ونص في ذلك على تحريم الصيـد عل المحـرمين وتحريم انتهاك شعـائر الله ومناسك الحج والشهـر الحرام والهدي والقلائد والآ مِّيـن البيت الحرام حيث قال عـز وجل: ﴿ياأيها الذين آمنوا أوفُـوا بالعقود أحلت لكم بهيمـة الأنعـام إلا مـا يتلى عليكم غير محلي الصيـد وأنتم حُـرُمٌ، إن الله يحكم مـا يريـد. ياأيها الـذين آمنوا لا تُحِلُّـوا شعائر الله ولا الشهـرَ الحرامَ ولا الهديَ ولا القـلائد ولا آمّينَ البيتَ الحرامَ يبتغُون فضـلا من ربهم ورضوانـا، وإذا حللتم فاصطادوا،﴾ وقـد ذكرت في تفسير الآية الثانيـة من هذه السورة المباركة المراد بـالشهر الحرام والهدي والقلائد، وقد سقـت في تفسيرها ما رواه البخـاري ومسلم في صحيحيهما من حـديث أبي بكـرة رضي الله عنـه قـال: خطبنا النبي ﷺ يـوم النحر قال: إن الزمـان قد استدار كهيئتـه يوم خلق الله السمـوات والأرض، السنـة اثنـا عشر شهـرا، منهـا أربعـة حـرم، ثـلاث متـواليـات، ذو القعـدة، وذو الحجـة، والمحـرم، ورجب مضر الـذي بين جمادى وشعبـان. وقال: أي شهـر هذا؟ قلنـا: الله ورسولـه أعلم، فسكت حتى ظـننا أنـه سيسميـه بغير اسمه، فقـال: أليس ذا الحجـة قلنـا: بلى. قـال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليـس البلدة؟ قلنا: بلى، قال: فأي يـوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنـه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحـر؟ قلنا: بلى، قـال: فإن دمـاءكم وأموالكـم وأعراضكم عليكم حـرام كحـرمة يـومكم هـذا، في بلـدكم هـذا، في شهركم هـذا، وستلقـون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً، يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ قـالـوا: نعم، قـال: اللهم اشهـد فليبلغ الشـاهـد

الغـائب، فـرب مبلَّغ أوعى من سـامع. وفي هـذا الحديث إشـارة إلى أن الله تبارك وتعالى جعل الكعبة البيت الحرام والشهـر الحرام والهدي والقلائد قياما للناس وصيانة لدينهم وسلامة لأبدانهم وحماية لدمائهم وأعراضهم وأموالهم، وقد ألقى الله تبارك وتعالى في نفوس النـاس حتى أيام الجاهلية تعظيم الكعبة البيت الحرام حتى كرر الله تبـارك وتعالى في كتابـه الكريم امتنانـه بذلك على أهل مكة ومن حـولها حيث يقول: ﴿وقـالوا: إن نتبع الهدى معك نُتَخَطَّفْ منْ أرضنا، أو لم نمكن لهم حَرَمًا آمنا يُجْبَى إليه ثمرات كلِّ شيء رزقا مِن لَدُنا ولَكنَّ أكثرهم لايعلمـون﴾ وقال عز وجل: ﴿أو لم يـروا أنا جعلنا حرمـا آمنا ويُتَخَطَّفُ الناسُ من حـولهم،﴾ ومعنى قوله عـز وجل: ﴿ ذٰلك لتعلموا أنَّ الله يعلم مـا في السمٰوات وما في الأرض وأنَّ الله بكل شيء عليـم. اعلموا أنَّ الله شديد العقاب وأنَّ الله غفور رحيم. ما على الرسول إلا البلاغ، والله يعلم مـا تبدون ومـا تكتمـون.﴾ أي صيرت لكم أيها الناس الكعبـة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد كي تعلموا أن من شرع لكم هذا الشرع القـويم مما بـه قوامكم ومصـالح دينكم ودنيـاكم علما منه بمنـافعكم ومضاركم أنـه كذلك يعلم جميع ما في السموات ومـا في الأرض وأنه لا يخفى عليـه شيء من أعمالكم، وهو محصيهـا عليكم ومجازيكم بها وأيقنـوا أنه عـز وجل شديد عقابه من عصاه وتمرد عليه، وهو غفور لذنوب من أطاعه وأناب إليه رحيم بعبـاده المؤمنين، وليس على الرسـول إلا البلاغ، لا سيطـرة له على قلوب الناس، والله عـز وجل وحده هو الذي يعلم مـا أعلنتم وما أخفيتم، وهذا التـأكيد العظيم على علم الله تبـارك وتعالى لتربية ملكـة الخوف من الله تبارك وتعـالى في نفوس عباده، فإن من تربت فيـه ملكة الخوف من الله وقف عند حدوده وائتمر بأوامره وانزجر عن معاصيه، وصار من المحسنين.

قال تعالى: ﴿قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ والطَّيِّبُ ولو أَعْجَبكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ، فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا، وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ. قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِن قَبْلِكُمْ ثم أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ .

بعد أن نبه تبارك وتعالى الناس إلى أنه لا قوام لهم إلا بدين الله ، فمن استمسك بالدين طابت له الدنيا وفاز في الآخرة، ومن كفر بالدين لم تطب له الدنيا ولم يسعد في الآخرة شرع هنا في الحض على الاستمساك بشريعة الله وإن قل المستمسكون بها، والتنفير من الانحراف عن الهدى وإن كثر المنحرفون عنه فأمر نبيه وحبيبه وسيد خلقه محمدا ﷺ أن يلفت انتباه من قد يغتر بكثرة الطالحين وقلة الصالحين بأن الخبيث والطيب لا يستويان، فمن كان له عقل وإدراك لحقائق الأشياء أيقن أن الرشد في سلوك الصراط المستقيم وأن الغواية اتباع المنحرفين فليس المحسن كالمسيء كما قال عز وجل: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أمن نجعل المتقين كالفجار﴾ وفي ذلك يقول عز وجل هنا: ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث، فاتقوا الله ياأولي الألباب لعلكم تفلحون﴾ والكاف في قوله عز وجل: ﴿ولو أعجبك﴾ لمن يوجه رسول الله ﷺ له الخطاب ممن قد يغتر بكثرة المنحرفين فيستدل بكثرتهم على صحة مذهبهم، وليس المخاطب بها رسول الله ﷺ لأنه صلوات الله وسلامه عليه لا يعجبه كثرة الخبيث، ومما يؤكد أن الخطاب في قوله ﴿ولو أعجبك﴾ ليس لرسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى قال بعدها مباشرة: ﴿فاتقوا الله ياأولي الألباب لعلكم تفلحون﴾ أي فراقبوا ربكم في جميع أعمالكم، واحذروا عقابه، وائتمروا بأمره، وانتهوا عما نهاكم عنه ياذوي العقول وتجنبوا الحرام مهما كان واقنعوا بالحلال واكتفوا به

لعلكم تفوزون في الدنيا والآخرة، وأيقنوا أن الله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيبا، فلو تصدق إنسان بقنطار من مال حرام فإنه ــ مهما أعجب من يراه ــ فإنه لا يساوي عند الله جناح بعوضة، ولا يعدل من تصدق بنصف تمرة من مال طيب، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يا أيها الرسل كُلُوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم﴾ وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك. كما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل. وفي رواية لمسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ما تصدق أحد بصدقة من طيب ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو قلوصه، وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه، فيربيها كما يربي أحدكم فلوه أو قلوصه حتى تكون مثل الجبل أو أعظم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين يُنَزَّل القرآنُ تُبْدَ لَكُمْ عفا الله عنها، والله غفور حليم. قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾ تعليم للمؤمنين وتربية لهم على أحسن مناهج السلوك عند الاستفسار وطلب ما يحتاجون إلى معرفته من العلم،

وتعريف لهم بآداب السؤال، وتحذير لهم من دسائس بعض الذين في قلوبهم مرض ممن يثير أسئلة لا حاجة له فيها ولا فائدة من سؤالها، وقد يريد بها الاستهزاء بالمسئول أو إثارة الشكوك والشبهات والنزاع بين المسلمين، وترهيب من أن يكون السؤال سببا لحرمان المسلمين من خير أو جلب المشقة عليهم، أو أن يعود بالعاقبة السيئة على السائلين، والخطاب وإن كان موجها للمؤمنين فإنه ردع لغيرهم على حد قول القائل: إياك أعني واسمعي ياجارة، لأن المؤمنين لا يسألون رسول الله ﷺاستهزاء أبدا، ولايتأتى من مؤمن ذلك بحال من الأحوال، وقد صحت الأخبار التي تؤكد أن هذه الآية الكريمة تشمل هذه الصور كلها حتى قيل في كثير من هذه الصور: إن هذه الآية نزلت فيها، فقد روى البخاري في التفسير في باب قوله: ﴿لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تَسُؤكُم﴾ من طريق موسى بن أنس عن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، قال فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنين، فقال رجل: من أبي؟ قال: فلان، فنزلت هذه الآية: ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم﴾ ثم ساق البخاري من طريق أبي الجويرية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تَسُؤكُمْ﴾ حتى فرغ من الآية كلها. وأخرج البخاري في كتاب الفتن من صحيحه في باب التعوذ من الفتن من طريق قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: سألوا النبي ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، فصعد النبي ﷺ ذات يوم المنبر فقال: لا تسألوني عن شيء إلا بينت لكم، فجعلت أنظر يمينا وشمالا فإذا كل رجل رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل كان إذا لاحى

يُدعى إلى غير أبيـه فقال: يانبي الله مـن أبي؟ فقال: أبوك حـذافة، ثم أنشأ عمر فقال: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، نعوذ بالله من سـوء الفتن، فقـال النبي ﷺ: مـا رأيـت في الخير والشر كـاليـوم قط، إنـه صـورت لي الجنة والنـار حتى رأيتهما دون الحائط، قـال قتـادة: يـذكر هـذا الحديث عند هذه الآية: ﴿يا أيا الـذين آمنوا لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تسؤكم﴾ وأخرج البخاري في كتاب الاعتصـام بالكتاب والسنة من صحيحه في باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف مـالا يعنيه وقوله تعالى: ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تُبْـدَ لكم تسؤكم﴾ ثـم ساق من طريـق عامر بن سعـد بن أبي وقـاص عن أبيه أن النبـي ﷺ قال: إن أعظم المسلمين جـرمـاً من سأل عن شيء لم يحرم فحـرم من أجل مسألتـه، وقـد أخـرج مسلم هـذا الحديث من طريق عامـر بن سعد عن أبيه قال: قـال رسول الله ﷺ: إن أعظم المسلمين في المسلمين جـرماً من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحـرم عليهم من أجل مسألته. ثم ساق مسلم من طـريق موسى بن أنس عن أنس بن مالك قال: بلغ رسولَ الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال: عرضت عليَّ الجنة والنـار فلم أر كاليـوم في الخير والشر، ولو تعلمـون ما أعلم لضحكتم قليـلا ولبكيتم كثيراً، قـال: فما أتى على أصحـاب رسـول الله ﷺ يوم أشـد منـه. قال: غطـوا رءوسهم ولهم خنين، قال: فقام عمـر فقال: رضينا بـالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا، قال: فقام ذاك الرجل فقال: من أبي؟ قال: أبوك فـلان، فنزلت: ﴿يـاأيها الذين آمنـوا لا تسألوا عن أشيـاء إن تُبْدَ لكم تسؤكم﴾ ثم ساقه مسلم من طـريق ابن شهاب قال: أخبرني أنس بن مالك أن رسـول الله ﷺ خـرج حين زاغت الشمس فصلى لهم صـلاة الظهـر، فلما سلم قام على المنبر فـذكر الساعة، وذكـر أن قبلها أمورا عظـاما. الحديث، وفيـه: فقـام عبد الله بن حـذافـة فقـال: من أبي يـارسول الله؟ قـال: أبـوك

حذافـة . ثم قال مسلم : قال ابن شهاب : أخبرني عبيـد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قالت أم عبد الله بن حذافـة لعبد الله بن حذافة : ما سمعت بابن قط أعق منك ، أأمنت أن تكون أمك قـد قارفت بعض ما تقـارف نساء أهل الجاهليـة فتفضحها على أعين النـاس؟ قـال عبـد الله بن حـذافة : والله لـو ألحقني بعبد أسـود للحقته . وقـوله تبـارك وتعالى : ﴿وإن تسألـوا عنها حين يُنَزَّلُ القـرآنُ تُبْدَ لكم عفـا الله عنها ، والله غفـور حليم﴾ تنبيه للمسلمين إلى الاحتراز من كثـرة الأسئلــة بعـد رسـول الله ﷺ لما تحدثـه من بلبلــة أفكـار المسلمين ، أما في حياة رسـول الله ﷺ فإن من يسأل عن شيء فإن الوحي قد ينزل بجوابه وبيانه وقد يكون في هذا البيان تضييق عليكم ، لأن الله عز وجل قد فرض لكم فرائض وحدد حدودًا وحرم أشياء وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فـلا تسألوا عنها . كما روى مسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه قـال : خطبنا رسـول الله ﷺ فقال : أيها النـاس إن الله قد فـرض عليكم الحج فحجوا ، فقام رجل : فقال : أكل عـام يارسول الله؟ فسكت حتى قالها ثـلاثـا . فقال رسـول الله ﷺ : لـو قلت : نعم ، لـوجبت ، ولما استطعتم ثم قال : ذروني مـا تركتكم فإنما هلك من كـان قبلكم بكثرة سـؤالهم واختلافهم على أنبيـائهم ، فإذا أمـرتكم بشيءفأتوا منـه مـا استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه . وقوله تبـارك وتعالى : ﴿قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾ تحذيـر مما وقع فيه بعض أمم الأنبياءالسابقين حيث كـانوا يسألون أنبياءهم المجيء بأشياء ، فإذا جاءتهم انتكسوا وكفروا بها .

قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ ولا سَائِبَةٍ ولا وَصِيلَةٍ وَلا حَام وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إلى مَا أَنزَلَ اللهُ وإلى الرسول قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عليه آباءَنَا، أَوَ لَوْ كَانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ولا يَهْتَدُونَ. يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُم أنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ، إلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

بعد أن حذر الله تبارك وتعالى المؤمنين من دسائس بعض الذين في قلوبهم مرض ممن يسأل أسئلة لا فائدة من سؤالها وقد يريد بها الاستهزاء بالمسئول أو إثارة الشكوك والشبهات والنزاع بين المسلمين، ورهبهم من الوقوع فيما وقع فيه بعض من كفر من الأمم السابقين حيث كانوا يسألون أنبياءهم المجيء بأشياء فإذا جاءتهم كفروا بها وازدادوا ضلالا شرع هنا في توبيخ الكفار الذين يسلكون سبيل آبائهم الجاهلين حيث سلكوا في عبادتهم سبلاً لم يشرعها الله فاتخذوا البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي التي لم يشرعها الله، حيث يقول عز وجل: ﴿ما جَعَلَ الله مِن بَحِيرَةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلة ولا حام ولَكنَّ الذين كفروا يَفْتَرُونَ على الله الكَذِبَ وأكثرهم لا يعقلون﴾ أي ما شرع الله عز وجل البحيرة ولا السائبة ولا الوصيلة ولا الحامي ولكن الجاهلين الجاحدين يختلقون على الله دينا لم يشرعه، وينسبون إلى الله مالم يقله، وأكثرهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا. ولفظ ﴿جعل﴾ يجيء في اللغة العربية لمعان كثيرة، فتأتي ﴿جعل﴾ بمعنى شرع كقوله عز وجل هنا ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾ أي ما شرع الله عز وجل ذلك، وتأتي بمعنى بيَّن كقوله عز وجل: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾ وتأتي بمعنى خلق كقوله عز وجل: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ وتأتي بمعنى التشريف كقوله عز

وجل: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس﴾ وتأتي لمعان غير هذه المعاني كما نص على ذلك أئمة اللغة. قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط: قال الأزهري: قال أبو إسحاق النحوي: أثبت ما روينا عن أهل اللغة في البحيرة أنها الناقة كانت إذا نُتِجت خمسة أبطن فكان آخرها ذكرا بحروا أذنها أي شقوها وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح، ولا تُحْلأ عن ماء ترده، ولا تمنع من مرعى، وإذا لقيها المعيي المنقطَع به لم يركبها، وجاء في الحديث: أن أول من بحر البحائر وحمى الحامي وغير دين إسماعيل عمرو بن لُحَيِّ بن قَمَعَةَ بن جُنُدب اهـ وقوله: قمعة بن جندب خطأ وصوابه: قمعة بن خِنْدَف كما في البخاري ومسلم، فقد روى البخاري في المناقب في باب قصة خزاعة من طريق أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبو خزاعة، حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال: سمعت سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع درها للطواغيت ولا يحلبها أحد من الناس، والسائبة التي كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء قال: وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قُصْبه في النار، وكان أول من سيب السوائب. وأخرج البخاري في تفسير هذه الآية من سورة المائدة من طريق الزهري عن عروة أن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا ورأيت عمراً يجر قصبه، وهو أول من سيب السوائب. وأخرج في صحيحه من طريق أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أخا بني كعب هؤلاء يجر قصبه في النار. ثم أخرج مسلم من طريق ابن شهاب قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: إن البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، وأما السائبة التي كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل

عليها شيء، وقال ابـن المسيب : قال أبو هريرة : قـال رسول الله ﷺ : رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النـار، وكان أول من سيب السيوب اهـ وعمـرو بن لحي منسـوب إلى جـده فهـو عمرو بن عـامـر بن لحي، وقـومـه خزاعة، ويقال لخزاعة بنو كعـب نسبة إلى جدٍّ لهم، وقد أسند البخاري رحمه الله إلى سعيد بن المسيب رحمه الله قـال : والوصيلـة الناقة البكـر تُبكِّر في أول نتاج الإبل ثم تُثَنِّي بعدُ بأنثى وكانوا يسيبونهم لطواغيتهم أن وصلت إحداهما بـالأخـرى ليس بينهما ذكـر، والحام فحل الإبل يضرب الضراب المعـدود فإذا قضى ضرابـه ودَعـوه للطـواغيت وأعفـوه من الحمل فلم يحمل عليـه شيء، وسمـوه الحامي، وقال لي أبـو اليمان : أخبرنـا شعيب عن الزهـري : سمعت سعيدًا اهـ والمقصود أن أهل الجاهلية كانـوا يجعلون لأصنامهم هـذه الأنواع من أنعامهم، وقـد وبخهم الله تبارك وتعـالى على ذلك وبيَّن أنهم منقادون في ذلك للشيطـان حيث يقول عـز وجل : ﴿إن يَدْعُـونَ من دونه إلا إنـاثا وإن يَـدْعُـون إلا شيطـانـا مَريـدًا . لَعَنَـهُ اللهُ، وقـال لأتخذَنَّ من عبـادك نصيبـا مفروضا . وَلأُضِلَّنَّهُمْ ولأُمَنِّيَنَّهُمْ ولآ مُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأنعام﴾ الآية . وكما قال عـز وجل : ﴿وقـالوا هٰذه أنعـام وحرث حِجْـرٌ لا يَطْعَمُهَا إلا مـن نشاء بزعمهم وأنعام حُرِّمَتْ ظُهُورُها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه، سَيَجْزِيهم بما كانـوا يفترون . وقالوا مافي بُطُونِ هٰـذه الأنعام خالصةٌ لـذكورنا ومُحَرَّمٌ على أزواجنا وإن يكـن مَيْتَةً فهم فيـه شركاء، سَيَجْزِيهم وَصْفَهُـمْ، إنه حكيم عليم﴾ وقـولـه تبارك وتعـالى : ﴿ولَكنَّ الـذين كفـروا يفترون على الله الكـذبَ وأكثرهم لا يعقلـون﴾ هـذا تأكيد على أن المشركين الجاهلين الـذين بحروا البحيرة وسيبوا السائبة وجعلوا الوصيلة والحامي معتدون على دين الله، يقولون الكذب على الله ويشرعون مـالم يشرعه الله، فهم في ذلك كالأنعام بل هم أضل سبيـلا، كل همهـم تقليـد آبـائهم الجاهلين وعلى رأسهم عـدو الله

عمرو بن لحي لعنه الله، قال ابن كثير رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿ولَٰكِنَّ الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ أي ما شرع الله هذه الأشياء، ولا هي عنده قربة، ولكن المشركون افتروا ذلك وجعلوه شرعًا لهم وقربة يتقربون بها إليه وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبال عليهم اهـ وقوله: ﴿ولَٰكنَّ أكثرهم لا يعقلون﴾ بنفي العقل عن أكثرهم لأن بعضهم قد عقل أن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي مفتراة على الله ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بَلْدَحٍ قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي، فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة فأبى أن يأكلَ منها، ثم قال زيد: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه، وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله، إنكارًا لذلك وإعظامًا له. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا قيل لهم تَعَالَوْا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حَسْبُنَا ما وَجَدْنا عليه آباءنا، أَوَ لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون﴾ توبيخ للمشركين على انقيادهم لدين أهل الجاهلية وتسفيه لهم على عنادهم للحق واستعصائهم على من يدعوهم إلى الهدى وشريعة رب العالمين ومبالغتهم في الانقياد للجهلة الضالين الذين لا يعلمون شيئا ولا يهتدون، لأن الاقتداء إنما يكون حسنا إذا كان المقتدى به عالما مهتديا، وآباء هؤلاء أشد جهلا من أنعامهم فكيف يقتدي هؤلاء بهم ويستعصون على سيد المرسلين ورسول رب العالمين، ومعنى: ﴿حَسْبُنَا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ أي يكفينا الدين الذي وجدنا عليه آباءنا فلا نحل إلا ما أحلوه ولا نحرم إلا ما حرموه، ومعنى: ﴿أَوَ لَوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون﴾ أي أينقادون لآبائهم ولو كانوا أجهل من

داوبهم؟ وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتَّبِعُوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أَوَ لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾ وكذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتَّبِعُوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، أَوَ لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ إعلام لدعاة الهدى بأنهم لا يضرهم ضلال الضالين ماداموا قد أمروهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر وقالوا لهم تعالوا إلى ما أنزل الله و إلى الرسول، لأن قلوب العباد ليست بأيدي أحد من خلق الله، وليس على الرسول إلا البلاغ كما أنه ليس على دعاة الهدى سوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاد الخلق إلى الحق، وجزاء الجميع عند الله عز وجل، فمن أحسن فله الحسنى ومن أساء فعليها، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ ونصب ﴿أنفسكم﴾ في قوله ﴿عليكم أنفسكم﴾ على الإغراء أي احفظوا أنفسكم وصونوها من معصية الله وأسباب سخطه، وناصبها ﴿عليكم﴾ لأنه هنا اسم فعل بمعنى الزموا. وقد روى أبو داود وابن ماجه والترمذي واللفظ له وقال: هذا حديث حسن غريب من طريق عتبة بن أبي حكيم حدثنا عمرو ابن جارية اللخمي عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيرا، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام، فإن من ورائكم

أيـاما الصبر فيهن مثـل القبض على الجمر، للعـامل فيهن مثل أجـر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم . الحديث .

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ منكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ، تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الآثِمِينَ. فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ. ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ، واتَّقُوا اللهَ واسْمَعُوا، واللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

بعدما أشار الله تبارك وتعالى إلى ما عليه الدعاة الهداة أتباع محمد رسول الله ﷺ من دعوة الغواة إلى ما أنزل الله و إلى اتباع سنة رسول الله ﷺ، وندد باستمساك الضالين بعادات وعقائد آبائهم الجاهلين، وطمأن نفوس المؤمنين بأنهم لا يضرهم من ضل مادام المؤمنون يسلكون سبيل الهدى، وأشار إلى أن المؤمنين والكافرين صائرون إلى الله لا محالة، منتقلون عن هذه الدنيا مجزيون بأعمالهم، ساق هنا ثلاث آيات وهي ـــ وإن كانت للتنبيه على دقة أحكام شريعة الإسلام التي تحفظ على الناس دينهم وأموالهم ـــ فهي كذلك لتأكيد رجوع الناس إلى الله وانتقالهم إلى الدار الآخرة، وللتنبيه على أن الموت نازل بساحتهم لا محالة. وقد أفادت حكما عزيز الوقوع حيث تقبل فيه شهادة غير المسلم على المسلم، وقد اشترط الله عز وجل في قبول هذه الشهادة ألا يوجد من يؤديها من المسلمين وأن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية، إذ الأصل عدم قبول شهادة غير المسلمين على المسلمين، وقد نزلت هذه الآيات الثلاث بسبب أن رجلاً من بني سهم خرج في تجارة إلى الشام مع تميم بن أوس الداري وعدي بن بدّاء وكانا نصرانيين، فمات السهمي بأرض ليس

فيها مسلم، وكان عندما أحس بدنو أجله دفع متاعه إلى تميم الداري وعدي ابن بداء ووصاهما بإيصال متاعه إلى أهله وكان في هذا المتاع جام من فضة مخوص من ذهب أي إناء من فضة قد نقش فيه صورة الخوص من الذهب. وبعد موته وجدا الجام فأعجبهما فأخذاه وباعاه، فلما قدما بتركته عثر أهله على وصيته، فسألوا تميما وعدياً عن الجام فأنكراه، فرفعوهما إلى النبي ﷺ فأمرهم أن يستحلفوهما، فحلفا، ثم عثر على الجام بمكة فلما سئل الذي هو بيده قال: اشتريته من تميم الداري وعدي بن بداء فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآيات فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا: لشهادتنا أحق من شهادتهما وإنَّ الجام لصاحبهم، قال البخاري رحمه الله في كتاب الوصايا من صحيحه: باب قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بَيْنِكُمْ إذا حضر أَحَدَكُمُ الموتُ حِينَ الوصِيَّةِ اثنان ذَوَا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فَيُقْسِمَانِ بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذًا لَمِنَ الآثمين * فإن عُثِرَ على أنهما استحقا إثما فآخران يقومان مَقَامَهُمَا من الذين استحق عليهم الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بالله لشهادَتُنَا أَحَقُّ من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذًا لمن الظالمين * ذُلك أدنى أن يأتُوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بعد أَيْمَانِهِم، واتقوا الله واسمعوا، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ وقال لي علي بن عبد الله حدثنا يحيى بن آدم حدثنا ابن أبي زائدة عن محمد بن أبي القاسم عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي ابن بداء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جاما من فضة مخوصًا من ذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ثم وجد الجام بمكة، فقالوا ابتعناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أوليائه فحلفا: لشهادتنا أحق

من شهادتهما ، وإن الجام لصاحبهم ، قال : وفيهم نزلت هذه الآية : ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادةُ بينكم﴾ اهـ وقد أخبر الله تبارك وتعالى في هذه الآيات المباركة أن حكمه في الشهادة على الموصي إذا حضره الموت أن تكون شهادة رجلين عدلين من المسلمين فإن كان الموت قد حضره وهو يضرب في الأرض ـ أي كان في سفر ـ ولم يكن معه أحد من المؤمنين فليُشْهِد شاهدين ممن حضره من غير المسلمين ، فإذا قدما وأديا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة حيث يجتمع المؤمنون المصلون أنهما ما كذبا وما بدلا ، وأن ما شهدا به حق ، وأنهما ما كتما فيه شهادة ، حكم بشهادتهما ، وهذا كله إذا حصل ارتياب وشك في شهادتهما ، فإن عثر واطُّلِعَ على أن الشاهدين كذبا وكتما حلف رجلان يكونان من أولى أولياء الموصي ويشهدان بالله أن صاحبهم أوصى بكذا وكذا وأن هذا الذي عثر عليه هو من تركته وأن شهادة هذين الكافرين غير صحيحة وأنهما كذبا وكتما ، فإن أدى الوليان الأوليان هذه الشهادة حكم بها الحاكم وغُرِّم الشاهدان السابقان ما عثر عليه من خيانتهما ، وقد حدث هذا من تميم الداري عندما كان نصرانيا ، ثم أسلم رضي الله عنه وهو أبو رقية تميم بن أوس بن خارجة بن سود بن جذيمة بن دارع بن عدي بن الدار بن هانئ بن حبيب بن لخم ، وقد وفد هو وأخوه نعيم ابن أوس على رسول الله ﷺ فأسلما وأقطعهما رسول الله ﷺ حبري وبيت عينون بالشام وصحب تميم رسول الله ﷺ وغزا معه ، وجمع القرآن ، وأم بالمسلمين في صلاة القيام في عهد عمر رضي الله عنه ، وقد حدث عنه رسول الله ﷺ على المنبر بقصة الجساسة والدجال ، وقد سكن تميم الشام بعد مقتل عثمان رضي الله عنهما . والظاهر أن مثل هذه الحادثة لم تتكرر في عصر رسول الله ﷺ لكنها وقعت عندما كان أبو موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه بالكوفة ، فقد قال أبو داود في سننه : باب شهادة أهل الذمة وفي الوصية في

السفر، حدثنا زياد بن أيوب ثنا هشيم أخبرنا زكريا عن الشعبي أن رجلا من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقاء هـذه ولم يجد أحدا من المسلمين يشهده على وصيتـه ، فأشهد رجلين من أهل الكتـاب ، فقدمـا الكـوفة فأتيـا أبا مـوسى الأشعري فأخبراه وقدما بتركته ووصيته ، فقال الأشعري : هذا أمر لم يكن بعد الذي كـان في عهد رسول الله ﷺ ، فأحلفهما بعـد العصر بالله ما خـانا ، ولا كذبـا ، ولا بدلا، ولا كتما ، ولا غيرا ، وإنها لـوصية الـرجل وتركتـه ، فأمضى شهـادتهما . وقد وصـف ابن كثير رحمه الله في تفسيره سند هـذا الحديث بأنـه صحيح ، ووصفـه الحافظ ابن حجر في فتح البـاري بأن رجالـه ثقات . وقـد اشتملت هذه الآيات المباركة على صور بلاغية وأسـاليب بيانية عالية ، كقوله عـز وجل : ﴿شهادة بينكم﴾ بـإضافـة الشهـادة إلى البين ، المشعر بأن هـذه الشهادة لوصل ما انقطع ، إذ البين يأتي بمعنى الـوصل وبمعنى الفرقة . قال العلامـة ابن منظور في لسان العـرب المحيط : البين في كلام العـرب جاء على وجهين : يكون البين الفرقة ويكون الوصل اهـ وقد جاء في التنزيل الكريم : ﴿فاتقـوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ و أو في قوله عـز وجل : ﴿أو آخران من غيركم﴾ ليست للتخيير بل هي للتعقيب كأنـه قيل : ليشهد اثنـان ذوا عدل منكم إن وجـدا ، فإن لم يـوجـدا فـآخـران من غيركم أي من غير ملتكم أيها المؤمنـون . ومعنى : ﴿لا نشتري به ثمنـا ولـو كـان ذا قربى﴾ أي يقـولان في يمينهما : لا نشتري بقسمنا عوضـا نأخذه ولا نريد بيميننا عـرضا من أعراض الحياة الدنيا . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : فصل : الذي يدل عليه القرآن في سـورة المائدة في آية الشهـادة في قولـه : ﴿فَيُقْسِمَانِ بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا﴾ أي بقولنا ، ولو كـان ذا قربى حذف ضمير كان لظهوره أي ولو كان المشهـود له ، كما في قوله : ﴿وإذا قلتم فـاعدلوا ولو كـان ذا قربى﴾ وكما في قوله : ﴿كـونوا قوامين بالقسط شهداء لله﴾ إلى قـوله : ﴿إن يكن غنيا

أو فقيرا﴾ أي المشهـود عليـه، ونحـو ذلك لأن العـادة أن الشهـادة المزورة يعتاض عليها، وإلا فليس أحـد يشهد شهادة مزورة بلا عوض ــ ولو مدح ــ أو اتخاذ يدٍ. وآفة الشهادة: إمـا اللَّـيُّ وإما الإعراض: الكذب والكتمان، فيحلفـان لا نشتري بقـولنـا ثمنـا أي لا نكـذب ولانكتم شهـادة الله، أو لا نشتري بعهـد الله ثمنـا، لأنهما كـانـا مـؤتمنين فعليهما عهـد بتسليم المال إلى مستحقه، فإن الـوصية عهد من العهـود. وقوله بعـد ذلك: ﴿فإن عُثِرَ على أنهما استحقا إثما﴾ أعم من أن يكون في الشهادة أو الأمانة، وسبب نزول الآية يقتضي أنه كان في الأمـانة فإنهما استشهدا وائتمنا، لكن ائتمانهما ليـس خارجا عن القياس بل حكمـه ظاهـر فلم يحتج إلى تنزيل، بخـلاف استشهادهما، والمعثور على استحقاق الإثم ظهور بعض الـوصية عند من اشتراها منهما بعد أن وجد ذكـرها في الـوصية، وسئـلا عنها فأنكـراها. اهـ وقوله عـز وجل: ﴿الأوليان﴾ أي الأحقان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما، قال الحافظ ابن حجر في فتح البـاري: وارتفع الأوليان بتقـدير: هما، كأنـه قيل: من الشاهـدان؟ فأجيب: الأوليان اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فيقسمان بالله لشهادتُنَا أحق من شهادتهما ومـا اعتدينا إنا إذًا لمن الظـالمين﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قـال أبو جعفر: يقـول تعالى ذكره: فيقسم الآخـران اللذان يقـومان مقام اللـذين عثر على أنهما استحقـا إثما بخيـانتهما مـال الميـت، الأوليـان بـاليمين والميت من الخائنـين ــ ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ من شهادتهما﴾ يقول: لأيماننـا أحق من أيمـان المقسـمين المستحقين الإثم، وأيمانهما الكاذبـة ــ في أنهما قد خانا في كذا وكذا من مال ميتنا، وكـذا في أيمانهما التي حلفا بها ــ ﴿وما اعتـدينا﴾ يقول: وما جاوزنا الحق في أيماننـا اهـ وقوله عز وجل: ﴿إنـا إذًا لمن الظالمين﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله أي إنا إن اعتدينا في يميننا لمن الظالمين الواضعين الشيء في غير مـوضعه المتجـاوزين الحق، وقولـه عز وجل: ﴿ذٰلك أدنى أن يأتُـوا

بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن تُردَّ أيمان بعد أيمانهم﴾ لفت انتباه الناس إلى حكمة التشريع، ودقة أحكام الشريعة، وما تثمره في النفس البشرية من التقويم والردع عن الباطل، والإشارة بقوله ﴿ذُلك﴾ للحكم الذي تقدم تفصيله، أي ذلك أدنى وأقرب أن يأتوا بالشهادة على وجهها ويخافوا عذاب الآخرة بسبب العقوبة على اليمين الكاذبة أو يخافوا الافتضاح على رءوس الأشهاد بإبطال أيمانهم. وقوله: ﴿واتقوا الله واسمعوا، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي وخافوا الله أيها الناس وانقادوا لشرعه، ولا تفسقوا عن أمره، لأن الله لا يوفق الفاسقين بل يخذلهم ولا يسددهم، وإنما يوفق لطاعته عباده الصالحين المنقادين لشرعه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ. إِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى رسوله محمدًا ﷺ بتبليغ الرسالة والقيام بأعبائها، وبيَّن له أنه يحفظه ويصونه ويعصمه من شرور الناس، وقد قام رسول الله ﷺ بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة على أكمل وجه لا يخشى في الله لومة لائم، وأمر الله تبارك وتعالى المكلفين بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ حيث قال في الآية الثانية والتسعين من هذه السورة المباركة: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا، فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ ثم أكد ذلك في الآية الثامنة والتسعين فقال: ﴿ما على الرسول إلا البلاغ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ وطمأن عز وجل دعاة الهدى بأنهم لا يضرهم من ضل ماداموا مستمسكين بالهدى، وأن مرجع جميع العباد إلى الله يوم القيامة ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى شرع هنا في خواتيم المسك من هذه السورة الكريمة يذكر بعض المشاهد العظيمة من مشاهد القيامة لتأكيد ما تقرر من أنه ليس على الرسل إلا البلاغ وعلى الله وحده حساب الخلائق حيث يقول عز وجل: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت عَلاَّمُ الغيوب﴾ قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فيقولُ مَاذا أجِبْتُمْ قَالُوا لا

عِلْمَ لنا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: واتقوا الله أيها الناس، واسمعوا وعظه إياكم، وتذكيره لكم، واحذروا يوم يجمع الله الرسل، ثم حذف واحذروا، واكتفى بقوله: ﴿واتقوا اللهَ واسمعوا﴾ عن إظهاره، كما قال الراجز:

علفتها تبنا وماءً باردًا حتى شتت همالة عيناها

يريد: وسقيتها ماء باردا، فاستغنى بقوله: «علفتها تبنا» من إظهار «سقيتها» إذ كان السامع إذا سمعه عرف معناه، فكذلك في قوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ حذف «واحذروا» لعلم السامع معناه، اكتفاءً بقوله: ﴿واتقوا الله واسمعوا﴾ إذ كان ذلك تحذيرا من أمر الله تعالى ذكره خلقه عقابه على معاصيه، وأما قوله: ﴿ماذا أُجِبْتُمْ﴾ فإنه يعني به: ما الذي أجابتكم به أممكم حين دعوتموهم إلى توحيدي والإقرار بي، والعمل بطاعتي، والانتهاء عن معصيتي، قالوا: لا علم لنا: اهـ والمراد بقوله: لا علم لنا أي نحن لا نعلم ما غاب عنا من أحوالهم وأسرارهم ولا ندري ما فعلوه بعدنا من تحريف الدين ومخالفة المرسلين، إذ لا يعلم الغيب إلا الله وحده عز وجل ولذلك قالوا: إنك أنت علام الغيوب. وقد قال البخاري في صحيحه: حدثنا سعيد بن أبي مريم حدثنا محمد بن مطرف حدثني أبو حازم عن سهل بن سعد قال قال النبي ﷺ: إني فرطكم على الحوض، من مر عليَّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدا، ليردن عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم، قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال: هكذا سمعتَ من سهل؟ فقلت: نعم، فقال: أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته وهو يزيد فيها: فأقول إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقًا سحقًا لمن غيَّر بعدي. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا يعقوب (يعني ابن عبد الرحمن القاري) عن أبي حازم قال:

سمعت سهلا يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: أنا فرطكم على الحوض، من ورد شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدا، وليردن على أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم، قال أبو حازم: فسمع النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا الحديث فقال: هكذا سمعت سهلا يقول؟ قال: فقلت: نعم، قال: وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما عملوا بعدك، فأقول: سحقًا سحقًا لمن بدَّل بعدي، وقوله في الحديث: أعرفهم أي يجعل الله عز وجل لأمة محمد ﷺ علامات يعرفون بها يوم القيامة كما جاء في لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن حوضي أبعد من أيلة من عدن، لهو أشد بياضا من الثلج، وأحلى من العسل باللبن، ولآنيته أكثر من عدد النجوم، وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه. قالوا: يارسول الله أتعرفنا يومئذ؟ قال: نعم، لكم سيماء ليست لأحد من الأمم، تردون على غرًّا محجلين من أثر الوضوء. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ قال الله ياعيسى ابنَ مَرْيم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك﴾ قال أبو السعود العمادي في تفسيره المعروف بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إذ قال الله ياعيسى ابن مريم﴾: شروع في بيان ما جرى بينه تعالى وبين واحد من الرسل المجموعين من المفاوضة على التفصيل إثر بيان ما جرى بينه تعالى وبين الكل على وجه الإجمال ليكون ذلك كالأنموذج لتفاصيل أحوال الباقين، وتخصيص شأن عيسى عليه السلام بالبيان تفصيلا من بين شئون سائر الرسل عليهم السلام مع دلالتها على كمال هول ذلك اليوم، ونهاية سوء حال المكذبين بالرسل لما أن شأنه عليه السلام متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب الذين نُعِيت عليهم في السورة الكريمة جناياتهم، فتفصيله أعظم عليهم، وأجلب لحسرتهم وندامتهم وَأَفَتُّ في أعضادهم، وأدخل في صرفهم

عن غيهم وعنادهم اهـ وقال الفخر الرازي : اعلم أنا بيَّنا أن الغرض من قوله تعالى للـرسل : ﴿ماذا أُجِبْتُمْ﴾ توبيخ من تمرد من أممهم ، وأشـد الأمم افتقارا إلى التوبيخ والملامة النصارى الذين يـزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام ، لأن طعن سائر الأمم كان مقصورا على الأنبياء ، وطعن هؤلاء الملاعين تعدى إلى جلال الله وكبريـائه حيث وصفوه بما لا يليق بعـاقل أن يصف الإلـه به ، وهو اتخاذ الـزوجة والـولد فـلا جرم ذكـر الله تعالى أنـه يعدد أنـواع نعمه على عيسى بحضرة الـرسل واحـدة فـواحـدة ، والمقصـود منـه تـوبيخ النصـارى وتقـريعهم على سوء مقـالتهم ، فإن كل واحدة من تلك النعم المعـدودة على عيسى تدل على أنه عبد وليس بإله ، والفـائدة في هذه الحكاية تنبيه النصارى الـذين كـانوا في وقت نـزول هـذه الآيـة على قبح مقـالتهم وركاكـة مـذهبهم واعتقادهم اهـ والتعبير بالماضي في قولـه عز وجل : ﴿إذ قال الله ياعيسى ابن مريم﴾ للـدلالة على تحقق الوقـوع لا محالة وحكايتـه حكاية الحال الـواقعة ، وهو شبيه بقوله عـز وجل : ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار﴾ وكذلك قوله عز وجل : ﴿ونـادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وَجَدْنَا ما وَعَدَنَا ربُّنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نَعَمْ ، فأَذَّنَ مُـؤَذِّنٌ بينهم أن لعنـة الله على الظـالمين﴾ والتعبير عن المضـارع بلفظ الماضي للتنبيه على تحقق وقـوعه أسلـوب بلاغي يُعـدل فيه عن مقتضى الظـاهر إلى مقتضى الحال كما هو مدون في علم المعاني من علوم البلاغة . ومعنى قوله عز وجل : ﴿إذ أَيَّدْتُك بروح القدس﴾ أي إذ أعنتك وقويتك بالروح المقدسة أي المطهـرة والمراد جبريل عليـه السلام والإضـافـة في روح القدس مـن إضافـة الموصوف إلى الصفة ، وقد تقدم نظير هذا المقام في سورة البقرة حيث يقول عز جل : ﴿وآتينـا عيسى ابن مـريم البينات وأيـدنـاه بـروح القدس﴾ في الآيـة السابعـة والثمانين ، وكذلك في الآية الثـالثة والخمسين بعـد المائتين من سورة

البقرة حيث يقول عز وجل: ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾ وقوله تبارك وتعالى في هذا المقام: ﴿تكلم الناسَ في المهد وكهلا﴾ تقدم نظيره في الآية السادسة والأربعين من سورة آل عمران حيث يقول عز وجل: ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلا﴾ وقد تقدم تفسيره هناك، وقوله عز وجل: ﴿وإذْ علمتك الكتاب والحكمة والتوارة والإنجيل﴾ هو شبيه قوله عز وجل في الآية الثامنة والأربعين من سورة آل عمران حيث يقول عز وجل: ﴿ويُعَلِّمُهُ الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ وقد تقدم تفسير ذلك هناك، وقوله عز وجل: ﴿وإذْ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكونُ طيرا بإذني وتبرئُ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تُخْرِجُ الموتَى بإذني﴾ هو شبيه قوله عز وجل في الآية التاسعة والأربعين من سورة آل عمران: ﴿ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأُبْرِئُ الأكمه والأبرص وأُحْيِي الموتى بإذن الله﴾ وقد تقدم تفسير ذلك هناك، وقوله عز وجل: ﴿وإذ كَفَفْتُ بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إنْ هذا إلا سحر مبينٌ﴾ تذييل للفت الانتباه إلى آية من آيات الله ونعمة من نعمه العظيمة على عبده ورسوله عيسى عليه السلام بصيانته من أعدائه اليهود الذين امتلأت قلوبهم بالعداوة لعيسى عليه السلام لما جاءهم بالبينات فصانه الله من شرورهم، وعصمه من سوء مكرهم، وحفظه من أن تمتد إليه أيديهم فلم ينالوه إلا بألسنتهم حيث وصفوه بأنه ساحر مبين، وفي هذا تثبيت لفؤاد رسول الله ﷺ وتأكيد لما أخبره الله به حيث قال له في الآية السابعة والستين من هذه السورة: ﴿ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس﴾ وتسلية لرسول الله ﷺ من وصف المشركين له بأنه ساحر، وأن ما جاء به سحر مبين ببيان أن إخوانه من

المرسلين جوبهوا من أممهم الكافرة بمثل هذه المقالة الفاجرة، كما أشار إلى ذلك تبارك وتعالى في قوله: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا واشهد بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ. إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّون يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيمَ هل يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً من السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَالُوا نُرِيدُ أَن نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبنا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِن الشَّاهِدِينَ. قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وآخِرِنَا وآيَةً مِنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. قال اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا من الْعَالَمِينَ﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل ما أيد به عبده ورسوله عيسى عليه السلام من الآيات والبراهين المشتملة على النعم الجليلة عليه وعلى أمه المبرئة لهما من كل سوء المقررة أن عيسى ليس إلها ولا ابن إله و إنما هو عبد الله ورسوله وذيل ذلك كله بما يقرر أنه صان عيسى عليه السلام من أن تمتد إليه يد أعدائه من اليهود مما يثبت به فؤاد رسول الله ﷺ ويؤكد له أن الله عز وجل يعصمه من شرور الناس شرع هنا يذكر استجابة الحواريين لعيسى ﷺ ومسارعتهم إلى الإيمان به نبيا رسولا للتنبيه على فضل السابقين إلى الإيمان بالرسل، مما تقر به نفوس المؤمنين الأولين المستجيبين لرسول الله ﷺ، حيث يقول عز وجل: ﴿و إِذْ أَوْحَيْتُ إلى الحواريين أَنْ آمِنُوا بي وبِرَسُولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ أي و إذ ألهمت الحواريين وقذفت في قلوبهم تصديق عيسى عليه السلام وتأييده ونصرته فسارعوا إلى الإيمان به نبيا رسولا وانقادوا لأمره، واتبعوا ما جاء به من عند الله، ولم يجعلوه إلها ولا ابن إله، فمعنى: ﴿أوحيت إلى الحواريين﴾ أي ألهمتهم وقذفت في قلوبهم إذ من معاني الوحي في اللغة الإلهام والقذف في القلب، والحواريون جمع حواري وهو في الأصل الوزير أو من يصلح للخلافة أو الناصر أو الخالص أو هو ناصر الأنبياء أو القَصَّار

لأنه يحور الثياب أي يبيضها، وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وسمي الحواريون لبياض ثيابهم اهـ وقيل حواري الرجل خاصته، والمتبادر من القرآن العظيم يشعر بأن الحواريين هم السابقون الأولون من أمة عيسى عليه السلام وكبار أصحابه رضي الله عنهم وخواصهم، ولاشك أن الحواريين ليسوا بأنبياء وليسوا بمعصومين من الخطأ، ولذلك ذكر الله عز وجل عنهم أنهم قالوا لعيسى عليه السلام: ﴿هل يَسْتَطِيعُ ربُّكَ أن يُنَزِّلَ علينا مائدة من السماء﴾ فخوفهم عيسى عليه السلام من مغبة هذا السؤال، وأمرهم بتقوى الله عز وجل، وأنه لا ينبغي لمسلم أن يقترح على الله الإتيان بالآيات، لأن سنة الله عز جل قد جرت أن من اقترح على الله آيةً، ولم يؤمن بها إذا جاءت أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، ونبه عيسى عليه السلام الحواريين إلى أن مقتضى إيمانهم ألا يتقدموا على الله باقتراح مثل هذه الآية، وأن يعلموا أن الله لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، غير أن الحواريين ذكروا لعيسى عليه السلام أنهم إنما طلبوا إنزال مائدة من السماء لأنهم يريدون أن يأكلوا منها، وأن تطمئن قلوبهم بزيادة الإيمان واليقين إذا رأوا هذه الآية الحسية، ويزدادوا علما بأن عيسى عليه السلام قد صدَقهم، ويكونوا عليها من الشاهدين، ولا شك أن سؤال الحواريين هذا أخف من سؤال أصحاب موسى عليه السلام إذ قال بعضهم لموسى عندما رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهةٌ، وأخف من قول أصحاب موسى لموسى: أرنا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، وقد رأى عيسى عليه السلام أن المصلحة تقتضي بأن يتضرع إلى الله عز وجل أن ينزل عليهم مائدة من السماء تكون عيدا وفرحا ومسرة للمؤمنين في عاجلتهم، وينتفع بالإيمان بها مَنْ بعدهم من المؤمنين، وتكون آية من الآيات الشاهدات على أن الله هو رب كل شيء وسيده

ومليكه، وأن أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، فأخبر الله عز وجل عيسى عليه السلام بأنه منزل عليهم هذه المائدة المطلوبة، وأنه من يكفر بالله بعد رؤيته لهذه الآية الباهرة والمعجزة القاهرة فإن الله سيعذبه عذابا لم يعذب مثله في شدته أحدًا من العالمين، والمائدة هي الخوان عليه طعام، فإذا لم يكن على الخوان طعام فإنه لا يسمى مائدة، والأصل في الخوان أن يتخذ من خشب وينصب على قوائم، فإذا كان الطعام على جلد أو فراش أو شيء بلا قوائم فإنه يقال له سفرة، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قال: لم يأكل النبي ﷺ على خوان حتى مات، وما أكل خبزًا مرققا حتى مات اهـ وإنما كان يأكل على السفرة لأنها عادة العرب، كما أن الخوان من عادة العجم. وإيراد قصة المائدة للفت الانتباه إلى أن المؤمنين الذين ليسوا بأنبياء ولا مرسلين غير معصومين من الخطأ وإبراز صبر الأنبياء والمرسلين في تعاملهم مع أتباعهم من المؤمنين حيث يسوسونهم بالحكمة، ويصبرون على ما قد يبدر منهم، ويوجهونهم أحسن توجيه، ويحذرونهم من المزالق التي قد تردى من انزلق إليها، ولاشك أن الاعتصام بمنهج الأنبياء والمرسلين هو سبيل النجاة للدنيا والآخرة، وأن الإنسان مهما أوتي من العقل فلا غنى له بحال عن دين الإسلام الذي هو صراط الله المستقيم. هذا وقد سميت السورة كلها باسم المائدة، والعيد هو يوم السرور الذي يتكرر وكل يوم فيه جمع، قال العلامة ابن منظور في لسان العرب: قال ابن الأعرابي: سمي العيد عيدًا لأنه يعود كل سنة بفرح مجدد اهـ وقد زعم بعض الناس أن المائدة لم تنزل بدعوى أن الحواريين لما سمعوا الوعيد الشديد على من كفر بها بعد نزولها خافوا وأبوا أن تنزل عليهم، وصريح القرآن شاهد على نزولها حيث يقول عز وجل: ﴿قال الله إني مُنَزِّلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين﴾ فقد أكد الله تبارك وتعالى تنزيلها عليهم

بجملة تأكيدات، منهـا أنه قال: ﴿قال اللهإني مُنَـزِّلها عليكم﴾ فأسند القول إلى نفسه المقدسة ومنها أنه أكد تنزيلها بإن حيث قال: ﴿إني مُنَزِّلها عليكم﴾ قال أبو السعود العمادي في قوله: ﴿نريد أن نأكل منها﴾ تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال أي لسنا نريد بالسـؤال إزاحة شبهتنا في قدرته سبحانه على تنزيلها أو في صحـة نبوتك حتى يقدح ذلك في الإيمان والتقوى بـل نريد أن نأكل منهـا أي أكل تبرك وقيل أكل حـاجة وتمتـع ﴿وتطمئنَّ قُلُوبُنَـا﴾ بكمال قدرتـه تعالى و إن كنا مـؤمنين به من قبل فإن انضمام علم المشـاهدة إلى العلم الاستدلالي مما يوجب ازدياد الطمأنينة وقوة اليقين ﴿وَنَعْلَمَ﴾ أي علما يقينيا لا يحوم حوله شائبة شبهةٍ أصلا اهـ وقال ابن جرير رحمه الله: وأما قوله: ﴿وآيةً منك﴾ فإن معناه: وعـلامة وحجـة منك يارب على عبـادك في وحدانيتك، وفي صدقي على أني رسول إليهم بما أرسلتني به ﴿وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ وأعطنا من عطائك، فإنك يـارب خير من يعطي وأجود من تفضل، لأنه لا يدخل عطـاءه مَنٌّ ولا نكد. . ثم أكد ابن جريـر رحمه الله نزول المائدة حيث يقـول: وبعد فإن الله تعـالى ذكره لا يخلف وعـده، ولا يقع في خبره الخلف، وقد قال تعالى ذكره مخبرًا في كتابه عن إجابة نبيه عيسى ﷺ حين سأله ما سأله من ذلك: ﴿إني مُنَزِّلُهَا عليكم﴾ وغير جائز أن يقول تعالى ذكره: ﴿إني مُنَزِّلُهَا عليكم﴾ ثم لا ينزلها، لأن ذلك منه تعالى ذكره خبر، ولا يكون منه خلاف ما يُخبر، ولو جاز أن يقول ﴿إني منزلها عليكم﴾ ثم لا ينزلها عليهم جاز أن يقول فمن يكفر بعد منكم فإني معذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين، ثم يكفر منهم بعد ذلك فلا يعـذبه، فلا يكون لوعده ولا لـوعيده حقيقة ولا صحة، وغير جائز أن يـوصف ربنا تعالى ذكـره بذلك اهـ هـذا وما نقل عن كثير من المفسرين في صفـة المائدة المنـزلة على عيسى عليـه السـلام والحواريين، وفيما احتوتـه هذه المائدة من ألوان الطعـام وأسمائه لم يثبت شيء منه بخبر صحيح

عن رسول الله ﷺ، قال ابن جرير رحمه الله : وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة فأن يقال : كان عليها مأكول، وجائز أن يكون كان سمكا وخبزا وجائز أن يكون ثمرًا من ثمر الجنة، وغير نافع العلم به ولا ضار الجهل به إذا أقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل اهـ ومعنى قوله عز وجل : ﴿فمن يكفر بعدُ منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدًا من العالمين﴾ أي فمن يجحد آيات الله ويكفر بها بعد معاينته ما اقترح من الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة القاهرة فإنى أعاقبه عقوبة ما عاقبت بها غيره من عالمي زمانه، ليكون ذلك نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين، هذا وقد يستعمل العرب المائدة أو الخوان بمعنى السفرة فقد روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : أهدت خالتي إلى النبي ﷺ ضِبابا وأقطا ولبنا فوضع الضب على مائدته، فلو كان حراما لم يوضع، وشرب اللبن وأكل الأقط . وفي لفظ لمسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : أهدت خالتي أم حفيد إلى رسول الله ﷺ سمنًا وأقطًا وأضبًا فأكل من السمن والأقط وترك الضب تقذُّرا، وأكل على مائدة رسول الله ﷺ ولو كان حراما ما أكل على مائدة رسول الله ﷺ . كما روى مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ بينما هو عند ميمونة وعنده الفضل بن عباس وخالد بن الوليد وامرأة أخرى إذ قرب إليهم خوان عليه لحم، فلما أراد النبي ﷺ أن يأكل قالت له ميمونة : إنه لحم ضب، فكف يده، وقال : هذا لحم لم آكله قط، وقال لهم : كلوا، فأكل منه الفضل وخالد ابن الوليد والمرأة، وقالت ميمونة : لا آكل من شيء إلا شيء يأكل منه رسول الله ﷺ .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. للهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هذا هو المشهد الأخير من مشاهد القيامة التي ذكرها الله عز وجل في خواتيم المسك من سورة المائدة، وفي هذا المشهد العظيم زيادة تأكيد لما تقرر في المشهد الأول من أن رسل الله صلى الله عليهم وسلم لا يعلمون ما أحدثته أممهم من بعدهم من تغيير دين الله وعبادة الأصنام والأوثان وسائر صور الشرك بالله، وأنهم برآء من كل قول أو فعل يناقض دين الإسلام، وفي سياق هذا المشهد على هذه الصورة تنديد بالنصارى الذين جعلوا عيسى وأمه إلهين من دون الله وتقريعهم وتبكيتهم على رءوس الخلائق يوم القيامة يوم الحسرة والندامة، وفي ذلك ردع وترهيب من الشرك بالله وترغيب في إخلاص التوحيد لله عز وجل، وتكذيب للمفترين على الله وعلى رسله، وفي قوله عز وجل هنا: ﴿وإذ قال الله ياعيسى ابنَ مريم﴾ بإيراده بصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع كما في قوله عز وجل: ﴿إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك﴾، والعرب قد يستعملون إذ بمعنى إذا لعلم السامع بالمراد تخفيفا وبلاغة كما في قول أبي النجم:

ثم جـزاه الله عـنا إذ جـزى جنـات عـدن في العـلالي العلا

أي إذا جـزى، وكما في قـول أعشى بني نهشل الأسـود بن يعفـر بن عبـد الأسود بن جندل بن نهشل بن دارم النهشلي:

فألآن إذ هـازلتهن فإنمـا يقلـن ألا لم يذهب الشيخ مذهبًا

أي إذا هازلتهن. وكما قال عز وجل: ﴿ولو تَـرَى إذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ﴾ أي إذا فـزعوا. والسـؤال في قولـه عـز وجل لعيسى عليه السـلام: ﴿أأنت قلتَ للنـاس اتخذوني وأمِّـيَ إلهَين من دون الله﴾ ليس لـلاستفهـام لأن الله عـلام الغيـوب، وهو يعلـم أن عيسى عليه السـلام لم يقل للنـاس: اتخذوني وأمِّيَ إلهين من دون الله وإنما المقصـود من السؤال هـو إعـلام عيسى عليه السـلام وتعريفه أن قـومه غيروا دينهم بعده وخالفـوا عهده، وقالوا عليـه ما لم يقله، ليكون ذلك توبيخـا لمن ادعى عليه ذلك وليكون إنكاره بعـد السؤال أبلغ في تكذيبهـم، مع ما في الجواب من تحقيق التـوحيد وبطلان الشرك وإبـراز أهم وظائف الأنبياء والمرسلين مع ما اشتمـل عليه الجواب من الأدب العالي الذي أدَّب الله تبارك وتعالى به رسله المنزِّهين له عن الند والنظير وعن كل ما لا يليق به تبـارك وتعالى ومعنـى قوله: ﴿سبحـانك ما يكـون لي أن أقول مـا ليس لي بحق﴾ أي تنـزيها لك يـارب أن أفعل ذلك أو أتكلم بـه، لأني عبـد مخلـوق فكيف أدعي ذلـك، ومعنى قـولـه: ﴿تعلم مـا في نفسي ولا أعلم مـا في نفسك، إنك أنت عـلاَّمُ الغيوب﴾ قـال ابن جريـر الطبري في تفسيره: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره، مخبرا عن نبيـه عيسى ﷺ: أنه يبرأ مما قالت فيه وفي أمـه الكفرة من النصـارى أن يكـون دعاهم إليـه أو أمـرهم به، فقـال: ﴿سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قُلْتُهُ فقد عَلِمْتَهُ﴾ ثم قال: ﴿تَعْلَمُ ما في نفسي﴾ يقول: إنك يـارب لا يخفى عليك ما أضمرته نفسي مما لم أنطـق به ولم أظهره بجـوارحي، فكيف بما قـد نطقت به وأظهـرته

بجوارحي؟ يقول: لـو كنت قد قلت للناس: ﴿اتخذوني وأمِّيَ إلهين من دون الله﴾ كنت قد علمته، لأنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به فكيف بما قد نطقت به ﴿ولا أعلم ما في نفسك﴾ يقول: ولا أعلـم أنا ما أخفيته عني فلم تطلعني عليه لأني إنما أعـلم من الأشياء مـا أعلـمتنيه ﴿إنك أنت عَـلاَّمُ الغُيُـوب﴾ يقول: إنك أنـت العالم بخـفيات الأمـور التي لا يطـلع عليهـا سواك، ولا يعلمها غيرك اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبـدوا الله رَبِّي وربّكم﴾ ينفي عيسى عليه السـلام أن يكون قـد صدر هـذا القول منـه على أبلغ وجـه وآكده حيث نفى عليـه السـلام أن يكون قـد صدر منه قول مغاير لما أمـره الله عز وجل به، ويدخل في ذلك نفي أن يكون قد قـال لهم: ﴿اتخذوني وأمِّيَ إلهين من دون الله﴾ دخولا أوليًا أي مـا أمرتهم إلا بما أمرتني به، والـذي أمرتني به هو أن أطلب منهـم إخلاص العبادة لك وحدك فقلت لهم: اعبدوا الله سيدي وسيـدكم ومالكي ومالككم ومصلحي ومصلحكم ومدبـر أمري ومدبـر أموركم، وابـذلوا له أقصى غـاية الحب مع أقصى غاية الذل ولا تشركوا به شيئا. وقوله: ﴿وكنتُ عليهم شهيدا مادُمْتُ فيهم فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيبَ عليهم، وأنت على كل شيء شهيد﴾ أي وكنت على ما يفعلونه وأنا بين أظهرهم ومدة داومي بينهم شاهدا عليهم وعلى أفعـالهم وأقـوالهم فلما قبضتني إليك كنت أنت وحـدك الحفيظ عليهم دوني لأني إنما شهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا بين أظهرهم، وأنت تشهد على كل شيء لأنـــه لا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء فـأنت على كل شيء شهيد، وقـوله: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبـادكَ وإن تغفر لهم فإنك أنت العـزيز الحكيم﴾ أي أنـا لسـت عليهم بمسيطـر، وقلـوبهم بيـدك تضـل من تشـاء وتعذبه عدلا وتهدي من تشاء وتغفـر له فضلا فإنهم جميعا عبادك وأنت ربهم وأنت العزيـز القاهر الذي لا يفوتـه شيء الحكيم في جميع أفعاله وأقـواله قال

ابن كثير رحمه الله : وقـولـه : ﴿إن تعذبهم فإنهم عبـادك وإن تغفـر لهم فإنك أنت العـزيز الحكيم﴾ هـذا الكلام يتضمن رد المشيئـة إلى الله عز وجل فإنـه الفعـال لما يشاء، الـذي لا يسأل عما يفعل وهـم يسألـون، ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسولـه وجعلوا لله ندًا وصاحبةً وولدًا تعالى الله عما يقـولون علـواً كبيراً، وهذه الآية لها شأن عظيـم ونبأ عجيب اهـ وليس في قـوله تعـالى هنا : ﴿وإن تغفـر لهم فإنك أنت العـزيز الحكيم﴾ مـا يُفْهِم أن من مات على الشرك قـد يغفر له، لأن الكـلام منصب على جملة من جـاءهم عيسى عليـه السلام، وفيهم من آمن بـه على أنـه عبـد الله ورسولـه وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منـه ومنهم من كفر به في حياته بينهم، ومنهم من كفر به بعد رفعه إذ زعم أنه إلـه أو ابن إله، والمقصود من السياق يفيد أن عيسى عليه السلام ما قال لهم إلا ما أمره الله عز وجل به أن اعبدوا الله وحده لا شريك له وأنـه يشهد لمن أجابه مـدة حياته بينهم ويشهـد على من عصاه مدة حياته كذلك، فلما رفعه الله إليه ارتفع علمه عن أحوالهم وكان الله وحده هو الرقيب عليهم لا يعلم عيسى من أمرهم شيئا سواء في ذلك من اتبعه على الهدى أو ضل عن سـواء السبيل، فمرد الجميـع إلى الله يعذب من يشـاء من العصاة عدلا ويثيب ويغفر لمن يشاء فضلا، لأن الجميع عباده، وهو العزيز الحكيم، وقـد روى مسلم في صحيحـه من حـديث عبـد الله بن عمـرو بن العـاص أن النبي ﷺ تـلا قول الله عـز وجل في إبـراهيم ﴿رَبِّ إنهن أضللن كثيرا من النـاس فمن تَبِعَنِي فإنـه مني﴾ الآيـة، وقال عيسى عليـه السـلام : ﴿إن تعذبهم فإنهم عبـادك وإن تغفر لهم فإنك أنـت العزيز الحكيم﴾ فـرفع يديـه وقال : اللهم أمتي أمتي وبكى، فقال الله عـز وجل : ياجبريل اذهب إلى محمـد ــ وربك أعـلم ـ فسـله مـا يبكـيك؟ فأتاه جبـريل عليـه الصلاة والسـلام فسأله، فأخـبره رسول الله ﷺ بما قـال ــ وهـو أعلم ــ فقـال الله :

يـاجبريل اذهب إلى محمد فقل: إنـا سنـرضيك في أمتك ولا نسوءك. وقـال البخاري في تفسير هذه الآية من صحيحه: باب: ﴿وكنتُ عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما تـوفيتنـي كنتَ أنت الـرقيب عليهـم، وأنت على كل شيء شهيد﴾ حدثنـا أبو الوليد حدثنا شعبـة أخبرنا المغيرة بن النعمان قال سمعت سعيـد بن جبير عن ابن عبـاس رضي الله عنهما قـال: خطب رسـول الله ﷺ فقال: ياأيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاةً عراةً غرلاً ثم قرأ: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعـدا علينا إنا كنـا فاعلين﴾ إلى آخر الآيـة ثم قال: ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يـارب أصيحابي، فيقال: إنك لا تدري مـا أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبـد الصالح: ﴿وكنتُ عليهم شهيدا ما دمتُ فيهم فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيـب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد﴾ فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم. باب قوله: ﴿إنْ تعذبهم فإنهم عِبَادُكَ وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيـز الحكيم﴾ حدثنا محمد بن كثير حدثنا سفيان حدثنـا المغيرة بن النعمان قال: حدثني سعيد بن جبير عن ابن عبـاس عن النبي ﷺ قـال: إنكم محشـورون، وإن نـاسًـا يـؤخـذ بهم ذات الشمال، فأقـول كما قـال العبـد الصـالح: ﴿وكنتُ عليهم شهيـدا مـادمْتُ فيهم﴾ إلى قوله: ﴿العزيزُ الحكيمُ﴾ اهـ وقـوله تبارك وتعالى: ﴿قال الله هٰذا يومُ ينفع الصادقين صِدْقُهُم، لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبدا، رضي الله عنهم ورَضُـوا عنه، ذٰلك الفـوز العظيم. لله مُلْكُ السمٰوات والأرض ومـا فيهن، وهـو على كل شيء قـديـر﴾ بيـان للترغيب في الصـدق وعظيم منفعتـه وجليـل مـا يترتب عليـه فإن الصـــدق لا يأتي إلا بخير ونفع لصاحبـه لكن نفعـه في الدنيا قـد لا يخلص من الهمـوم والغموم أمـا نفعه في الآخـرة فإنه خـال من الأحـزان والأكدار إذ يهدي صـاحبه لجنـات تجري من

تحتها الأنهار لا يريـم منها ولا يتحول عنها ولا يلحقه فيهـا هرم ولا شيب ولا مرض ولا هم مع رضـاه وفرحه بما منَّ الله به عليه ورضـوان من الله أكبر وهذه هي الغاية القصوى في الفوز والفلاح مع النجاة من النار، وذلك كله لصدقه مع الله وتجنبه افتراء الكـذب على الملك الحق الموجد لجميع الكـائنات المالك لها المتصرف فيها القادر عليها فإن جميع ما في السموات وما الأرض هي ملكه وتحت قهـره ومشيئته لا نـدَّ له ولا شريك ولا نظير ولا وزيـر ولا صاحبـة ولا والد ولا ولد، ولم يكن له كفوًا أحد لا إله غيره ولا رب سواه. وبهذا تم تفسير سورة المائدة بحمد الله.



تفسير سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الحمدُ للهِ الَّذي خَلَقَ السمٰواتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورَ ثُمَّ الَّذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ. هُوَ الَّذي خَلَقَكُمْ مِن طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلا وأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾.

المناسبة بين أول آية من سورة الأنعام وهي مكية وآخر آية من سورة المائدة وهي مدنية ظاهرة فإن الله تبارك وتعالى أخبر في الآية الخاتمة لسورة المائدة المباركة بأن له ملك السموات والأرض وما فيهن وقد افتتح سورة الأنعام بأنه الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، وهذا أحد البراهين الظاهرة على تمام التناسق والتناسب بين آيات القرآن العظيم، وأن كل آية من آياته مرتبطة تمام الارتباط بالآية التي قبلها والآية التي بعدها كما أن كل سورة من سوره مرتبطة تمام الارتباط بالسورة التي قبلها والسورة التي بعدها وهذه إحدى صور الإعجاز القرآني، فقد ذكر في سورة المائدة صوراً من افتراءات اليهود والنصارى والمشركين على الله عز وجل وعلى رسله كما اشتملت سورة الأنعام على صور كثيرة من افتراءات المشركين على الله وعلى رسله، وقد قال عز وجل في سورة المائدة ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولٰكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون.﴾ وقال في سورة الأنعام: ﴿وكذٰلك زَيَّنَ لكثير من المشركين قَتْلَ أولادهم شُرَكاؤُهم لِيُرْدُوهم ولِيَلْبِسُوا عليهم دينَهُمْ ولو شاء الله ما فَعَلُوهُ فذرهم وما يَفْتَرُونَ. وقالوا هٰذه أنعام وحرْثٌ حِجْرٌ لاَ يَطْعَمُهَا إلا مَن نَشَاءُ بزَعْمِهِمْ وأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهورُهَا وأنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ الله عليها افْتِرَاءً عَلَيْهِ، سَيَجزِيهِمْ بما كانوا

يَفْتَرُونَ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿قـد خَسِرَ الذينَ قَتَلُوا أولادهم سَفَهًا بغير علم وحَرَّمُوا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضَلُّوا وما كانوا مهتدينَ﴾ وقد افتتح الله تبـارك وتعالى سـورة الأنعام بحمـده كما افتتح بـالحمد سـورة الفاتحة وسـورة الكهف وسورة سبأ وسورة فاطر، وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل في سورة الفاتحة: ﴿الحمد لله رب العـالمين﴾ أنه في حَيِّز الحمد من هـذه السُّور يلفت الله انتباه الخلق إلى موجبات حمده وشكره ومدحه والرضا بما يصدر عنه، ففي سـورة الفاتحة لَفَتَ الانتبـاه إلى أنـه رب العالمين. الـرحمن الـرحيم مالك يـوم الدين، وأنه وحده هو المستحق للعبادة فلا يجوز أَنْ يُصْرَفَ شيء منها لغيره، وأنه هو وحده المستعان، وأنه الهادي إلى الصراط المستقيم. وفي سورة الأنعام لفت الانتبـاه إلى أنه وحـده هـو خالـق السموات والأرض وجـاعلُ الظلمات والنور، وفي سـورة الكهف يلفت الانتباه إلى نعمتـه العظمى وحجته البـالغة حيث أنزل القرآن العظيم والذكر الحكيم على خير خلقه وأفضل رسله وخاتم أنبيـائه عبـده محمد ﷺ ليرسم لـلإنسـانيـة طـريقَ سعادتها ومنهجَ رُشْـدِهـا وعـزهـا، وفي سورة سبـأ يلفت الانتباه إلى أن جميـع ما في السمـوات ومـا في الأرض لله عز وجل مِلكًـا ومُلكًا، فهو المستحـق للحمد في الدنيـا والآخرة، وفي سورة فاطر يلفت الانتباه إلى أنـه وحده هو الذي فطر السموات والأرض وجعل الملائكة رسـلاً وأنه على كل شيء قـدير، مـا يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ومـا يمسك فلا مرسل لـه من بعده وهو العزيـز الحكيم، وقد ذكرت أن الحمـد هو الثنـاء على الله رب العالمين بـالجميل على ما أسـدى من النعم، وعلى مـا اتصف بـه من الأسماء الحسنى والصفـات العلى، والـرضـا بقضائه وقدره، فهو المحمود قبل حمد الحامـدين وشكر الشاكرين، والشكر هو الاعتراف والإقـرار للمنعم بنعمته، وضـده الكفر، والمدح نقيـض الذم، والـرضـا ضـد السخط، وكل من الشكـر والمدح والـرضـا داخل في حقيقـة

الحمد، فحمد الله عز وجل يقتضي من العبد الثناء على الله والإقرار بآلائه ونعمه التي لا تعد ولا تحصى، ووصف الله عز وجل بجميع صفات الكمال التي وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ، وتنزيهه عن كل نقص، وخضوع القلب والجوارح واللسان لله عز وجل، لأن جميع ما يصدر عن الله عز وجل يستحق الحمد عليه سواء كان مما يعده العبد ضرًّا أو نفعا كالعافية والبلوى، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والحياة والموت، وغير ذلك، فالله عز وجل محمود على كل حال، لما أسبغ من نعم ظاهرة وغير ظاهرة، وقد وهم من زعم أن الحمد هو الثناء باللسان وحده، وأن الشكر يكون باللسان وبالقلب وبالجوارح مستدلاً بقول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

فإن الحمد يشمل الشكر والمدح والرضا. ومعنى ﴿الحمد لله﴾ أي مجامع الحمد والثناء والشكر والمدح والرضا إنما يستحقها الله المعبود بالحق وحده. وقوله تبارك وتعالى: ﴿الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ تنبيه على استحقاقه وحده عز وجل للحمد بأنه هو وحده الخالق لجميع الكائنات ذواتها وصفاتها، وأحوالها وأعراضها وعلويها وسفليها لا شريك له في شيء من ذلك قال القرطبي رحمه الله في الجامع لأحكام القرآن: قوله تعالى: ﴿الذي خلق السمٰوات والأرضَ﴾ أخبر عن قدرته وعلمه وإرادته فقال: ﴿الذي خلق﴾ أي اخترع وأوجد وأنشأ وابتدع، والخلق يكون بمعنى الاختراع ويكون بمعنى التقدير وقد تقدم وكلاهما مراد هنا، وذلك دليل على حدوثهما، فرفع السماء بغير عمد، وجعلها مستوية من غير أودٍ، وجعل فيها الشمس والقمر آيتين، وزينها بالنجوم وأودعها السحاب والغيوم علامتين، وبسط الأرض وأودعها الأرزاق والنبات، وبث فيها من كل دابة آيات، وجعل فيها الجبال أوتادًا، وسبلاً فجاجًا، وأجرى فيها

الأنهار والبحـار، وفجر فيهـا العيون من الأحجـار، دلالات على وحدانيتـه، وعظيم قدرتـه، وأنه هو الله الـواحد القهار، وبيَّن بخلقـه السموات والأرض أنـه خالق كل شيء. اهــ ولاشك أن السمـوات والأرض آيتان بـاهرتـان من آيات الله، قد جعلهما الله تبارك وتعالى ونصبهما لتـذكير عباده بأنه لا إله غيره ولا رب سواه، وقد تفضل الله تبـارك وتعالى فأقام لعباده من الشواهـد ما هو ثـابت ومـا هـو متغير، حيـث جعل السمـوات والأرض آيتين ثـابتتين طـول الدهر، وجعل للعباد آيات متجددةً لتنبيههم، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك حيث يقول: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزَيَّناها ومالها من فـروج. والأرض مـددناهـا وألقينـا فيها رواسِيَ وأنبتنـا فيهـا من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبـد منيب﴾ وقال تبارك وتعالى في هـذا المقام من سـورة الأنعام: ﴿الحمـد لله الذي خلق السمٰـوات والأرض وجعل الظلمات والنـور﴾ قـال القـرطبي رحمه الله: واختلف العلماء في المعنى المراد بـالظلمات والنـور فقـال السـدي وقتـادة وجمهـور المفسرين: المراد سـواد الليل وضيـاء النهـار، وقال الحسن: الكفـر والإيمان، قـال ابن عطيـة: وهذا خـروج عن الظـاهـر، قلت: اللفظ يعمـه، وفي التنزيل: ﴿أَوَ مـن كان مَيْتًـا فأحييـنـاه وجعلنا له نورا يمشي بـه في الناس كمن مثَلُهُ في الظلمات﴾ والأرض هنا اسم للجنس فإفـرادها في اللفظ بمعنى جمعهـا وكذلك: ﴿والنور﴾ ومثلـه: ﴿ثم يُخْرِجُكم طِفْلا﴾

وقال الشاعر: كلوا في بعض بطنكموا تعِفوا

وقـد تقـدم، وجعل هنا بمعنى خلـق، لا يجوز غيره، قالـه ابن عطيـة، قلت: وعليـه يتفـق اللفظ والمعنى في النسق، فيكـون الجمع معطـوفـا على الجمع والمفـرد معطوفـا على المفرد فيتجـانس اللفظ وتظهـر الفصاحـة. والله أعلم اهــ وقوله تبـارك وتعالى: ﴿ثُمَّ الَّـذِينَ كَفـروا بربهم يعدلـون﴾ أي ومع

ظهور أدلة التوحيد وما نصبه الله عز وجل من البراهين الثابتة والمتجددة أمام أعين عباده فلا يزال الذين كفروا متمادين في ضلالهم مستمرين في غيهم مستغرقين في شركهم حيث يعدلون به بعض خلقه ويشركون معه غيره مع اعترافهم بأن الله هو ربهم وأنه هو الذي خلق السموات والأرض كما قال عز وجل: ﴿قل لمن الأرضُ ومن فيها إن كنتم تعلمون. سيقولون لله، قل أفلا تَذَكرون * قل مَنْ رَبُّ السمٰواتِ السبع وربُّ العرشِ العظيمِ * سيقولون لله، قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوتُ كلِّ شيء وهو يُجِيرُ ولا يُجَارُ عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله، قل فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولئن سألتهم مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فأنى يُؤْفَكُونَ﴾ والتعبير بقوله: ﴿ثم﴾ لتبشيع عمل الكافرين واستغراقهم في الشرك وتراخيهم في الضلال، واستمرارهم على غيهم وطول انغماسهم في كفرهم مع معاينتهم الآيات الدالة على توحيده فلو عطف في هذا المقام بالواو ونحوها لم تفد في توبيخهم وتسفيههم ما تفيده ﴿ثم﴾ ومعنى ﴿بربهم يعدلون﴾ أي يشركون معه غيره ويساوون به سواه يقال: عدل كذا بكذا أي سوَّى بينهما، وقوله تبارك وتعالى: ﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قَضَى أَجَلا وأَجَلٌ مُسَمًّى عنده ثم أنتم تمترون.﴾ يلفت عز وجل انتباه الإنسان إلى النظر في نفسه بعد أن لفت انتباهه إلى النظر فيما يحيط به من العوالم العلوية والسفلية، لتكون براهين قدرته محيطة به من كل جانب قريبة من كل ناظر كما قال بعض أهل العلم:

فانظر إلى نفسك ثم انتقل ... للعالم العلوي ثم السفلي
تجد به صنعا بديع الحكم ... لكن به قام دليل العدم
وكلما جاز عليه العدم ... عليه قطعا يستحيل القدم

قال الفخر الرازي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ والمشهور أن المراد منه أنه تعالى خلقهم من آدم وآدم كان مخلوقا من طين، فلهذا السبب قال: ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ وعندي فيه وجه آخر

وهو أن الإنسـان مخلوق من المني ومن دم الطمث، وهما يتولـدان من الدم، والدم إنما يتـولد من الأغذيـة، والأغذية إمـا حيوانيـة و إما نباتيـة فإن كانت حيوانية كان الحال في كيفية تولد ذلـك الحيوان كالحال في كيفية تولد الإنسان فبقى أن تكون نباتية فثبت أن الإنسان مخلوق من الأغذية النباتية ولاشك أنها متولدة من الطين فثبت أن كل إنسـان متولد من الطين، وهذا الـوجه عندي أقرب إلى الصواب، إذا عرفت هذا فنقول: هنـا الطين قد تولدت النطفة منه بهذا الطريق المذكـور ثم تولـد من النطفة أنـواع الأعضاء المختلفـة في الصفة والصورة واللون والشكل مثل القلب والدماغ والكبد وأنواع الأعضاء البسيطة كالعظام والغضاريف والرباطـات والأوتار وغيرها، وتولد الصفات المختلفة في المادة المتشابهة لا يمكن إلا بتقدير مقدرٍ حكيم، ومدبرٍ رحيم، وذلك هو المطلوب. اهـ ومعنى قولـه تعالى: ﴿ثم قضى أجـلا﴾ أي حكم وقدر لكل واحـد منكم أجـلا لا يتعـداه ولا يتجاوزه بحـال وقهـره على ذلك فإذا جـاء أجلهم لا يستأخرون سـاعة ولا يستقدمـون، وقد ذهب غير واحـد من أئمة أهل العلم بالتفسير إلى أن الأجل المسمى عنده هو من وقت وفاة الإنسان إلى وقت بعثه يـوم القيامـة أي مدة مقامـه في البرزخ، ومعنى ﴿ثم أنتم تمترون﴾ أي ثم بعـد طول معاينتكـم لحجج الله الباهـرة الدالة على أنـه على كل شيء قـديـر تشكون في وقـوع البعث بعـد الموت مع مشـاهـدتكم في أنفسكم من الشواهد مـا يقطع أسباب الشك والامتراء لأن من قدر على إفاضـة الحياة وما يتفرع عليها من العلم والقدرة وسائر الكمالات البشرية على مادة غير مستعدة لشيء منها أصلاً كـان أهون عليه وأقدر على إفاضتها على مـادة قد استعدت لها وقـارنتها مـدة الأجل الأول، وقـد لـوحظ أن السور المكيـة تـدور في فلك حقائق ثـلاث وهي تقرير توحيـد الله عز وجل ووجوب الإيمان باليـوم الآخر ووجوب الإيمان بالمرسلين.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللهُ فِى السَّمَٰوَاتِ وَفِى الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ. وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ. فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰؤُاْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾.

بعد أن بيَّن تبارك وتعالى كمال قدرته على كل شيء مما يزيل كل ارتياب في قدرته عل البعث والنشور شرع هنا يقرر كمال علمه وأنه لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وقد لوحظ أن الله تبارك وتعالى يبرهن كثيرا على البعث والنشور بذكر كمال قدرته وعلمه حيث قال هنا بعد توبيخ من يمتري في إحياء الموتى بعد أجل برزخهم: ﴿وهو الله في السمٰوات وفي الأرض يعلم سِرَّكُمْ وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قل يُحْيِيهَا الذي أنشأها أَوَّلَ مرة وهو بكل خَلْق عليم﴾ وقال عز وجل: ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هٰذا شيء عجيب * أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رَجْعٌ بعيد * قد علمنا ما تَنْقُصُ الأرضُ منهم وعندنا كتابٌ حَفِيظٌ﴾ الآيات، إلى قوله عز وجل: ﴿كذٰلك الخُرُوجُ﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وهو الله في السمٰوات وفي الأرض يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي وهو أي المستحق لجميع المحامد، الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، الذي خلقكم من طين وقدر لكل واحد منكم أجله، وقهره عليه، لا يتأخر عن أجله إذا جاء لحظة واحدة ولا يتقدم لحظة، ذلك هو الله أي المألوه المعبود بالحق في السموات والمعبود بالحق في الأرض، المحيط بما تنطوي عليه صدور خلقه، وما توسوس به نفوسهم، وما تتلفظ به

ألسنتهم، أو تبديه جوارحهم، الذي يعلم السر وأخفى، ﴿سواء منكم من أَسَرَّ القولَ ومَن جَهَرَ به ومن هو مُسْتَخْفٍ بالليل وسَارِبٌ بالنهار﴾ ويعلم كل ما تجترحونه، ويحيط بكل ما تعملونه من خير أو شر فيحصيه عليكم ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى، ففروا إليه وحده ولا تعدلوا به أحدًا من خلقه، ولا تشكوا في قدرته على البعث والنشور، وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿وهو الذي في السماء إِلَهٌ وفي الأرض إِلَهٌ، وهو الحكيم العليم﴾وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها مُعْرِضينَ. فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنبَاء ما كانوا به يَسْتَهْزِئُونَ﴾ شروع في تقرير الحقيقة الثالثة من الحقائق الثلاث التي تدور في فلكها السور المكية، فبعد أن قرر الحقيقة الأولى وهي إثبات أنه لا إله إلا الله في الآية الأولى من هذه السورة ثم قرر الحقيقة الثانية وهي إثبات البعث بعد الموت في الآية الثانية وأكد هاتين الحقيقتين في الآية الثالثة شرع في تقرير الحقيقة الثالثة وهي إثبات النبوة والرسالة، فقال عز وجل: ﴿وَمَا تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين * فقد كذَّبُوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أَنباء ما كانوا به يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي وما تجيء هؤلاء الكافرين معجزةٌ وخارقةٌ من خوارق العادات على يديك يؤيدك بها رب الناس، تكون حجةً وعلامةً ودلالةً من حجج ربهم وأعلامه ودلالاته على أنك رسول رب العالمين إلا أعرضوا عنها وصدوا عن قبولها، وكذبوا بها، ولم يستفيدوا منها، وتركوا النظر فيها، وانصرفوا عنها مستهزئين بها، كما قال عز وجل: ﴿اقتربت الساعةُ وانشق القمر * وإن يَرَوْا آيةً يُعْرِضُوا ويقولوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وكذبوا واتَّبَعُوا أهواءهم، وكلُّ أمر مُسْتَقِرٌّ * ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مُزْدَجَرٌ * حكمةٌ بَالِغَةٌ فما تُغْنِ النُّذُرُ﴾ فلا تعجب أيها النبي الكريم من إعراضهم. ولا تبتئس بما يصدر من سفاهتهم، فإنهم لو كانت

لهم عقول لسارعوا إلى تصديقك والإيمان بك لأنك إنما جئتهم بالحق الأبلج، فانغمسوا في الباطل اللجلج، وكذبوا بما لا يجوز أن يكذَّب، وردوه دون أن يتدبروا ما يجره عليهم تكذيبهم وسوء فعلهم، فسيحيق بهم من العقوبات العاجلة والآجلة ما يكون كفاءً لإعراضهم وتكذيبهم واستهزائهم، قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿فقد كذَّبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فقد كـذَّب هؤلاء العادلون بالله، الحقَّ لما جاءهم وذلك الحق هو محمد ﷺ، كذبوا به، وجحدوا نبوته لما جاءهم، قال الله متوعدا على تكذيبهم إياه، وجحودهم نبوته: سوف يأتي المكذبين بك يامحمد من قومك وغيرهم ﴿أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ يقول: سوف يأتيهم أخبار استهزائهم بما كانوا به يستهزئون من آياتي وأدلتي التي آتيتهم، ثم وفى لهم بوعيده لما تمادوا في غيهم، وعتوا على ربهم فقتلهم يوم بدر بالسيف اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ يرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا من قبلهم من قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ في الْأَرْضِ مَالَمْ نُمَكِّن لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجعَلْنَاالْأَنْهَارَ تجري من تحتهم فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ تقرير لما توعد الله عز وجل به الكفار الذين كذبوا رسوله محمدا ﷺ في قوله: ﴿فَسَوْفَ يأتيهم أنباء مَا كَانُوا به يَسْتَهْزِئُونَ﴾ بتذكيرهم بما يعرفونه بمعاينة الآثار وسماع الأخبار عن الأمم الماضية التي كذبت رسلها فأنزل الله بهم بأسه الشديد وعقابه المبيد، وقد كانت هذه الأمم أشد من قريش قوة وأعظم منهم بأسًا وأكثر أموالا وأولادا، كما قال عز وجل: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعادٍ * إِرَمَ ذاتِ العِمَادِ * التي لم يُخْلَقْ مِثْلُهَا في البلاد * وثمودَ الذين جَابُوا الصَّخْرَ بالوادِ * وفرعَوْن ذي الأوتاد * الذين طَغَوْا في البلاد * فأَكْثَرُوا فيها الفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ ربُّكَ سَوْطَ عذابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ وقد أكد الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة في

مقامات كثيرة من كتابه الكريم فذكر إبادته لأمم كثيرة ماضية كانوا أشد قوةً من كفار مكة ومن حولها من المكذبين برسوله محمد ﷺ وأن تلك الأمم الغابرة لما نزل بهم بأس الله لم تك تدفع عنهم قوتهم من عذاب الله شيئا حيث يقول عز وجل: ﴿أفلم يَهْدِ لَهُم كم أهلكنا قبلَهم من القرون يَمْشُونَ في مساكنهم، إن في ذٰلك لآيات لأُولي النُّهَي﴾ وقال عز وجل: ﴿أوَ لَمْ يَهْدِ لَهُم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم، إن في ذٰلك لآيات أفلا يسمعون﴾ وقال عز وجل: ﴿كالذين من قبلكم كانوا أَشَدَّ منكم قوةً وأكثر أموالا وأولادًا فاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخُضْتُمْ كالذي خَاضُوا، أولٰئك حَبِطَتْ أعمالُهم في الدنيا والآخرة وأولٰئك هم الخاسرون * ألم يأتهم نَبَأُ الذين من قبلهم قوم نوح وعادٍ وثمودَ وقومِ إبراهيم وأصحابِ مَدْيَنَ والمؤتفكات، أَتَتْهُمْ رسُلُهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولٰكن كانوا أَنفُسَهُمْ يظلمون﴾ وقال عز وجل: ﴿فأخذتهم الصيحةُ مُشْرِقِينَ * فجعلنا عَالِيهَا سَافِلَهَا وأمطرنا عليهم حجارةً من سِجِّيل * إنَّ في ذٰلك لآيـاتٍ للمتوسمين * وإنها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ * إن في ذٰلك لآيـةً للمؤمنين * وإن كـان أصحابُ الأَيْكَةِ لظـالمين * فانتقمنـا منهم وإنهما لبِإِمَام مبين * ولقـد كذَّبَ أصحابُ الحِجْرِ المرسلين * وآتينـاهم آياتنا فكانـوا عنها معـرضين * وكانـوا يَنحتُونَ من الجبـال بيوتـا آمنين * فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ وقال عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أَشَدَّ منهم قوة وأَثَارُوا الأرضَ وعمروها أَكْثَرَ مِمَّا عَمروهَا وجاءتهم رسلُهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولٰكنْ كانوا أَنفُسَهُم يظلمون﴾ وقال عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين كانوا من قبلهم، كَانُوا هُمْ أشدَّ منهم قوةً وآثارًا في الأرض فأخذهم اللهُ بذنوبهم وما كان لهم من الله من

وَاقٍ. ذٰلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديـد العقاب﴾ وقال عز وجل ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظـروا كيف كان عاقبـة الذين من قبلهم كانـوا أكثر منهم وأشد قـوة وآثارًا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * فلما جاءتهم رسـلهم بالبينـات فرحـوا بما عنـدهم من العـلم وحـاق بهم ما كانوا بـه يستهزئون * فلما رَأَوْا بَأْسَنَا قالـوا آمنا بالله وَحْدَهُ وكفرنا بما كُنَّـا به مشركين * فلم يك يَنفَعُهُمْ إيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بأسنا سُنَّتَ اللهِ التي قد خَلَتْ في عبادِهِ وخَسِرَ هنالك الكافرون﴾ والضمير في قوله ﴿من قبلهم﴾ للمشركين المكذبين المعاندين لمحمد رسول الله ﷺ المذكورين في قوله عز وجـل: ﴿فقد كـذبوا بالحق لما جـاءهم﴾ والمراد بـالقرن: الأمـة والجماعة والجِيل من الناس على حد قول الشاعر:

إذا ذهب القـرن الـذي أنت فيهمُ وخُلِّفت في قـــرن فأنت غــريب

وضمير الغـائبين في قـوله: ﴿مكنـاهم﴾ راجع إلى القـرن، وجُمع الضمير باعتبار كون القرن جمعـا في المعنى. وضمير المخاطبين في قوله: ﴿مالم نمكن لكم﴾ للمشركين المعـاندين الـذين كذبوا بـالحق لما جاءهم، وكـان مقتضى السياق أن يقال: مـالم نمكن لهم، لكن مقتضى الحال اقتضى الالتفات من الغيبـة إلى الخطـاب لدفع الاشتبـاه من أول الأمـر عن مـرجعي الضميرين، ومعنى قـولـه: ﴿مكنـاهم في الأرض مـالم نمكـن لكم﴾ أي أعطينـاهم من أسباب القوة ما جعلهم متمكنين في أرضهم مالم نعطكم مثله يامعشر قريش ومن معكم من المكذبين بـالحق لما جاءهم، ومكنه في الأرض ومكن لـه فيها لغتـان بمعنى واحـد فهو يتعـدى بنفسـه تـارة وبالحرف تـارة أخـرى نظير: نصحتـه ونصحت له وقـد أورده القـرآن الكريم بـاللغتين هنـا وكما قال عـز وجل: ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾ وقال عز وجل: ﴿إنا مَكَّنَّا له في الأرض﴾ وقـال عز وجل: ﴿أو لم نمكن لهم حـرما آمنـا﴾ وقال عـز وجل:

﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾ ومعنى: ﴿وأرسلنا السماء عليهم مدرارا﴾ أي وأنزلنا عليهم الغيث والمطر الغزير المتتابع النافع، والمدرار هو الكثير الدر المغزار، ومعنى: ﴿وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم﴾ أي وسخرنا لهم الأنهار المستمرة على الجريان بين مزارعهم وبساتينهم، فكانوا في بسطة ورغد من العيش والقدرة على التقلب في الأرض، وقوله: ﴿فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾ أي فلما كذبوا رسلهم وعصوا أمر ربهم دمرناهم بسبب كفرهم وسيئاتهم ولم يستطيعوا دفع عقوبة الله لما نزلت بهم واستبدلنا قوما غيرهم كما قال عز وجل: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾.

قال تعالى : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ . وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِىَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُون . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ . وَلَقَدَ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانوا به يَسْتَهْزِئُونَ . قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ . ﴾

بعد أن وبخ الله تبارك وتعالى الذين كفروا وكذبوا برسوله محمد ﷺ لما جاءهم، وتوعدهم بعقوبة من الله عز وجل تنزل بهم إن استمروا على كفرهم وتكذيبهم للحق الذي جاءهم، وذكرهم بما حل بالأمم المكذبة قبلهم من العذاب الشديد والعقاب المبيد وهم يعرفون ذلك بمعاينة الآثار وسماع الأخبار شرع هنا في مواساة حبيبه ورسوله وسيد خلقه محمد ﷺ بإعلان أن هؤلاء المكذبين لم يكذبوك لشبهة فيك، وإنما يكذبونك جحودًا للحق، ولو جئتهم بكل آية لردوها، وقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون، وقد ساق الله تبارك وتعالى في هذا المقام الكريم صورتين من صور تعنتهم، فذكر عز وجل أنه لو نزل عليك كتابا محررا مكتوبا في صحيفة واحدة غير متفرقة فشاهدوه بأعينهم ولمسوه بأيديهم لطعنوا فيه وقالوا إنه سحر، كما ذكر عز وجل أنهم يطعنون في نبوة محمد ﷺ لكونه بشرا، وهم لا يؤمنون بالرسول البشرى ولا يرضون إلا بالرسول الملكي مشتركا مع البشري أو مستقلاً وحده، وهم بهذا يسلكون منهج جميع الأمم الكافرة التي كذبت رسلها لأنهم بشر، بل كانت هذه أول شبهة رد بها قوم نوح رسالة نوح عليه السلام كما ذكر عز وجل : ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرًا مِثْلَنَا﴾ وهذا أمر عجيب وفساد في الرأي ظاهر فقد جهلوا أن إرسال الرسول من البشر هو من أعظم نعم الله على خلقه لأنه هو الذي يتكلم بلسانهم، ويتمكنون من

مجالسته والاستفادة منه، ولو أرسل الله لهم ملكًا لأرسله في صورة البشر، وقد وصف الله تبارك وتعالى سائر المكذبين للرسل بأنهم ردوا دعوة الحق التي جاء بها المرسلون بدعوى أن الرسل بشر حيث يقول عز وجل في سورة إبراهيم: ﴿قالت رُسُلُهُمْ أفي الله شكٌ فاطر السمٰوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم وَيُؤَخِّرَكُمْ إلى أجل مُسَمًّى قالوا إنْ أنتم إلا بَشَرٌ مِثْلُنَا تريدون أن تصدونا عما كان يَعْبُدُ آباؤنا فأتونا بسلطان مبين * قالت لهم رسلهم إن نَحْنُ إلا بشرٌ مِثْلُكُمْ ولٰكنَّ الله يَمُنُّ على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ وهذه الشبهة في غاية الضعف قد ردها الله تبارك وتعالى في مقامات كثيرة من كتابه الكريم حيث يقول في سورة الإسراء: ﴿وما منع الناسَ أن يؤمنوا إذْ جاءهم الهُدَى إلا أن قالوا أَبَعَثَ اللهُ بشرا رسولاً * قل لو كان في الأرض ملائكةٌ يَمْشُونَ مطمئنين لَنَزَّلْنَا عليهم من السماء ملكا رسولا﴾ وقد بين عز وجل أنه لو أرسل رسولا غير بشر وجعله من الملائكة ما أطاقه الناس، ولا يتمكنون من معايشته ولذلك قال في هذا المقام من سورة الأنعام: ﴿ولو جعلناه مَلَكا لجعلناه رجلا ولَلَبَسْنَا عليهم ما يَلْبِسُونَ﴾ فالذي يفرون منه لابد وأن يقعوا فيه، ولا طاقة للبشر على مصاحبة الملائكة في دار الدنيا فإن جبريل عليه السلام عندما تبدى لرسول الله ﷺ وهو المهيأ لاستقبال الوحي ورأى ﷺ جبريل جالسًا على كرسي بين السماء والأرض، له ستمائة جناح، يملأ الأفق، خاف رسول الله ﷺ ورعب منه ورجع إلى أهله وقال: زملوني، وذلك من شدة الخوف. فلو أن جبريل عليه السلام جاء للبشر غير المهيئين للرسالة والوحي ما تمكنوا من الاستفادة منه، ولذلك يتوعد الله عز وجل المكذبين المعاندين الذين يردون رسالة الرسل بدعوى أنهم بشر وأنهم لا يؤمنون إلا إذا جاءهم رسول ملكي حيث يقول عز وجل في سورة الفرقان: ﴿وقال الذين لا يَرْجُونَ لقاءنا

لولا أُنزِلَ علينا الملائكةُ أو نَـرَى ربَّنَا لقد استكبروا في أنفسهم وعَتَوْا عُتُوًّا كبيرا * يوم يَرَوْنَ الملائكةَ لا بشرى يومئذ للمجـرمين ويقولون حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ وفي قولـه عز وجل هنا: ﴿ولـو نَزَّلْنا عليك كتابـا في قرطاس فَلَمَسُـوهُ بأيديهم﴾ إعلان بأن هؤلاء المكذبين بالحق قد بلغـوا الدرجة القصوى في العناد والمكابرة والسفسطة حتى أصبحوا لا يخجلون من رد حقائق الأشياء وينكرون وجودها مهما بلغت في الظهور والـوضوح والقـوة وأنهم مهما عاينـوا من آيات الله التي يؤيد بها رسوله محمدا ﷺ فإنهم يكـذبون بها، وقد أكد الله تبارك وتعالى ذلك بمؤكدات حيث قيـد الكتاب بكونه في قـرطاس وقيد اللمس بكونـه بالأيدي وهذه درجـة عليا في إفادة اليقين، ومع ذلك فـإن هؤلاء الجاحدين لا يـزالون شـاكين مكـذبين بعد معـاينتهم للحجـة المحسـوسـة الملموسـة التي يـرونها بأعينهم ويمسـونها بأيـديهم، ويقـولون: هـذا سحـر ظـاهر قـوي، وكـان مقتضى السياق أن يقـال: لقالوا إن هـذا إلا سحر مبين لكن مقتضى الحال والمقام اقتضى وضع الاسم الموصول موضع الضمير لتسجيل وصفهم بالكفر الذي تفيـده صلة الموصـول ومعنى: ﴿إنْ هـٰذا إلا سحر مبينٌ﴾ أي مـا هذا الكتاب المنزل من السماء الذي شاهدناه بأعيننا ولمسناه بأيدينا إلا سحر ظاهر قوي سَحَرَنَـا به محمد. وهذا القول من الكافـرين هو دأب المفحَم المحجوج وديـدن المكابـر اللجوج، وهـو مسلك جميع الأمم الكافـرة في سائر الأزمـان الغابـرة. وقوله تبارك وتعـالى: ﴿وقالوا لولا أنـزل عليه مَلَكٌ ولو أنزلنـا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمرُ ثم لا يُنْظَرون * ولو جعلناه مَلَكًا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يَلْبِسُـونَ﴾ تسجيل لبعض مقترحـات هـؤلاء الجاحـدين الكـافـرين وتشنيع عليهم بها حيث ادعـوا أنهم لايصدقـون إلا الـرسـول الملكي الذي ينـزل من السماء ولا يؤمنون بـالرسول البشري إلا إذا أنزل عليه ملك ليكون معـه نذيرا، كما حكى الله عز وجل عنهم ذلك حيـث يقول: ﴿وقالـوا مَالِ هٰذا الـرسولِ

يأكل الطعامَ ويمشي في الأسواق لولا أُنزِلَ إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيرا﴾ وقد أدحض الله عز وجل شبهتهم وأخزاهم في مقالتهم وبيَّن أن تلبيسهم مردود عليهم، وأن طلبهم هذا شاهد على جهالاتهم وسخافة عقولهم، لأن الرسول الملكي الذي يطلبون إما أن يأتيهم وينزل عليهم بصورته الملكية أو أن ينزل عليهم بصورة بشرية، فلو جاءهم الملك بصورته الملكية لانخلعت قلوبهم من الرعب، وهلكوا من شدة الخوف لأن النفوس البشرية غير مهيأة للتعايش في الدنيا مع الملائكة بصورهم الحقيقية، ولو جاءهم الملك في صورة بشرية لوقعوا فيما فروا منه لأن الناس حينئذ يظنون أنه بشر مع أنه ليس كذلك فيزدادون في شبهاتهم ومشكلاتهم وضلالتهم ويخذلهم الله عز وجل فيقعون في خلط فوق خلطهم واشتباه مع اشتباههم، والتباس زائد على التباسهم، ومعنى: ﴿لولا أُنزِلَ عليه مَلَك﴾ أي هلا أنزل على محمد ملك من ملائكة السماء يكون معه نذيرا، ومعنى قوله ﴿ولو أنزلنا ملكا لَقُضِيَ الأمر ثم لا يُنظَرُون﴾ أي ولو أجبنا اقتراحهم وأنزلنا عليهم ملكا من السماء على صورته الملكية لانخلعت قلوبهم عند رؤيته وهلكوا، ولم يؤخَّروا طرفة عين، كما أن من دأب الله في الكافرين أنه إنما ينزل الملائكة على المجرمين بإبادتهم كما قال عز وجل: ﴿وقالوا يا أيها الذي نُزِّلَ عليه الذكرُ إنك لمجنون * لَوْمَا تَأتينا بالملائكة إن كنتَ من الصادقين * ما نُنَزِّلُ الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذًا مُنظَرِينَ﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولو جعلناه مَلَكًا لجعلناه رجلا ولَلَبَسْنَا عَلَيْهم ما يَلْبِسُونَ﴾ أي ولو أجبنا اقتراحهم ولكنا لم ننزل عليهم الملك في صورته الملكية وأنزلناه في صورة بشرية لوقعوا فيما فروا منه، قال محيي السنة أبو محمد البغوي في قوله عز وجل: ﴿وَلَلَبَسْنَا عليهم ما يَلْبِسُونَ﴾ أي خلطنا عليهم ما يخلطون وشبهنا عليهم فلا يدرون: أملك هو أو آدمي اهـ وقوله تعالى: ﴿ولقد اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ من قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانوا

به يَسْتَهْزِئُونَ. قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ هو مواساة لرسول الله محمد ﷺ بأن ما يلاقيه من المشركين من التكذيب والاستهزاء به قد لقيه إخوانه المرسلون من مشركي أممهم وأن العاقبة الحسنى كانت لرسل الله ومن آمن بهم وأن المستهزئين الذي سخروا من المرسلين قد نزل بهم بأس الله وحاقت بهم عقوبته، وقد أكد الله تبارك وتعالى تحذيره للذين كذبوا رسوله ﷺ بعدة تأكيدات حيث قال في الآية الخامسة من هذه السورة الكريمة: ﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أَنبَاء ما كانوا به يستهزئون﴾ ثم أكد لهم ذلك بلفت انتباههم إلى أنهم يعرفون ما حل بالأمم المكذبة بما يشاهدونه من الآثار وبما يسمعونه من الأخبار حيث يقول عز وجل في الآية السادسة: ﴿ألم يَرَوْا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾ ثم أكد ذلك في الآية العاشرة حيث يقول: ﴿ولقد استهزئَ برسل من قبلك فحاق بالذين سَخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ ثم يزيد الأمر تأكيدا فيقول في الآية الحادية عشرة: ﴿قل سِيرُوا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبةُ المكذبين﴾ ومعنى ﴿حاق﴾ أي أحاط بهم وشملهم ولزمهم وقضى عليهم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي قل يامحمد لمن كذبوك وجحدوا الحق الذي جئت به: اضربوا في الأرض وجولوا في مشارقها ومغاربها ثم اعتبروا بما تشاهدونه من آثار المكذبين الجاحدين المستهزئين بالمرسلين، هذا وقد حاق بالمستهزئين برسول الله ﷺ ما توعدهم الله به فأنزل بهم عقوبته وكفاه شرهم، وقتل باقي صناديدهم يوم بدر، كما قال عز وجل: ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾.

قـال تعالى: ﴿قُل لمن مَـا فِي السَّمٰوَاتِ والْأَرْضِ قُل للهِ، كَتَبَ عَلَى نَفْسِـهِ الرَّحْمَةَ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَـةِ لا رَيْبَ فيه، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

بعد أن ساق عز وجل أدلة التوحيد والبعث والرسالة وهي الحقائق الثلاث التي تدور في فلكها السور المكية، شرع هنا في تأكيد هذه الحقائق الثلاث في صورة بلاغية حيث أمر رسوله ﷺ بتوجيه السؤال للمشركين المكذبين بالبعث الجاحدين برسالـة محمد ﷺ قائلا لهم على سبيل التبكيت والإلجاء: ﴿لمن ما في السمٰوات والأرض﴾ أي لمن الكـائنات جميعـا خلقًا وملكـا وتصرفا، قـال الفخر الرازي رحمه الله في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿قل لمن ما في السمٰوات والأرض قل لله، كَتَبَ على نفسه الرحمةَ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يـوم القيامة لا ريب فيـه، الـذين خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فهم لا يـؤمنـون﴾: في الآيـة مسـائل «المسألـة الأولى» اعلم أن المقصود من تقريـر هذه الآية تقرير إثبات الصـانع، وتقرير المعاد وتقرير النبوة، وبيانه أن أحوال العالم العلوي والسفلي يدل على أن جميع هـذه الأجسـام موصـوفـة بصفـات كـان يجوز عليهـا اتصافهـا بأضـدادهـا ومقابـلاتها، ومتى كان كـذلك فاختصـاص كل جزء من الأجـزاء الجسمانية بصفته المعينة لابـد وأن يكون لأجل أن الصانع الحكيم القـادر المختار خصه بتلك الصفة المعينة، فهـذا يدل على أن العالَم مع كل ما فيـه مملوك لله تعالى، و إذا ثبت هـذا، ثبت كـونـه قـادرا على الإعـادة والحشر والنشر لأن التركيب الأول إنما حصل لكونه تعالى قادرًا على كل الممكنات، عالما بكل المعلومات، وهذه القدرة والعلم يمتنـع زوالهما، فوجب صحة الإعادة ثانيـا، وأيضا ثبت أنه تعـالى ملك مطاع، والملك المطاع مـن له الأمر والنهي على عبيـده، ولابد من مبلِّغ، وذلك يـدل على أن بعثة الأنبيـاء والرسل من الله تعـالى إلى الخلق

غير ممتنع، فثبت أن هذه الآيـة وافية بإثبـات هذه المطالب الثـلاثة، ولَـمَّـا سبق ذكر هذه المسائل الثلاث ذكر الله بعـدها هذه الآية لتكون مقررة لمجموع تلك المطالب من الـوجه الـذي شرحناه، والله أعلم. «المسألة الثـانية» قـوله تعـالى: ﴿قل لمن مـافي السمٰـوات والأرض﴾ سـؤال، وقـولـه: ﴿قل لله﴾ جواب، فقد أمـره الله تعالى بالسؤال أولا ثم بالجواب ثـانيًا، وهذا إنما يحسن في الموضع الـذي يكـون الجواب قـد بلغ في الظهـور إلى حيث لا يقـدر على إنكاره منكـرٌ، ولا يقدر على دفعـه دافع، ولما بيَّنا أن آثـار الحدوث والإمكان ظاهرة في ذوات جميع الأجسام وفي جميـع صفاتها، لا جرم كان الاعتراف بأنها بأسرها مِلْك لله تعـالى ومُلْك له ومحل تصرفـه وقدرته، لا جـرم أمره بـالسؤال أولاً ثم بالجواب ثـانيًا، ليدل ذلك على أن الإقـرار بهذا المعنى مما لا سبيل إلى دفعه ألبتة، وأيضا فالقوم كانوا معترفين بأن كل العالم ملك لله، وملكه وتحت تصرفـه وقهـره وقـدرتـه بهذا المعنـى، كما قـال: ﴿ولئن سـألتهم مَنْ خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ ليقـولُنَّ الله﴾ ثم إنـه تعالى لما بيَّن بهذا الطريـق كمال إلٰهيته وقدرته ونفاذ تصرفه في عالم المخلوقـات بالكلية، أردفه بكمال رحمته وإحسانه إلى الخلق فقال: ﴿كَتَبَ على نفسه الرحمة﴾ فكأنه تعالى قال: إنه لم يرض من نفسه بأن لا ينعـم، بل أبدًا ينعم، وأبدًا يعد في المستقبل بالإنعام، ومع ذلك فقد كتب على نفسه ذلـك وأوجبه إيجاب الفضل والكرم اهـ وقال ابـن جرير الطبري رحمه الله: وقوله: ﴿كتب على نفسه الـرحمة﴾ يقول: قضى أنه بعباده رحيم، لا يعجل عليهم بالعقـوبة، ويقبل منهم الإنـابة والتوبـة، وهذا من الله تعالى ذكره استعطاف للمعرضين عنه إلى الإقبال إليـه بالتوبة، يقول تعالى ذكره: إن هؤلاء العـادلين بي الجاحدين نبوتك يامحمد، إن تابـوا وأنابوا قبلت توبتهم، وإني قد قضيت في خلقي أن رحمتي وسعت كل شيء اهـ وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى لما خلق الخلق كتب كتابا عنده فوق العرش

أن رحمته تغلب غضبه، فقد روى البخاري ذلك في كتاب التوحيد من صحيحه في أبواب حيث أورده في باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: لما خلق الله الخلق كتب في كتابه هو يكتب على نفسه، وهو وضع عنده على العرش: إن رحمتي تغلب غضبي. وأورده في باب: وكان عرشه على الماء من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي. وأورده في باب قوله تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي. وأورده في باب قول الله تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ من طريق قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: لما قضى الله الخلق كتب كتابًا عنده: غلبت ــــ أو قال: سبقت رحمتي غضبي، فهو عنده فوق العرش. وأورده في كتاب بدء الخلق في باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يُعِيدُه﴾ من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي. وقد أورده مسلم في صحيحه من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي. وفي لفظ لمسلم من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال الله عز وجل: سبقت رحمتي غضبي. وفي لفظ لمسلم من طريق الحارث بن عبد الرحمن عن عطاء بن ميناء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده: إن رحمتي تغلب

غضبي . ومعنى كون رحمة الله تغلب غضبه أو تسبق غضبه عز وجل هو أنه عز وجل يثيب على الأعمال الصالحة من المحسنين ويقبل التوبة عن المسيئين ويعفو عن السيئات كما قال عز وجل : ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفُو عن السيئات﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في الآية الرابعة والخمسين من هذه السورة المباركة حيث يقول : ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه مَنْ عَمِلَ منكم سوءًا بِجَهَالَةٍ ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم .﴾ وكما كتب عز وجل على نفسه الرحمة تفضلا وإحسانا فقد حرم على نفسه المقدسة الظلم فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال : ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرمًا فلا تظالموا . الحديث . قال شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رحمه الله : فالله سبحانه قد كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم فهو لا يفعل خلاف ما كتب ولا يفعل ما حرم ثم قال : إن الظلم الذي حرمه الله على نفسه مثل أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها ، ويعاقب البريء على ما لم يفعل من السيئات ، ويعاقب هذا بذنب هذا ، أو يحكم بين الناس بغير القسط ، ونحو ذلك من الأفعال التي ينزه الرب عنها لقسطه وعدله وهو قادر عليها ، وإنما استحق الحمد لأنه ترك هذا الظلم وهو قادر عليه ، وكما أن الله منزه عن صفات النقص والعيب فهو أيضا منزه عن أفعال النقص والعيب . ثم قال رحمه الله : ليس المراد بذلك مجرد كتابته أنه يفعل وهو كتابة التقدير، كما قد ثبت في الصحيح «أنه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء» فإنه قال : ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ ولو أريد كتابة التقدير لكان قد كتب على نفسه الغضب كما كتب على نفسه الرحمة ، إذ كان المراد مجرد الخبر عما سيكون ، ولكان قد حرم على نفسه كل

مالم يفعله من الإحسان كما حرم الظلم. ثم قال رحمه الله: ونظير ما ذكره من كتابته على نفسه كما تقدم قوله تعالى: ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ وقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: يامعاذ أتدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: حقه عليهم أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقهم عليه ألا يعذبهم. ومنه قوله في غير حديث: كان حقا على الله أن يفعل به كذا. فهذا الحق الذي عليه هو أَحَقَّهُ على نفسه بقوله ونظير تحريمه على نفسه وإيجابه على نفسه ما أخبر به من قسمه ليفعلن، وكلمته السابقة كقوله: ﴿ولولا كلمةٌ سبقت من ربك﴾ وقوله: ﴿لأَملأنَّ جهنم﴾ و﴿لَنُهْلِكَنَّ الظالمين﴾ ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقُتِلُوا لأكَفِّرَنَّ عنهم سيئاتِهِم ولأُدْخِلَنَّهُمْ جنات تجري من تحتها الأنهار﴾. ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إليهم﴾ ونحو ذلك من صيغ القسم المتضمنة معنى الإيجاب. ثم قال رحمه الله: وكتابته على نفسه ذلك تستلزم إرادته لذلك ومحبته له ورضاه بذلك، وتحريمه الظلم على نفسه يستلزم بغضه لذلك وكراهته له، وإرادته ومحبته للفعل توجب وقوعه منه، وبغضه له وكراهته لأن يفعله يمنع وقوعه منه، فأما ما يحبه ويبغضه من أفعال عباده فذلك نوع آخر اهـ وقوله عز وجل: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ قال ابن كثير رحمه الله: هذه اللام هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده ﴿إلى ميقات يوم معلوم﴾ وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه أي لا شك عند عباده المؤمنين فأما الجاحدون المكذبون فهم في ريبهم يترددون اهـ وقوله عز وجل: ﴿الذين خَسِرُوا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ أي الذين ضيعوا أنفسهم حيث غبنوها حظها وأوبقوها وأتلفوا أغلى رأس مالهم فهؤلاء بسبب انتكاس فطرتهم وانطماس بصيرتهم لا يؤمنون بالله ولا يصدقون برسوله محمد ﷺ ولا يقرون بالبعث والنشور.

قال تعـالى : ﴿وَلَهُ مـا سَكَنَ فى اللَّيْلِ والنَّهَارِ ، وَهُـوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ . قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَـاطِرِ السَّمَـٰـوَاتِ والأَرْضِ وهو يُطْعِمُ ولا يطعَم ، قُلْ إِنِّي أُمِـرتُ أَنْ أَكُـونَ أول مَنْ أَسْلَمَ وَلا تكُـونَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ . قُلْ إِنِّي أَخَـافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَـذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . مَن يُصْرَفْ عَنْـهُ يَـوْمَئِذٍ فَقَـدْ رَحِمَهُ ، وَذَالِكَ الفَوْزُ المُبِينُ﴾ .

بعد أن بين الله تبـارك وتعالى أن جميع ما في السمـوات وما في الأرض ملك لله عز وجل وحـده لا شريك له وأشـار إلى أن هذه الحقيقة يُقِـرُّ بها المشركون الـذين اتخذوا مع الله آلهة أخـرى ونبَّه العبـاد إلى أن مَـرَدَّهُمْ جميعا إلى الله عـز وجل وأنـه من رحمتـه أرسل الـرسل وأنـزل الكتب ليهلك من هلك عن بينـة ويحيـا من حيَّ عن بينـة أَكَّـدَ عز وجل هنـا أنَّ لله وحـده مـا سكن في الليل والنهار، وأنه لا تخفى عليه خافيةٌ مهما كانت في السماء أو في الأرض، ثـم أَمَر نبيه وسيـد رسله وخـاتم أنبيائه أن يـوبخ المشركين وأن يَقْطَعَ كل أمل لهم فيما يحاولونـه ويَودُّونَه من أن يميـل رسول الله ﷺ إلى آلهتهم وأن يُعْلِمَهم ويُعْلِنَ لهم أنه أُمِرَ أن يكون أول من أسلم من أمته ، وأنه يخاف إن عصى ربَّه عذابَ يوم القيامة وفي هذا كله تقريرٌ لحقيقة التوحيد وحقيقة الرسالة وحقيقة البعث بعد الموت وفي هذا شَبَهٌ بقوله تبـارك وتعالى : ﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبـدون * ولا أنتم عابدون ما أعبـد * ولا أنا عابد مـا عبدتم * ولا أنتم عـابـدون ما أعبـد * لكم دينكم ولي دين﴾ وهـو شبيـه أيضـا بقولـه تبـارك وتعالى : ﴿قل أَفَغَيْرَ اللهِ تأْمُروني أعبـد أيها الجَاهِلُونَ * ولقد أُوحي إليك وإلى الـذين من قبلك لئن أَشْرَكْتَ ليَحْبَطنَّ عملُكَ ولتَكُـونَنَّ من الخاسرين * بل الله فـاعبد وكُن من الشـاكرين﴾ وفيـه شَبَـهٌ بقولـه تعالى : ﴿قل إنَّ صـلاتي ونُسُكِي ومَحْيَايَ وممـاتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذٰلك أُمِرتُ وأنا أَوَّلُ

المسلمين ﴿قلْ أَغَيْرَ الله أَبْغِي رَبًّا وهـو ربُّ كلِّ شيء، ولا تَكْسِبُ كلُّ نَفْسٍ إلا عليهـا، ولا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخـرى، ثـم إلى ربكم مَـرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بما كُنْتُمْ فيه تَخْتَلِفُـونَ﴾ والعرب يستعملون «سكن» بمعنى استقـر وحَلَّ فيكون من السُّكْنَى فيشمل المتحرك والساكن ويستعملونـه أيضا من السكون الذي هو ضدُّ التحرك وعلى هذا يكون فيه اكتفـاءٌ بأحد الضدين لدلالته على الآخر كما قـال عـز وجل: ﴿سَرَابيلَ تَقِيكُم الحرَّ﴾ أي والبرد فـاكتفي بـذكـر أحـد الضـدين عن ذكر الآخـر لأن السـامع يعرف المراد قطعـا. ولا شك أن جميع الكائنات متحركهـا وساكنها مملوك لله عز وجل وحـده لا شريك له ولذلك قدم الجار والمجرور لإفـادة الحَصْر المقرر أنَّ كلَّ الكائنات المتحركـة والساكنة لطيفةً كانت أو كثيفة في أي زمان أو مكـان هي لله تبارك وتعالى وحده، فهو عـز وجل الـذي يُسْكِنُ الـريح أو يحركهـا كما يُسْكِنُ الحر والبرد وعمـوم مـا يَسْكُنُ أو يتحرك، قـال العلامة ابن منظـور في لسان العرب المحيط: وقـوله تعالى: ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ قـال ابن الأعرابي: معناه وله ما حلَّ في الليل والنهار، وقال الزجاج: هذا احتجاج على المشركين لأنهم لم يُنْكِرُوا أن ما اسْتَقَرَّ في الليل والنهـار لله أي هو خالقه ومُـدَبِّرُهُ فالذي هـو كذلك قادرٌ على إحياء الموتى، وقال أبـو العباس في قوله تعـالى: ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ قـال: إنما الساكن من الناس والبهـائم خاصة قـال: وَسَكَنَ: هَدَأَ بعد تَحَرُّكٍ وإنما معناه والله أعلم: الخَلْقُ اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير قـوله تعـالى: ﴿ولـه مـا سكن في الليل والنهار﴾ أي كـل دابة في السمـوات والأرض الجميعُ عِبَـادُهُ وخَلْقُـهُ وتحت قهـره وتصرفه وتـدبيره لا إلـه إلا هـو، ﴿وهـو السميـع العليم﴾ أي السميع لأقـوال عبـاده، العليم بحـركـاتهم وضمائرهم وسرائرهم، ثم قـال تعـالى لعبده ورسـولـه محمـد ﷺ الذي بعثـه بـالتـوحيـد العظيم وبـالشرع القويـم وأمره أن يـدعـو النـاس إلى صراط الله

المستقيم ﴿قل أغير الله أتخذ وليا فاطرِ السمٰوات والأرض﴾ كقوله: ﴿قل أَفَغَيْرَ اللهِ تأمرونّي أعبدُ أيها الجاهلون.﴾ والمعنى: لا أتخذ وليًّا إلا الله وحده لا شريك له، فإنه فاطر السمٰوات والأرض أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق ﴿وهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ﴾ أي وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم كما قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدونِ﴾ الآية، وقرأ بعضهم ههنا ﴿وهو يُطْعِمُ ولا يَطْعَمُ﴾ أي لا يأكل، وفي حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ على طعام فانطلقنا معه، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه قال: الحمد لله الذي يُطعِم ولا يَطعَم، ومنَّ علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا من الشراب، وكسانا من العرى، وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع ربي ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام، وسقانا من الشراب، وكسانا من العرى، وهدانا من الضلال، وبصَّرنا من العمى، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا، الحمد لله رب العالمين اهـ والاستفهام في قوله عز وجل: ﴿أفغير الله أتخذ وليا﴾؟ للإنكار أي لا أتخذ غير الله وليًّا لا بطريق الاستقلال ولا بطريق الاشتراك، والاستفهام الإنكاري مسلط على المفعول الأول لا على الفعل للإعلام بأن المنكر هو اتخاذ غير الله وليا لا اتخاذ الولي مطلقا كما في قوله تعالى: ﴿أغيرَ الله أبغى ربا﴾وكما في قوله تعالى: ﴿أفغيرَ الله تأمرونيِّ أعبدُ أيها الجاهلون﴾ والمراد بالولي هنا المعبود، كما في قوله تعالى: ﴿ألَا لله الدينُ الخالص، والذين اتخذوا من دونه أولياءَ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفَى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون، إن الله لا يهدي مَنْ هو كاذبٌ كَفَّارٌ﴾ والعجيب الغريب أن تجد أن بعض المنتسبين للإسلام يتخذون من دون الله أولياء ويسمونهم بهذا الاسم ويجعلون على قبورهم قبابًا، وينادونهم ويستغيثون بهم طالبين منهم جلب

النفع أو دفع الضر كما كان يفعل أهل الجاهلية قبل الإسلام، وفي ذلك يقول الشيخ محمد بن علي الشوكاني في رسالته المسماة: شرح الصدور في تحريم رفع القبور:

أعادوا بها معنى سُوَاعَ ومثله ... يغوث وودٍّ ليس ذلك من ودي
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها ... كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم نحروا في سوحها من بحيرة ... أهلت لغير الله جهلا على عمد اهـ

وقد ندد الله تبارك وتعالى في مواضع كثيرة من كتابه الكريم بمن يتخذ غير الله وليا أي معبودًا كما في هذا المقام وكما قال عز وجل: ﴿قل من رب السمٰوات والأرض قل اللهُ، قل أفاتخذتم من دونه أولياءَ لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضَرًّا، قل هل يستوي الأعمى والبصيرُ أم هل تستوي الظلماتُ والنورُ، أم جعلوا لله شركاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فتشابه الخلقُ عليهم، قل اللهُ خالقُ كلِّ شيء وهو الواحدُ القهارُ.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ويومَ يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقولُ أأنتم أضللتم عبادي هٰؤلاء أم هم ضَلُّوا السبيل. قالوا سبحانك ما كانَ ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولٰكن مَتَّعْتَهُمْ وآباءَهُمْ حتى نَسُوا الذكر وكانوا قوما بُورًا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أم اتخذوا من دونه أولياءَ فاللهُ هو الوليُّ وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قديرٌ﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿قل إني أُمِرْتُ أن أكونَ أولَ مَنْ أَسْلَمَ ولا تَكُونَنَّ من المشركين﴾ أي قل إن الله تبارك وتعالى أمرني أن أكون أول من يخلص له التوحيد من هذه الأمة وأول المنقادين لأمره المصدقين بما أنزل عليَّ من الكتاب وأنه نهاني أشد النهي وأوكده أن أشرك بالله شيئا، وفي هذا قطعٌ لطمع المشركين الذين يودون أن يزحزحوا رسول الله ﷺ عن جادة توحيد الله عز وجل و إخلاص العبادة له والدعوة إلى صراط الله المستقيم، وفي هذا تقرير

للتوحيد والرسالة على أكمل وجه، ولاشك أن كل نبي هو أول المؤمنين من أمته، كما قال عز وجل عن موسى عليه السلام: ﴿قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ وقوله تعالى: ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم. من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه، وذلك الفوز المبين﴾ تقرير للبعث بعد الموت وتأكيد في تربية النفوس على الإيمان بذلك حتى يصير الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ملكة مستولية على مشاعر المؤمنين مركوزة أمام بصائرهم ليفعلوا الخير ويجتنبوا الشر ويفوزوا بجنات النعيم، ومعنى: ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم. من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه، وذلك الفوز المبين﴾ أي أنذر يامحمد أمتك وحذرهم من عذاب يوم القيامة لمن عصى الله عز جل وبخاصة من ارتكب أكبر الكبائر وهو الشرك بالله، وأعلمهم أن عذاب يوم القيامة عذاب شديد وأن يوم القيامة عظيم الهول فظيع الشأن لأنه يوم يجعل الولدان شيبًا، فالسعيد من صرف الله عز وجل عنه عذاب يوم القيامة، ومن يصرف الله عنه عذاب يوم القيامة فقد نجاه وأنعم عليه وأحسن إليه وشمله برحمته، ومن شمله الله عز وجل برحمته فقد فاز فوزًا عظيماً ظاهرًا كما قال عز وجل: ﴿فمن زُحْزِحَ عن النار وأُدْخِلَ الجنة فقد فاز، وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور﴾ فالفوز المبين الحق هو في دخول الجنة والنجاة من النار، وقد اشتمل قوله تبارك وتعالى: ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم * من يُصْرَفْ عنه يومئذ فقد رحمه، وذلك الفوز المبين. ﴾ على صور بلاغية حيث أكد الخوف بإن في قوله: ﴿إني أخاف﴾ وهو أفضل خلق الله أجمعين ثم فصل بين الفعل ومفعوله بالجملة الشرطية وهي قوله: ﴿إن عَصَيْتُ ربي﴾ وحذف جواب الشرط لدلالة قوله: إني أخاف عذاب يوم عظيم على هذا المحذوف. وفي قوله تعالى هنا: ﴿وذلك الفوز المبين﴾ مع قوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿فأما الذين آمنوا

وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته، ذٰلك هو الفوز المبين﴾ بالمجيء بالواو في الأولى وحذفها من الثانية، والمجيء بالضمير في الثانية وحذفها من الأولى، وليس في القرآن بهذا اللفظ غيرهما فهما من المتشـابه المثـاني، مع بعد موقعيهما في الكتاب الكريم.

قال تعالى: ﴿وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُوَ وإن يَمْسَسْكَ بخَيْرٍ فَهوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَهُوَ القَـاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ. قُلْ أَيُّ شيءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيد بَيْنِـي وبَيْنَكُمْ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا القُرآن لأُنذِرَكُمْ به وَمَن بَلَغَ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَـدونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلهة أُخرى، قُلْ لا أَشْهَدُ، قل إنَّما هُوَ إِلَٰهٌ وَحِدٌ وَإنني بَرِيءٌ مِمَّا تشْرِكُونَ﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أن لـه ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم وأمر نبيه وحبيبـه محمدًا ﷺ أن يوبخ المشركين وأن يقطع كلَّ أمل لهم فيما يحاولـونـه وَيَـوَدُّونـهُ من أن يميل رسـول الله ﷺ إلى آلهتهم، وأن يُعْلِمهُم ويُعلنَ لهم أنه أُمِـر أن يكون أول من أسلم من أمته وأنـه يخاف إن عصى ربَّهُ عذاب يوم القيامة، ضرب هنا مثـلا للحض على إخلاص التوحيد لله وحده والبراءةِ من كل معبود سـواه بِبَيَانِ أنه إن مسَّ الإنسـان ضُرٌّ لا يكشفه إلا الله وحده، وإن مسَّه خير فهو من الله وحده ولا يحفظه له أحد سواه تبارك وتعالى لأنه عـز وجل هو وحده القـادر على كل شيء النافعُ الضار الـذي لا يعجزه شيء ولا يكون في الكون شيء إلا بقضائه وقدره وحكمته وعلمه، حيث يقول هنا: ﴿وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فلا كاشِفَ له إلا هو وإن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ على كل شيء قَدِيرٌ. وَهُـوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَـادِهِ، وهو الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾ وقد روى الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنـتُ خَلْفَ النبي ﷺ يومـا فقال: يا غـلام إني أُعَلِّمُكَ كلماتٍ احفظ الله يَحْفَظكَ، احفظ الله تَجِدْهُ تجاهَكَ، إذا سأَلْتَ فـاسْأَلِ الله، وإذا اسْتَعنْتَ فاسْتَعِنْ بـالله، واعلم أن الأمة لو اجْتَمَعَتْ على أن ينفعـوك بشيء لم ينفعوك إلا بِشَيْءٍ قـد كَتَبَهُ اللهُ لكَ، وإنِ اجْتَمَعُـوا على أن يَضُرُّوكَ بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّـتِ الصُّحُفُ. قال ابن جرير

الطبريُّ رحمه الله: القولُ في تأويل قوله: ﴿وإن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فلا كاشف له إلا هو وإن يَمْسَسْكَ بخير فهو على كل شيء قدير﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: يا محمد، إن يُصِبْكَ اللهُ ﴿بِضُرٍّ﴾ يقول: بِشِدَّةٍ في دنياك، وشَظَفٍ في عيشك وضِيقٍ فيه، فلن يَكْشِفَ ذلك عنك إلا الله الذي أَمَرَكَ أن تكون أولَ من أَسْلَمَ لأمره ونهيه، وأَذْعَنَ له من أهل زمانك، دونَ ما يدعوك العادلون به إلى عبادته من الأوثان والأصنام ودُونَ كلِّ شيء سواها من خَلْقِهِ ﴿وإن يَمْسَسْكَ بخير﴾ يقول: وإن يُصِبْكَ بخير، أي برخاءٍ في عيش، وسَعَةٍ في الرزق وكثرةٍ في المال فتقرّ أنه أصابك بذلك «فهو على كل شي قدير» هو القادرُ على نفعك وضرِّك وهو على كل شيء يريده قادرٌ، لا يعجزه شيء يريده، ولا يمتنع منه شيء طلبه، ليس كالآلهة الذليلة المهينة، التي لا تقدر على اجتلاب نفع على أنفسها ولا غيرها، ولا دفع ضر عنها ولا غيرها، يقول تعالى ذكره: فكيف تعبد من كان هكذا؟ أم كيف لا تخلص العبادة وتُقِرُّ لمن كان بيده الضرُّ والنفع والثوابُ والعقابُ، وله القدرة الكاملة والعزَّةُ الظاهرة اهـ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ إثبات لصفة الفوقية والعُلوِّ لله عز وجل على جميع خلقه، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة المثبتين لله تعالى ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العُلى، النافين عن الله عز وجل ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ مع إيمانهم ويقينهم بأن الله عز وجل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وعُلُوُّ الله عز وجل على خلقه مركوز في الفطر السليمة ثابت بالكتاب والسنة في مواضع كثيرة فقد وصف الله تبارك وتعالى نفسه المقدسة بأنه استوى على العرش في سورة الأعراف وفي سورة يونس وفي سورة الرعد وفي سورة طه وفي سورة الفرقان وفي سورة السجدة وفي سورة الحديد، وقد وصف عز وجل كرسيه

بأنـه وسع السمٰوات والأرض وقـال عـز وجل : ﴿إليه يصعـد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ وقال هنا : ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ وقال في سورة النحل في وصف ملائكته : ﴿يخافون ربهم مـن فوقهم﴾ وقال في عيسى عليه السلام : ﴿إني متوفيك ورافعك إليَّ﴾ وقال : ﴿بل رفعـه الله إليه﴾ ويقول عز وجل : ﴿تعرج الملائكـة والروح إليه في يـوم كان مقـداره خمسين ألفَ سَنَةٍ﴾ وقال عز وجل : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ من ربك بالحق﴾ وقد روى البخاري في كتاب التـوحيد من صحيحه من حـديث أنس رضي الله عنه قـال : كانت زينب تَفْخَرُ على أزواج النبي ﷺ تقول : زَوَّجَكُنَّ أَهالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي الله تعالى من فـوق سبع سماوات . كما روى البخـاري من حديـث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : فإذا سألتم الله فَسَلُـوهُ الفِرْدَوْسَ فإنه أوسَطُ الجنة وأَعْلَى الجنة وفوقَه عَرشُ الرحمن ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنة ، وقد ذكر الشيخ عليُّ ابن محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي في شرحـه للعقيدة الطحاوية على قول الطحـاوي رحمه الله : وهـو مستغن عن العـرش ومـا دونـه محيطٌ بكل شيء وفوقهُ ، وقـد أَعْجَزَ عن الإحاطة خلقـه قال ابن أبي العز رحمه الله : وأمـا كونه فوق المخلوقـات فقال تعالى : ﴿وهو القاهر فـوق عباده﴾ ﴿يخافون ربَّهم من فوقهم﴾ ثم قال رحمه الله : وإنما يثبت هذا المعنـى من الفوقية في ضمن ثبوت الفوقيـة المُطْلَقَةِ من كل وجه فلـه سبحانـه وتعالى فوقيـةُ القَهْر وفوقيـةُ القَدْرِ وفـوقيةُ الـذات ، ومن أثبت البعض ونَفَى البعضَ فقـد تَنَقَّصَ وعُلُوُّهُ تعـالى مُطْلَقٌ من كل الوجوه اهـ وقـوله تبارك وتعالى ﴿قُلْ أي شيءٍ أكبرُ شَهادةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وأُوحِيَ إليَّ هٰذَا القـرآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدونَ أَنَّ مَـعَ الله آلِهَةً أُخْرَى ، قُلْ لاَ أَشْهَدُ ، قُـلْ إِنَّما هُوَ إِلَٰه وَاحِـدٌ وإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ تقريع للمشركين بالله المكـذبين بالرسالة المنكرين للبعث وتـوبيخ لهم على ردهم مـا دعـاهم إليـه محمـد ﷺ من وجـوب الإيمان بـالله

ورسولـه واليوم الآخر مع أنـه قد بَرْهَـنَ على دعواه بأعظم شهادة في الـوجود وأكبر بينة وهي شهادة الله الملك الحق المبين الذي أيـده بالقرآن الذي تحداهم بأقصر سورة منـه، المقرر لعموم رسـالة محمد ﷺ وشمـولها لمن تصل إليه من الإنس والجن من لدن بعثتـه ﷺ إلى يوم القيـامة، قال ابن جـرير رحمه الله: القــول في تأويل قــولـه: ﴿قل أي شيء أكبر شهــادةً قل الله شهيــد بيني وبينكم﴾ قال أبو جعفر: يقول تعـالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الـذين يكذبون ويجحدون نبـوتك من قومك: أيُّ شيءٍ أعظم شهادةً وأكبر؟ ثم أخبرهم بأن أكبر الأشيـاء شهادةً ﴿الله﴾ الذي لا يجوز أن يقع في شهـادتـه مـا يجوز أن يقـع في شهـادة غيره من خلقـه من السهـو والخطأ والغلط والكـذب، ثم قل لهم: إن الـذي هـو أكبر الأشيـاء شهادةً شهيدٌ بيني وبينكم بالمُحِقِّ منا من المُبْطِلِ، والرشيد منا في فعله وقوله من السفيه، وقد رضِينا به حكماً بيننا. اهـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وكلُّ أحــد يعلم أن الله أكبر شهــادةً، فلما قــال: «قل أي شي أكبر شهــادةً» عُلِمَ أن الله أكبر شهـادة من كل شيء، فقيل لـه: ﴿قل الله شهيـد بيني وبينكم﴾ ولما قال: ﴿اللهُ شهيدٌ بيني وبينكم﴾ كان في هذا ما يغنى عن قولـه: إن الله أكبر شهادةً، وذلك أنَّ كـونَ اللهِ أكبر شهادةً هـو معلوم، ولا يثبت بمجرد قولـه «أكبر شهادةً» بخلاف كونه شهيـدا بينه وبينهم فإن هذا ممـا يُعْلَمُ بـالنص والاستـدلال، فينظـر: هل شهد الله بصـدقـه وكـذَّبهم في تكذيبه؟ أم شهد بكذبـه وصدَّقهم في تكذيبه؟ وإذا نظر في ذلك علم أن الله شهد بصدقه وكذبهم بالنوعين من الآيـات: بكلامه الذي أنزله، وبما بين أنه رسول صادقٌ، ولهذا أعقبه بقولـه: ﴿وأوحي إليَّ هٰذا القرآن لأنذركم به ومن بَلَغَ﴾ فإنَّ هذا القـرآن فيه الإنذارُ، وهو آيـةٌ شهد بها أنه صادق، وبـالآيات التي يُظْهِرُهـا في الآفاق وفي الأنفس حتى يتبين لهم أنـه الحق، وقولـه في هذه

الآية: ﴿قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ وكذلك قوله: ﴿قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم﴾ وكذلك قوله: ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا﴾ وكذلك قوله ﴿هو أعلم بما تُفِيضُون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم﴾ فَذَكَرَ سبحانه أنه شَهيدٌ بينه وبينهم ولم يقل: شاهدٌ علينا، ولا شاهدٌ لي، لأنه ضَمَّنَ الشهادة الحُكْمَ فهو شهيد يحكم بشهادته بيني وبينكم، والحُكْمُ قَدْرٌ زَائدٌ على مجرد الشهادة، فإن الشاهد قد يؤدي الشهادة. وأما الحاكمُ فإنه يحكم بالحق لِلْمُحقِّ على المُبْطِلِ ويأخذ حَقَّهُ مِنْه، ويعامل المحقَّ بما يستحقه والمبطلَ بما يستحقه. وهكذا شهادة الله بين الرسول ومتبعيه وبين مُكَذِّبِيهِ، فإنها تتضمن حكم الله للرسول وأتباعه، يحكم بما يظهره من الآيات الدالة على صدق الرسول على أنها الحق، وتلك الآيات أنواع متعددة ويحكم له أيضا بالنجاة والنصر والتأييد، وسعادة الدنيا والآخرة، ولمكذبيه بالهلاك والعذاب، وشقاء الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ فَيُظْهِرهُ بالدلائل والآيات العلمية التي تُبَيِّنُ أنه حق، ويُظْهِرهُ أيضا بنصره وتأييده على مخالفيه، ويكون منصورًا كما قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزانَ ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ﴾ فهذه شهادةُ حُكْم كما قدَّمنا ذلك في قوله: ﴿شَهِدَ اللهُ﴾ اهـ وقوله تعالى: ﴿أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد، قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون﴾ تأكيدٌ على إيجاب التوحيد وتحذيرٌ من الشرك بأبلغ وجوه التأكيد وأعظم طرق البيان حيث أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن ينكر على المشركين ادعاءهم لله شريكا مُورِدًا ذلك بصيغة الاستفهام الإنكاري التوبيخي مفيدا أن من يدعى لله شريكا فهو شاهد زُورٍ يجب على كل عاقل أن يحذر من مثل هذه الشهادة الفاجرة وأن يجتنبها وأن يخلص التوحيد لله وحده وأن يتبرأ من الشرك والمشركين.

قال تعالى: ﴿الَّـذِينَ آتَيْنَاهُم الكِتَابَ يعرفـونه كما يَعْرِفُونَ أَبْنَـاءَهُمْ، الَّذِينَ خَسِروا أَنفُسَهُمْ فهم لا يُؤمِنُونَ* وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبا أو كَذَّبَ بآياتِهِ، إنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. ويَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ للَّذِينَ أَشْرَكوا أَيْنَ شُرَكَاؤكم الَّذِينَ كُنْتُمْ تَـزْعُمُونَ. ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إلاَّ أن قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَـا مَاكُنَّا مُشْرِكِينَ. انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ، وضَلَّ عَنْهُمْ ما كانوا يَفْتَرُونَ﴾

بعد أن بَيَّـنَ الله تبارك وتعالى أنه شهد لرسوله ﷺ وأن شهادة الله هي أَجَلُّ شهادة وأكبرها وأعظمها أردف ذلك هنا ببيان أن أهل العلم من أهل الكتب السابقة موقنون بمحمد ﷺ وأنه رسـول الله وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم بسبب صفاته التي جاءت في الكتب السماوية السابقة حيث كانت رسُل الله صلى الله عليهم وسلم يـوصون أممهم بـه، ويحضونهم على اتباعـه إذا بُعِثَ، وقد وَقَفَ آخـرُ أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم خطيبـا يُبَشِّرُ بمحمد ﷺ يقول لهم: «يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يَدَيَّ من التوراة ومبشرا بـرسول يأتي من بعـدى اسمـه أحمد» وقد أشـار الله تبارك وتعـالى إلى شهادة أهل العلم من أهل الكتاب الأول بتصـديق محمد ﷺ في غير موضع من القـرآن العظيم حيث يقول تبـارك وتعالى: ﴿ويقـول الذين كفـروا لست مُرْسَـلاً، قل كفى بالله شهيـدا بيني وبينكم ومن عنده عِلـمُ الكتاب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قل أرأيتم إن كـان من عند الله وكفرتم به وشهـد شاهدٌ من بني إسرائيل على مثلـه فآمـن واستكبرتـم إن الله لا يهدي القوم الظـالمين﴾ كما أشار الله تبـارك وتعالى إلى معـرفة أهل الكتاب أن محمـدا هو رسـول الله حقا وصدقـا في مواضع من كتابـه الكريم حيث يقول: ﴿ولما جـاءهم كتاب من عنـد الله مُصَدِّقٌ لما معهم وكـانوا من قبل يستفتحـون على الذين كفـروا فلما جـاءهم ما عـرفوا كفـروا به، فَلَعْنَـةُ اللهِ على الكافـرين﴾ وكما قال عـز وجل

﴿الـذين آتيناهـم الكتاب يعـرفـونه كما يعـرفـون أبناءهـم وإن فريقـا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمـون﴾ وقال هنا: ﴿الذيـن آتيناهم الكتاب يعرفـونه كما يعرفون أبنـاءهم، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ وقـد قال محمد ابن إسحاق في السيرة النبوية: وحدثني عـاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن محمود بن لبيـد عن عبد الله بن عباس قال: حـدثني سلمانُ الفارسي من فيـه وساق الحديث إلى أن قـال: لحقت بصـاحب عمـورية فأخبرتـه خبرى فقال: أقم عنـدي، فأقمت عند خير رجل، على هـدى أصحابـه وأمرهم، قال: واكتسبت حتى كانت لي بقراتٌ وغُنَيْمَةٌ، قال: ثم نزل به أمْرُ الله، فلما حُضرَ قلت له: يا فلان، إنى كنتُ مع فلان فأوصى بي إلى فلان، ثم أَوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فُلَانٌ إليك، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: أي بُنَى واللهِ ما أَعْلَمُهُ أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمُرُكَ به أن تأتيه، ولكنه قد أَظَلَّ زمـانُ نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مُهَاجِـرهُ إلى أرض بين حَرَّتين، بينهما نخل، به عـلامـاتٌ لا تخْفَى، يأكل الهديـة، ولا يأكل الصـدقة، وبين كتفيـه خـاتم النبـوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فـافعل، الحديث. وقـوله عـز وجل: ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ تأكيد لتقـرير ما ذكره تبارك وتعالى في الآيـة الثانية عشرة من هذه السـورة الكريمة ببيان أن الـذين ضيعوا أنفسهم حيث غبنوها حظها وأوبقـوها وأتلفوا أغلى رأس مالهم فهؤلاء بسبب انتكاس فطـرتهم وانطماس بصيرتهم لا يؤمنون بـالله ولا يصدقون بـرسول الله ﷺ مهما جاءهم من الآيـات ومهما تواترات على صدقـه ﷺ من الشهادات، إذ قد شهد الله عز وجل له وعرفه أهل الكتاب كما يعرفون أبناءهم بأنه النبي المبعوث بدين إبراهيم الذي يهاجر إلى أرض سبخة ذات نخيل بين لابتين، في كتفه خـاتم النبوة كزر الحَجلة، يأكـل الهدية ولا يأكل الصدقة في عـلامات

أخرى لا تخفى، وقوله عز وجل: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذَّبَ بآياته، إنه لا يُفْلِحُ الظالمون﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذَّب بآياته، إنه لا يفلح الظالمون﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن أشدُّ اعتداءً وأَخْطأُ فِعْلاً وأخطلُ قولا ﴿ممن افترى على الله كذبا﴾ يعنى: ممن اختلق على الله قيلاً باطلا واخترق من نفسه عليه كذبا، فَزَعَمَ أنَّ له شريكا من خلقه، وإلها يُعْبَدُ مِن دونه، كما قاله المشركون من عَبَدَةِ الأوثان، أو ادَّعَى له ولدا أو صاحبة كما قالته النصارى ﴿أو كذَّب بآياته﴾ يقول: أو كذَّب بحججه وأعلامه وأدلته التي أعطاها رسله على حقيقة نبوتهم، كذبت بها اليهود ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ يقول: إنه لا يفلح القائلون على الله الباطل، ولا يدركون البقاءَ في الجنان، والمفترون عليه الكذبَ، والجاحدون بنبوة أنبيائه اهـ وقد جمع المشركون واليهود والنصارى أفحش الظلم حيث كَذَّبُوا بما جاء به رسول الله ﷺ من الحق، وضمُّوا إلى هذا التكذيب افتراءَ الكذب على الله حيث كان المشركون إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، وحيث كان اليهود والنصارى يزعمون أن شريعتهم غير قابلة للنسخ وأن الله أمرهم وعهد إليهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار، وقالت اليهود: عزيرٌ ابنُ الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بنات الله، ثم ذكر عز وجل مشهدًا من مشاهد القيامة يُعَجِّبُ فيه رسولَ الله ﷺ من أن الكذبَ والافتراء يلازم أعداء الله حتى في عرصات القيامة إذ يحلفون بالله ربهم أنهم ما كانوا مشركين حيث يقول عز وجل هنا: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ للذين أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤكم الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تكُن فِتْنَتُهُمْ إلاَّ أن قالوا واللهِ ربِّنَا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ * انظر كَيْفَ كَذَبُوا على أنفسهم، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وفي إيراد هذا

المشهد العظيم تقرير للحشر والبعث بعد الموت الذي أنكره المشركون أشد الإنكار مع ما تضمنه هذا المشهد من توبيخ المشركين وتقريعهم على رءوس الأشهاد وبيان حيرتهم ويأسهم من شفاعة أصنامهم وأوثانهم لهم، وقد كانوا يزعمون أنهم يشفعون لهم عند الله عز وجل، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ويعبدون من دونِ الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هـٰؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ ولذلك يوبخهم عز وجل في هذا المقام وقد نزلت بهم الطامَّة والداهية التامة حيث يناديهم: ﴿أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ أي وما كان جوابهم ومعذرتهم ومقالتهم إلا أن حلفوا بالله ربهم أنهم ما كانوا مشركين، وظنوا أن كذبهم في عرصات القيامة ينفعهم، قال أبو إسحاق إبراهيم بنُ السَّرِيِّ الزجَّاج في كتاب معاني القرآن وإعرابه: وتأويلُ هذه الآية تأويلٌ حسَنٌ في اللغة لطيف، لا يفهمه إلا مَنْ عرف معانى الكلام وتَصَرُّفَ العرب في ذلك، والله جل وعز ذكر في هذه الأقاصيص التي جرت في أمر المشركين وهم مُفْتَتِنونَ بشركهم أَعلم الله أنه لم يكن افتتانهم بشركهم وإقامتهم عليه إلا أن تبرَّأوا منه وانتفوا منه، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين ومِثل ذلك في اللغة أن ترى إنسانا يُحِبُّ غاويا فإذا وقع في هلكة تبرأ منه فتقول له: ما كانت محَبتكَ لفلان إلا أن انْتَفيْتَ منه اهـ وقد نقل المفسرون عبارة الزجاج هذه بألفاظ، فقال محيي السنة البغوي في معالم التنزيل: وقال الزجاج: في قوله: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ معنى لطيف، وذلك مثل الرجل يُفْتَنُ بمحبوب، ثم يصيبه فيه محنة، فيتبرأ من محبوبه، فيقال: لم تكن فتنته إلا هذا، كذلك الكفار فُتِنُوا بمحبة الأصنام، ولما رأوا العذاب تبرأوا منها، يقول الله عز وجل: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ ومحبتهم للأصنام ﴿إلا أن قالوا

والله ربنا ما كنا مشركين﴾ اهـ وقال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: وقال أبـو إسحاق الـزجـاج: تأويل هـذه الآية لطيف جـدا، أخبر اللهُ عـز وجل بقصص المشركين وافتتـانهم بشركهم، ثم أخبر أن فتنتهـم لم تكن حين رأوا الحقـائق إلا أن انتفوا من الشرك، ونظير هـذا في اللغـة أن تـرى إنسانـا يحِبُّ غاويا، فإذا وقع في هلكة تبرأ منه، فيقال: ما كانت محبتك إياه إلا أن تبرأت منه اهـ وقال الفخر الرازيُّ: قال الزجاج: تأويل هذه الآية حَسَنٌ في اللغة لا يعرفه إلا من عرف معاني الكلام وتَصَرُّف العرب في ذلك، وذلك أن الله تعالى بيَّـنَ كونَ المشركين مفتونين بشركهم متهـالكين على حبه، فأعلم في هذه الآية أنه لم يكن افتتـانهم بشركهم و إقامتهم عليـه إلا أن تبرأوا منه وتباعـدوا عنه، فحلفوا أنهم مـا كانوا مشركين، ومثـاله: أن ترى إنسانـا يحب غاويا مـذموم الطريقة، فإذا وقع في محنة بسببه تبرأ منه، فيقـال له: ما كانت مَحَبَّتكَ لفلان إلا أن انتفيت منـه اهـ وقـد ساق ابن الجوزي في تفسيره قـول الزجـاج بعبارة أخرى، وقد أشار ابن تيميـة رحمه الله إلى أن من شأن النفس الخائنة أن تدافع وتجادل الله بالبـاطل حيث قال رحمه الله: وهذا من شأن النفس حتى إنـه يوم القيامة يريد أن يدفع عن نفسه ويجادل الله بالباطل قال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون لـه كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء، ألا إنهم هم الكـاذبـون * استحـوذ عليهم الشيطـان فأنسـاهم ذكـر الله، أولَئك حـزب الشيطـان، ألا إن حـزب الشيطـان هم الخاسرون﴾ وقـال تعـالى: ﴿ويـوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون. ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالـوا والله ربنا مـا كنا مشركين * انظر كيف كـذبُوا على أنفسهم، وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾. وقد جاءت الأحاديث بأن الإنسان يجحد أعمالـه يوم القيـامة حتى يشهـد عليه سمعُـهُ وبصرهُ وجوارحـهُ، وقال تعـالى: ﴿ومـا كنتم تستترون أن يشهـد عليكم سمعكم ولا أبصَـارُكُمْ ولا

جلـودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً ممـا تعلمون﴾ اهـ وقـوله تعـالى: ﴿انظـر كيف كذبـوا على أنفسهم، وضل عنهم ما كـانوا يفترون﴾ قـال ابن جرير رحمه الله: ومعنى النظر في هذا الموضـع النظر بالقلب لا النظر بالبصر وإنما معنـاه: تَبَيَّـنْ فـاعلم كيف كـذَبُـوا في الآخرة. اهـ والمقصـود تعجيب رسـول الله ﷺ وغيره من كـذبهم الصريح بـإنكـار صـدور الإشراك عنهم في الدنيـا، ومعنى ﴿وضل عنهم ما كـانوا يفترون﴾ أي وغـاب عنهم أصنامهم وأوثانهم بعد أن زَيَّل الله بين الأصنام وعابديها وهذا شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنـا به رسلنا فسوف يعلمون * إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يُسْحَبونَ * في الحميم ثم في النار يُسْجَرونَ * ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركـون * من دون الله قالوا ضلـوا عنَّابل لم نكن نـدعو من قبل شيئا، كذلك يُضل الله الكافرين﴾

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَن يَستَمِعُ إليكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أن يَفْقَهُوهُ وفي آذانِهِمْ وقرا، وإن يَـرَوْا كُلَّ آيةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا، حتى إذا جـاءوك يجادلونك يَقُولُ الَّـذِينَ كفرُوا إِنْ هَٰذَا إلا أَسـاطِيرُ الأَولِينَ* وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وينئـون عنه وإن يُهْلِكُونَ إلاَّ أَنفُسَهم وَما يَشْعـرُونَ. وَلَو تَرَى إذ وُقِفوا على النَّارِ فَقَـالوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بآيات رَبِّنَا ونكونَ من المُؤْمِنينَ. بل بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادوا لِـمَا نُهُوا عَنْهُ وإنَّـهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

بعـد أن بيَّـنَ الله تبـارك وتعـالى أن أهل العلم من أهل الكتـاب موقنـون بمحمد ﷺ وأنـه رسول الله حقًـا وصدقا وأنهم يعـرفونـه كما يعرفـون أبناءهم وبيَّن تبارك وتعالى أن أشد الناس ظلما من افترى على الله كذبا أو كذب بآياته وذكر مشهـدا من مشاهـد القيامـة يُعَجِّب فيه رسـول الله ﷺ من أن الكذب والافتراء من صفات أعداء الله حتى في عـرصات القيامة، مع مـا يفيده ذكر هذا المشهـد من تقرير النشر والحشر وتـوبيخ المشركين وتقريعهم على رءوس الأشهاد يـوم القيامة شرع هنـا في زيادة تقرير مـا تضمنه المقام المتقـدم ببيان حال المشركين عند سماع القرآن في الدنيا، وبيان ما سيصدر عنهم يوم الحشر الأكبر، وما يلاقونـه من الحسرة والندامة يوم القيامة، حيـث ذكر هنا مشهدا من مشاهـد الآخرة يُظْهِـرُ فيه الكافـرون حسرتهم على تكذيبهم بـآيات ربهم ويتمنـون أن يرجعـوا إلى الدنيـا ليُصَدِّقـوا رسول الله ﷺ وأعلم الله عـز وجل رسـولـه ﷺ أنهم لو رُدُّوا إلى الـدنيـا لعـادوا إلى تكذيب رسـول الله ﷺ بعـد معاينتهم نـار جهنم بأبصارهم، وفي ذلك يقول الله تبـارك وتعالى: ﴿ومنهم من يَسْتمع إليك وجعلنا على قلـوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقـرًا﴾ قال ابن جـريـر الطبري رحمه الله: القـول في تأويل قـولـه: ﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلـوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرًا﴾ قـال أبو جعفر:

يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام من قومك يا محمد ﴿من يستمع إليك﴾ يقول: من يستمع القرآن منك، ويستمع ما تدعوه إليه من توحيد ربك وأَمْرِه ونَهْيِه ولا يفقه ماتقول، ولا يُوعيه قلبه، ولا يتدبره، ولا يصغى لـه سمعه ليتفقهه فَيَفْهَمَ حُجَجَ الله عليه في تنزيله الذي أنزله عليك، إنما يَسْمَعُ صوتك وقراءتَك وكلامَكَ، ولا يعقل عنك ما تقول، لأن الله قد جَعَلَ على قلبه ﴿أَكنَّةً﴾ وهي جمع كِنَانٍ وهو الغِطاء، مثل سِنَانٍ وأسنةٍ، يقال منه: أَكْنَنْتُ الشيءَ في نفسي، وكَنَنْتُ الشيء إذا غَطَّيته، ومن ذلك ﴿بَيْضٌ مكنون﴾ وهو الغطاء، ومنه قولُ الشاعر:

تَحْـتَ عَيْـنِ كِنَـانُنَا ظِـلُّ بُـرْدٍ مُرَحَّـلُ

يعنى: غطاؤهم الذي يكنهم «وفي آذانهم وقرا» يقول تعالى ذكره: وجعل في آذانهم ثِقَلاً وصَمَمًا عن فهم ما تتلوه عليهم والإصغاء لما تدعوهم إليه، والعَرَبُ تفتح الواو من الوَقْـر في الأُذن وهو الثِّقَلُ فيها، وتكْسِرُها في الحمل فتقول: هو وِقرُ الدابَّة، ويقال من الحمل: أو قَرتُ الدابةَ فهي مُوقَرَةٌ، ومن السَّمْع وَقَرْتُ سمعه فهو موقور، ومنه قول الشاعر:

ولي هَامَةٌ قد وقَّرَ الضَّرْبُ سَمْعَهَا

وقد ذُكِرَ سماعا منهم: وُقِرَتْ أُذُنُهُ، إذا ثقلت فهي موقورة، وأوقرتِ النخلة فهي موقِرٌ، كما قيل: امرأة طامث، وحائضٌ، لأنه لاَحَظَّ فيه للمذكر، فإذا أريد أنَّ الله أوقرها قيل: مُوقَرةٌ، وقال تعالى ذكره: «وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه» بمعنى: أن لا يفقهوه كما قال: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لكم أن تَضلُّوا﴾ بمعنى: أن لا تضلوا لأن الكنَّ إنما جُعِلَ على القلب لئلا يفقهه لا ليفقهه اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإن يَرَوْا كُلَّ آيةٍ لا يؤمِنُوا بِهَا، حتى إذاجَاءوكَ يُجَادِلونك يَقُولُ الَّذينَ كَفَروا إن هٰذا إلا أساطيرُ الأَوَّلِينَ﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإن ير هؤلاء العادلون

بربهم الأوثـان والأصنام الـذين جَعَلْتُ على قلـوبهم أكنَّة أن يفْقهوا عنـك ما يسمعـون منك ﴿كلَّ آيـة﴾ يقول: كلَّ حجـة وعـلامة تـدلُّ أهلَ الْـحِجَى والفهم على توحيد الله وصدق قولك وحقيقة نبوتك ﴿لا يؤمنوا بها﴾ يقول: لا يصدقون بها ولا يقـرون بأنها دالة على ما هي عليه دالـة ﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك﴾ يقـول: حتى إذا صاروا إليك بعـد معاينتهم الآيات الـدالة على حقيقـة ما جئتهم بـه «يجادلونك» يقـول: يخاصمونك «يقـول الذين كفـروا» يعنى بذلك: الـذين جحدوا آيات الله وأنكروا حقيقتها يقـولون لنبيِّ الله ﷺ إذا سمعوا حجج الله التي احتج بها عليهم، وبَيَانَهُ الذي بَيَّنَهُ لهم «إنْ هذَا إلا أساطير الأوّلين» أي مـا هذا إلا أساطير الأولين، والأسـاطير: جمع إسطارة، وأُسطورة مثل: أُفكُوهة وأُضْحوكة، وجـائزٌ أن يكون الواحد «أَسطارًا» مثل: أَبيات وأَبابيت وأقوال وأقاويل، من قول الله تعالى ذكره: ﴿وكتابٍ مسطور﴾ من سطـر يسطر سطرا، فـإذا كان من هـذا فإنَّ تأويله: مـا هذا إلا مـا كتبه الأولون اهـ والمراد من قول الطبري رحمه الله: وجـائزٌ أن يكون الواحد أسطارا هو أن تكون أساطير جمع أسطار وأسطار جمع سطر فأساطير جمع الجمع مثل أبابيت جمع أبيات وأبيات جمع بيت فأبابيت جمع الجمع وكذلك أقاويل جمع أقوال، وأقوال جمع قول، فأقـاويل جمع الجمع، ومعنى قوله عز وجل ﴿وهم يَنْهـونَ عَنْهُ وَيَنْئَـونَ عَنْـهُ﴾ أي وهـؤلاء المشركون الجاهلـون، المفترون على الله الكذب المكذبون بآيات الله، المجادلون بالباطل الواصفون كلام الله الذي هو أحسن الحديث وأصدقه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بأنه أساطير الأولين وخـرافات المتقدمين، هـؤلاء الجاهلون قد انغمسـوا في الكفر والضلال إلى الغاية القصوى ومع ذلك فإنهم لم يكتفوا بجريمة وصف القرآن بأنه أسـاطير الأولين بل بذلـوا كلَّ ما يطيقـون في نهي الناس عن الاستماع إلى رسول الله ﷺ مخافة أن تجذبهم حلاوة ما يسمعـون منه إلى الدخول في الإسلام

كما ضمُّـوا إلى ذلك كذلك حِـرْصَهُمْ على النأى والتبـاعد عن رسـول الله ﷺ إظهـارًا لغايـة نفورهم منـه وتأكيدا لِنَهْيهم عنـه، ولقد كـانت قريش تبـذل قصارى جهدها في تنفير العرب عن رسول الله ﷺ ويصفونه بأنه ساحر وبأنه شاعر وبأنه مُعَلَّمٌ مجنون، ويقـولون: لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلكم تغلبون، ومعنى قـوله: ﴿وَيَنْئَونَ عنـه﴾ أي ويتباعـدون عنه، وفي قولـه عز وجل: ﴿وَهُمْ يَنْهَـونَ عَنْهُ وَيَنْئَـوْنَ عَنْهُ﴾ أسلوب من أسـاليب البديـع وهو الجناس المُعَرَّف في علم البـديع من علوم البلاغة بأنـه تشابه لفظين في النطق واختـلافهما في المعنى، وهـو أنواع منهـا: الجنـاس المضـارع وهو مـا يكـون باختـلاف ركنيه في حـرفين لم يتباعدا مَخْرَجًـا، إما في الأول نحـو قولهم: ليل دامس وطـريق طامس، وإمـا في الوسط نحـو قولـه عز وجل هنـا: ﴿وَهُمْ يَنْهَونَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ وإما في الآخر نحو قوله صلى الله عليه وسلم: الخيل معقود في نواصيها الخير ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وإن يُهْلِكُونَ إلا أنفسهم ومـا يشعرون﴾ أي ومـا يُتْلِفُ ولا يُعْطِبُ هؤلاء المكـذبون الـذين يَنْهَوْنَ عنـه وينأون عنـه إلا أنفسهم ولا يعـود وبـالُ عملهم إلا عليهم وهم لا يُحِسُّـون بفداحة جُرمهم وفظاعة ما يحيق بهم وما يَجُرُّهُ عليهم كفرهم بالله وصدهم عن سبيله حيث يحملون يوم القيامة أوزارهم ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم كما قـال عز وجل: ﴿وإذا قيل لهم مـاذا أنزل ربكم قـالوا أسـاطير الأولين. ليحملوا أوزارهم كـاملة يوم القيامة ومن أوزار الـذي يضلونهم بغير علم، أَلا سَاءَ ما يَزِرُونَ﴾ وقـولُهُ تبارك وتعالى: ﴿ولو ترى إذ وُقِفوا على النـار فقالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بَدَا لهمْ ما كانوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَـوْ رُدُّا لَعَـادُوا لمَا نُهوا عَنْهُ وَإنهم لكـاذبـون﴾ هذا مشهـد آخـر من مشاهد القيامة يُبَيِّـن اللهُ تبارك وتعالى فيه حال الذين كذبوا بالحق لما جاءهم وكانوا ينْهـونَ عنه وينأون عنه ويُقرر حـالة من حالاتهم المفزعـة في عرصات

القيامة لتأكيد ما تضمنه ما حذرهم به الله عز وجل حيث قال في الآية السابقة: ﴿وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ والمخاطب في قوله عز وجل: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ كلُّ من تتأتي منه الرؤية، للإشارة إلى بيان نهاية سُوء أحوالهم وبلوغها الغاية القصوى من الشناعة والفظاعة حتى أصبحت لا يختص باستغرابها راءٍ دُونَ راءٍ بل كل من تتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها وقد حُذِفَ جواب «لو» ثقة بظهوره، وإشارة إلى الذهاب فيه كلَّ مذهب يعني: لرأيت أمرا فظيعا، وهَوْلاً خطيرا، ومنظرًا هائلا وقد أفرد علماء البلاغة للحذف بابا في علم المعاني من علوم البلاغة، واعتبروه من أعظم أساليب الفصاحة حتى قال عبد القاهر الجرجاني: إنه بابٌ دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى فيه تَرْكَ الذكر أفصح من الذكر الخ.. ومعنى قوله: «وقِفُوا على النار» أي عرِضوا على النار، قال ابن جرير رحمه الله: وقيل «وقفوا» ولم يقل: أُوقفوا، لأن ذلك هو الفصيح من كلام العرب اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فقالوا ياليتنا نُرَد ولا نُكَذِّب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين* بل بدَا لهم ما كانوا يخفونَ من قبلُ ولو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ورأَوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال فعند ذلك قالوا: ﴿يا ليتنا نُرَدُّ ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ يَتَمَنَّوْنَ أن يُرَدُّوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملا صالحا ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين قال الله تعالى: ﴿بل بَدَا لهم ما كانوا يُخْفون من قبل﴾ أي بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبله بيسير: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلى أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين. انظر كيف كَذَبوا على أنفسهم﴾ اهـ ومعنى

«بل» في قوله تعالى: ﴿بل بَدَا لهم ما كـانوا يُخْفُونَ من قبل ولو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ للإضراب الإبطالي أي ليس الحال كما زعموا، فهي بمعنى «كلا» والمعنـى ليس الحامل لهؤلاء الكفرة على تمنيهم وطلبهم الـرجعة إلى الـدنيا هـو الـرغبـة في الإيمان بل حملهم على ذلك ما ظهـر لهم من أنَّ مـا أضمروه من الكـذب على الله وزعمهم بأنهم ما كانـوا مشركين لا ينفعهم وأنه لن ينجـو إلا من آمن في الـدنيـا ومـات على الإيمان وبين عـز وجل أنهم لـو رجعوا إلى الدنيـا لرجعوا إلى الكفر وأنهم متمرسون على الكـذب، كما قال عز وجل قبل آيتين من هذه الآيـة ﴿وإن يَرَوْا كل آية لا يؤمنـوابها﴾ وفي هذه الآية دليل قطعي على شمول علم الله عز وجل لما كان وما يكون وما هو كائن وأنه عـز وجل يعلم ما لا يكـون لو كـان كيف يكون، وهـو مذهب أهل السنـة والجماعة.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ. وَلَو تَرَى إِذْ وُقِفُوا على رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالحقِّ، قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا، قَالَ فَذُوقوا العَذَابَ بِمَا كنتُمْ تكْفُرُونَ. قَـدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُـوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُم السَّـاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يا حَسْرَتَنَا عَلَى مَـا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ، أَلَا سَاءَ مـا يَزِرُونَ. وَمَا الحَيَاةُ الـدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وللدارُ الآخـرةُ خَيْرٌ للذين يتَّقُونَ، أفلا تَعْقِلُونَ﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعـالى مشهدا من مشاهد القيامة بَيَّـنَ فيه موقف الذين كفروا حين عرضوا على النار وما أصابهم من الحسرة والندامة وأنهم تَمَنَّوْا أن يُرَدُّوا إلى الحياة الدنيا دار العمل ليـؤمنوا وبيَّـنَ العليمُ الخبيرُ أنهم لو رُدُّوا لعادوا لما نهُوا عنـه، مما يدل على أنهم مَجْبُـولون على الكذب، مطبـوعون على الكفر، مُعَوَّدون لمخالفة الأمر والنَّهْي بيَّـنَ عز وجل هنا: أن هؤلاء الكافرين لو رجعوا إلى الحياة الدنيا لرجعوا إلى الكفر وتكذيب المرسلين ولقالوا وردَّدوا ما كانوا يقولـونه وَيُرَدِّدُونهُ قبل معاينة النار من مقـالتهم: ما هي إلا هذه الحياةُ الدنيا لا مَعَادَ بعدها وما نحن بمبعوثين، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إلا حَيَاتُنَـا الدُّنْيَا وما نحن بِمَبْعُـوثينَ﴾ ثم ذكر عز وجل مشهـدًا آخر من مشاهد القيـامة يبين فيه موقف الذين كفروا حين يُعْـرَضُونَ على ربهم وما يَئُولُ إليـه حالهم فقال عـز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُـوا عَلَى ربهم، قال أَلَيْسَ هٰذا بالْحَقِّ، قـالُوا بَلَى ورَبِّنَا، قال فَذُوقُوا العَـذَابَ بما كُنْتُمْ تَكْفرونَ﴾ أي ولو تـرى يا من تتأتي منـه الـرؤية هـؤلاء الكـافريـن المنكرين للبعث بعـد الموت المكـذبين بأن العباد مـوقـوفون بين يـدي ربهم مجزيـون بأعمالهم لو تـراهم في موقفهم عند عرضهم على الله عز وجل يوم القيامة أي لرأيتهم في منظر تقشعر منه الأبدان ويشيب منـه الوِلْدَانُ وقد سألهم ربُّهم سؤالَ تـوبيخ وتقريع قائلا

لهم : أليس هذا البعثُ والنشرُ بعد المات الذي كنتم تنكرونه في الدنيا حقا؟ فأجابـوا قائلين : بلى والله إنـه لَحَقٌّ وقد أكـدوا إقرارهم بـالقسم إظهارا لكمال يقينهم بحقيقته، و إيذانا بصدور ذلك عنهم رغبة وطَمَعًا في نفعه، فأيأسهُم عز وجل من رحمتـه وقَطَعَ أطماعهم في انتفاعهم بالإيمان في عرصـات القيامة ما داموا قد ماتوا على الكفر بالله تعالى حيث قال عز وجل : ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي فَـأَحِسوا بطعم العـذاب بسبب كفركم في الـدنيا، ولا معارضة بين قـوله عز وجل هنا : ﴿قـال أليس هٰذا بالحق، قـالوا بلى وربنا، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفـرون﴾ وبين قوله تبارك وتعالى ﴿ولا يكلمهم اللهُ يـوم القيامـة﴾ لأن المنفى هـو الكلام النـافع لهم المشتملُ على رحمتهم أو تكريمهم والمُثْبَتُ هو الكلام المشتمل على توبيخهم وتقريعهم و إهانتهم قال محيي السنـة الإمام البغوي في تفسير قـوله عـز وجل : ﴿أليس هـٰذا بالحق﴾ يعني أليس هذا البعث والعـذاب بالحق؟ ﴿قالوا بلى وربنا﴾ أنـه حق، قال ابن عباس : هذا في موقف، وقولهم : ﴿واللهِ ربنا ما كنا مشركين﴾ في موقف آخر، وفي يوم القيامة مواقف، ففي مـوقف يقرون وفي موقف ينكرون اهـ وقد ذكر الله تبارك وتعالى عَرْضَ العباد على الله يوم القيامة لمحاسبتهم حيث يقول تبارك وتعـالى : ﴿فإذا نُفِخَ في الصور نفخةٌ واحـدةٌ * وحُمِلَت الأرض والجبال فَدُكَّتَـا دكَّةً واحـدةً * فيومئـذ وَقَعَتِ الواقِعَـةُ * وانشقت السماءُ فهي يـومئذ واهيةٌ . والملَكُ على أرجائهـا وَيَحْمِلُ عرشَ ربك فوقهم يومئذٍ ثمانيـةٌ * يومئذ تُعْرَضُونَ لا تخفى منكم خافيةٌ * فأما مَنْ أُوتيَ كتابهُ بيمينه فيقولُ هَاؤمُ اقرءُوا كِتَـابِيَهْ * إني ظننت أني مُـلاقٍ حسـابيَهْ * فهـو في عيشَـة راضيةٍ * في جنـة عاليةٍ* قطوفها دانية * كلـوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية * وأما من أُوتيَ كتابَهُ بشِمَالِـهِ فيقول يا ليتني لم أُوتَ كتابِيَهْ * ولم أَدْرِ ما حسـابِيه * يا ليتها كـانت القاضيـة * ما أغنى عن ماليـه * هلك عن سلطانيـهْ * خذوه

فَغُلُّوهُ * ثم الجحيمَ صَلُّوهُ * ثم في سِلْسلةٍ ذَرْعُهَا سبعون ذراعـا فاسلكُوه * إنـه كـان لا يؤمن بـالله العظيم * ولا يَحُضُّ على طعـام المسكين﴾ وقـد روى البخـاري ومسلم من حديث عـائشة أم المؤمنين رضي الله عنهـا أن النبي ﷺ قال: مَنْ نُوقِشَ الحساب عُـذِّبَ، فقلت: أليس يقول الله: ﴿فأما مَنْ أُوتِيَ كِتَـابَهُ بِيَمينـهِ * فَسَوفَ يُحَاسَبُ حِسَـابًا يَسِيرًا * ويَنقَلِبُ إلى أَهْلِـهِ مَسْرورًا﴾ فقال: إنما ذلك العَـرْضُ، وليس أحد يُحَاسَبُ يـوم القيامة إلا هَلَكَ: وقـولهُ تبارك وتعـالى: ﴿قدْ خَسِرَ الَّـذينَ كَذَّبوا بلِقـاءِ الله حتى إذا جَاءَتْهُم السَّـاعةُ بَغْتَةً قالـوا ياحَسْرَتَنَا على ما فرَّطْنَا فِيهَـا وهم يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ، ألا ساءَ مَا يَـزِرُونَ * وما الحياةُ الدنيا إلا لَعِبٌ ولَهْوٌ ولَلـدَّارُ الآخرة خَيْرٌ للذِينَ يَتَّقُونَ، أفلاَ تَعْقِلُونَ﴾ مَسُوقٌ لترسيخ حَقِّيَّـةِ البعث بعد الموت، وتَرْبِيَةِ مَلَكَةِ الإيمان بالدار الآخرة في النفوس، وَعَرض مشهد مـن مشاهد القيامة يُظْهِرُ ما يلاقيـه المكذبـون من الحسرة والندامة ومـا يحملونـه على ظهورهم من الأوزار والآثام مع التأكيد على ما جلبوه لأنفسهم من الهلاك والخسران حيث ضَيَّعُوا على أنفسهم نَعِيمَ الجنات في الـدار الباقية، ورَضوا ببعض الملـذات واطمأنُّوا بها في الدار الدنيا الفانية، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿قـد خَسِرَ الذين كذَّبوا بلقـاء الله﴾ أي قد هَلَكَ ووكِسَ من كفر بعرض العباد على الله يوم القيامـة وكذَّب بالبعث بعد الموت وبالحساب والجزاء قال ابن جـرير الطبريُّ رحمه الله: القول في تأْويل قـوله: ﴿ قد خسر الذين كذَّبـوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعـةُ بَغْتَةً قالوا يـا حَسْرَتَنَا على ما فَرَّطْنَـا فيها﴾ قـال أبو جعفر: : يعنى تعـالى ذكره بقـوله: ﴿قـد خَسِرَ الذين كَذَّبُـوا بِلِقَاءِ الله﴾ قد هلك وَوُكِسَ في بيعهم الإيمان بـالكفر ﴿الذين كـذبوا بلقـاء الله﴾ يعنى الذين أنكـروا البعث بعد الممات والثـواب والعقابَ والجنـة والنـار من مشركي قريش ومَنْ سَلَكَ سبيلهم في ذلك. ﴿حتى إذا جـاءتهم

الساعةُ﴾ يقول حتى إذا جاءتهم الساعةُ التي يبعث اللهُ فيها الموتى من قبورهم، وإنما أُدْخِلَتِ الألِفُ واللامُ في ﴿الساعة﴾ لأنها معروفة المعنى عند المخاطبين بها، وأنها مقصود بها قَصْدُ الساعة التي وصفت ويعني بقوله: ﴿بَغْتَةً﴾ فجأةً من غير علم مَنْ تفجؤهُ بوقت مفاجأتها إياه يقال منه: بَغَتَّهُ أبغتُه بغتة، إذا أخذته كذلك. ﴿قالوا يَاحَسْرَتَنَا على ما فرَّطْنَا فيها﴾ يقول تعالى ذكره: وُكِسَ الذين كذبوا بلقاء الله بِبَيْعِهِمْ مَنَازِلَهُمْ من الجنة بمنازل من اشتروا منازله من أهل الجنة من النار، فإذا جاءتهم الساعةُ بغتة قالوا إذا عاينوا ما باعوا وما اشتروا وتَبَيَّنُوا خسارة صفقةِ بَيْعِهِمْ التي سلَفَت منهم في الدنيا تَنَدُّمًا وتَلَهُّفًا على عظيم الغَبْنِ الذي غبنوه أنفسهم وجليل الخسران الذي لا خسران أجل منه: ﴿ياحَسْرَتَنَا على ما فَرَّطْنَا فيها﴾ يقول يا نَدَامَتَنَا على ما ضَيَّعْنَا فيها، يعني صَفْقَتَهُمْ تلك. والهاءُ والألِفُ في قوله ﴿فيها﴾ من ذكر الصفقة، ولكن اكتفى بدلالة قوله: ﴿قد خَسِرَ الذين كذَّبوا بلقاء الله﴾ عليها من ذكرها إذ كان معلوما أن الخسران لا يكون إلا في صفقة بَيْعٍ قد جَرَتْ. وإنما معنى الكلام: قد وُكِسَ الذين كذَّبوا بلقاء الله ببيعهم الإيمان الذي يستوجبون به من الله رضوانه وجَنَّتَهُ بالكفر الذي يستوجبون به منه سَخَطَهُ وعقوبته، ولا يشعرون ما عليهم من الخسران في ذلك حتى تقوم الساعة فإذا جاءتهم الساعةُ بغتة فَرَأَوْا ما لحقهم من الخسران في بيعهم قالوا حينئذ تَنَدُّمًا: ﴿يا حَسْرَتَنَا على ما فَرَّطْنَا فيها﴾، ثم قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزارَهم على ظُهُورِهِمْ، أَلَا سَاءَ مَا يَزرونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وهؤلاء الذين كَذَّبوا بلقاء الله ﴿يحملون أوزارَهم على ظهورهم﴾ وقوله: ﴿وهم﴾ مَن ذكرهم ﴿يحملون أوزارهم﴾ يقول: آثامَهُمْ وذُنُوبَهُمْ، واحِدُها وِزْرٌ يقال منه: وَزَرَ الرجُلُ يَزِرُ إذا أَثِمَ قال الله: ﴿أَلَا سَاءَ ما يَزِرُونَ﴾ فإن أُرِيد أنهم أُثِّمُوا قيل قد وُزِرَ القومُ

فهم يُوزَرُونَ، وهم مُوزَرُونَ، اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدنيا إلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخرة خيرٌ للذين يَتَّقُونَ، أفلا تعقلون﴾ تحذير وترهيبٌ من الاغترار بالحياة الدنيا الفانية والانقطاع لها، وترغيب في الأعمال الصالحة المورِثة لجناتِ النعيم في الدار الآخرة الباقية، فإن متاع الحياة الدنيا أشبه باللهو واللعب إذا قيس بنعيم الآخرة قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿وما الحياةُ الدنيا إلا لَعِبٌ ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون، أفلا تعقلون﴾ قال أبو جعفر: وهذا تكذيبٌ من الله تعالى ذكره هؤلاء الكُفَّار المنكرين البعث بعد الممات في قولهم: ﴿إن هي إلا حياتُنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ يقول تعالى ذكره مكذباً لهم في قيلهمْ ذلك: ﴿ما الحياةُ الدنيا﴾ أيها الناس ﴿إلا لَعِبٌ ولَهْوٌ﴾ يقول: ما باغي لذات الحياة التي أدنيت لكم وقَرَّبْتُ منكم في داركم هذه ونَعيمها وسرورها فيها، والمتلذذ بها والمُنَافِسُ عليها إلا في لعب ولهو، لأنها عما قليل تزول عن المستمتع بها والمتلذذ فيها بِملاذِّها، أو تأتيه الأيام بفَجَائعها وصروفها فَتُمِرُّ عليه وتكدُرُ، كاللاعب اللاهي الذي يسرع اضمحلال لهوه ولعبه عنه، ثم يعقبه منه ندمًا ويورِثه منه تَرَحا، يقول: لا تغتروا أيها الناس بها، فإن المغتر بها عما قليل يَنْدَمُ، ﴿وَلَلدَّارُ الآخرة خيرٌ للذين يتقون﴾ يقول ولَلْعَمَلُ بطاعته والاستعداد للدار الآخرة بالصالح من الأعمال التي تَبْقَى منافعها لأهلها ويدوم سرورُ أهلها فيها خير من الدار التي تفنَى وشيكا، فلا يبقى لعُمالها فيها سرور ولا يدوم لهم فيها نعيم ﴿للذين يتقون﴾ يقول للذين يخشون الله فيتقونه بطاعته واجتناب معاصيه والمسارعة إلى رضاه ﴿أفلا تعقلون﴾ يقول: أفلا يعقل هؤلاء المكذبون بالبعث حقيقة ما نخبرهم به من أن الحياة الدنيا لعب ولهو وهم يرون من يُخترمُ منهم ومن يهلك فيموت ومن تَنُوبُهُ فيها النوائب وتصيبه المصائب وتفجعه الفجائع ففي ذلك لمن عقل مدّكر ومزدجَر عن الركون إليها

واستعبـاد النفـس لها ودليلٌ واضح على أن لها مـدَبِّــرًا ومُصَرِّفـا يلــزم الخلق إخـلاص العبادة لـه بغير إشراك شيءسواه معـه اهــ وفي التزهيـد في الدنيـا والتحـذير من أن يجعلهـا الإنسان كل همه وفي الترغيب في الآخـرة يقول عـز وجل : ﴿إنما الحيـاة الدنيا لَعِـبٌ ولهْوٌ و إن تؤمنوا وتتقـوا يؤتكم أجـوركم ولا يسألكم أموالكـم﴾ ويقول عز وجل : ﴿اعلمـوا أنما الحياة الـدنيا لعب ولهو وزينة وتفـاخر بينكم وتكـاثر في الأموال والأولاد كمثـل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفـرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شـديد ومغفرة من الله ورضـوان، وما الحيـاة الدنيا إلا متـاع الغرور. سـابقوا إلى مغفـرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعـدت للذين آمنوا بالله ورسله، ذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ .

قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ. وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ. وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

بعد أن ذكر عز وجل مشهدا من مشاهد القيامة بيَّنَ فيه موقف الذين كفروا حينَ عُرِضوا على النار وما أصابهم من الحسرة والندامة وأنهم تَمَنَّوْا أن يُرَدُّوا إلى الدنيا دار العمل ليؤمنوا وبيَّنَ عز وجل أنهم لو رُدُّوا لعَادوا لما نُهُوا عنه ثم ذكر عز وجل مشهدًا آخر من مشاهد القيامة بيَّنَ فيه موقف الذين كفروا عند عرضهم على ربهم يوم القيامة وذكر فيه إقرارهم بالحق، وما يؤول إليه حالهُم من الخسران والهلاك وسوء العذاب والحسرة والندامة ولفت تبارك وتعالى الانتباه إلى حقية البعث ورهَّبَ من الاغترار بالحياة الدنيا ورغَّبَ في الأعمال الصالحة المورثة لجنات النعيم شرع هنا في تقرير أن كفار مكة مقِرُّونَ في قرارة قلوبهم بأن محمدا هو رسولُ الله حقا وصدقا لما يعرفونه من صدقه فإنهم ما جرَّبُوا عليه كذبا قط قبل أن يخبرهم بأنه رسول الله وقد كانوا يلقبونه بالصادق الأمين، وأشار عز وجل إلى أن تكذيب قريش لرسول الله ﷺ هو من باب جحود الحق مع إقرار القلب بحقيته ثم وَاسَى رسوله ﷺ بأن رُسُلَ الله عليهم الصلاة والسلام صبروا على ما كُذِّبُوا وأُوذُوا حتى أتاهم نصر الله، وهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿قد نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يقولون فإنهم لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظالمين بآيات يَجْحَدونَ * ولقد كُذِّبتْ رُسُلٌ مِن قبلكَ فَصَبَرُوا على ما كُذِّبُوا وأُوذوا حتى

أَتَاهُمْ نَصْرُنَـا ، ولا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله ، وَلَقَـدْ جَاءَكَ من نبأ المُرسَلِينَ﴾ ومعنى ﴿قد﴾ في قوله تبارك وتعالى ﴿قد نعلم﴾ هو التحقيق وتأكيد العلم بما ذكر في حيزها المفيد لتأكيد الوعيد ، والأصل في قد أنها إذا دخلت على الفعل الماضي أفادت التحقيق كقوله تعالى : ﴿قد أفلح من زكاها * وقد خَابَ من دَسَّاهَا﴾ أما إذا دخلت قَدْ على الفعل المضارع فإنها تستعمل كثيراً في التقليل نحو: قد يَصْدُقُ الكـذوبُ ، كما تستعمل في التحقيق كما في قوله عز وجل هنـا : ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾ وكما في قوله تبارك وتعالى : ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وجهك في السماء﴾ وكقوله تبـارك وتعالى : ﴿قد يَعْلَمُ ما أنتم عليـه﴾ وكقوله تبارك وتعالى : ﴿قـد يَعْلَمُ الله المُعَوِّقِينَ منكم﴾ ونحو قـول الشاعر الهذلي أو عبيد بن الأبرص .

قد أَتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَرًّا أَنَامِلُـه كَـأَنَّ أَثْوَابَهُ مُجَّتْ بِفِرْصَاد

ولا تستعمل قد مع الفعـل المضارع للتحقيق إلا عند كـون الأمر في غـاية الوضـوح بحيث لا يخطر على البـال إرادة التقليل ، ويكون التعبير بـالمضارع لنكتـة بلاغيـة كإرادة التجدد أي قـد علمنـا ما يتجـدد لك من الحزن والغم عندما يتجدد منهم ما يتجدد من سـوء قولهم لك وتكذيبهم إياك ، وقد كان رسول الله ﷺ يتأسف على ما يـلاقيه من قومه من الأذى وعلى ما يقـابلون به دعوتـه من أقوالهم القبيحة كقـولهم : إنه سـاحر أو شاعـر أو كاهن أو معلم مجنون ، كما يصفون القرآن بأنه سحر أو شعر أو كهانة أو أن الذي يعلمه بشر أو أنه أساطير الأولين ، وقـد كان رسول الله ﷺ من شـدة حرصه على إيمانهم يكـاد يبخع نفسه من الحزن كما قـال عز وجل : ﴿فَلَعَلَّكَ بـاخِعٌ نَفْسَكَ على آثارِهِمْ إن لم يُـؤْمِنوا بهذا الحديث أَسَفًـا﴾ وكما قال عز وجـل ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونوا مُؤْمِنِينَ﴾ وقَوْلُـه تبارك وتعالى : ﴿فإنَّهم لا يُكَذِّبُونَكَ ولَكِنَّ الظَّالمين بآيات الله يَجْحَدونَ﴾ كَشْفٌ لحقيقـة ما انطوت عليه نفوس المشركين

من أهل مكـة وأنهم في قرارة قلـوبهم يـوقنون بأن محمـدًا هـو رسول الله حقـا وصدقا وأنَّ تكذيبهم له ﷺ هو من باب جحود الحق مع العلم بحقيته عنادًا واستكبارا، كما قـال عز وجل في فرعـون وقومه: ﴿فلما جاءتهم آيـاتنا مُبْصِرَةً قالـوا هٰذا سِحْرٌ مُبِينٌ. وجَحَـدُوا بهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وعُلُوًّا، فـانظر كيف كانَ عاقِبَةُ المُفْسِدِينَ﴾ وقد أبرز أبـوطالب هذه الحقيقة وأعلن أنه موقنٌ بأن محمـدًا هو رسـول الله وإنما يمنعه من الـدخول في الإسـلام ما يخشـاه من مسبة آبائه الذين ماتوا في الجاهلية حيث يقول في لاميته المشهورة:

فَوَاللهِ لَوْلاَ أَنْ أَجـيءَ بِسُـبةٍ ... تُجرُّ على أَشْيَاخِنَا في المَحَافِلِ
لكنَّا اتَّبَعْنَاهُ على كـلِّ حَـالةٍ ... مِنَ الدَّهْرِ جِدًّا غَيْرَ قـولِ التهَازُلِ
لقـد علمُـوا أنَّ ابننا لا مُكـذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلاَ يُعْـني بِقَوْلِ الأَبَاطِلِ
حدِبْتُ بِنَفْسي دُونَـهُ وحميتُـهُ ... وَدَافَعْتُ عنـه بالـذُّرَا والكـلاكِلِ

وكما قال أبو طالب في نونيته المشهورة:

ودعـوتني وعلمتُ أنك صـادق ... ولقـد صـدقتَ وكنتَ قبلُ أمينـا
وعـرضتَ دينـا قـد علمتُ بأنـه ... من خير أديـان البريـة دينـا
لولا الملامـة أو حـذاري سبـة ... لوجدتني سـمحا بـذاك مبينـا

وقوله تبـارك وتعالى: ﴿ولَقَدْ كُذِّبَت رُسُلٌ من قَبْلِكَ فَصَبَرُوا على مـا كُذِّبوا وَأُوذُوا حتى أَتَاهم نَصْرُنَا﴾ مواساةٌ لرسول الله ﷺ وتسلية من الله تبارك وتعالى له عما يناله من المساءة بتكذيب قومه إياه على ما جاءهم به من الحق ببيان أنَّ إخوانـه من المرسلين قد نـالهم الأذى الشديد من أممهم فكـذبوهم كما كـذبته قريش وألحقوا بهم من المكروه فصبروا على ما نالهم من التكذيب والأذى حتى حكم الله بينهم فنصر رسُلَـهُ والذين آمنـوا، وأهلك الكـافرين، فـاصبر كما صبروا فإن نصر الله قـريب، كما قال عـز وجل: ﴿حتى إذا استيأس الـرسلُ وظَنُّوا أنهم قـد كُذِبوا جاءهم نَصْرُنـا فَنُجِّى مَن نَشَاءُ ولا يُرَدُّ بأْسُنـا عَنِ القَوْمِ

المجرمين﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله﴾ أي لا نَاقِضَ لما حكم الله، وقد حكم في كتابه بنصر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين، كما قال عز وجل ﴿ولقد سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهادُ﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أنا وَرُسُلي، إن الله قَوِيٌّ عزيز﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولَقَدْ جَاءَكَ من نبإِ المُرْسَلِينَ﴾ أي ولقد قَصَصْنَا عليك من أخبار الرسل مع أممهم الذين كذبوهم وكيف نَصَرْنَا رسلنا على أعدائهم وأيدناهم على من كذبوهم وجعلنا العاقبة الحسنى لعبادنا الصالحين، وأخذنا أعداء الله أخذ عزيز مقتدر، كما قال عز وجل: ﴿كذبت قبلهم قومُ نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنونٌ وازْدُجِرَ * فدعا ربَّه أني مغلوبٌ فانتصرْ * فَفَتَحْنَا أبواب السماء بماء منهمر * وفَجَّرْنَا الأرض عيونا فالتقى الماءُ على أمر قد قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ على ذات ألواح وَدُسُرٍ * تجرى بأَعْيُنِنَا جَزَاءً لمن كان كُفِرَ﴾ وقال عز وجل: ﴿كَذَّبت عادٌ فكيف كان عذابي ونُذُرِ * إنا أرسلنا عليهم ريحا صَرْصَرًا في يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ. تَنْزِعُ النَاسَ كأنهم أَعجاز نخلٍ منقَعِرٍ * فكيف كان عذابي ونُذُرِ﴾ وقال عز وجل: ﴿كذبت ثمودُ بالنذر * فقالوا أبَشرا منَّا واحدًا نَتَّبِعُهُ إنا إذًا لفي ضلال وسُعُرٍ * أأُلْقِيَ الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أَشر * سَيَعْلَمُونَ غدًا من الكذابُ الأَشرُ * إنا مُرْسِلُواْ الناقةِ فتنةً لهم فارتقبهم واصطبر﴾. إلى قوله عز وجل: ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحةً واحدةً فكانوا كَهَشِيم المُحْتَظِرِ﴾ وقال عز وجل: ﴿كذبت قوم لوط بالنذر. إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بِسَحَرٍ. نِعمةً من عندنا، كذلك نجزى من شَكَرَ﴾ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ ولقد جاءك من نبإِ المرسلين﴾ إشارة إلى أن ما قصَّ الله تبارك وتعالى من قصص الأنبياء هو قصص بعضهم لا قصص جميعهم، كما قال

عز وجل ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قَصَصْنَا عليك ومنهم من لم نَقْصُصْ عليك﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإن كان كَبُرَ عليك إعراضُهم فإن استطعت أن تبْتَغِيَ نَفَقًا في الأرض أو سُلَّمًا في السماء فتأتِيَهُمْ بآية، ولو شاء اللهُ لَجَمَعَهُمْ على الهُدى فلا تكونَنَّ من الجاهلينَ﴾ تأكيد وحض لرسول الله ﷺ على الصبر ببيان أنه أمر لا محيد عنه أصلا، وأنه ليس بيد أحد من خلق الله هداية الكافرين وأن قلوبهم بيد الله وحده، يهدي من يشاء فضلا ويضل من يشاء عدلا، وأن الجاهلين هم الذين لا يُفَوِّضونَ أمورهم إلى الله، ولا يستسلمون لأقدار الله، ومعنى قوله عز وجل ﴿وإن كان كَبُرَ عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فلا تكونن من الجاهلين﴾ أي وإن كان عَظُمَ عليك يا محمد إعراض هؤلاء المشركين عنك، وتكذيبهم لك، وانصرافهم عن تصديقك فيما جئتهم به من الحق، وشق عليك ذلك ولم تصبر على ما يصيبك من أذاهم فلا يخطر على بالكَ إجابتهم إلى ما يقترحونه من الآيات لأنك لو صعدت إلى السماء أو هَبَطْتَ إلى أعماق الأرض لتأتيهم بآية ليؤمنوا بها فلن يؤمنوا، وهذا ليس في استطاعتك ومقدورك فما عليك إلا الصبرُ، واحتساب ما يصيبك عند الله عز وجل ولو شاء الله عز وجل هدايتهم لهداهم أجمعين فأَبعد الحزن عن نفسك ولا يشتد تحسُّركَ على تكذيبهم ولا تجزع على إعراضهم عنك لأن الجزع من صفات الجاهلين، لأنهم هم الذين إذا مسَّهُمْ الأذى جزعوا، أما المؤمنون فإنهم إن أصابتهم الضراء صبروا، وإن أصابتهم النعماء شكروا، وأنت أول المؤمنين وقد تقرر أن رسول الله ﷺ معصوم من المعاصي فإذا ورد نهيه عن شيء كقوله تعالى هنا: ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ وكقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تكونَنَّ من المشركين * ولا تَدْعُ من دون الله ما لا ينفعك ولا يَضُرُّكَ﴾ فإن ذلك لا يقتضي إمكان

الوقوع فيه لما تقرر من القاعدة الأصولية أن النهي عن الشيء لا يقتضي الوقوع فيه، والنَّفَقُ في الأرض هو الطريق النافذ في باطن الأرض، والسُّلَّم هو المصعد والدَّرَج، وجواب الشرط في قوله عز وجل: ﴿فإن استطعت أن تبتغي نفقًا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية﴾ محذوف للعلم به تقديره: فافعل أي إنك لا تستطيع ذلك فاصبر حتى يحكم الله، وقد صبر رسول الله ﷺ كما أمره الله عز وجل وحض أصحابه على ذلك وبشرهم بأن أمر الإسلام سيتم فقد روى البخاري من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا ألا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون.

قـال تعالى: ﴿إنما يَسْتجِيبُ الَّـذينَ يَسْمَعُونَ، والمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُم إليـه يُرْجَعُونَ. وَقَـالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْـهِ آيةٌ من رَبِّهِ، قل إنَّ اللهَ قـادرٌ على أَن يُنزِّلَ آيةً ولَكِنَّ أكْثرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ. وَمَا من دابَّةٍ فى الأَرْضِ ولاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاَّ أمم أَمثَالكُمْ، مَـا فرَّطْنَا فى الكتَـابِ من شيء، ثمَّ إلى رَبِّهِم يُحْشَرُونَ. والَّذينَ كَذَّبُوا بآياتِنَا صُمٌّ وَبُكمٌ فى الظُّلُمَاتِ، مَن يَشإِ اللهُ يُضْلِلْهُ ومن يشأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾.

بعـد أن قرر فيما مضـى أن على قلوب الكفـار أكنـةً مانعـةً من الفقـه وفي آذانهم وَقرا حاجزا من السماع وَوَاسَى رسوله ﷺ بضروب من المواساة، وحذره من أن يكْبُرَ عليـه إعـراض هؤلاء المعـرضين عنـه، أكَّد ذلك هنـا بأن هـؤلاء الكفار من قبيـل الموتى الذين لا يجيبـون من يناديهم، ولو أراد الله عـز وجل إحياء قلوبهم بالإيمان لأحياهـا فهو وحده القادر على أن يجمعهم على الهدى لو شاء، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿إنما يستجيب الذين يَسْمَعُونَ، والموتى يَبْعَثُهُمْ الله ثم إليـه يُـرْجَعُـونَ﴾ قال ابـن جريـر الطبريُّ رحمه الله: القـول في تأويل قـولـه: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعـون، والموتى يبعثهم الله ثم إليـه يرْجَعُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقـول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا يَكْبُرَنَّ عليك إعـراضُ هؤلاء المعـرضين عنك وعن الاستجـابـة لـدعائك، إذا دعـوتهم إلى توحيـد ربهم والإقرار بنبوتك، فإنه لا يستجيب لـدعائك إلى ما تدعـوه إليه من ذلك إلا الـذين فتح الله أسماعهم لـلإصغاء إلى الحق، وسَهَّل لهم اتِّبـاعَ الرُشـد، دُونَ من ختم الله على سمعه فـلا يَفْقَهُ من دعـائك إياه إلى الله و إلى اتباع الحق إلا ما تفقه الأنعام من أصوات رُعاتِهَا فَهُمْ كما وصفهم به الله تعالى ذكـره: ﴿صُمٌّ بكْمٌ عُميٌ فهـم لا يعقلـون﴾ ﴿والموتى يَبعَثُهُم الله﴾ يقـول: والكفـار يبعثهم مع الموتى، فجعلهم تعـالى ذكـره في عـداد الموتى الـذين لا

يسمعون صوتا، ولا يعقلون دعاء، ولا يفقهون قولا، إذ كانوا لا يتدبرون حُجَجَ الله، ولا يعتبرون آياته، ولا يتذكرون فينزجرون عمّا هُمْ عليه من تكذيب رسل الله وخلافهم، ثم قال رحمه الله: وأما قوله: ثم إليه يُرْجَعُونَ. فإنه يقول تعالى ذكره: ثم إلى الله يرجع المؤمنون الذين استجابوا لله والرسول، والكفار الذين يَحول اللهُ بينهم وبين أن يفقهوا عنك شيئا فيثيبُ هذا المؤمن على ما سلف من صالح عمله في الدنيا بما وعد أهل الإيمان به من الثواب، ويعاقب هذا الكافر بما أوعد أهل الكفر به من العقاب، لا يظلم أحدا منهم مثقال ذرة اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وقالوا لولا نُزِّلَ عليه آيةٌ من ربه، قل إن الله قادر على أن يُنَزِّلَ آية ولٰكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ بيان لشدة عنادهم وفرط جهلهم وبلوغهم الغاية في الضلال والطغيان حيث لم يقتنعوا بما شاهدوا من المعجزات وما جاءهم من الآيات البينات التي تخر له صم الجبال، حتى اجترأوا على ادعاء أنها ليست من قبيل الآيات واقترحوا أن تمطر عليهم حجارة من السماء أو يأتيهم عذاب أليم كما ذكر ذلك تبارك وتعالى حيث يقول: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هٰذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ كما اقترحوا أن تُنَزَّلَ عليهم الملائكة أو يكلِّمَهُم الموتى أو يَفْجُرَ لهم من الأرض ينبوعا أو يكون له بيت من ذهب أو يرقى في السماء أو يأتيهم بالله عز وجل كما ذكر الله تبارك وتعالى ذلك عنهم حيث يقول: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنةٌ من نخيل وعنب فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلاَلَهَا تفجيرا * أو تسقِطَ السماء كما زعمت علينا كِسَفًا أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تُنَزِّلَ علينا كتابا نقرؤه، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾ وقد بين الله تبارك وتعالى أنه لا يعجزه أن ينزل آية، وأنه قادر على خرق نظام الكون إذا اقتضت حكمته ذلك، لكن

هـؤلاء الجاهلين لا يعـرفون أنهم لـو اقترحـوا آيـة ثم لما جاءتهم لم يـؤمنـوا بها أهلكهم الله عز وجل، كما قـال تبارك وتعالى هنـا: ﴿قل إن الله قادر على أن ينَزِّلَ آيةً ولَكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وما مَنَعَنَا أن نرسل بالآيات إلا أن كـذَّبَ بها الأولون، وآتينا ثمودَ الناقـة مُبْصِرَة فظلموا بها، وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾ وكما أشار إلى ذلك عز وجل في قصة المائدة حيث يقول: ﴿قال الله إن مُنَزِّلُهَا عليكم فمن يكفر بَعْـدُ منكم فإني أعذبهُ عذابا لا أُعَذِّبُهُ أحدا من العالمين﴾ وفي قوله تبـارك وتعالى: ﴿وقالوا لولا نُزِّلَ عليه آية من ربه﴾ دليل ظاهر على بطلان دعـوى التفريق بين «نَزَّلَ» و«أَنْزَلَ»، حيث زعم بعض المشتغلين بعلوم أصـول التفسير أن نَزَّلَ تكون فيما نَزَلَ بـالتدريج وأنزل تكون فيما نزل جملة، لأن الآية لا تنزل بالتدريج وقد أشرت إلى ذلك في غير هذا الموضع أيضا ورددت على قـائلي هذه المقالة بهذه الآية وبقـوله تبارك وتعال: ﴿وقـال الذين كفروا لولا نُـزِّلَ عليه القرآن جملـة واحدةً﴾ وبينت أن نَـزَّل وأنزل تأتي بمعنـى واحد، ونحـو ذلك مَهَّلَ وأمهل، ومنـه قـوله تبـارك وتعـالى: ﴿فَمَهِّلِ الكـافـرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيـدا﴾، و﴿لــولا﴾ بمعنى هـلاَّ، والمقصود من قوله تعالى ﴿ومـا من دابَّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أُمَمٌ أَمثَـالُكم﴾ لفت انتبـاه النـاس ولا سيما هـؤلاء المعـانـدين الجاحـدين المقترحين للآيـات إلى أن الله عز وجل قـد أقام الآيـات في أنفس الناس وفيما يشـاهدونـه من دواب الأرض وطيور السماء حيث خلق من كل جنس منهـا زوجين اثنين ذكرا وأنثى في تركيب عجيـب، وحيث فاوت بين هؤلاء الخلائق في صـوَرهم ومـداركهم وطبائعهم وأعطـى كل شيء منها خلقـهُ ثم هـدى، فترى كلَّ جنس منها يألف جنسه، وكلَّ عَالَمَ منها يتـوالد ويتكاثر في عالمه، وكلُّ هـذه الأمم من الإنس والطير والدواب تتشـابه في أمـور كثيرة كمعرفـة طعامهـا وشرابها وسائر مـا به قِـوامُهَا وبقـاءُ جنسها، فـالناس يتفـاوتون في

أشكالهم وألوانهم وطبائعهم والدواب تتفـاوت في أشكالها وألوانها وطبائعها، والطيـور تتفاوت في أشكـالها وألوانها وطبـائعها ومع تبـاعد المواطن التي قـد توجـد فيها هـذه الخلائق من الناس والـدواب والطيور فإنَّ الله عـز وجل قد جعل لكل فـرد منها أجهزة لطعـامه وشرابـه وبولـه وبرازه فللنـاس والدواب والطيـور قلب وكبـد ورئتـان وكذلك سـائر أجهـزة الهضم وأجهـزة التنفس وأجهزة للهجـوم على حاجتها وأجهـزةٌ للدفاع عن أنفسهـا، وكلُّ جهاز من هذه الأجهزة عَالَمٌ دقيقٌ عجيبٌ عظيمٌ، وكلُّها خاضعة للنظام الذي جعله لها فاطرُ السموات والأرض الذي خلق كل شيء وأحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسـان من طين. ففـي هـذا التماثل والتشـابـهِ بين العـوالم البشريـة والعوالم الحيوانية من الدواب والطيور آيات بيناتٌ شاهداتٌ بأن الذي صنعها هو الله الحي القيوم الإله الحق الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن لـه كفوًا أحـد، الـذي لا يعجزه أن يُنـزِّل آيـة متى اقتضتها حكمتـه البالغة ومشيئته التـامة التي لا راد لها، ولا يشك في ذلك إلا الجاهلون الذين لا يعلمون، وقد لفـت القرآن الكريم الانتباه إلى بعض هـذه العوالم فيما قصه من قصة النمل والنحل والهدهد وغيرهـا، وفي قوله ﴿بجناحيـه﴾مع أن قوله ﴿يَطيرُ﴾ يغنى عنها، لدفع مـا قد يتوهم من أن الطيران قد يقصـد به السرعة على حد قول قريط بن أنيف:

قومٌ إذا الشَّر أَبْدَى نَاجِذيْهِ لهم   طَارُوا إليه زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانَا.

قال الزجـاج في كتابه معاني القـرآن وإعرابه: وقال: ﴿يطير بجنـاحيه﴾ على جهة التوكيد، لأنك قد تقول للرجل: طِرْ في حاجتي أي أَسْرِعْ اهـ وقال ابن جرير الطبريُّ رحمه الله: فإن قال قـائل: فما وجهُ قوله: ﴿ولا طائرٍ يطير بجناحيه﴾ وهل يطير الطائرُ إلا بجناحيـه؟ فما في الخبر عن طيرانه بالجناحين من الفائدة؟ قيـل: قد قدَّمنـا القول فيما مضى أن الله تعـالى ذكره أنـزل هذا

الكتاب بلسان قـوم وَبلُغَاتِهِم وما يتعارفونـه بينهم ، ويستعملونه في منطقهم خاطبهم ، فإذْ كان من كلامهم إذا أرادوا المبالغة في الكلام أن يقولوا : كلمت فـلانا بفمي ومشيت إليـه برجلي وضربتـه بيدي ، خـاطبهم تعالى بِنَظِيرِ مـا يتعـارفونـه في كلامهم ويستعملـونـه في خطابهم اهـ وقولـه تبارك وتعـالى : ﴿مَافَرَّطْنَـا في الكتاب من شيء﴾ جملة اعتراضية للفـت الانتباه إلى أن القرآن الـذي أنزلـه الله عز وجـل على نبيه الأمي محمـد ﷺ آيةٌ بينـة وحجـة كافيـة للدلالة على أنه رسول الله حقـا وصدقا ، فقد اشتمل على تبيان كل شيء ينير للإنسانية طريقها ويرشدهـا إلى منهج رشدها وَوَجَّهَ الناس إلى النظر في آيات الله الكونية في النفوس والدواب والطيـور مما لم تكن تعرفه العرب والعجم ولا سيما أهل مكـة الأميين ، وكما قال عز وجـل : ﴿وَنَزَّلْنَـا عليك الكتاب تِبْيَـانًا لكل شيءٍ وهُـدًى ورحمةً وبشرى للمسلمين﴾ . ومعنى قولـه تبارك وتعـالى : ﴿ثم إلى ربهم يُحْشَرُونَ﴾ أي ثم يحييهم بعـد ممـاتهم يـوم القيامـة ليجـزي كلَّ نفس بما كسبت ويقتص للجلحـاء مـن القـرنـاء ، والمقصـود تأكيـد الحشر والنشر وأن الحياة بعد الموت والرجوع إلى الله يـوم القيامة ليس قاصرا على بني آدم وكما قـال عـز وجل : ﴿وإذا الـوحـوش حُشِـرَتْ﴾ وقـد روى مسلم في صحيحه مـن حديث أبي هـريرة عن النبي ﷺ أنـه قال : لَتُـؤَدَنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجَلْحَاءِ من الشاة القرناء . قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط : وفي الحديـث إن الله ليؤدِّي الحقوق إلى أهلها حتى يَقْتَصَّ للشـاة الجَلْحَاءِ من الشاة القَـرْنَاءِ نَطَحَتْهَـا قال الأزهـري : وهذا يبين أن الجلحاء من الشاة والبقر بمنـزلة الجماءِ التي لا قرْنَ لها . وفي حديث الصدقـة : ليس فيها عَقْصاءُ ولا جَلْحَـاء ، هي التي لا قرن لها اهـ وقـد ذكر ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ويقول الكـافر يا ليتني كنت ترابا﴾ أن ذلك حين يحكم الله بين الحيـوانـات التي كـانت في الدنيـا فيفصل بينهـا

بحكمه العدل الذي لا يجور حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني ترابا فتصير ترابا فعند ذلك يقول الكافر ﴿يا ليتني كنت ترابا﴾ أي كنت حيوانا فأرجع إلى التراب، وقد ورد معنى هذا في حديث الصور المشهور وورد فيه آثار عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وغيرهما اهـ وقولهُ تبارك وتعالى: ﴿والذين كذَّبوا بآياتنا صم وبُكْمٌ في الظلمات﴾ تأكيدٌ لما أفاده قوله عز وجل: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ ببيان أن هؤلاء الجاحدين الكافرين قد سُلِبَتْ منهم لطائف السمع والبصر والكلام وإن بقيت معهم صور آذانهم وألسنتهم وأعينهم فهم صم بكم عمي، كما قال عز وجل: ﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾ وقوله ﴿في الظلمات﴾ عبارة عن العمى ولا شك أن الأصم الأبكم إذا كان بصيرا ربما يفهم شيئًا بإشارة غيره وإن لم يفهمه بعبارته وربما يعبر عما في نفسه بإشارته لانعدام عبارته أما إذا كان مع ذلك أعمى أو كان في الظلمات فإن باب الفهم والتفهيم مُنْسَد عليه تماما، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾ تأكيد لمضمون قوله عز وجل قريبا: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهُدى﴾.

قال تعـالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إن أتاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَو أَتَتْكُم السَّـاعةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُـونَ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ. بل إيَّاهُ تَـدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَـا تَدْعُونَ إِلَيْـهِ إن شَاءَ وتَنسَـوْنَ ما تُشْرِكُـونَ. ولَقَدْ أَرْسَلْنَـا إِلَى أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَأَخَـذْنَاهُمْ بِـالبَأْسَـاءِ والضَّرَّاءِ لَعَلهُم يَتَضَرَّعُونَ. فَلَوْلاَ إذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ولَكن قَستْ قُلُوبهُمْ وَزَيَّنَ لَهُم الشَّيْطَـانُ ما كَـانُوا يَعْمَلُونَ. فلَمَّا نَسُـوا مَا ذُكِّـرُوا بِهِ فَتَحْنَـا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُـلِّ شيءٍ حَتَّى إذَا فَرِحُـوا بِمَا أُوتوا أَخَذْنَـا هُمْ بَغْتَةً فإذَا هـم مُبْلِسُونَ. فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الذينَ ظَلَمُوا، والحمد للهِ ربِّ العَالَمِينَ﴾.

بعـد أن بين عـز وجل كمال عـراقـة المكـذبين وتمام استغـراقهم في الجهل والضلال ووصفهم بأنهم صُمٌّ وبُكْم في الظلمات شرع في تقريعهم وتوبيخهم وتبكيتهم على تكـذيبهم بآيـات الله وكفرهم بـه واتخاذهم الأوثان والأصنـام شركاء لـه عز وجل فأمر رسـوله ﷺ بأن يُبَكِّتَهُمْ ويـوبخهم ويلْقِمهُم الحَجَرَ بما لا سبيل لهم إلى إنكاره فيقول لهم : أخبروني إن حلَّت بكـم عقوبة من الله في دنياكم أو جـاءتكم الساعة وقامت القيـامة أتفزعون حينئـذ إلى أصنامكم وأوثـانكم وتـدعونها لكشف الضر ودفـع العذاب عنكم أم تفـزعـون إلى الله وحده وتَنْسَوْنَ أصنـامكم وأوثانكم؟ ولا جدال عندهـم في أنهم كانوا دائما لا يفزعون في النكبات التي تصيبهـم إلا إلى الله وحده كما قال عز وجل : ﴿وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لجنبه أو قاعـدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضُرَّهُ مرَّ كأن لم يَدْعُنَا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ، كذلك زُيِّنَ للمسرفين مـا كانوا يعملون﴾ وكما قال عز وجل : ﴿هـو الذي يُسَيِّرُكُمْ في البر والبحـر حتى إذا كنتم في الفُلْكِ وَجَـرَيْنَ بهم بريح طيبة وفَرِحُوا بها جـاءتها ريحٌ عاصفٌ وجاءهم الموج من كل مكان وظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بهم دَعَوُا اللهَ مخلصين له الدِّينَ لئن أنجيتنا من هٰذه لنكونَنَّ من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هُمْ يَبْغُونَ في الأرض بغير الحق﴾ الآية. وكما

قال عز وجل: ﴿وما بكم من نِعْمة فَمِنَ الله ثم إذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فإليه تَجْئَرُونَ. ثم إذا كَشَفَ الضُّرَّ عنكم إذَا فريقٌ منكم بربهم يشركون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فإذا رَكِبُوا في الفُلْكِ دَعوا اللهَ مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البَرِّ إذ هم يشركون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإذا مَسَّ الناسَ ضُرٌّ دَعوا ربَّهُمْ منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رَحْمَةً إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دعا ربَّه منيبا إليه ثم إذا خَوَّلَهُ نعمةً منه نسي ما كان يَدْعُو إليه من قبلُ وجعل لله أندادا ليُضِلَّ عن سبيله، قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار﴾ وقال عز وجل هنا: ﴿قلْ أَرأَيْتكُمْ إن أَتَاكم عذابُ الله أو أتتكم الساعةُ أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ إن كنتم صادقين. بل إياه تدعون فيكشفُ ما تدعون إليه إن شاء وتنسوْنَ ما تُشْركون﴾ والعربُ إذا أرادت الاستخبار عن شيء قالت للمخاطب: أرأيت، بمعنى أَخْبِرْني، وإذا كان المخاطَبُ اثنين أو اثنتين قالت العرب: أرأيْتُما، وإذا كان المخاطَبُ جماعة قالت العرب: أرأيتمْ فإذا أرادت تأكيد الخطاب وزيادة لفت انتباه المخاطب زادت الكاف وفتحت التاء فتقول: أرأيتَكَ وأَرأَيْتَكُمْ كما قال عز وجل: ﴿أرأيْتَكَ هٰذا الذي كرَّمتَ عَلَيَّ﴾ وكما قال هنا: ﴿قل أرأيتكم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الجاهلين: أخبروني ﴿إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعةُ أغيرَ الله تدعون إن كنتم صادقين﴾ أي إن أصابتكم عقوبة من الله في دنياكم أو جاءتكم الساعة وقامت القيامة أتفزعون حينئذ إلى أوثانكم وأصنامكم وتَدْعونَهَا لكشف الضُّر والعذاب عنكم إن كنتم مُحِقِّينَ في دعواكم وزعمكم أن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله تنفع أو تضر؟ وقوله عز وجل: ﴿بل إيَّاهُ تَدْعُونَ فيكشفُ ما تَدْعُونَ إليه إن شاءَ وتنسَوْنَ ما تُشرِكُونَ﴾ أي إنكم لا تدعُونَ في الشدائد أصنامكم وأوثانكم ولا تفزعون إليها لدفع الضر عنكم بل تفزعون إلى الله وحده ليكشف الضر عنكم لعلمكم أنه هو وحده

القـادر على كشف الضر عـن عبـاده، وهـو سبحـانـه لا يكشف الضر إلا بمشيئته وحكمته، فقد يكون من الحكمة أن يكشف العذاب الدنيوي عنهم وقد يكون من الحكمة ألا يكشف العـذاب الدنيوي عنهم كما أنه لا يكشف عذاب الآخرة عن المشركين أبدا، قال الزجاج «بل» استدراك، وإيجابٌ بعد نفي، تقول: ما جاء زيد بل عمرو، فَأَعْلَمَهُمُ اللهُ جل وعز أنهم لا يدْعُونَ في حـال الشـدائد إلا إيـاه، وفي ذلك أعظم الحجـة عليهم، لأنهم قـد عبـدوا الأصنام اهـ وقـال ابن جرير الطبري رحمه الله: القول في تأويل قـوله: ﴿بل إياه تـدعون فيكشف مـا تدعون إليـه إن شاء وتنسون مـا تشركون﴾ قـال أبو جعفـر: يقول تعـالى ذكـره مُكَذِّبًـا لهؤلاء العـادلين بـه الأوثان: مـا أنتم أيها المشركـون بـالله الآلهة والأنـداد، إن أتـاكم عـذابُ الله أوأتتكم السـاعـة بمستجيرين بشيء غير الله في حـال شـدة الهول النـازل بكـم من آلهة ووثن وصنم، بل تـدعـون هنـاك ربكم الذي خلقكـم، وبه تستغيثـون، وإليـه تَفْزَعُونَ دون كـل شيء غيره ﴿فيكشف ما تدعون إليه﴾ يقـول: فَيُفَرِّجُ عنكم عند استغاثتكم بـه وتضرعكم إليه عَظِيمَ البلاء النازل بكـم إن شاء أن يفرج ذلك عنكم لأنه القادر على كل شيء ومالكُ كل شيء، دون مـا تدعونه إلَها من الأوثـان والأصنام ﴿وتنسـون ما تشركـون﴾ يقول: وتنسـون حين يأتيكم عـذابُ الله أوتأتيكم الساعـةُ بأهوالها مـا تشركونـه مع الله في عبادتكم إيـاه، فتجعلونه لـه ندًّا من وثن وصنم وغير ذلك مما تعبدونه من دونه وتـدعونه إلَها اهـ وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿ولقـد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعـون. فلـولا إذْ جـاءَهم بـأسنـا تضرعـوا ولَكنْ قست قلوبهم وزَيَّنَ لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ تقريـر للرسالة ومواساة للرسول ﷺ بِبَيَانِ أنه ﷺ ليس بدعا من الرسل وأن إخوانه المرسلين قد كذبتهم أممهم وأن الله عز وجل كـان يبتليهم عند تكذيبهم بالبأسـاء والضراء ليتضرعوا إلى

الله عز وجل ويـرجعوا إليه، ويقلعـوا عن الشرك وتكذيب المرسلين لكنهم لم يفـزعوا إلى الله ليكشـف الضر عنهم بل كانـوا يتمادون في الضـلال والغي ولا يتأثرون بالزواجر التي تنـزل بهم بسبب قسوة قلوبهم وتحجر أفئدتهم وانطماس بصـائرهم وانقيـادهم للشيطـان الذي سـوّل لهم وأملى لهم، وزيّن لهم سُـوءَ أعمالهم فاستحسنوها، وفي هذا إماءة إلى أن كفار قريش لا يفزعون في الضراء إلا إلى الله وحده لكنهم كانوا إذا كشف الله الضر عنهم نسُوا نعمة الله عليهم وأشركوا في العبـادة أصنامهم وأوثانهم بخلاف من أشـار الله عز وجل إليهم هنا من الأمم السابقة حيث كانوا لا يفزعون إلى الله عند نزول البأساء والضراء بهم، والمراد بالبأسـاء: الأهوال والشدائد والـدواهي والحروب والمراد بالضراء الأمراض والأوجاع والآفات والأسقام والآلام، ومعنى: ﴿لعلهم يتضرعون﴾ أي سلطنا عليهم هـذا العذاب من بأس الله ليتضرعـوا إلى الله ويفزعـوا إليه ليرفع العـذاب عنهم، ومعنى قـولـه عـز وجل: ﴿فلولا إذ جـاءهم بـأْسُنَـا تَضَرَّعوا ولكِنْ قست قلـوبهم وَزَيَّنَ لهم الشيطان ما كانـوا يعملون﴾ أي فَهَلاَّ تضرعـوا إلى الله عز وجل عنـدما جـاءهم بأس الله ونـزلت بهم عقوبتـه التي أحلهـا بهم للتـذكير والتخويف، لكنهم لم يتضرعـوا إلى الله ولم تلِنْ قلـوبهم خوفا منه عز وجل بل قست قلـوبهم وتحجرت أفئدتهم فأقاموا على تكذيبهم لـرسل الله وكفرهم بـآيـات الله وأصروا على عنادهم واستكبروا عن أمـر ربهم استهانة بعقاب الله واستخفافـا بأمره عز وجل، وحسَّنَ لهم الشيطان أعمالهم القبيحة فـاستحسنوها، واستمرؤوهـا وانغمسوا فيها وغفلوا عما ذُكِّـروا به من البأساء والضراء، ولم يتضرعوا إلى الله تبارك وتعالى ليرفع الضُّرَّ عنهم ولم ينيبوا إليه انقيـادًا للشيطان الذي سـوَّل لهم وأملى لهم، وقوله تبـارك وتعالى: ﴿فلَمَّا نَسُـوا مـا ذُكِّـرُوا به فَتَحْنَـا عليهم أبـواب كل شيء حتى إذا فَـرِحُـوا بما أُوتـوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ أي فلما اشتدت غفلتهم، وتَرَكُوا ما وُعِظُوا

به، ولم ينيبـوا إلى الله عز وجل ولم يتضرعوا، أَمْلَيْنَـا لهم واستدرجناهم فـرفعنا البأساء والضراء عنهم، وفتحنـا عليهم استدراجـا منَّا لهم أبواب كل مـا كنا سددنا عليهم بـابه عند أخذنـا إياهم بالبأساء والضراء فبـدلنا مكان الضيق سعـة ومكان المرض صحـة ومكان الشـدة رخـاء، فازدادوا كفـرا وطغيانـا، وفَـرِحُوا بما أوتـوا ولم يتنبهوا إلى أن ذلك استـدراج من الله عز وجل وكيـدٌ لهم ومكـرٌ بهم فلما صـاروا إلى حال حَسِبُـوا فيهـا أن هـذا النعيم لن يـزول عنهم وبلغوا الغـاية في المتـاع واشتد تعلقهم بمـلاذهم وشهواتهم أخـذهم الله عز وجل أخذ عزيـز مقتدر فأنزل بهم عذابه فجأةً فإذا هم هالكـون يائسون من رحمة الله، لا يستطيعون الإجابة ولا يتمـكنون من التوبة والإنابة، وهذا المقام في كتاب الله تبارك وتعالى شبيه بقوله عز وجل: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنـا أهلها بالبأساء والضراء لعلهـم يَضَّرَّعُونَ * ثم بَدَّلْنَا مكـانَ السيئة الحسنةَ حتى عَفَوْا وقالوا قد مَسَّ آباءنا الضراءُ والسراءُ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ وقولـه تبارك وتعالى: ﴿فَقُطِعَ دابِرُ القوم الذين ظلمـوا والحمد لله رب العـالمين﴾ أي استؤصلـوا عن آخرهم ولم يبق منهم أحـد بسبب ظلمهم وكفرهم وتكذيبهم لرسل الله ولله عز وجل الحمد والثناء على انتصاره لأوليائه وقطعـه لدابـر أعدائه قـال العـلامة ابن منظـور في لسان العـرب: وقطع الله دابـرهم أي آخـر من بقي منهم، وفي التنـزيل: ﴿فَقُطِعَ دابـر القـوم الـذين ظلمـوا﴾ أي استؤصـل آخرهم، ودَابـرة الشيء كـدابـره، وقال الله تعـالى في مـوضع آخر: ﴿وقضينـا إليه ذٰلـك الأمر أنَّ دابِـرَ هٰؤلاء مقطـوع مُصْبِحِينَ﴾ قـولُهُمْ: قطع الله دابره قـال الأصمعيُّ وغيرهُ: الدابـرُ: الأصل أي أذهب الله أصْلَه، وأنشد لِوَعْلَةَ:

فِـــدى لكما رِجْلَيَّ أمي وخـــالتـي غَـــدَاةَ الكُـــلاَبِ إذ تُحَزُّ الـــدَّوَابِـــرُ

أي يقتل القوم فتـذهب أصولهم ولا يبقى لهم أثـر اهـ وقال الـزجاج رحمه

الله : وقوله : ﴿فَقُطِعَ دابِر القوم الـذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ حَمِدَ اللهُ عـز وجل نفسهُ على أن قطع دابـرهم واستأصل شأفتهم ، لأنه جل وعـز أرسل إليهم الـرسل ، وأَنْظَرَهُـم بعد كفـرهم ، وأخـذهم بالبأسـاء والضراء ، فَبَالَغَ جل وعز في إنذارهم و إمْهَالِهِمْ ، فحَمِـدَ نفسهُ لأنه محمود في إمهالِهِ مَن كفر به وانتظارِهِ توبته اهـ .

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وأَبْصَارَكُمْ وخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يـأْتِيكُمْ بِهِ، انظرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ ثم هُمْ يَصْـدِفُونَ * قل أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عـذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القَوْمُ الظَّـالِمُونَ. ومَا نُرْسِلُ المُرْسلينَ إلا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَـنْ آمَنَ وأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. والذينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا يَمَسُّهُم العَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

بعد أن أمـر الله تبارك وتعـالى رسولـه ﷺ بأن يُقَرِّعَ قريشـا ومن معهم من الكفار ويوبخهم على تكذيبهم بآيات الله ويُقيمَ عليهم الحجة الدامغة بأنهم في شدائدهـم لا يفزعـون إلا إلى الله وحده وينسون أصنـامهم وأوثـانهم، مما يقطع بأن آلهتهم التي يدعونها ويعبدونها من دون الله لا تملك نفعا ولا ضرا، أمر رسوله ﷺ بتكرير تقريعهم وتبكيتهم وتوبيخهم مرة ثانية وثالثة إلزاما لهم بعد إلـزام و إقامـة للحجة بعـد الحجة وبـرهانـا بعد البرهان، لينقطعـوا عن الشرك بالله من كل وجـه ولتستبين سبيل المجرمين وينسـدَّ كلُّ طريق للشرك كليـة مع تعجيب رسـول الله ﷺ من عـدم تأثر بعـض هؤلاء بما عـاينـوا من الآيات البـاهرة والحجج القاهرة الظـاهرة، ويؤكد وظـائف المرسلين، تأكيدا للرسـالة حيث يقول عز وجل: ﴿قل أرأيتم إن أخـذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إلـه غير الله يأتيكم به، انظـر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون * قل أرأيتكم إن أتاكـم عذابُ الله بغتة أو جَهْرَةً هل يُهْلَكُ إلا القومُ الظالمون * ومـا نرسل المرسلين إلا مُبَشِّرينَ ومُنْذرينَ فمن آمنَ وأصلح فلا خَوْفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنُـونَ * والذين كذَّبوا بآيـاتنا يَمَسُّهُم العذاب بما كانوا يفسقـون﴾ قال ابن جرير الطبري: القول في تـأويل قوله: ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قُلُـوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غير اللهِ يأتيكُمْ به انظر كيف نُصَرِّفُ الآياتِ ثُمَ هـم يَصْدِفُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره

لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بي الأوثانَ والأصنامَ المكذبين بك: أرأيتم أيها المشركون بالله غَيْرَهُ إن أصمَّكُمُ الله فذهب بأسماعكم، وأعماكم فذهب بأبصاركم، وختم على قلوبكم فَطَبَعَ عليها، حتى لا تفقهوا قولا، ولا تُبْصِرُوا حجةً، ولا تَفْهَمُوا مفهومًا، أيُّ إله غيرُ الله الذي له عِبَادَةُ كلِّ عابد ﴿يأتيكم به﴾ يقول: يَرُدُّ عليكم ما ذَهَبَ اللهُ به منكم من الأسماع والأبصار والأفهام، فَتَعْبُدُوه أو تشركُوهُ في عبادة ربكم الذي يقدر على ذهابه بذلك منكم، ، وعلى رَدِّهِ عليكم إذا شاء، وهذا من الله تعالى ذكره تعليمٌ نَبِيَّهُ الحجةَ على المشركين به، يقول له: قل لهم: إن الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم ضرا ولا نفعا، وإنما يَسْتَحِقُّ العبادةَ عليكم من كان بيده الضر والنفع، والقَبْضُ والبَسْطُ، القادرُ على كل ما أراد، لا العاجِزُ الذي لا يَقْدِرُ على شيء، ثم قال تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿انظر كيف نُصَرِّفُ الآيات﴾ يقول: انظر كيف نُتَابِعُ عليهم الحُجَجَ، ونَضْرِبُ لهم الأمثالَ والعِبَرَ، ليعتبروا ويَذَّكَّرُوا فينيبوا ﴿ثم هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يقول: ثم هم مع مُتَابَعَتِنَا عليهم الحُجَجَ، وتَنْبِيهِنَا إياهم بالعبر، عن الادِّكار والاعتبار يُعْرِضُونَ. يقال منه: صَدَفَ فلانٌ عني بوجهه فهو يَصْدِفُ صُدوفا وصَدْفا أي عَدَل وأعرض ومنه قولُ ابنِ الرِّقاع:

إذا ذَكَرْنَ حَدِيثا قُلْنَ أَحْسَنَهُ ... وهُنَّ عن كل سُوءٍ يُتَّقَى صُدُفُ

وقال لبيد:

يُرْوى قَوَامِحَ قَبْلَ الليل صَادِفةً ... أَشْبَاهَ جِنٍّ عليها الرَّيْطُ والأُزُرُ

فإن قال قائل: وكيف قيل ﴿مَنْ إله غيرُ الله يأتيكم به﴾ فَوَحَّدَ الهاء وقد مضى الذكرُ قبلُ بالجمع فقال: ﴿أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم﴾؟ قيل: جائزٌ أن تكون الهاءُ عائدةً على السمع فتكون مُوَحَّدَةً لتوحيد السمع، وجائزٌ أن تكون مَعْنِيًّا بها: من إلهٌ غير الله يأتيكم بما

أخذ منكم من السمع والأبصار والأفئدة فتكون مُـوَحَّدة لتوحيد ما، والعربُ تفعل ذلك إذا كَنَّت عن الأفعال وحَّدَت الكنايـة، وإن كثر ما يكنى بها عنه من الأفـاعيل، كقولهم: إقبـالُكَ وَإِدْبَـارُكَ يعجبني، اهـ ولا شك أن كفـار قريش ومن كان على شاكلتهم كانـوا مقرين بأن الله عز وجل هو الذي جعل لهم السمع والأبصـار والأفئـدة، وأنـه لا يملكهـا أحدٌ سـواه، كما قـال عـز وجل: ﴿والله أخـرجكم من بطـون أمهـاتكم لا تعلمـون شيئـا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئـدة لعلكم تشكرون﴾ وقـال عز وجل: ﴿وهـو الذي أنشأ لكم السمع والأبصـار والأفئدة، قليلا مـا تشكرون﴾ وقـال عز وجل: ﴿قل مَن يرْزُقُكمْ من السماء والأرض أَمَّـن يَمْلِكُ السمع والأبصار ومن يُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الميت ويخرج الميت من الحي ومن يـدبر الأمـر فسيقولـون الله، فَقُلْ أفـلا تتقـون * فـذلكم الله ربُّكم الحقُّ فماذا بعـد الحق إلا الضـلال فأني تُصْرَفُـونَ﴾ وقولـه تبارك وتعـالى: ﴿قل أرأَيْتَكُمْ إن أتـاكم عذابُ الله بغتـة أو جهرةً هل يُهْلَكُ إلاَّ القَوْمُ الظَّـالِمُونَ﴾ إنذار للمشركين بعد إنذار وتخويف لهم عقب تخويف وتـرهيـب إثـر تـرهيب، فبعـد أن خـوفهـم بأخـذ أسماعهم وأبصارهم والختم على قلـوبهم خَوَّفَهُمْ مرة أخـرى بعذاب عـام شامل يأتيهم بغتة أو جهرة يُبيدُ القوم الظالمين وينجو منه القوم المؤمنون، ومعنى الآية: قل لهم يا محمد: أخبروني أيها المشركون الجاهلون المكـذبون إن جاءكم عقابُ الله وحلَّ بكم عـذابه مفـاجأة دون أن تَتَقَـدَّمَهُ أمـارات أو عـلامات أو جـاءكم عذاب الله بعـد أن تَقَدَّمَتْهُ أمـارات وتحذيراتٌ وعـلاماتٌ عاينتمـوها قبل أن يحل بساحتكم العقـاب الشديـد والعذاب المبيـد الذي لا يعـاقب الله به إلا القوم الظـالمين الذين عبدوا من دون الله مـا لا ينفعهم ولا يضرهم ولم يخلصوا العبـادة للحي القيوم النـافع الضـار، فظلموا بـذلك أنفسهم حيث وضعـوا العبادة في غير مـوضعها وقـد جرت سنـة الله تبارك وتعـالى في أخذه لأعـداء

المرسلين أن يأخذ بعضهم بغتةً وأن يأخذ بعضهم جهرة لحكمته البالغة كما قال عز وجل: ﴿أفَأَمِنَ الذين مَكَرُوا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذابُ من حيث لا يشْعُرُونَ. أو يأْخُذَهم في تَقَلُّبِهِمْ فما هم بمُعْجِزينَ. أو يأخذهم على تَخَوُّفٍ فإنَّ ربكم لرءوف رحيم﴾ فأَخْذُهُمْ بِخَسْفِ الأرض بهم أو بمجيء العذاب من حيث لا يشعرون أو بأخذهم في تقلبهم كل هذه الأنواع من باب أخذهم بغتةً، أما الأخذُ على تَخَوُّف وهو التنقص بتسليط الأمراض والنكبات عليهم قبل حلول العذاب المبيد فهو من باب أخذهم جَهْرَةً والاستفهام في قوله عز وجل: ﴿هل يُهْلَكُ إلا القوم الظالمون﴾ بمعنى النفي أي لا يُهْلَكُ بعذاب الله المبيد إلا القوم المشركون الذين عبدوا غير الله حيث وضعوا العبادة في غير موضعها وكذبوا المرسلين.

وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿وما نُرْسِلُ المرسلين إلاَّ مُبَشِّرِينَ ومُنذرينَ﴾ أي وما نرسل المرسلين إلا ليُرَغبوا عباد الله عز وجل في طاعة الله ويخوفوهم ويحذروهم من معصيته تبارك وتعالى، قال الزجاج رحمه الله: أي ليس إرسالهم بأن يأتوا الناس بما يقترحون عليهم من الآيات، وإنما يأتون من الآيات بما يُبَيِّن الله به براهينهم وإنما قَصْدُهُم التبشير والإنذار اهـ وقد أشرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿وبَشِّرِ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنَّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أن البشارة هي الخبر العظيم الذي يظهر أثره على البشرة سواء كان بالخير فتنطلق أسارير الوجه فرَحًا أو كان بالشر فتنكمش بَشَرَةُ الوجه وتنقبض حزنا قال ابن سيده: والتبشير يكون بالخير والشر كقوله تعالى: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ اهـ فإذا اجتمعت البشارة مع النذارة في سياق كانت البشارة في الخير والنذارة في التخويف والتحذير من الشر كما في هذا المقام من قوله تعالى: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكونَ للناس على الله حُجَّةٌ بعد

الرسل﴾ وكما قال عز وجل : ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا * وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا﴾ ونظائر ذلك . وقوله تبارك وتعالى : ﴿فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون * والذين كذَّبوا بآياتنا يمسُّهم العَذَابُ بما كانوا يَفْسُقُون﴾ بيانٌ لأهم صُور التبشير والإنذار وذلك بإعلام المؤمنين الصالحين أنهم قد أَحْرَزُوا أنفسهم من الخوف والحزن عند لقاء الله مع الحياة الطيبة في الدنيا ودخول جنات النعيم في الدار الآخرة ، وإعلام المكذبين بآيات الله ورسله أنهم قد خسروا أنفسهم بما جلبوه لها من الخوف والحزن عند لقاء الله حيث يذوقون سوء العذاب بسبب فسقهم عن أمر الله وتكذيبهم بآيات الله ورسل الله عليهم الصلاة والسلام وسُلُوك مسلك الترغيب والترهيب في دعوة الخلق إلى الخالق وتعريفهم بما ينفعهم وما يضرهم هو أفضل مناهج التربية والتعليم لأنه مبني على معرفة أحوال النفس الإنسانية وما يؤثر فيها ، وما تتأثر به من الرجاء أو الخوف ، والوعد أو الوعيد ، وقد سلك القرآن العظيم هذا المسلك القويم وكذلك سلكه رسول الله ﷺ وقد سلكه من قبله ﷺ جميعُ الأنبياء والمرسلين إذ لا تكاد تخلو النصوص الواردة في كتاب الله أو عن رسله عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلى الله من أسلوب الترغيب والترهيب والتبشير والتحذير ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة ، ولتستبين السبيلُ أمام العباد لينهج العقلاءُ أهلُ الخير والصلاح سبيلَ الفلاح ، وليعرف المنحرفون أنهم ضلوا سواء السبيل ، وكما قال الشاعر :

أَمامَكَ فانظر أيَّ نَهْجَيكَ تنهجُ … طريقان شتى مستقيم وأعوج

ومن صور التبشير والتحذير قوله تبارك وتعالى : ﴿وإن كنتم في ريب مما نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة

أعدت للكافرين . وبشر الذيـن آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار كلما رُزِقوا منهـا من ثمرة رزقا قالوا هـٰذا الذي رزقنا من قبل وأُتوا بـه متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيهـا خالدون﴾ وقـد لُوحِظَ أن القـرآن الكـريـم قـد يقـدم الترغيب على الترهيب وقــد يقـدم الترهيب على الترغيب بحسب مقتضيات الأحوال إذ لكل مقام مـا يناسبه من المقال، وهو لونٌ من ألوان إعجاز القرآن .

قال تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ ولاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ ولاَ أَقُول لَكُمْ إنِى مَلَكٌ إن أَتَّبِعُ إلا ما يُوحَى إلَيَّ، قُلْ هلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى والبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ. وأَنْذِرْ بِهِ الَّـذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إلى رَبِّـهِمْ ليس لهم مِن دُونِهِ وليٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. ولاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبهمْ بِالغَدَاةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَـهُ مَـا عَلَيْكَ مِنْ حِسَـابِهِمْ مِن شيءٍ وَمَـا مِنْ حِسَـابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شيءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ من الظَّالمينَ. وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولوا أَهٰؤلآءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْننَا، أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بالشَّاكِرِينَ﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل أن المشركين قالوا: ﴿لـولا نُزِّلَ عليه آية من ربه﴾ وساق عز وجل الأدلة القاطعة والبراهين السـاطعة على أنه عز وجل له القدرة الشاملة على إنزال ما يشاء من الآيات وأنه لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، وأن إنـزال الآيـات إنما يكـون بمشيئتـه وحكمتـه لا بحسب أهـواء الجاهلين ومقترحاتهم وتَوَعَّـدَهُمْ بالعقوبة إن استمـروا على عنادهم وبيَّنَ عز وجل وظيفـة أنبيـائه ورسلـه وأنها مقتصرة على تبليغ الـرسـالـة وتبشير من أطاعهم بالنعيم المقيم وإنذار من عصـاهم بالعذاب الأليم وأن الرسل ليس بأيـديهم أن يتصرفوا في الكـون كما يشـاءون وأنهم لا يستطيعـون خرق نظـام السموات والأرض، أمر نبيَّه وحبيبـه وسيد رسله محمداً ﷺ أن يخبر الجاهلين أن التصرف في الكون وخزائنه هو لله وحـده وليس مفوضا إلى أحد من خلقه وأن يخبرهم أنـه ﷺ لا يعلم الغيب الـذي استأثـر الله عـز وجل بعلمـه وأن يوبخهم على ما اقترحوه عليـه من بعض الآيات كأن يرقى في السماء مُبَيِّنًا لهم أن ذلك إنما يطلب منه لـو كان قد أخبرهم بأنه مَلَكٌ لأن الـرقيَّ في السموات من شأن الملائكة، وأن يخبرهم ﷺ بأنه متبع لما جـاءه من الوحي من عند الله وأن وظيفته ﷺ مقصـورة على اتباع الوحي حيث يقول عـز وجل هنا: ﴿قل

لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني مَلَكٌ إن أتبع إلا ما يوحَى إليَّ﴾ قال أبو اسحاق الزجاج رحمه الله : وقوله : ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائنُ الله﴾ هذا متصل بقوله : ﴿لولا نُزِّلَ عليه آيةٌ من ربه﴾ فأعلمهم النبي ﷺ أنه لا يملك خزائن الله التي بها يَرْزُق ويُعطي وأنه لا يعلم الغيب فيخبرهم بما غاب عنه مما مضى وما سيكون إلا بوحي من الله عز وجل : ﴿ولا أقول لكم إني مَلَكٌ﴾ أي المَلَكُ يُشاهد من أمور الله عز وجل ما لا يشاهده البَشَرُ، فأَعْلَمَهُمْ أنه يتبع الوَحْي فقال : ﴿إن أَتَّبِعُ إلا ما يوحى إليَّ﴾ أي ما أنبأتكم به من غيب فيما مضى وفيما سيكون فهو بوحي من الله ، فأما الإنباءُ بما مضى فأخبارٌ بقصص الأمم السالفة والأخبار بما سيكون كقوله : ﴿غُلبت الرومُ في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . في بضْعِ سنينَ﴾ فوجد من ذلك ما أنبأ به ، ونحو قوله : ﴿واللهُ يعصمك من الناس﴾ فاجتهدوا في قتله ، فلم يصلوا إلى ذلك وقوله : ﴿ليظهره على الدين كله﴾ وما يُرْوَى من الأخبار عنه بما يكون أكْثَرُ من أن يُحْصى اهـ وقال ابن جرير الطبريُّ رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني مَلَكٌ إن أَتَّبِعُ إلا ما يُوحَى إليَّ قل هل يستوي الأعمى والبصيرُ، أفلا تتفكرون﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره : قل لهؤلاء المنكرين نُبُوَّتكَ : لست أقول لكم إني الربُّ الذي له خزائنُ السموات والأرض فأَعْلَمُ غُيوبَ الأشياء الخفية التي لا يعلمها إلا الربُّ الذي لا يَخْفَى عليه شيء فتكذبوني فيما أقول من ذلك لأنه لا ينبغي أن يكون ربًّا إلا من له مُلكُ كل شيء ، وبيده كلُّ شيء ، ومَن لا يخفى عليه خافية وذلك هو الله الذي لا إله غيره ﴿ولا أقول لكم إني مَلَكٌ﴾ لأنه لا ينبغي لِمَلَكٍ أن يكون ظاهرا بصورته لأبصار البَشَر في الدنيا فَتَجْحَدوا ما أقول لكم من ذلك ﴿إن أَتَّبِعُ إلا ما يُوحَى إليَّ﴾ يقول : قل لهم : ما أَتَّبِعُ

فيما أقول لكم وأدعوكم إليـه إلا وَحْيَ الله الذي يوحيه إليَّ وتنزيلَه الـذي يُنزله عليَّ فأَمضِي لوحيه، وأئتمر لأمره وقد أتيتكم بالحجج القاطعة من الله عُذْرَكُمْ على صحة قولي في ذلك، وليس الذي أقـول من ذلك بمنكر في عقولكم ولا مستحيل كونُه، بل ذلك مـع وجود البرهان على حقيقته هو الحكمـة البالغة فما وجه إنكـاركم ذلك؟ وذلك تنبيهٌ من الله تعـالى ذكره نَبِيَّـهُ ﷺ على موضع حجتـه على منكـري نبـوتـه من مشركي قــومـه. ﴿قل هل يستـوي الأعمى والبصير﴾ يقول تعالى ذكره: قل يـا محمد لهم: هل يستوي الأعمى عن الحق والبصيرُ به، والأعمى: هو الكافر الـذي قد عَمِيَ عن حجج الله فلا يَتبيَّنُها فَيَتَّبِعُهَـا، والبصيرُ: المؤمن الذي قـد أبصر آياتِ الله وحُجَجَـهُ، فاقتـدى بها واستضاء بضيائهـا، ﴿أفلا تتفكرون﴾ يقول لهؤلاء الذي كذبـوا بآيات الله: أفلا تتفكـرون فيما أَحْتَجُّ عليكم به أيها القومُ من هذه الحجج فتَعلَمـوا صحة مـا أقول وأدعـوكم إليه، من فسـاد ما أنتم عليـه مقيمون من إشراك الأوثـان والأنـداد بـالله ربكم وتكـذيبكم إيـاي مع ظهـور حجج صـدقي لأعينكم فتَدَعُوا ما أنتم عليه من الكفر مقيمون إلى ما أدعوكم إليه من الإيمان الذي به تفوزون اهـ وقـوله تبارك وتعالى: ﴿وأنذر بـه الذين يخافون أن يُحْشَرُوا إلى ربهم ليس لهم من دونـه وليٌّ ولا شفيعٌ لعلهم يتقـون﴾ بيـان وإرشاد إلى أن قلـوب الناس ليست سـواء عند تلقي الإنذار فـالعُمي الصُّمُّ البُكْمُ الذين ختم الله على قلـوبهم لا ينتفعون بإنـذار المنذرين ومـن ليسوا كـذلك من الناس قـد ينتفعـون بالإنـذار ويتأثرون بـالموعظة فيـدخل في قلوبهم الخوفُ من الله عـز وجل، وينزجـرون عما يُنْهَونَ عنه، ويقفون عند حـدود الله لعلهم ينجون من عذابه يوم القيامـة الذي لا ينفع فيه وليٌّ ولا شفيع إلا بإذن الله ورضاه كما قال عز وجل: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعـة إلا من أَذِنَ له الرحمنُ وَرَضِيَ له قولا﴾ وكما قـال عز وجل:

﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وكما قال عز وجـل ﴿ولا تنفع الشفاعةُ عنده إلا لمن أَذِنَ له﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿يـوم لا يغني مؤلى عن مـولًى شيئًا ولا هم ينْصَرون * إلا من رحم الله، إنه هو العزيز الرحيم﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تطرد الـذين يَدْعُونَ ربهم بالغـداة والعَشِي يريدون وجهـه ما عليك من حسـابهم من شيء وما مـن حسابك عليهم من شيء فتطْـردَهم فتكـون من الظالمين﴾ تنبيـهٌ إلى أن من انتفع بالإنذار وانقـاد لأمر الله واستجاب لرسـوله ﷺ فإنه يكون ذا مكانة ومنزلة عـالية عند الله عز وجل بغض النظر عن فقره وغناه ونسبـه وحسبه، لأن العزة لله ولـرسولـه وللمؤمنين، وتنديـدٌ بالجاهلين الذين يقيسون الناس بمنازلهم الدنيوية فيزدرون الفقراء ومن لا نسب لهم ولا حسب حيث كـان هـؤلاء الجاهلـون يطلبون مـن رسول الله ﷺ إبْعَـاد فقـراء المسلمين عن مجلسه، ويسمونهم الأشرار ويسخرون منهم، فقد روى مسلم في صحيحه من حـديث سعد بن أبي وقـاص رضي الله عنه قـال: فيَّ نَزَلَتْ: ﴿ولا تطرد الـذين يدْعُـونَ ربَّهم بالغداة والعَشيِّ﴾ قـال: نَزَلَتْ في ستـة: أنا وابن مسعود منهم. وكان المشركون قالوا له: تُدْنِي هؤلاء؟ ثم ساق مسلم من حديث سعـد رضي الله عنه قال: كنـا مع النبي ﷺ ستة نفرٍ فقـال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قـال: وكنتُ أنا وابن مسعود ورجل من هذَيْل وبلال ورجلان لسْتُ أُسَمِّيهمَا فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدَّث نَفْسَهُ فأنزل الله عز وجـل: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بـالغداة والعشي يـريدون وجهـه﴾ وقـد أمر الله رسـوله ﷺ أن يجعل هـؤلاء المؤمنين جُلَسَاءَهُ وأَخِصَّـاءَهُ حيث قال: ﴿واصبر نفسك مـع الذين يـدعون ربهم بالغـداة والعشي يريدون وجهـه ولا تَعْدُ عينـاك عنهم تريد زينـة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتَّبَعَ هواه وكان أمره فرُطًا﴾ واحتقار الفقراء خُلُق الجاهلين من المتقدمين والمتأخرين كما قال عز وجل عن قوم نوح

عليه السلام: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بَادِيَ الرأي﴾ وطلبوا من نوح عليه السلام طردهم فردَّ عليهم فقال: ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون * ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم، أفلا تذكرون * ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني مَلَك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا اللهُ أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قالوا أنؤمن لك واتبعك الأَرْذَلُون * قال وما علمي بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ أي لا تُبْعد عن مجلسك هؤلاء الفقراء الصالحين الداعين ربهم ليلا ونهارا وصباحا ومساء الذين أخلصوا قلوبهم وأسلموا وجوههم لله عز وجل لا يعبدون إلا الله ولا يدْعُونَ أحدا سواه، ومعنى قوله تبارك وتعالى ﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهُمْ فتكونَ من الظالمين﴾ أي إنما حساب عباد الله من الأغنياء والفقراء على الله وحده وليس الرسول بمسئول عن حسابهم على أعمالهم، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون﴾ كما أنه ليس على الرسول إلا البلاغ من الترغيب والترهيب، فهو مسئول عما أنيط به كما أن الأمة مسئولة عما أنيط بها فلا تزر وازرة وزر أخرى، وليس للإنسان إلا ما قدمه لنفسه من عمل صالح، ولا يتحمل إلا وزر ما اجترحه من الأعمال، وليس الغنَى أو الفقر هو المعيار الذي يقاس به الإنسان فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه، وإنما أرزاق العباد بيد الله وحده يُوسِّع على من يشاء ويضيق على من يشاء امتحانا وابتلاء فلا يدل غنى الغني على رضا الله عنه ولا يدل فقر الفقير على سخط الله عليه، ولذلك قال: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أَهؤلاء من الله عليهم من بيننا، أليس الله بأَعْلَمَ

بالشـاكرين﴾ قال ابن جـرير رحمه الله : وأما قـولهُ : ﴿ليقولـوا أهٰؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا﴾ يقول تعـالى : اختبرنا الناس بالغنى والفقـر، والعز والذل، والقوة والضعف والهدى والضـلال كي يقول من أضلـه الله وأعماه عن سبيل الحق للذين هـداهم الله ووفقهم : ﴿أهٰؤلاء مَنَّ الله عليهم﴾ بالهدى والـرشد وهم فقراء ضعفاء أذلاء ﴿من بيننا﴾ ونحن أغنياء أقوياء استهزاءً بهم ومعاداة للإسلام وأهله اهـ وقـوله : ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ أي إنما يهدى الله من يعلم أنـه يشكره على نعمائه ويعترف بألـوهيتـه وربوبيتـه وأسمائه الحسنى وصفاته العلى .

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جاءَكَ الَّذينَ يؤْمِنُونَ بآياتنا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ ربكم عَلَى نَفْسِهِ الرحمة أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ منكم سُوءًا بِجهالةٍ ثم تاب من بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فأَنَّهُ غفُورٌ رَحِيمٌ. وكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ ولِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المُجْرِمِينَ. قُلْ إني نُهيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدعُونَ مِن دونِ اللهِ قُلْ لاَ أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا من المُهْتَدِينَ. قُلْ إنى عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ، مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ، إن الحُكْمُ إلاَّ للهِ يَقُصُّ الحَقَّ وهُوَ خَيْرُ الفَاصِلينَ. قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ به لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ واللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾.

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى بعض قبائح الجاهلين حيث اقترحوا على رسول الله ﷺ أن يأتيهم بآية يخرق بها نظام الكون، وحيث طلبوا من رسول الله ﷺ أن يطرد الفقراء من مجلسه، وبعد أن نهى الله عز وجل حبيبه ورسوله وسيد خلقه محمدًا ﷺ أن يطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، مشيرا بذلك إلى عظيم منزلتهم عند الله عز وجل شرع هنا في حض رسول الله ﷺ على زيادة تكريم المؤمنين، وتبشيرهم بما يدخل السرور على قلوبهم بغض النظر عن فقرهم وغناهم وأيأَسَ المشركين من أن يتمكنوا من استمالة رسول الله ﷺ إلى باطلهم وعبادة غير الله وأَمَرَ رسوله ﷺ أن يخبر المشركين المقترحين للآيات أنه ﷺ ليس بيده شيء من الآيات التي يقترحونها لأن الآيات بيد الله وحده، وأن يقول لهم: لو كانت الآيات التي تقترحونها بيدي لآتيتكم بها، ولكنها بيد الله الذي يقص الحق وهو خير الفاصلين ولا يظلم أحدا، وهو أعلم بالظالمين، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾ إلى

قوله عز وجل: ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾ أي فَأَكْرِمْهُمْ برَد السلام عليهم، وبشرْهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم، ولهذا قال: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ أي أوجبها على نفسه الكريمة تفضلا منه وإحسانا وامتنانا ﴿أنه من عمل منكم سوءًا بجهالة﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل اهـ وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وإذا جاءك يا محمد القومُ الذين يُصَدِّقون بتنزيلنا وأدلتنا وحججنا فيُقِرونَ بذلك قولا وعملا، مُسْتَرْشِديكَ عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم، هل لهم منها توبة؟ فلا تؤيسهم منها، وقل لهم: ﴿سلام عليكم﴾ أَمنة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها. ﴿كَتَبَ ربكم على نفسه الرحمة﴾ يقول قَضى ربكم الرحمة بخلقه ﴿أنه من عَمِلَ منكم سوءًا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾ ثم قال رحمه الله: ومعنى قوله: ﴿أنه من عمل منكم سوءا بجهالة﴾ أنه من اقترف منكم ذنبا فجهل باقترافه إياه ثم تاب وأصلح ﴿فأنه غفور﴾ لذنبه إذا تاب وأناب وَرَاجَعَ العملَ بطاعة الله، وترك العَوْدَ إلى مثله مع الندم على ما فرط منه ﴿رحيم﴾ بالتائب أن يعاقبه على ذنبه بعد توبته منه اهـ وقال الزجاج رحمه الله: ومعنى يعملون السوء بجهالة أي ليس بأنهم يجهلون أنه سوء، لو أتى المسلم ما يجهل أنه سوء لكان كمن لم يتعمد سوءًا، ولم يوقع سوءًا، وقولك: عمل فلان كذا وكذا بجهالة يحتمل أمرين، فأحدهما أنه عمله وهو جاهل بالمكروه فيه أي لم يعرف أن فيه مكروها، والآخر أقدم عليه على بصيرة، وعلم أن عاقبته مكروهة، فآثر العاجل فجُعِلَ جاهلا، فإنه آثر القليل على الراحة الكثيرة والعافية الدائمة فهذا معنى: ﴿من عمل منكم سوءا بجهالة﴾ اهـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجيء أنَّ مرتين مرة مع الشرط ومرة

مع الجزاء: ونظير الجمع بين تأكيد الجملة الكبرى المركبة من الشرط والجزاء وتأكيد جملة الجزاءقوله تعالى: ﴿إنه من يتق ويصبر فإنَّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ فلا يقال: إنها أعيدت لطول الكلام، ونظِيرُه قوله تعالى: ﴿إنه من يأت ربَّه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يَحْيى﴾ ونظيره: ﴿أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾ فهما تأكيدان مقصودان لمعنيين مختلفين، ألا ترى تأكيد قوله ﴿غفور رحيم﴾ بأنَّ غيرُ تأكيد ﴿من عمل منكم سوءا بجهالة فأنه غفور رحيم﴾ له بأن؟ وهذا ظاهر لاخفاء به وهو كثير في القرآن وكلام العرب اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وكذلك نُفَصِّل الآيات ولتستبين سبيلُ المجرمين﴾ أي وهكذا نُبَيِّن ونُفَصِّل ونميز للناس أعلامنا وحججنا وأدلَّتنا ليتضح الطريق المستقيم ليسلكه المؤمنون ولتستبين السبيل المعوجة التي يسلكها الكافرون المجرمون، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل المبشرين المنذرين وليرتدع المكذبون الجاهلون الذي يصفون الذكر الحكيم بأنه أساطير الأولين، مع أنه تبيان لكل شيء يحتاجه الناس في معاشهم ومعادهم، مما جدَّ ويجد لهم إلى يوم القيامة ويرسم أحسن المناهج، ويهدي المستقيمين إلى سواء الصراط وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله، قل لا أتبع أهواءكم قد ضَلَلْت إذا وما أنا من المهتدين﴾ تنديد بالمشركين وأصنامهم وما يعبدون من دون الله، وتحذير شديد من مسلكهم وتقريع بأنهم سلكوا الطريق المعوج تقليدا لأهوائهم وأهواء آبائهم، فهم يعبدونها على محض الهوى والتقليد الأعمى والضلال البحت لا على سبيل البينة والحجة والبرهان، فهم يعبدون ما يصنعون، ويدعون من الأحجار ما ينحتون فلو كان لهم أدنى مسكة من عقل ما عبدوها، وهم لا يضرعون إليها عند الشدائد بل يضرعون إلى الله وحده

ويقرون بأن آلهتهم التي يعبدون من دون الله مملوكة لله عز وجل حيث كانوا يقولون في تلبيتهم بالحج: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هُوَ لَكَ، تملكه وما مَلَكَ، وكانوا يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿قل إني نُهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله﴾ قطع لأطماع بعض المشركين الذين كانوا يطمعون في أن يميل رسول الله ﷺ إلى باطلهم، وفي قوله عز وجل: ﴿قل لا أتَّبع أهواءكم قد ضللت إذًا وما أنا من المهتدين﴾ تأكيد على أن عبادة غير الله هي سبيل المجرمين، وأنها مبنية على الهوى المحض، وأن من سلكها فهو ضال عن سواء السبيل، وليس من المهتدين الراشدين المفلحين الفائزين، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل إني على بينة من ربي وكذبتم به﴾ تحقيق لما عليه رسول الله ﷺ من سبيل الهُدى والرشاد وما يسلكه من الصراط المستقيم وما يهتدي به من البرهان البَيِّنِ والحجة الواضحة التي هداه إليها ربه تبارك وتعالى كما قال عز وجل: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيَما ملَّة إبراهيم حنيفا، وما كان من المشركين﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لمَّا جاءَني البينات من ربي وأُمرتُ أن أسْلِمَ لرب العالمين﴾ وقوله عز وجل: ﴿وكذبتم به﴾ تأكيد لقبح طريق المشركين المكذبين بالبينات التي جاء بها رسول الله ﷺ أي وكذبتم بربي وربكم الذي جعلني على بينة منه، ولم تكتفوا بمعجزة القرآن وهو الآية العظمى والحجة البالغة واستعجلتم نقم الله وعذابه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ما عندي ما تستعجلون به، إن الحكم إلا لله يَقُصُّ الحق وهو خير الفاصلين﴾ أي ليس بيدي شيء من الآيات التي تقترحونها لأن الآيات بيد الله وحده وما أخبركم به من إهلاك أعدائه الذين كذبوا رسله هو القصص الحق، والحكم بيده وحده وهو الذي يفصل بين رسله وأعدائهم وهو خير الفاصلين، فإنه لا يظلم

مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل لـو أن عندي ما تستعجلون بـه لقضي الأمر بيني وبينكم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين الجاهلين المقترحين للآيات: لو كانت الآيات التي تقترحـونها بيدي لآتيتكم بها ولأجبتكم فيما طلبتم مني، والمقصـود من ذلك تأكيد نفي أن تكون الآيات بيد رسـول الله ﷺ، وليس في هذا ما يدل على أنه لو كان العذاب بيـده لأنزله بقريش، لأنه لا ذكـر في هذا المقام لاستعجالهم العـذاب، وقـد عُلِمَ أن رسـول الله ﷺ كـان يحب أن يستأني بهم لعل الله يهديهم أو يخرج من أصلابهم من يعبـد الله وحده فقـد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخـاري من حـديـث الصـديقـة بنت الصـديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قـالت للنبي ﷺ: هل أتى عليكم يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحُد؟ قال: لقد لَقِيتُ من قومِكِ ما لقيت، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يـوم العقبة، إذ عـرضت نفسي على ابن عبد يـاليل بن عبد كُـلَالٍ فلم يجبني إلى مـا أردت، فانطلقت وأنـا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنـا بِقَرْنِ الثعالب، فـرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قـد أظلتني فنظرتُ فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما رَدُّوا عليك، وقد بعث الله إليك مَلَكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني مَلَكُ الجبال فَسَلَّم عليَّ ثـم قال: يا محمد، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أُطْبِقَ عليهم الأَخْشَبَيْنِ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يُخْرِجَ الله من أصـلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا، وفي لفظ لمسلم: فناداني مَلَكُ الجبال، وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد إن الله قد سَمِعَ قولَ قـومك لك، وأنا مَلَكُ الجبال، وقد بعثني ربك إليك، لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أُطْبِق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئـا وقولـه عز وجل: ﴿والله أعلم بـالظالمين﴾ تحذيـر من الظلم،

ووعيد شديد للظالمين، والظلم في الأصل هو وضع الشيء في غير موضعه، وأبشع الظلم هو الشرك بالله، وتكذيب المرسلين، والظلم ظلمات يوم القيامة، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون..

قال تعـالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَـاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ هُـوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِى البَرِّ والبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقة إلاَّ يَعْلَمُهَا ولاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ ولاَ يَابِسٍ إلاَّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

بعـد أن أمـر الله عـز وجل رسـولـه محمـدًا ﷺ أن يخبر المشركين المقترحين للآيـات بأنه ﷺ ليس عنده شيء مـن الآيات التي يقترحونها لأن الآيـات بيد الله وحـده، لأنه عـز وجل هو القـادر على كل شيء وهو الـذي يقص الحق وهو خير الفـاصلين وهو وحده الـذي لا تخفى عليه خافيـة من أعمال عباده وهـو أعلم بـالظـالمين، شـرع هنا في تقـريـر كمال علمـه عـز وجل وبيـان اختصاص المقـدورات الغيبية به تبارك وتعـالى وأنه عز وجل استأثـر بمفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، وأنه لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن في الأرض ولا في السماء إلا بعلمه، وأن جميع الكـائنات مسجلة في كتاب عنـد الله عز وجل، ولا يحيطـون بشيء من علمـه إلا بما شـاء كما أطلع رسـولـه المصطفى وحبيبه المجتبى ﷺ على أشراط السـاعة وأماراتها وما يكـون في بعض مواقف القيامـة، وكما يعلم الإنسان حمل المرأة بانتفـاخ بطنها وانقطاع طمثهـا ونحو ذلك، وفي ذلك يقول: ﴿وعنده مفاتـحُ الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبَّةٍ في ظلمات الأرض ولا رَطْب ولاَ يـابـس إلا في كتـاب مبين﴾ ومعنى: ﴿وعنـده مفـاتح الغيب لا يعلَمُهَـا إلا هو﴾ أي وعنـد الله خزائن الغيب قـد استأثـر سبحانـه بها، وبما يتوصل بـه إليها، وقد فسَّر رسـول الله ﷺ مفاتح الغيب التي استأثـر الله عز وجل بعلمهـا بأنها الخَمْسُ الـواردة في قـوله عـز وجل: ﴿إنَّ الله عنـده علْمُ الساعة ويُنَزِّلُ الغيث ويَعْلَمُ ما في الأرحـام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تـدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾ فقـد روى البخاري في

بـاب الاستسقـاء من طريق عبـد الله بن دينـار عن ابن عمـر رضي الله عنهما قـال: قال رسـول الله ﷺ: مفاتح الغيب خمس لا يعلمهـا إلا الله، لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غـدا، وما تـدري نفس بأي أرض تموت ومـا يدري أحـد متى يجيء المطر، وأورده في تفسير سـورة الأنعام من طريق سالم بن عبـد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: مفاتح الغيب خمسٌ: ﴿إن الله عنـده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير﴾ وأورده في كتاب التوحيد من طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضي الله عنهما عـن النبي ﷺ قال: مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله: لا يعلـم ما تغيضُ الأرحام إلا الله، ولا يعلـم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحدٌ إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم السـاعة إلا الله، أما مـا ثبت عن رسول الله ﷺ أنه أوتي مفـاتيح خزائن الأرض فإن المقصـود منه أن أمتـه ﷺ تفتح أكثر المعمـورة وتملك خزائن كسرى وقيصر كما أشـار أبـو هـريرة رضي الله عنـه إلى ذلك فقد روى البخـاري في صحيحه من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: بعثت بجـوامع الكلم، ونُصرت بالرعب، وبينـا أنا نائم رأيتُني أوتيت بمفـاتيح خزائن الأرض فوُضعت في يـدي قال أبـو هريـرة فقد ذهب رسـول الله ﷺ وأنتم تلغثونها أو تـرْغثونها أو كلمـة تشبِهُهَا، وأخـرجه مسلم من حديـث أبي هريرة رضي الله عنـه بلفظ: قال قـال رسول الله ﷺ: بعِثتُ بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب وبينـا أنا نائم أوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فَـوُضِعَتْ في يـدي. قال أبـو هـريرة: فـذهب رسـول الله ﷺ وأنتم تنتثلـونها. ومعنى تنتثلـونها: تستخـرجون مـا فيهـا، ومعنى تلغثـونها: أي تأكلـونها، ومعنى ترغثـونها: أي تـرضعونها وقـد أخرج البخـاري ومسلم في

صحيحيهما من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج يوما فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: إني فَرَطٌ لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلي حوضي الآن، وإني أُعْطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى ولكن أخاف عليكم أن تَنَافسوا فيها، هذا والمقصود من قوله ﷺ في حديث عقبة بن عامر: والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى أي والله ما أخاف على مجموعكم، فليس المراد نفي وقوع الشرك في أفراد من أمته ﷺ، وإنما المراد أنَّ تَنَافُسَهُمْ على الدنيا هو أخطر عليهم، وأشد ضررا على مجموعهم، لأنه يضر الصالحين والطالحين. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾ قال ابن كثير رحمه الله: أي محيط علمه الكريم بجميع الموجودات بَرِّيِّها وبَحْرِيِّها لا يخفى عليه من ذلك شيء ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وما أحسن ما قال الصرصريُّ.

فلا يخفى عليه الذَّرُّ إمَّا تراءى للنواظر أو توارى اهـ

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبريُّ رحمه الله: يقول تعالى ذكره: ولا تسقط ورقةٌ في الصحاري والبراري ولا في الأمصار والقرى إلا اللهُ يعلمها ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ يقول: ولا شيء أيضا مما هو موجود أو مما سيوجد ولم يوجد بعد إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ، مكتوبٌ ذلك فيه، ومرسومٌ عَدَدُهُ ومَبْلَغُهُ، والوقت الذي يوجد فيه، والحال التي يفْنَى فيها، ويعنى بقوله: ﴿مبين﴾ أنه يبين عن صحة ما هو فيه، بوجود ما رسم فيه على ما رسم اهـ والمقصود بيانُ كمال علمه وقدرته ولفتُ الانتباه إلي عجائب خلقه بِضَرْبِ أمثلة ينتفع بها من له أدنى مسكة من عقل، وقدم ذكر الورقة

لأنها تشاهد في جميع أنحاء الأرض ولا يعلم عَدَدها ووقت وجودها وفنائها وحركاتها وسكناتها إلا الله وحده ثم ذكر ما هو أضعف من الورقة وهو الحبة ثم ذكر مثالا يجمع الكل وهو الرطب واليابس وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أنه قد كتب جميع حركات خلقه وسكناتهم في الكتاب المبين، وأن كل شيء يجرى بمقدار كتبه في اللوح المحفوظ، كما ذكر عز وجل أن القرآن العظيم مكتوب في اللوح المحفوظ، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كلٌّ في كتاب مبين﴾ وقد سماه الله تبارك وتعالى أم الكتاب حيث يقول عز وجل: ﴿وعنده أُمُّ الكتاب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وإنه في أم الكتاب لدينا لَعَلِيٌّ حكيم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ وقد أشار الله تبارك إلى أنه كتب مقادير الخلائق في هذا الكتاب بعلمه وحكمته لا لضلال أو نسيان، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿قال فما بال القرون الأولى * قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾ كما روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء. وقد سمَّى رسول الله ﷺ اللوح المحفوظ الذكر فقد روى البخاري رحمه الله في كتاب بدء الخلق من صحيحه من حديث عمران بن حُصيْن رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كلَّ شيء وخلق السموات والأرض. وأخرجه في كتاب التوحيد عن عمران بن حصين قال: إني عند النبي ﷺ إذ جاءه قوم من بني تميم، فقال: اقْبَلوا البشرى يا بني تميم، قالوا: بشَّرْتَنا فأعطنا، فدخل ناسٌ من أهل اليمن فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم، قالوا: قَبِلْنا، جئناك

لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمـر ما كان، قال: كان الله ولم يكن شيء قبلـه، وكـان عـرشـه على الماء، ثم خلق السمـوات والأرض وكتب في الذكـر كلَّ شيء، ثم أتاني رجل فقـال: يا عمران أَدركْ نـاقتك فقد ذهبت، فـانطلقت أطلبهـا، فإذا السرابُ ينقطع دونها، وأَيْمُ اللهِ لـوَدِدْتُ أنها قـد ذهبت ولم أقم، وقال أبـو داود في سننه: حدثنـا جعفر بن مسافـر الهذلي ثنا يحيى بن حسان ثنـا الوليد بن ربـاح عن إبراهيم بن أبي عبلـة عن أبي حفصة قال: قال عبادة بن الصـامت لابنه: يا بُنَيَّ إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن مـا أصابك لم يكن ليخطئك، ومـا أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسـول الله ﷺ يقـول: إن أول ما خلق الله القلم، فقـال لـه: اكتب قال: ربِّ وماذا أكتب؟ قـال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم السـاعة يا بُنَيَّ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات على غير هذا فليس مني. كما أخرج البخـاري في كتاب النكاح من حـديث أبي هريرة رضي الله عنـه قال: قلت يا رسول الله إني رجل شاب، وأنـا أخاف على نفسي العَنتَ ولا أجد ما أتزوج به النساء، فسكت عني، ثم قلت مثلَ ذلك، فسكت عني، ثم قلت مثل ذلك فسكت عني، ثم قلت مثل ذلك، فقـال النبي ﷺ: يا أبا هـريرة جَفَّ القلم بما أنت لاقٍ. الحديث. وقد أخرج مسلم عن جـابر قال: جاء سراقة بن مالك بن جُعْشُم قـال: يا رسول الله بَيِّـنْ لنا ديننـا كأنا خُلِقْنَا الآن فيما العَمَلُ اليومَ أفيما جفت به الأقلامُ وجرت به المقادير أم فيما نستقبل قال لا بل فيما جفت به الأقـلام وجرَت بـه المقادير، الحديث كما أخـرج الترمذي في سننه وقال: هذا حديث حسن صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسـول الله ﷺ يوما فقـال: يا غـلام إني أُعلِّمُكَ كلماتٍ، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجَاهكَ إذا سألـت فـاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بـالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعـوك بشيء لم ينفعوك

إلا بشيء قـد كتبه الله لـك ، ولو اجتمعـوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قـد كتبـه الله عليك ، رُفِعَـت الأقـلام وجفت الصحف ، ولا شك أن الإيمان باللـوح والقلم من عقائد أهل السنة والجماعـة ولذلك قال الإمـام أبو جعفر الطحاوي في عقيدته المشهورة : ونؤمن باللوح والقلم ، وبجميع ما فيه قد رُقِمَ .

قـال تعالى: ﴿وَهُـوَ الَّذي يَتَـوَفَّاكُمْ بـالَّيلِ وَيَعْلَمُ مَا جَـرَحْتُمْ بالنَّهَـار ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيــهِ لِيُقْضَى أَجَـلٌ مُسَمَّى ثُمَّ إليــهِ مَـرْجِعُكُمْ ثُـمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ. وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حتَّى إذَا جاءَ أَحَدَكُم الموتُ تَـوَفَّتْـهُ رُسُلُنَا وَهُـمْ لاَ يُفَرِّطُـونَ. ثُمَّ رُدُّوا إلَى اللهِ مَـوْلاَهُم الحَقِّ، ألاَ لَـهُ الحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِينَ﴾

بعد أن أعلم عـز وجل عباده أن مفاتح الغيب بيده وحـده لم يعطها لمَلَك مقـرب ولا لنبي مرسل وأنـه لا يعلمها إلا هـو عـز وجل، وَقَرَّرَ بـذلك كمال علمه، وأنـه لا يتحرك متحـرك ولا يسكن ساكن في الأرض ولا في السماء إلا بإذنه قد أحـاط به علما وأحصاه عددا، لا يخفى عليـه رطب ولا يابس، وأن ذلك قـد كتبه عـز وجل في كتـاب مبين، شرع هنـا في لفت أنتباه النـاس إلى بعض آيـات قـدرته وعلمـه التي أقـامهـا فيهم، وما يُجْرِيـه عليهم من أدلـة قـدرته، وقهـره لخلقـه، وعلوهِ على عبـاده، وأكـدَ أنَّ مـرَدَّ جميع العباد إليـه ليحـاسبهم على أعمالهم ويحكم بينهم بعلمـه وعدلـه وهـو أسرع الحاسبين، لأنه القادر على حساب جميع الخلائق في وقـت واحد كحساب نفس واحدة كما أن بعث جميع الخلائق في وقت واحـد كبعث نفس واحـدة وذلك على الله يسير وفي ذلك يقول تبـارك وتعالى: ﴿وهـو الذي يتـوفاكم بالليـل ويَعْلَمُ ما جرحتم بـالنهار﴾ إلى قولـه عز وجل: ﴿ألاَ لَـهُ الحُكْمُ وهو أسرَعُ الحاسبين﴾ قال الـزجاج رحمه الله: وقوله عـز وجل: ﴿وهو الذي يتوفَّـاكم بالليل﴾ أي يُنِيمُكُمْ فَيَتَـوَفَّى نفـوسكم التي بها تُمَيِّـزون، كما قـال عـز وجل: ﴿الله يتـوفى الأَنفُسَ حين مـوتها والتي لم تمت في منـامهـا﴾ ومعنى: ﴿يَبْعَثُكُمْ فيـه﴾ أي يُنَبِّهُكُمْ من نـومكم فيـه في النهـار ﴿لِيُقْضَـى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي يبعثكم من نومكم إلى أن تبلغوا آجالكم اهـ والنوم يسمى الوفاة الصغرى والموتة الصغرى

وقد جعل الله تبـارك وتعالى النوم آية من آيـاته ليكون تـذكرة للإنسان بـالموتة الكبرى كما جعل الاستيقاظ من النوم تذكـرة للبعث بعد الموت، حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ومن آياته منـامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله، إن في ذٰلك لآيـات لقوم يسمعـون﴾ وقدنَصَبَ الله تبـارك وتعالى أمـام الأعين آيـات كثيرةً تذكـر بـالآخرة ومـا فيهـا، وإلى ذلك يشير عـز وجل في قولـه: ﴿أفرأيتم النار التي تـورُونَ * ءَأَنتُمْ أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين﴾ أي جعلنا نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة. كما جعل الله تبارك وتعـالى الروح ــ وقد يطـلق عليها لفظ النفس ــ آية من آياته واسـتأثر تبارك وتعالى بعلم حقيقتها وكيفيتهـا إعلاما بكمال قدرته وعلمه ولم يُطْلِعْ أحدا مـن خلقه إلا على قليل من آثـارها، فهي في الجسم دليل حيـاته وإذا فـارقت الجسم مات وفـارق الحياة. وقـد تُسْلَبُ بعضُ خصائصهـا من الجسم كالتمييز وهو ما يُفْقَـدُ من الإنسان ويُقْبَضُ منه عند النوم فيرفع القلم عن النائم حتى يستيقظ ولا يؤاخـذ بما يفعله أثناء نومه مع أن النـائم قد يرى حُلْما يعقله في نومه ويميزه ويذكره إذا استيقظ من نومه، كما أن الجنين عند ما يَخْرُجُ من بطن أمه حيـا يكون لا تمييز له كما قال عـز وجل: ﴿والله أخرجكم من بطـون أمهاتكم لا تعلمـون شيئـا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئـدة لعلكم تشكرون﴾. وقـد تفارق الروحُ الجسـد كالشهداء وقـد سماهم الله عز وجل أحياء، ونهى عن تسميتهم أمواتا فقال عز وجل: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات، بل أحياءٌ ولٰكن لا تشعرون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الذيـن قُتِلُوا في سبيل الله أمواتـا، بل أحياءٌ عنـد ربهم يرْزقُـونَ﴾ وقد وصف رسول الله ﷺ الروح بأنها تُقْبَضُ عند النـوم وتُرْسَلُ عند الاستيقاظ من النوم وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين مـوتها والتي لم تمت في منـامهـا فيمسك التي قضى عليهــا الموت ويـرسل

الأخرى إلى أجل مسمى﴾ قال: وهذا بيان لكون النفس تقبض وقت الموت ثم منها ما يُمْسَكُ فلا يرسل إلى بدنه وهو الذي قضى عليه الموت ومنها ما يرسل إلى أجل مسمى، وهذا إنما يكون في شيء يقوم بنفسه لا في عرض قائم بغيره فهو بيان لوجود النفس المفارقة بالموت، والأحاديث الصحيحة توافق هذا، كقول النبي ﷺ: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، فإن أمسكتَ نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين، وقال لما ناموا عن صلاة الصبح: إن الله قبض أرواحنا حيث شاء. وقال تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون * وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحق، ألاَ لَهُ الحُكْمُ وهو أسرع الحاسبين﴾ فهذا تَوَفٍّ لها بالنوم إلى أجل الموت الذي ترجع فيه إلى الله، وإخبارٌ أنَّ الملائكة تتوفاها بالموت ثم يُرَدُّونَ إلى الله، والبَدَنُ وما يقوم به من الأعراض لا يُرَدُّ إنما يُرَدُّ الرُّوحُ، وهو مثل قوله في يونس: ﴿ثم رُدُّوا إلى الله﴾ وقال تعالى: ﴿إن إلي ربك الرُّجْعَى﴾ وقال تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضيةً مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ وقال تعالى: ﴿قل يتوفاكم مَلَكُ الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾ وتوفى الملك إنما يكون لما هو موجود قائم بنفسه، وإلا فالعَرَضُ القائم بغيره لا يُتَوَفَّى فالحياة القائمة بالبدن لا تتوفى، بل تزول وتعدم كما تُعْدَمُ حركتُهُ وإدراكُهُ اهـ وقد روى البخاري في صحيحه من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول: اللهم باسمك أموت وأحْيَا وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور وأخرجه من حديث

أبي ذر رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل قال: باسمك نموت ونحيا، وإذا استيقظ قال: الحمد الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور. وأخرجه مسلم في صحيحه من حيث البراء رضى الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أخذ مضجعه قال: اللهم باسمك أحيا وباسمك أموت، وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، ويؤثر أن رسول الله ﷺ شبَّه النوم بالموت والبعثَ بالاستيقاظ من النوم عندما أمره الله بالجهر بالدعوة فقال لقريش: إن الرائد لا يَكْذِبُ أهله، فقد أثر أنه قال لهم في هذا المقام: والله لتموتُن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون، ولتُحاسَبُنَّ بما تعلمون، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا. كما ذكر ذلك ابن الأثير في الكامل في التاريخ وكذلك صاحب السيرة الحلبية وغيرهما، ولم أقف لهذا الأثر على سند متصل. وقد أكد الله تبارك تعالى أن الروح من أمر الله، وأن الله تبارك وتعالى قد استأثر بعلم حقيقتها وكيفيتها حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث وهو متكئٌ على عسيب، إذْ مرَّ اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلُوه عن الرُّوح فقال: ما رَابَكُمْ إليه، وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا سَلُوهُ فَسأَلُوهُ عن الروح، فأمسك النبيُّ ﷺ فلم يردَّ عليهم شيئا، فعلمت أنه يوحَى إليه فقمت مَقَامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ وفي قوله: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ بعد ذكر كون الروح من أمر الله وحده لَفْتُ انتباه الناس إلى أن قوله تعالى في هذا المقام: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ بعد قوله عز وجل: ﴿وعنده مفاتح الغيب

لا يعلمها إلا هو﴾ الآية يشير إلى بعض وجوه الإعجاز في القرآن الكريم مع الإشارة إلى تمام الارتباط بين كل آية وما يليها، وأنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، ومعنى قوله: ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموتُ توفته رسلنا وهم لا يُفرِّطُون﴾ أي والله هو الغالب لجميع عِباده العالي فوق جميع خلقه، وقد اقتضت حكمته أن يبعث عليكم ملائكة، منهم مَن وكَّلهم بحفظ أبدانكم بسبب أمر الله لهم بذلك كما قال عز وجل ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ ومنهم ملائكة موكَّلون بحفظ أعمالكم يحصون عليكم ما تفعلونه كما قال عز وجل: ﴿وإنَّ عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ ومنهم ملائكة موكلون بقبض أرواح العباد وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن ملائكة الرحمة هم الذين يقبضون أرواح المؤمنين وأن ملائكة العذاب يقبضون أرواح الكافرين فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمَّل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال: نعم، ومن يحولُ بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصَّفَ الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرا قط، فأتاهم ملكٌ في صورة آدمي

فجعلـوه بينهم أي حكماً فقال : قيسـوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كـان أدنى فهو له ، فقاسوا فوجـدوه أدنى إلى الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة .
ولا معارضة بين قـوله تعالى هنا : ﴿تـوفته رسلنا﴾ وكذلك قـوله : ﴿حتى إذا جاءتهم رسلُنا يتـوفونهم﴾ وبين قوله تعالى : ﴿قل يتـوفاكم ملكُ الموت الذي وُكِّل بكم﴾ إذ قد يـراد بالـواحد الجنس ، ومعنى : ﴿وهم لا يُفَـرِّطُون﴾ أي وهؤلاء الحفظة لا يغفُلون ولا يتوانَونَ ولا يُضيعونَ وقوله عز وجل : ﴿ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحقِّ ، ألا لـه الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ . أي ثم ردَّهم الله تبارك وتعالى بعد الموت ليقفوا بين يدي ربهم الإله الملك الحق الخالق الذي لا إله غيره الـذي له الحكمُ وحده يوم القيـامة ، وله وحده القضـاءُ بين عباده ، قال ابن جـرير رحمه الله في قوله : ﴿وهـو أسرع الحاسبين﴾ يقول : وهو أسرع من حسب عـددكم وأعمالكم وآجـالكم وغير ذلك من أمـوركم أيها النـاس وأحصاها وعرف مقاديرها ومبالغها لأنه لا يحسب بعقد يد ولكنه يعلم ذلك ولا يخفى عليـه منـه خافيـة ، ولا يعـزب عنـه مثقال ذرة في السمـوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين اهـ .

قـال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُـمْ مِنْ ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ تَـدْعُـونَهُ تَضَرُّعًـا وخُفْيَةً لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لنكونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثم أنتُمْ تُشْرِكُونَ * قُلْ هو القَـادِرُ على أَن يَبْعَثَ عَلَـيْكُمْ عَذَابًا مِن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تحتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيعًـا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بأْسَ بَعْضٍ، انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَـاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ. وَكَـذَّبَ بِهِ قَـوْمُكَ وَهُوَ الحَقُّ قل لست عليكم بِوَكِيلٍ. لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

بعد أن لفت الله عز وجـل انتباه الناس إلى بعض آيات قدرتـه وعلمه التي أقامها فيهم وما يُجْريه عليهم من أدلة قدرته، وقهره لخلقه، وعُلُوِّهِ على عباده وأكَّد أن مَـرَدَّ جميع العباد إليـه ليحاسبهم على أعمالهم، ويحكم بينهـم بعلمه وعدله، شرع هنا في توبيخ المشركين من قـريش ومَن على شاكلتهم مرة أخرى بلفت انتبـاههم إلى أنهم إذا وقعـوا في ورطـة في ظلمات البر والبحر تـوجهـوا بالضراعة إلى الله وحده ونَسُوا أصنامهـم وأوثانهم وأخلصوا الدعاء جهرا وسرا وتَذلُّلاً لله وحده فإذا نجاهم الله من ورطتهم وكشف عنهم ضرهم رجعوا إلى شركهم وعبادة أصنامهم وأوثانهم، ثم حذَّرهم بأنهم لن يفلتوا من عذاب الله إذا أراده بهم، وبيَّن لهم أنهم ليسوا بِمَنْجًا من عذاب الله في أية لحظة وعلى أي حال فهـو القادر على أن يـرسل عليهم حاصبـا من السماء أو أن يخسف بهم الأرض أو أن يُسَلِّط بعضهم على بعـض فيقتل بعضهم بعضـا، ثم وَاسى رسوله وحبيبه وسيد خلقه محمـدا ﷺ وبين له أنه على الحق وأن ما جاء به من عنـد الله هـو الحق، وأن قلـوب العباد بيـد الله وحـده وأن العـاقبـة الحسنى ستكـون لرسـول الله ﷺ وللمـؤمنين وفي ذلك يقـول: ﴿قل مَن يُنَجِّيكُمْ من ظلمات البر والبحر تـدعونـه تضرعا وخُفْيَةً لئن أنجـانا من هـٰذه لَنَكُونَنَّ من الشـاكرين﴾ إلى قـوله تبـارك وتعالى: ﴿لكل نبإ مُسْتَقَـرٌّ، وسوف تعلمـون﴾

ومعنى : ﴿قل من يُنجِّيكُمْ من ظلمات البر والبحر تدعُونَه تضرعا وخُفْيةً لئن أنجانا من هٰذه لَنكُونَنَّ من الشاكرين. قل الله يُنَجِّيكُمْ منها ومن كل كَرْب ثم أنتم تشركون﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين واسألهم على سبيل التقريع والتوبيخ والتقرير: من تَلْجَئُونَ إليه إذا كنتم في البر أو كنتم في البحر وأحاطت بكم الظلمات ونزل بكم الضُّر وأشرفتم على الهلاك، إنكم لن تضرعوا إلا إلى الله وحده إذ تدعونه حينئذ جهرا وسِرًّا وتتعهدون بأنكم ستعرفون نعمة الله عليكم وتقولون: لئن خَلَّصنَا الله من هذه الورطة وكَشَفَ عنا هذا الضر لنكونن من الشاكرين المؤمنين المخلصين لله وحده، ثم أمر نبيه ﷺ بتقرير الجواب مع كونه من وظائفهم للدلالة على أن هذا هو الجواب المتعين الذي لا جواب غيره ولتوبيخهم على نقضهم للعهد وكفرانهم للنعمة فقال: ﴿قل الله يُنجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾ ثم أمر نبيه ﷺ أن يخبر قريشا ومن على شاكلتهم بأنهم لن يفلتوا من الله، ولن يهربوا من عقابه في البر أو في البحر وأنه قادر على أن يرسل عليهم عذابا من السماء من حاصب أو حجارة أو سحاب عارض يمطرهم بعذاب الله كالذي أرسله الله عز وجل على قوم هود أو يرسل عليهم مطرا منهمرا كالذي سلطه على قوم نوح أو كسفا من السماء كعذاب يوم الظُّلَّة الذي أرسله على قوم شعيب، أو أن يخسف بهم الأرض من تحت أرجلهم أو أن يسلِّط بعضهم على بعض فيقتل بَعْضُهُمْ بعضا. وهذا المقام قد ساق الله عز وجل له نظائر كثيرة وصرَّف فيه الآيات في غير موضع من كتابه الكريم ولذلك ذيله هنا بقوله: ﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ حيث يقول عز وجل: ﴿ربكم الذي يُزْجي لكم الفُلْكَ في البحر لتبتغوا من فضله، إنه كان بكم رحيما. وإذا مسَّكم الضُّرُّ في البحر ضلَّ من تَدْعُونَ إلا إياه فلما نجَّاكم إلى البَرِّ أعرضتم، وكان الإنسان كفورا * أفأمنتم أن يَخْسِفَ بكم جانب البر أو يرسلَ

عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا . أم أمِنتم أن يعيدكم فيه تارةً أخرى فيرسِلَ عليكم قاصفا من الريح فَيغْرقَكم بما كَفَرْتُمْ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعًا﴾ وكما قال عزل وجل : ﴿هو الذي يُسَيِّرُكُمْ في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفُلْكِ وجَرَيْنَ بهم بريح طيبة وفرِحُوا بها جاءتها ريحٌ عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظَنُّوا أنهم أُحيطَ بهم دَعَوُا اللهَ مخلصين له الدينَ لئن أنجيتنا من هٰذه لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يَبْغونَ في الأرض بغير الحق، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم مَتَاعَ الحياةِ الدنيا ثم إلينا مرجعكم فَنُنَبِّئُكُمْ بما كنتم تعملون﴾ وكما قال عز وجل : ﴿أَمَّنْ يَهْديكم في ظلمات البر والبحر ومن يُرْسِلُ الرياح بُشْرًا بين يَدَيْ رحمته ، أإِلَٰهٌ مع الله ، تعالى الله يشركون﴾ وقد قال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه : حدثنا أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن جابر رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية : ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعوذ بوجهك، قال : ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿أو يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ويُذيقَ بعضكم بأس بعض﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أهون أو هذا أيسر، وقال البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيحه : حدثنا عليُّ بن عبد الله حدثنا سفيان قال عمرو: سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول : لما نَزَلَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال : أعوذ بوجهك فلما نزلت : ﴿أو يَلْبِسَكُمْ شيعا ويُذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال : هاتان أَهْوَن أو أيسر وقال في كتاب التوحيد من صحيحه : حدثنا قتيبةُ بن سعيد حدثنا حماد بن زيد عن عمرو عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية ﴿قل هو القادر على

أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم: أعوذ بوجهك، فقال: ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أعوذ بوجهك قال: ﴿أو يَلْبِسَكُمْ شيعا﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هذا أيسر وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن هذه العقوبات أربعة أنواع حيث عدَّ قوله عز وجل: ﴿أو يلبسكم شيعا﴾ عقوبة من هذه العقوبات كما عدَّ قوله عز وجل: ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ عقوبة أخرى حيث قال رسول الله ﷺ كما جاء في رواية البخاري من طريق علي بن عبد الله هاتان أهون أو أيسر وقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث ثَوْبَانَ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله زَوى لِي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنَّ أمتي سَيَبْلغُ مُلْكُها ما زُوي لي منها، وأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ الأحمرَ والأبيضَ، وإني سألت ربي لأمتي ألاَّ يُهْلِكَهَا بِسَنةٍ بِعَامَّةٍ، وألا يُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا مِنْ سِوَى أنفسهم فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وإن ربي قال: يا محمد: إني إذا قَضَيْتُ قضاءً فإنه لا يُرَدُّ وإني أعطيتك لأمتك ألا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وألا أُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا من سوى أنفسهم يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها ـ أو قال مَنْ بَيْنَ أقطارها حتى يكون بعضهم يُهْلِكُ بعضا وَيَسْبِي بعضهم بعضا. كما أخرج مسلم في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مرَّ بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصَلَّيْنَا معه، ودعا ربَّه طويلا ثم انصرف إلينا فقال صلى الله عليه وسلم: سألت ربي ثلاثا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدةً، سألت ربي ألا يُهْلِكَ أمتي بالسَّنَةِ فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغَرَق فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فَمَنَعَنيهَا ـ والمقصود أن الله تبارك وتعالى استجاب لرسوله ﷺ فلن يسلط على أمته عذاب استئصال يأتيها من فوقها أو من تحت أرجلها، وهذا لا يمنع أن

يخسف الله بواحد أو أكثر من هذه الأمة أو أن ينزل عذابا من السماء على واحد أو أكثر من هذه الأمة، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّب بِهِ قَوْمُكَ وهو الحقُّ، قل لَسْتُ عليكم بوكيل﴾ أي وكذبت قريش بما جاءهم به الصادق الأمين محمد ﷺ من القرآن العظيم والذكر الحكيم الذي صرّفنا فيه من الآيات لعلهم يتذكرون وضربنا لهم فيه من كل مثل لعلهم يرتدعون عن غيهم وضلالهم، وقد بلغَ هذا الذكر في الحقية أعلى الدرجات، لكن قلوبهم الجاحدة عميت عن المسارعة إلى قبول هذا الحق، فأخبرهم أيها الرسول الكريم أنك لست بمسئول إلا عن تبليغهم رسالة ربك، وأما هدايتهم فليست بيدك، ولَسْتَ بمسيطر على قلوبهم قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى: ﴿وكذَّب به﴾ أي بالقرآن الذي جئتهم به والهدى والبيان ﴿قَوْمُكَ﴾ يعنى قريشا وهو الحقُّ أي الذي ليس وراءه حقٌّ، ﴿قل لستُ عليكم بوكيل﴾ أي لستُ عليكم بحفيظ، ولستُ بموَكَّلٍ بكم، كقوله: ﴿وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ أي إنما عليَّ البلاغ وعليكم السمعُ والطاعةُ، فمن اتبعني سعد في الدنيا والآخرة، ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة اهـ وقوله تعالى: ﴿لكل نبأ مستقر﴾ هذه الجملة القليلة الحروف قد شملت من المعاني ما تعجز الأقلام عن تسطيره من الحكمة البالغة والمعجزة الظاهرة وأصدق الأمثال السائرة ولم يسمع نظيرها في غير القرآن الكريم، وقد اشتملت على الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، فكل خبر يلفت انتباه الناس لا بد وأن يُعْرَفَ في المستقبل صدقه أو كذبه، وقد اشتملت أخبار القرآن العظيم وأخبار الرسول الكريم ﷺ على أمور دنيوية وأخروية، ولم يتخلف خبر عن موعده إذا جاء أجله، كالإخبار عن القتال بين فارس والروم وغلبة الروم في قوله عز وجل: ﴿غُلِبَتِ الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. في بضع سنينَ، لله الأمر من قبل

ومن بعد، ويـومئذ يفرح المؤمنـون * بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العـزيز الـرحيم * وعد الله لا يخلف الله وعـده ولٰكنَّ أكثر النـاس لا يعلمون﴾ وقـد وقعت، وكـالإخبار عما يقـع يوم بـدر، وقـد وقع، ولذلـك قال عـز وجل: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولتعلمُنَّ نبأه بعـد حين﴾ ولـذلك قـال عز وجل هنـا: ﴿وسـوف تعلمون﴾.

قال تعـالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِيـنَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَـا فَأَعْـرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَـدِيثٍ غَيْرِهِ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَـلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الـذِّكْرَى مع القَـوْمِ الظَّالِمِينَ. وَمَـا عَلَى الَّـذِينَ يَتَّقُونَ مِـنْ حِسَابِهِمْ مِن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْـرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. وذَرِ الَّـذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَـرَّتْهُم الحَيَاةُ الدُّنْيَـا وَذَكِّرْ بِـهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ ولا شَفِيعٌ وَإِن تَعْـدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَ يُـؤْخَذْ منْهَا، أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُـوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كانوا يَكْفُرُونَ﴾ .

بعـد الترغيب في مجالسة الصـالحين الذيـن يدعـون ربهم بالغـداة والعشي يريـدون وجهه وزيـادة تكريمهم بتبشيرهم بفضل الله عليهم بأنـه من عمل منهم سـوءا بجهـالة ثـم تاب من بعـده وأصلح فأنـه غفـور رحيم، شرع في الترهيب من مجالسة من يستهزئ بكتاب الله، ويكفر به أو يخوض في حديث يريـد به إيذاء رسـول الله ﷺ مُبيِّنًا رفع الإصر عن الـذي يجلس في مثل هذا المجلس ناسيـا هذه الـوصية، مرشـدا له بـالقيام من مثل هـذا المجلس عند التذكر، وأن الذين يخشون ربهم لا يتحملون شيئا من أوزار الفاسقين، حيث يقول عـز وجل: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضـون في آياتنا فـأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿أولَئك الذين أُبْسِلُوا بما كَسبُوا لهم شراب من حميم وعذابٌ أليم بما كـانوا يكفرون﴾ والمخاطب بقـوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ هـو كل فرد فرد من آحـاد أمة محمد ﷺ ويـدخل في عمومهم رسول الله ﷺ دخولا أوليا، ومعنى «يخوضون في آياتنا» أي يندفعون فيها على غير بصيرة فيستهـزئون بها ويكـذبـونها، وأصل الخوض هـو المشي في الماء

الضحل القليل على الأرض لا عُمْقَ لـه، ويستعمـل في كل منـدفع في شيء على غير بصيرة لأن الخائض لا يـرى موضع قـدمه في المخـاضة، فهـو يضع قدمـه حيث لا يدري وقد يقع في الهاويـة، قال العلامة ابن منظـور في لسان العـرب المحيط: والخوض: المشي في الماء، والموضعُ مخاضـة وهي مـا جـاز الناس فيها مشاة وركبانا، وجمعهـا المخاض والمخاوض أيضا، عن أبي زيد، وأخضت في الماء دابتي وأخـاض القـومُ أي خـاضت خَيْلُهُمْ في الماء، وفي الحديث: رُبَّ متخـوض في مـال الله تعـالى؛ أصل الخوض: المشيُ في الماء وتحريكـه ثم استعمل في التلبس بـالأمـر والتصرف فيـه، أي رُبَّ متصرف في مال الله تعالى بما لا يرضاه الله، والتخوض تَفَعُّل منه، وقيل: هو التخليط في تحصيله من غير وجهه كيف أمكن، وفي حديث آخر: يتخوضون في مال الله تعـالى. والخوض: اللَّبْسُ في الأمـر، والخوضُ من الكـلام: ما فيـه الكـذبُ والباطل، وقد خاض فيه، وفي التنزيل العزيز: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنـا﴾ وخاض القـوم في الحديث وتخاوضوا أي تفـاوضوا فيـه، وأخاض القـوم خيلهم إخـاضـة إذا خـاضـوا بها الماء، والمَخَـاضُ من النهـر الكبير: الموضِعُ الذي يتخضخض ماؤه فَيُخَاضُ عند العبـور عليه: ويقال المخاضة بالهاء أيضا. اهـ ومما يدل على أن الخطـاب في قوله تعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنـا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديـث غيره﴾ هو للعموم وإن كان واردا بلفظ الواحد قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وما على الذين يتقون من حسـابهم من شيء﴾ قـال ابن كثير. رحمه الله وقـولـه: ﴿وإذا رأيت الـذين يخوضون في آياتنا﴾ أي بالتكـذيب والاستهزاء ﴿فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ أي حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب ﴿وإما يُنْسِيَنَّكَ الشيطان﴾ والمراد بذلك كل فرد فرد من آحاد الأمة ألا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير موضعها، فإن جلس

أحد معهم ناسيا ﴿فلا تقعد بعد الذكرى﴾ بعد التذكر ﴿مع القوم الظالمين﴾ ولهذا ورد الحديث: رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، وقال السدي عن أبي مالك وسعيدُ بن جبير في قوله: ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ قال: إن نسيت فذكرت فلا تقعد معهم، وكذا قال مقاتل بن حيان، وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: ﴿وقد نَزَّلَ عليكم في الكتاب أنْ إذا سمعتم آياتِ الله يُكْفَرُ بها ويُسْتَهْزَأُ بها فلا تقعدوا معهم حتي يخوضوا في حديث غيره، إنكم إذًا مثْلُهُمْ﴾ الآية، أي إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك فقد ساويتموهم فيما هم فيه اهـ ولا شك أن قوله تعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ قد نزل بمكة قبل الهجرة، ولم يكن في مكة إلا المؤمنون والكافرون فلم يكن أحد من المؤمنين إذا جلس مع من يخوضون في آيات الله يرضى أبدا عنهم أو يوافقهم، ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ أما قوله تعالى: ﴿وقد نزَّلَ عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ الآية فقد نزل بالمدينة وقد كان فيها مؤمنون وكفار ومنافقون، ولا شك أن المنافقين كانوا يفرحون بما يصدر عن الكفار من الكفر بآيات الله والاستهزاء بها، لذلك شدَّدَ الله عز وجل النكير على من يجلس مع من يخوضون في آيات الله ويوافقهم بقلبه، وإن أظهر الإسلام وهو منافق فقد حكم بأنه مُسَاوٍ ومماثلٌ لهؤلاء الكافرين الخائضين حيث قال عز وجل: ﴿إنكم إذًا مِثْلُهُمْ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ ومذهب عامة أهل السنة والجماعة جواز وقوع النسيان من رسول الله ﷺ في بعض الأفعال وإن كان معصوما من نسيان ما أمر بتبليغه حتى يُبَلِّغَهُ صلى الله عليه وسلم، وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إنما أنا بَشرٌ مِثْلُكُمْ أنْسَى كما تَنْسَوْنَ،

فإذا نسيتُ فـذكِّروني. وإسنـاد التَّنْيسـة إلى الشيطان في قـولـه تبارك وتعـالى ﴿وإما يُنسِينَّك الشيطـان﴾ هو ظاهر في حق غير المعصـوم من الشيطان من الداخلين في عموم الخطـاب مع لفت الانتباه إلى الأدب في إسناد الخير إلى الله عز وجل وإسناد الشر إلى الشيطان على حد قـوله تبارك وتعالى في قصة أيوب عليه السلام: ﴿واذكـر عبدنا أيوب إذ نَـادَى ربَّه أَني مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وعذاب﴾ ومعنى قوله عز وجل ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء وَلَكن ذِكْـرَى لعلهم يتقون﴾ أي وليـس على المؤمنين الذين يتقـون ربهم شيء من أوزار الخائضين الظالمين لأنـه لا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس لـلإنسان إلا مـا سعى، فلكـل نفس مـا كسبت، وعليهـا مـا اكتسبت، وإنما نَهَيْنَـا المؤمنين عن الجلوس مـع الخائضين وأمرناهم بـالقيام من مجلس هـؤلاء حتى يَكُفُّوا عن الخوض في آيات الله، لما في ذلك من ردع هؤلاء الخائضين، ويُعْتبرُ هذا القيـامُ نوعـا من أنواع العقـوبة والتعـزير كما يدخـل فيما يسمى بالحرب النفسية في هـذا العصر الحديث، وقولـه تبارك وتعـالى: ﴿وذَرِ الذين اتخذوا دينهم لَعِبًا ولَهْوًا وغرتهم الحياةُ الدنيا، وذكر به أن تُبْسَلَ نَفْسٌ بما كَسَبَتْ لَيْسَ لها من دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلاَ شفيعٌ وإن تَعْـدِلْ كُلَّ عَـدْلٍ لاَ يُـؤْخـذْ مِنْهـا﴾ الآيـة حضٌّ لرسول الله ﷺ وللمسلمين على الصبر على ما يلاقونه من تعنت الكفار وأذاهم، وترغيبٌ في الإعراض عنهم بعدم الحزن على ما يصيبهم من استهزاء المشركين بهم، وأن على المسلمين أن يُـوَالُـوا تـذكير هـؤلاء الكفـار ووعظَهم وتـرهيبهم مما تـوعـد الله عـز وجل به أعـداءه من الشراب الحميم والعـذاب الأليم، وهـذا المقام الكـريم شبيـه بقولـه تبـارك وتعالى: ﴿فأعـرض عنهم وَعِظْهُمْ وقل لهم في أنفسهم قـولا بليغـا﴾ وقـد وصف الله تبـارك وتعـالى الخائضين في آياته بأنهم اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا، وفي هذا تقبيح لمنهجهم وتنفير من سلوكهم، واللَّعِبُ ضد الجِدِّ ويقال لكل من عمل

عمـلا لا يُجْدِي عليه نفعـا إنما أنت لاعب، واللَّهْـوُ ما تشـاغلتَ به عما هـو أجـدى عليك منـه، وشرُّ اللعب واللهـو أن يَعَضَّ الإنسـان بالنـواجـذ على أسباب تهلكته في العاجلة والآجلة، وأن يجعل ذلك دِينًا له ومنهجا يحارب به من يدعوه إلى سعادة دنياه وأخـراه، وهذا العمل لا يكون إلا من مغرور، ولما كان هؤلاء الخائضـون في آيات الله المستهزئون بشريعة الله قـد اختاروا أسباب شقوتهم، ولم تتعلق آمـالهم بغير الحياة الـدنيا الزائلـة الفانيـة وصفهم الله عز وجل بأنهم اتخذوا دينهم لعبـا ولهوا وغرتهم الحيـاة الـدنيا، لأن مَنْ لَهَا بمتـاع زائل عن النعيم السرمـدى الذي لا يفنى ولا يـزول وهو مع هـذا صائر إلى أن يرتهن بعمله هذا في سجن جهنم خالدا مخلدا فهو لا شك مغرور وقد أمر الله رسوله ﷺ ودعـاة الهدى أن يُحذِّروا هؤلاء المغرورين من عـذاب الله فقال عز وجل: ﴿وذكِّـر بـه أن تُبْسَلَ نفس بما كسبـت ليس لها من دون الله وليٌّ ولا شفيعٌ وإن تَعْـدِلْ كلَّ عَـدْلٍ لا يـؤخـذ منهـا﴾ ومعنى ﴿أن تُبْسَل نفس بما كسبت﴾ أي أن تـرتهن وتحبس نفس بما اجترحت من الخوض في آيـات الله والاستهـزاء بشريعـة الله قال ابن كثير رحمه الله: يقـول تعـالى: ﴿وذر الـذين اتخذوا دينهم لعبـا ولهوا وغـرتهم الحيـاة الـدنيـا﴾ أي دَعْهمْ وأعـرض عنهم وأمهلهم قليلا فإنهم صائرون إلى عـذاب عظيم، ولهذا قال: ﴿وذَكِّرْ به﴾ أي ذكر الناس بهذا القرآن، وحَذِّرْهُمْ نقمةَ الله وعذابَـهُ الأليم يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿أن تُبْسَلَ نفس بما كسبت﴾ أي لئلا تُبْسَـلَ، قال الضحاكُ عن ابن عباس، ومجاهدٌ وعكرمـة والحسنُ والسدى: تبسل: تُسْلم وقال الوالبي عن ابن عباس: تفتضح، وقال قتادةُ: تحبس، وقال مَـرَّةً وابنُ زيد تُؤْخَذ، وقال الكلبي: تُجْزَى، وكُلُّ هذه الأقوال والعبارات متقـاربة في المعنى، وحاصلها الإسلام للهلكة والحبس عن الخير والارتهان عن درك المطلـوب كقوله: ﴿كلُّ نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين﴾ وقوله: ﴿ليس لها من دون الله

وليٌّ ولا شفيع﴾ أي لا قريب ولا أحد يشفع فيها، كقوله: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيعٌ فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾ وقوله: ﴿وإن تعدل كلَّ عَدْلٍ لا يؤخذ منها﴾ أي ولو بذلت كلَّ مبذول ما قُبِلَ منها، كقوله: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم مِلْءُ الأرض ذهبا﴾ الآية وكذا قال ههنا: ﴿أولئك الذين أُبْسِلُوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذابٌ أليمٌ بما كانوا يكفرون﴾ اهـ والمراد بالحميم هنا هو الماء الذي بلغ أقصى درجات الحرارة وما يسيل من عرق أهل النار وقيحهم وصديدهم كما قال عز وجل ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ أي قد انتهى حرُّهُ، وكما قال عز وجل: ﴿تسقى من عين آنية﴾ أي بلغت الغاية في حرارتها وكما قال: ﴿وسُقُوا ماءً حميما فَقَطَّعَ أمعاءهم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿كالـمُهْلِ يغلى في البطون كغلي الحميم﴾ وكما قال: ﴿وإن يستغيثوا يُغَاثوا بماء كالمُهْل يَشوي الوُجُوهَ، بئس الشرابُ وساءت مُرْتفقا﴾ وكما قال عز وجل ﴿من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد * يتجرعه ولا يكاد يُسيغُهُ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ﴾.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَالاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يضرنا ونُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الأَرضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الهُدَى ائتِنَا، قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِ العَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ واتَّقُوهُ، وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ بِالحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيكُونُ، قَوْلُهُ الحَقُّ، وَلَهُ المُلْكُ يَوْمَ ينفخ فِى الصُّورِ، عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ، وَهُوَ الحكيم الخَبِيرُ﴾.

بعد أن ساق الله عز وجل صورًا مشرقة مقررةً أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن البعث بعد الموت حق فالساعة آتية لا ريب فيها وهي الحقائق الثلاث التي تدور في فلكها جميع السور المكية شرع هنا في توبيخ الذين يتخذون من دون الله آلهة لا تنفع ولا تضر قاطعا كلَّ طمع يُرَاوِدُ قلوبَ المشركين الذين يحرصون على ردة المسلمين عن دين الإسلام مُشَبِّهًا حيرة المشركين وانقيادهم للشياطين بحيرة من أضلته الشياطين عن الصراط المستقيم وأوقعته في المهامِهِ المهلكة وجرفته عن سواء السبيل فلا يهتدى لمسلك يدفع عنه شرا أو يجلب له خيرا، لأنه انحرف عن هدى الله عز وجل الذي يهدى به من يشاء إلى الحياة الطيبة وجنات النعيم، شارحا معالم سبيل الهدى والنجاة، بأنه الاستسلام لرب العالمين، وإقامة الصلاة وتقوى الله الذي إليه الحشر والنشر، وهو الذي لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء، عالم الغيب والشهادة الحكيم الخبير، وفي ذلك يقول: ﴿قل أَنَدْعُواْ من دُون اللهِ ما لا يَنفَعُنَا ولا يضرنا وَنُرَدُّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿عالمُ الغيب والشهادة، وهو الحكيم الخبير.﴾ ومعنى قوله عز وجل ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ من دون الله ما لا ينفعنا ولا يَضُرُّنَا ونُرَدُّ على أعقابنا بعد إذْ هَدَانَا اللهُ﴾

أي قل يا محمد أنت ومن معك من المؤمنين لهؤلاء المشركين الذين يطمعون في ردتكم عن الإسلام ويحاولون أن تنصرفوا عن دينكم الأبلج إلى باطلهم اللجلج: أنعبد من دون الله حجرا أو خشبا أو ما شابههما من أصنام وأوثان لا تقدر على نفعنا أو ضرنا، ولا تملك لنا أو لغيرنا أو لأنفسها جَلْبَ خير ولا دفع شر، ونترك عبادة الملك الحي القيوم الذي بيده وحده النفعُ والضرُّ والحياة والموت الذي تفزعون إليه وحده عند الشدائد وتقرون بأنه هو لا غيره الذي يُنَجِّيكم من ظلمات البر والبحر، إننا لن نفارق ديننا أبدا ولن نعبد غير الله عز وجل ولن نرتد على أعقابنا بعد أن هدانا الله عز وجل لدين الإسلام، والمقصود من قوله عز وجل: ﴿ونُرَدُّ على أعقابنا﴾ هو الردَّة عن دين الإسلام والاستفهام للتوبيخ والإنكار أي لن ندعو غير الله الذي لا إله بحق سواه، ولن نرتد عن ديننا أبدا، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أشد ثباتا على تمسكهم بدين الإسلام من الجبال الرواسي، وقد سأل هرقل أبا سفيان: هل يرتد أحد عن دين محمد بعد أن يدخل فيه، فأجابه أبو سفيان ـ وكان يومئذ مشركا ـ لا يرتد أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: أخبرني أبو سفيان أن هِرَقْلَ قال له: سألتك هل يزيدون أم ينقصون فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يَتِمَّ، وسألتك هل يرتد أحدٌ سَخْطَةً لِدينه بعد أن يدخل فيه فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان حين تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القلوبَ، لا يَسْخَطُهُ أحد. وقد ضرب الله تبارك وتعالى هنا مَثَلاً لمن أشرك بالله تبارك وتعالى تقبيحا لفعله واستهجانا لسلوكه وتنفيرا من الوقوع في مثل ما وقع فيه فقال: ﴿كالذي استهوته الشياطينُ في الأرض حيرانَ له أصحابٌ يدعونه إلى الهدى ائتنا﴾ كما ضرب له مثلا في سورة الحج حيث يقول: ﴿ومن يُشْرِكْ بالله فكأنما خَرَّ من السماء فَتَخْطَفُهُ الطير أو تَهْوِي به

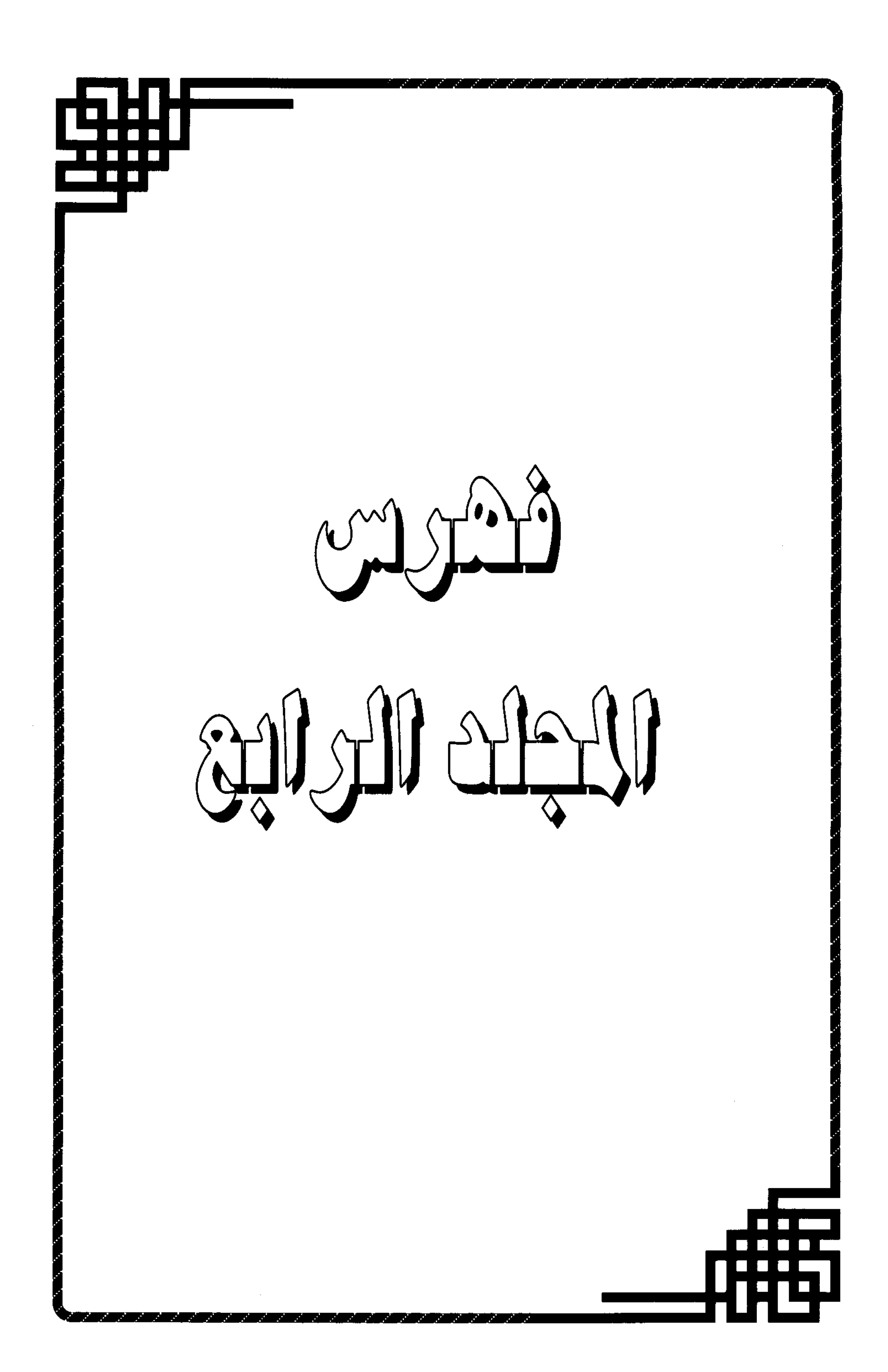
الرِّيحُ في مكان سحيق﴾ فالمَثَلُ الأول يُشَبِّهُ المشرك بالإنسان الذي لعبت به الشياطين وزينت له ترك سبيل الهدى، وجَرَّتْه إلى الضياع في المفاوز والمهامه، فتفرقت به السُّبُلُ وصار لا يدري أين يتجه، وحار في أمره، وتردَّدَ فلم يهتد إلى أي جهة يسير وازدادت حيرته عندما بدأ يسمع أصواتا يعرف أصحابها تناديه من جهات شتى: أقبل إلينا لنهديك إلى طريق الهدى، وفي قوله عز وجل: ﴿قل إنَّ هُدَى الله هو الهُدَى﴾ تنبيه إلى أن بعض دعاة الضلالة قد يسمون ضلالتهم هُدًى، مع أنهم ليسوا على شيء، فينبغي أن يعلم أن الهدى محصور في شريعة الله ودين المرسلين، فمن دعا إلى غير دين الله فهو داع إلى الضلالة، ومن دعا إلى التمسك بشريعة الإسلام فهو داع إلى الهدى، أما المثل الثاني الذي ضربه الله عز وجل للمشرك فهو تشبيهه بمن سقط من السماء فتخطفته الطير فمزقته والتَهَمَتْهُ فإن سلم من الطير ألقت به الريح فسقط في الحضيض. قال الجوهري في الصحاح: واستهواه الشيطان استهامه اهـ وقال الفيروز آبادى في القاموس المحيط: واستهوته الشياطين: ذهبت بهواه وعقله أو استهامته وحَيَّرَتْهُ أو زينت له هواه اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين * وأن أقيموا الصلاة واتقوهُ وهو الذي إليه تُحْشَرُونَ﴾ بيانٌ لأهم معالم طريق الهُدَى والنجاة وتكذيبٌ لمن يزعم أنه من دعاة الهدى وهو يدعو إلى غير دين الله، قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿قل إن هُدَى الله هو الهدى وأُمِرْنَا لنُسْلِمَ لرب العالمين﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان، القائلين لأصحابك: اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا ولنَحْمِلْ خطاياكم، فإنّا على هدى: ليس الأمر كما زعمتم، ﴿إنَّ هُدَى الله هو الهدى﴾ يقول: إنَّ طريق الله الذي بَيَّنَهُ لَنَا وأَوْضَحَهُ، وسبيله الذي أمرنا بلزومه، ودينَهُ الذي شرعه لنا فَبَيَّنَهُ هو الهدى والاستقامة التي لا شك فيها، لا عبادة الأوثان والأصنام

التي لا تضر ولا تنفع، فلا نترك الحق ونتبع الباطل وأَمرنا ربنا وربُّ كل شيء تعالى وجهه لنسلم له: لنخضع له بالذلة والطاعة والعبودية، فَنُخْلِصَ ذلك لـه دون مـا سواه من الأنـداد والآلهة، ثم قـال ابن جـريـر رحمه الله في تأويل قـوله: ﴿وأن أقيمـوا الصـلاة واتقـوه، وهو الـذي إليـه تحشرون﴾: فتأويل الكلام: وأمـرنا بإقامـة الصلاة، وذلك أَداؤُهـا بحدودها التي فـرضت علينا ﴿واتَّقُـوهُ﴾ يقول: واتقـوا ربَّ العـالمين الذي أمـرنـا أن نُسْلِمَ لـه، فَخَافُـوهُ واحـذروا سَخَطَهُ بأداء الصـلاة المفروضـة عليكم، والإذعـان له بـالطاعـة، وإخلاص العبادة له ﴿وهو الـذي إليه تُحْشَرُونَ﴾ يقول: وربكم رب العالمين هو الذي إليه تُحْشَرُونَ فَتُجْمعونَ يوم القيامة، فيجازي كل عَاملٍ منكم بعمله وَتُـوَفَّى كلُّ نفس مـا كَسَبَتْ اهـ وقـولُـه تبارك وتعـالى: ﴿وهـو الـذي خلق السمٰوات والأرض بالحق ويـومَ يقولُ كُنْ فَيَكُونُ، قَوْلُـهُ الحقُّ، وله الملك يوم ينفَخُ في الصور، عـالمُ الغيب والشهادة، وهو الحكيمُ الخبير﴾ إثبـات وتأكيد على أن حشر العباد إلى الله تبـارك وتعالى يوم القيـامة حقٌّ لا ريب فيـه، فنبَّه بقـوله: ﴿وهـو الـذي خلق السمٰـوات والأرض بالحق﴾ على أنـه لا بـد من البعث والجزاء لأنه لـو لم يكن بعثٌ ولا جزاءٌ لكـان خلقُ السموات والأرض عبثـا ولعبا وبـاطلا وخـاليـا من الحكمة لأنـه لـو لم يكن جزاء ولا حسـاب لاستوى الصالحون والفجار وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما بـاطلا، ذٰلك ظَنُّ الـذين كفروا، فـويلٌ للذين كفـروا من النـار. أم نجعل الـذين آمنـوا وعملوا الصـالحات كـالمفسـدين في الأرض أم نجعل المتقين كـالفُجَّار﴾ أي إن يـوم الحساب كائن لا محالـة لأنه لـو لم يكن حساب ولا بعث لكـان خلق السموات والأرض وسـائر العوالم عبثـا ولعبا، لأنها تكون حينئذ إنما خلقت للفناء ولا يخطر هذا إلا ببال الجاحدين الأشقياء فهلاك ودمار في جهنم لهؤلاء الجاحدين المكـذبين بالبعث بعد الموت، إنه لو

لم يكن بعث ولا حساب لاستوى الصالح والمفسد، والتقى والفاجر، ولا يمكن لعاقل أن يسوى بينهما فشتان بين من يغضُّ طرفه إن بدت له جارته وبين من ينهب النساء للخنا والفجور، وشتان بين من يَمُدُّ يد المساعدة والإنفاق للفقراء والمساكين وبين من يَمُدُّ يده لنهب أموال اليتامى والمستضعفين، وليس كلُّ من يعمل شرا يعاقب عليه في الدنيا فقد لا يقع المجرم في قبضة من يقيم العدل عليه في الدنيا، إذ قد يرتكب جرمه دون أن يطلع عليه أحد من الناس فاقتضت حكمة الحكيم الخبير أن يقيم العدل بين عباده يوم القيامة وأن يجزي كل نفس بما كسبت، والكفار مقرون بأن الله هو الذي خلق السمٰوات والأرض فإذا لم يُقِرُّوا بالبعث والجزاء كان ذلك منهم إنكارًا لحقية خلق السمٰوات والأرض، ولذلك قيَّد هنا خلق السموات والأرض بقوله: ﴿بالحق﴾ كما أشار تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله عز وجل: ﴿ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض ربنا ما خلقتَ هٰذا باطلا سبحانك فَقِنَا عذابَ النار﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ويوم يقول كن فيكون، قوله الحق، وله المُلْكُ يومَ يُنفَخُ في الصُّور، عالمُ الغيب والشهادة، وهو الحكيم الخبير.﴾ مزيد تأكيد لحقية الحشر والنشر وأنه كائن لا محالة ببيان أنه سهل يسير على الله الذي إذا أراد شيئا إنما يقول له: كن فيكون، وهو تبارك وتعالى قد أخبر بأن البعث كائن، وقوله عز وجل حق لا مرية فيه ولا شك، وهو تبارك وتعالى مَلِكُ يوم الدين ومَالكُه، وأنه تعالى إذا أمر إسرافيل بالنفخ في الصور فنفخ فيه وَدَعَا العباد إلى ربهم خرجوا مسرعين إلى الداعي كأنهم جراد منتشر، قد أحياهم عالمُ الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن النفخ في الصور يكون مرتين مرة للإفناء ومرة للإنشاء أي نفخة للصعق ونفخة للبعث حيث يقول عز وجل: ﴿ونفخ في الصُّور فَصَعِقَ من في السمٰوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قِيَامٌ

ينظرون﴾ والصُّـور هو القرن والمراد به: بـوقٌ ينفخ فيه، قال الترمذي حـدثنا سُـوَيْـدُ بن نصر أخبرنا عبـد الله بن المبـارك أخبرنـا سليمانُ التيمي عن أسلم العجلي عن بِشْر بن شَغَـاف عن عبـد الله بن عمـرو بن العاص قـال: جـاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: مـا الصُّورُ؟ قال: قَرْنٌ يُنْفَخُ فيـه. قال أبو عيسى هذا حديث حسن، وقد روى غير واحد عن سليمان التيمي ولا نعرفه إلا من حديثه اهـ. والحمد لله رب العالمين.




فهرس
المجلد الرابع



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة